

رَوَايَاتُ تَلْمِیحِ الْإِسْلَامِ

فَتَاةُ غِسَاكُ

تَشْرَحُ حَالِ الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ ظَهْوَرِهِ إِلَى فَتُوحِ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ، مَعَ بَسْطِ عَادَاتِ الْعَرَبِ فِي آخِرِ جَاهِلِيَّتِهِمْ
وَأَوَّلِ إِسْلَامِهِمْ، وَوَصْفِ أَخْلَاقِهِمْ وَآزْيَائِهِمْ وَسَائِرِ أحوَالِهِمْ

تَأَلِيفُ
جُرْجِي زِيدَانِ

الدَّائِرَةُ الْمَوْجُوذَةُ فِي



شركة أبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية •

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ٠٠٩٦١ ١

بيروت - لبنان

• الدلائل الشعرية •

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ٠٠٩٦١ ١

بيروت - لبنان

• المطبوعات العصرية •

بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١

تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٠٠٩٦١ ٧

صيدا - لبنان

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناسر

لا يجوز نسخ أو تسجيل أو استعمال أي جزء من
هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية
أم تسجيلية دون إذن خطي من الناسر.

E. Mail

alassrya@terra.net.lb

alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

أبطال الرواية

- * جبلة بن الأيهم : من ملوك غسان .
- * الحارث بن أبي شمر : من ملوك غسان .
- * عبد الله : من أمراء العراق .
- * هند : ابنة جبلة .
- * ثعلبة : ابن الحارث .
- * حماد : ابن الأمير عبد الله .
- * سعدى : أم هند .
- * سلمان : خادم حماد .
- * خالد بن الوليد : قائد جيش المسلمين في العراق .
- * أبو عبيدة الجراح : قائد جيش المسلمين في الشام .

مراجع رواية فتاة غسان

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف
الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ الطبري - تاريخ أبي الفداء - تاريخ المقرئزي - تاريخ ابن
الأثير - تاريخ المسعودي - تاريخ العرب لنويل ديفرجه - تاريخ
الرومانيين - تاريخ الإنشقاق - تاريخ ابن خلدون - تاريخ الأنبياء -
تاريخ الواقدي .

* نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب .

* صموئيل شارب - اسحاق الكندي .

* دائرة المعارف البريطانية .

* الأغاني للأصفهاني .

* كتاب ياقوت .

* صناجة الطرب .

* عن المؤرخين : جون مري ، وملبطرن ، وسيريل ، ونوركهارت ،

وفوشيه ، ومريل ، ووادنتن .

* معجم الآثار الدينية .

* السيرة الحلبية .

* سيرة ابن هشام .

* أديان العرب .

* السيرة الشامية .

- ١ - ملوك غسان

بنو غسان عرب مسيحيون، كانوا عمالاً لقياصرة الرومان على الشام. وقد نشأوا في اليمن من بني قحطان، ثم هاجروا منها بعد سيل العرم. وهو سد كان إلى جوار مدينة مأرب باليمن، تهدم في القرن الثاني للميلاد وطغت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى، فنزح عنها أهلها التماساً للرزق، ونزل بعضهم بضواحي الشام قرب ماء اسمه غسان فنسبوا إليه واعتنقوا الديانة المسيحية، ويسميهـم مؤرخو المسلمين العرب المنتصرة، وقام منهم فتاة غسان. وأول من عرف منهم جفنة الذي عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسـله فحكم منهم سبعة وعشرون ملكاً آخرهم جبلة بن الأيهم. وفي أيامه ظهر الإسلام وفتحت الشام في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، وانقرضت دولتهم كما ستري، وبقي منهم الآن بقية في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص.

ومن العرب النصارى: ملوك الحيرة، ويقال لهم المناذرة (جمع المنذر)، أو الملوك اللخميون نسبة إلى لخم بن عدي، وهم من عرب اليمن نزحوا أيضاً بعد السيل وأقاموا بالعراق. وكانوا عمالاً للفرس هناك.

فـالغسانيون كانوا يقيمون بحوران والבלقاء وما جاورهما، وأمرأؤهم مستقلون بالحكم في كنف الامبراطورية الرومانية، فيمتازون عن ولاية الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية بشروط متفق عليها، ومنها إمداد الرومانيين بالجند عند الحاجة ولا سيما في حربهم مع الفرس.

وكان العالم قبيل الإسلام تتنازعه دولتان عظيمتان: الفرس في

الشرق، والرومان في الغرب. وكان النزاع لا يفتر بينهما، فيستعين أكاسرة الفرس بالمانذرة، ويستعين قياصرة الروم بالغساسنة. فتولدت بين القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الأبناء عن الآباء. وكثيراً ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى تكاد تبيد إحداها الأخرى. والنزاع بين الفرس والروم قديم، وكأنه طبيعي بين المشرق والمغرب، فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان، وكانت المدائن عاصمة الفرس بالعراق كما كانت القسطنطينية عاصمة الرومان، فقضوا أجيالاً متوالية بين حرب وصلاح.

وفي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، كان ملك الفرس هو كسرى برويز، وكان امبراطور الروم موريسوس، الذي يسميه العرب (موريقي) فقامت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت إلى خلع كسرى، فالتجأ إلى موريسوس فساعدته وأعادته إلى ملكه، وكان ذلك داعياً إلى الهدنة بين الدولتين.

وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسوس، وخلفه فوكاس (فوقا) قاتله، فرأى كسرى برويز المذكور أن يثار لموريسوس ولا سمياً أنه كان قد تزوج ابنته ماريا. فعد معاهدة الصلح المذكورة ملغاة، وحمل بجيشه على القسطنطينية، وظل يشدد الحصار عليها حتى ملّ أهلها فثاروا على امبراطورها وأرادوا خلعه، ثم دعوا هراكليوس (هرقل) ابن واليهم على القيروان فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وجلس على عرشه، وقام الفرس على الروم قومة واحدة شديدة، فكان كسرى محاصراً القسطنطينية بنفسه، وقائد من قواده يحاصر بيت المقدس، وآخر يحاصر الاسكندرية، والناس يفرون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأت السنة الخامسة

من حكم هرقل حتى استولى الفرس على مصر السفلى، فلاقوا من أهل مصر والشام ترحاباً وارتياحاً لارتباطهم بهم وبجندهم اللخمين برابطة الوطن الشرقي والعادات الشرقية، فلبثوا تحت حكمهم عشر سنوات، ثم شغل الفرس بإخاد عصيان بعض ولاياتهم وضعف أمرهم، فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده فأخرجهم من الشام ومصر، وأعاد المملكتين إلى حوزة الروم، ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاء المسلمون في أوائل الهجرة فاتحين وكان لا يزال في سوريا وحصونه متهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته مضعضة.

وكان بنو غسان يتبعون الحاكم الروماني المقيم بدمشق من قبل امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم بالقسطنطينية، فترد الأوامر الامبراطورية إلى حاكم دمشق وهو يبلغها إلى ملك غسان.

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمان بالبلقاء، وطوراً في تدمر، وأحياناً في الجولان، وأخرى في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد.

وكان على الغسانيين في الشام في السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م) ملكان في وقت واحد: أحدهما الحارث بن أبي شمر، والآخر جبلة بن الأيهم. وكان الحارث يقيم في بصرى، وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها «اسكي شام» أي الشام القديمة، وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزله أبو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الإسلامية حينما قدما الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الإسلامية بوضع وعشرين سنة.

وأما جبلة فهو ابن عم الحارث وكان يقيم بالبلقاء.

— ٢ —

هند فتاة غسان

كان لجبله بن الأيهم ابنة بارعة الجمال، عاقلة رزينة اسمها هند. ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل، فثبت مولعة بركوبها ومجارة الفرسان في حلبة السباق حتى ذاع صيتها في القبائل وأصبحت حديث القوم ومضرب أمثالهم قبل بلوغها العشرين من عمرها.

وكانت تقيم معظم أيامها «بصرح الغدير» وهو قصر بديع شاهق بناه ثعلبة بن عمرو أحد فتاة غسان في القرن الرابع للميلاد في أطراف حوران مما يلي البلقاء من حجارة ضخمة، وفيه غرف واسعة تحديق بها البساتين وتجري من تحتها الجداول معظم أيام السنة وبجوار القصر سهل واسع الأرجاء، خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من السنة، يشترك فيه أمهر فرسان البلقاء وحوران، وقد يقصده أهل البلاد الأخرى. وكانت هند تشترك في هذا السباق وكثيراً ما أحرزت قصب السبق، وكان أبوها يخلع على السابقين خلعاً يعدها قبل الشروع في السباق، فمن نال قصب السبق احتفلوا بإلباسه الخلعة في مساء اليوم نفسه احتفالاً يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح الفائز، وتحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق، فإذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من أنحاء الشام وحوران والבלقاء وغيرها يستبقون لإحراز تلك الجائزة.

ففي سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) أرسل جبله المنادين ينبئون الناس بسباق فصل الربيع من تلك السنة، وعين له الجائزة درعاً سليمانياً كاملة، وأمر بإعداد معدات الاحتفال بجوار صرح الغدير. حتى إذا دنا اليوم المضروب تقاطر الفرسان إلى تلك الساحة زرافات

ووجداناً بخيولهم وسياسهم، وفيهم جماعة كبيرة من الأمراء الغسانيين وغيرهم، بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبهاً بالروم.

وفي صباح يوم الموعد صفت الخيل إلى جانب السهل صفوفاً غير منتظمة ونصبت الخيام ليأوي إليها الفرسان أثناء السباق. وفي صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الأحمر، أرضه مكسوة بالبسط والسجاد، وعلقت الدرع على أعمدته ليراها الفرسان ويشتاقون إلى إحرازها.

فلما أشرقت الغزالة وأعدت الخيول شاعت أعين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وأبيها، فإذا بالأبواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء إلى القصر في اليوم السابق وبات فيه ليلته استعداداً لحضور السباق. فلما أنبىء الناس بخروجه وقفوا له، فمر بالحديقة ثم فتحت أبوابها فخرج مع حاشيته وعلى رأسه تاج مرصع تنعكس أشعة الشمس على جواهره فتبهر الأبصار، وكان طويل القامة أصهب (أي يخالط بياض وجهه حمرة) ذو سبال وعشنون، عليه إزار من الديباج المزركش يغطي أثوابه ويديه يجره وراه. فمشى والخدم تقود أفراسه وراه معقودة أذناها وعليها القلائد من الذهب والفضة، حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب، وساقوا خيله إلى مرابطها في خيمة أعدت لها، ووقف الحاجب بباب الفسطاط وراه جماعة من الحاشية بعضهم يحمل سيف جبلة، وآخر يحمل قوسه، ولم يكذ يستوي على سريريه حتى استأذن الشعراء في الدخول عليه فأذن لبعضهم فدخلوا وألقوا التحية وتربعوا على البساط في أرض الفسطاط. فلما رآهم جبلة تذكر حسان بن ثابت فقد كان يختلف إليه كثيراً ويمدحه فيصله بالهبات الوافرة فلما

اعتنق الإسلام أقام بالمدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم.

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تحفّ بها جواريتها وقد علم الناس خروجها برائحة طيبها قبل أن يروها، فمرت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها وأعين الفرسان شائعة نحوها وأكثرهم إنما يأتي السباق ليتمتع بنظرة منها. فمشت من باب الحديقة مشية صحة ورزانة. وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه قمحية اللون مشربة بالحمرة، سوداء العينين مع كحل، لا يكاد يصدق الناظر إليها أنها غير مكحلة بالأثمد. وكان شعرها أسود مضافاً قد أرسلت ضفائره خصلة واحدة على ظهرها وفي أطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى، وفي أذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجاً صغيراً مرصعاً وضعته مائلاً نحو اليمين. وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصميه دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي أصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد أرخت من كتفها رداء حريراً مخططاً بألوان بديعة يغطيها إلى الرسغ فلا يظهر من أثوابها إلا أسفل الحذاء. فتخلف بعض جواريتها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهن إلى الفسطاط وعيون الناس شاخصة إليها عن بعد وهي تنظر إليهم بطرف عينها حياء ورفعة حتى دخلت الفسطاط فرحّب والدها بها وأجلسها إلى جانبه فقد كان مولعاً بها حتى تسلطت على عقله ورأيه وكثيراً ما كان يستشيرها في أموره. ثم وقف الأتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهم خادمتها حيث مقعد جبلة وهند يشرفان منه على ساحة السباق ويريان المتسابقين في أول الشوط.

ثم سمعوا جلبة وقيل إن ثعبلة بن الحارث بن أبي شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيته فلما سمعت هند بقدمه علاها انقباض كاد

يظهر على وجهها. أما جبلة فنهض عن سريره إلى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان هذا شاباً قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأذنين ليس عليه من مهابة الملوك إلا ملابسه الفاخرة فقد كان لابساً قباء من الحرير مزركشاً يجره وراءه على عادة الرومان وسيفه أعقف مرصع يتدلى من حمائله إلى يساره وقد أوقف طرفي شاربيه أنفة وكبراً واعتداداً بأبيه.

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة على أن يعقد لهما لما بينهما من المكانة والنسب. على أن هذا لم يتجاوز حد الإشاعة، وكان ثعلبة كثير الاعتداد بنفسه وربما حدثته خيلاؤه أن يترفع عن هند لو خطب بشأنها. أما هي فكانت خالية الذهن من أمر الزواج ولم تكن معجبة بأخلاق ابن عمها ولا تميل إليه ولولا القرابة ما خاطبته ولا جالسته.

فلما وصل ثعلبة استقبله جبلة وعانقه ورحب به وأدخله الفسطاط وأجلسه على سرير بجانب سريره وأخذ يسأله عن أبيه وسبب تخلفه عن السباق.

فاعتذر عنه وقال: «إنه في شاغل حال بينه وبين ما يريد». ولم يكن جبلة يكرم ثعلبة إلا لمنزلة أبيه ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم. أما هند فسلمت على ثعلبة سلاماً عادياً وجلست تتشاغل بالتفرج على منظر الخيول المتزاحمة هناك.

أما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعيناه على هند لا هيأماً بها بل رغبة في أن يحظى بإعجابها وهي كلما التمس إعجابها زادته ازدراء. فلما أتم حديثه مع عمه التفت إليها فسألها عن عزمها على النزول إلى ساحة السباق فأجابت وهي تنظر إلى الميدان أنها لا تنوي النزول الآن ولكنها قد تفعل إذا رأت ما يشوق إلى ذلك.

فلما اقترب الضحى خرج بعض الأمراء الغسانيين وأخذوا يهيئون معدات السباق ويرتبونها فنصبوا جبلاً يقف الفرسان عنده عندما يهيمون بالسباق فيكونون صفّاً واحداً على استواء واحد، ثم أخذ أحدهم قصبة طويلة أعدت لذلك اليوم وسار بها إلى آخر الساحة فنصبها هناك فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعلم الحاضرون أنه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة أنه أحرز قصب السباق.

فلما تمت المعدات على هذه الصورة نودي في الفرسان أن يتهيأوا للسباق فركبوا جميعاً وجأؤوا واحداً واحداً يلقون بالتحية إلى ملكهم جبلة فإذا وصل أحدهم أمام الفسطاط ترجل ودخل فقبل يد جبلة ويد ثعلبة وخرج، وهند في أثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كأنها تتوقع رؤية فارس تعرفه وكانت تفعل ذلك في حذر. فوقع نظرها على أحدهم كان أحسنهم وجهاً في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسه وملامح وجهه أنه ليس من غسان. وكان ربع القامة أسود العينين حادهما لابساً قباء عربياً وعلى رأسه كوفية من الحرير المزركش وقد شد فوقها العقال. فحالما رآته بغتت وعلا وجهها شيء من الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب إلى جبلة فقبل يده وخرج ولم يلتفت إلى ثعلبة إما سهواً أو عمداً، فعظم ذلك على ثعلبة ونظر إلى هند فإذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من الفسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبه بلا داع غير ما فطر عليه من الحسد والكبرياء ولم يفه بكلمة.

ثم مرّ بقية الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا إلى الحبل فلم تكن تسمع إلا قرعة اللجم وصهيل الخيل ووقع حوافرها تفحص بها الأرض كأنها تلج في طلب السباق لتطلق لها الأعنة فتجري في ذلك السهل الواسع الأرجاء وفيها الأدهم

والأشقر والمحجل والمجنب والمحجب واليعسوب والكميت وغير ذلك من ضروب الخيل.

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثلعة يتساءلون لمن عسى يكون الفوز في ذلك اليوم. فلم يجب ثعلبة ولكنه اعتدل في مجلسه وأخذ يلاعب شارييه ولسان حاله يقول: «أنا هو السابق ولا أحد سواي». وكان كثيراً ما يحرز قصب السبق في مثل هذه الحلبات ولكنه قلما أحرزه عن استحقاق لأن المتسابقين كانوا إذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن أنه إنما سبق بمهارته وسرعة فرسه. فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة: «ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل إني أراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي».

فخفق قلب هند عند ذكره، أما ثعلبة فهز رأسه مستهزئاً. وقال هذا غلام غري يدعي الفروسية وهو براء منه، ولولا المصادفة العمياء لما استطاع نيل الجائزة. ولو كنت في مقام ملك البلقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي لما أذنت بأن يكون بين فرسانه غريب لا نعرف أصله ولا يليق بنا أن ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لأنه لا يعرف مقام الملوك. فأدركت هند أن ثعلبة ينطق عن غيرة لأنه لا يطيق أن يمدح أحد في مجلسه.

أما جبلة فرأى في كلامه انتقاداً ولكنه حمله على محمل الاجلال لمقامه مدفوعاً بحدة الشباب وقلة اختبارهم، فأجابه بلطف: «وما يمنع غريباً أن يدخل علينا ونحن بنو غسان مضرب المثل بحسن وفادتنا وإكرامنا للغريب». فخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً: «على أنني أستغرب أمر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيراً ما شاهدته خارجاً للصيد مع حاشيته كأنه من أبناء

الأمراء فمن أي القبائل هو فأني أراه مبالغاً في إخفاء أمره، وقد سألت عنه بعض أمرائنا غير مرة فلم ينبئوني شيئاً عن أصله ولا يعلم أحد سر مقامه بيننا ولكنني سمعتهم ينادونه حماداً».

فظن ثعلبة أن الفرصة مواتية للنيل منه فقال: «وهذا مما يحقره في عيني يا عماه فإنه لا يبعد أن يكون جاسوساً مرسلأً من ملوك الحيرة فهم لا يزالون على مناواتنا لا يريدون بنا خيراً، ولا سيما بعدما نالهم ونال أسيادهم الفرس من حملات جنودنا وجنود الروم هذين العامين».

فأغضى جبلة عن الجواب. ثم جاءه مخبر أن الخيل استعدت فكيف يرى الملك أن يكون سباقها. قال: «ينقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق أفرد جانباً حتى لا يبقى أحد لم يجر في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعاً فمن أحرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة. فعاد المخبر وأبلغ الأمراء المنوط بهم السباق فقسموا الخيالة خمسات فجرت أول خمسة منهم حتى توارت عن النظر لأن مجال السباق يزيد على الميلىن فعاد واحد يحمل القصة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري أعد لمثل ذلك فأسرع وغرسها مكانها وأجلسوا السابق إلى جانب. وهكذا تسابق كل خمسة على حدة.

أما هند فكانت عيناها شائعتين على «حماد» فلما جاء دوره تبعته ببصرها حتى توارى ورفاقه ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصة في قبضته فأفرد مع السابقين. فقال جبلة لثعلبة: «أرى الرجل قد سبق». فأجاب والحسد ملء صدره: «أبعد من يسبق هؤلاء الخمسة سابقاً تمهل لنرى سباقه مع السابقين؟». فالتفت هند وقالت برزانة وهدوء كمن لا يهمه سبق حماد أو لم يسبق: «وما يمنع أن يكون سابقاً لهم

جميعاً؟. كيف نحكم عليه ونحن لا نعلم شيئاً من ضعفه أو قوته .
نعم يسوؤنا أن يكون السابق غريباً ولكن ما الحيلة إذا سبق، أنقبل
هذا العار على بني غسان . . ؟» .

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة واتقدت الغيرة في
صدره فتبسم كأنه يستخف بقولها وقال : «لا يكون له مسابق سواي
ولأعلمنه الفروسية منذ هذا اليوم!» . قال ذلك وملامح الغدر وسوء
القصد ظاهرة على وجهه، فخافت أن يكون قد نوى بالرجل سوءاً،
فلا يزيده دفاعها إلا غضباً وحقداً، فسكتت .

وعند الظهيرة أو نحوها انقضت الأشواط الأولى فاجتمع
عشرون سابقاً فأمر جيلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل .
وكانوا قد أعدوا الأسبطة في صرح الغدير وذبحوا الذبائح
فجاءت الأخوة يحملها الرجال إلى الخيام على كل خوان منها جفنت
وفيها الألوان العربية والرومية وبعض الخمور .

وأمر جيلة أن يجلس الفرسان الفائزون معه على خوانه . وكان
خوانه من ذهب خالص وجفانه من فضة فجاؤوا ومعهم «حماد» فلما
وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله ناقداً وحماد لا يلتفت إليه، فجلسوا
على الأبسط حول السماط ركعاً على ركبة واحدة، وأخذوا في
الأكل . وأراد جيلة أن يقف في خدمتهم على عادة كرم العرب مع
ضيوفهم فاستحلفوه ألا يفعل أو يكفوا عن الطعام فأطاع وجلس
معهم، وإلى يمينه ابنته هند، وإلى يساره ابن عمه ثعلبة . ولما أتموا
الطعام وتناولوا الحلوى وبعض الخمر أنشد بعض الشعراء قصائد في
ذكر كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم . فأطرق جيلة خجلاً فقد كان
يستنكف أن يسمع مدحه بأذنه، فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض
أحدهم وقال مهما نبالغ في مدح فتاة غسان فلن نأتي بشيء مما قاله

حسان بن ثابت وأنشد:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شَم الأنوف من الطراز الأول
يسقون من وريد البريص ضيوفهم كأساً تصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما نهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
فأمر جبلة حاجبه فأعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة
أقمصة.

وكانت الشمس قد دنت من الأصيل واستراحت الخيل
واستراح فرسانها.

فنودي في الناس أن هيا إلى السباق وكان حديث القوم: «من
يا ترى ينال قصب السبق من هؤلاء العشرين». وكان حماد أقلهم
كلاماً وأكثرهم تأملاً في نفسه شيئاً يكتمه. وقضت هند ساعة الغداء
وما بعدها تنظر إلى وجهه خلصة فأنست فيه جمالاً وكمالاً ورزانة
ودعة. وكان ثعلبة يرقب نظراتها وينظر إلى حماد ازدراء وكان حديثه
مقصوراً على الإطناب فيما فعله وأبوه، وبما مرّ به هو من الوقائع
الغريبة كقوله أنه ذهب للصيد فلقى أسد فلم يفر منه بل هجم وضربه
بسيفه فقتله، إلى مثل هذا من الأحاديث الملفقة. وكان الحضور
يصغون إلى حديثه ويؤمنون إجلالاً لمقام والده وأكثرهم لا يصدقونه
وهو يسرد الحكاية وينظر إلى هند يلتبس إعجابها أو استغرابها وهي لا
تكثر. وكذلك كان شأن حماد فلم يكن يأبه له أو يعيره التفاتاً لأنه
كان صديقاً يأنف من الكذب.

فلما نودي إلى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة:
«أرى أن ينقسموا إلى أربعة أقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط

فمن سبق أفرد ثم يتسابق السابقون وهم أربعة فمن سبق فله الجائزة». ففسابقوا خمساً فأفرد أربعة وحماد منهم.

كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولم ينزل للسباق أنفة واستكباراً وهو يرجو ألا يكون حماد من السابقين فلما رآه بينهم أوجس خيفة وفزع بأمله إلى أن سيسبقه زملاؤه المتسابقون فيأمن عقبى الفشل.

واصطف الأربعة بإزاء الحبل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط. فاعتدل الفرسان على صهوات أفراسهم ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون إليهم وقلوبهم تتحقق في انتظار عاقبة ذلك السباق فأطلق الفرسان أعنة خيولهم والناس يتبعونهم بأنظارهم. وكان جواد حماد متأخراً فسرّ ثعلبة ظناً أنه فشل. ولكن هنداً علمت أن تأخره لم يكن إلا ضرباً من الفروسية فلما تواروا عن أبصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فإذا بحماد قد عاد يحمل القصبة حتى إذا دنا من خيمة جبلة سلمها إلى هند. فصاح الناس مهللين فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبّل جواده بين عينيه. وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء فيه صبغ أحمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس إشارة إلى سبقه فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال تمهل إن السبق لم يتم بعد. فدهش حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة: «وعدنا ابن عمنا ثعلبة أن ينازل السابق». فلم يجب حماد بل عاد إلى صهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة فجيء إليه بفرسه وكان من جياذ الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يتميز غيظاً. وكانت هند فرحة بفوز حماد فشق عليها منزلة ابن عمها له ولكنها عللت نفسها بفشل الباغي وهي تزدد تعجباً بما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد وليس بينهما ما يقتضي ذلك وكبير النفس لا يتصور الدنيا. ثم أمر

جبله فنودي في الناس أن السباق الآن بين حماد والأمير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط . وكان بعض الذين فاز حماد عليهم يودون أن يكون ثعلبة السابق ، وبعضهم يتمنونه لحماذ ليكون لهم أسوة بآبن الحارث صاحب بصرى .

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها أن جواد حماد قد تعب ، وجواد ثعلبة لا يزال نشطاً فلم يمرض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه ثعلبة يسوق جواده إلى الفسطاط وابتدر عمه قائلاً : «لم يسبقني هو بل فرسه فإنه من خيل الجن أو هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ، ولو ركبته أنا ما استطاع أحد سبقي ، فلما سمعه حماد نزل عن جواده وقال له : «إليك جوادي فاركه واعطني جوادك» . وكانت هند تنظر إليهما فخافت أن تنقلب العائدة على حماد وقد شعرت بأن حبه تمكن من قلبها في تلك الساعات القليلة بما لا يتأتى في أعوام .

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه جواده ، فلما تنحى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا إلى ساحة السباق حتى تواليا عن الأبصار ، فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير ، وكانت الشمس قد مالت نحو المغرب فأرسلت بقية أشعتها الأرجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والأودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جأش النهار .

فلما أبطأ الفارسان شاعت أبصار الناس إلى حلبة السباق ، وملّوا الانتظار حتى همَّ بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخير ، وكثر الهرج والمرج ، وكان أكثر الناس قلقاً هند فقد خات غدر ثعلبة ، ثم ما لبثت أن شاهدت الغبار وبان من وراءه فارسان هما

حماد وثعلبة والقصة في يد حماد فما صدقت عينيها وقد كاد قلبها يطير من الفرح، أما أبوها فشق عليه أن يكون السابق رجلاً غريباً يفوز عليهم جميعاً، ولكنه رحب به. فترجل الفارسان ودخلا الخيمة، فأراد حماد أن يعتذر عن ثعلبة فقال: «والله إني لم أسبق الأمير ثعلبة إلا بقضاء وقدر، لأنه فارس مبرز يحق لغسان أن تفتخر به ولو كان قد اعتاد ركوب جوادي لسبقني». فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم أعطى حماد القصة إلى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فإذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فأرادت السؤال عن السبب فنظر حماد إليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي، فسكتت وفي نفسها أن تعرف سبب بريها.

ثم تقدم حامل الصبغ الأحمر فخضب به صدر جواد حماد، وكان الظلام قد أسدل نقابه أو كاد فأمر جيلة أن يحتفلوا باللباس الدرع في باحة القصر فأنيرت المشاعل، وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سياسها بقرب الخيام، ودخلوا الحديقة وفيها الأزهار والرياحين، فززلوا في بقعة واسعة أعدت لمثل ذلك الاحتفال ضرب فيها سرادق كبير وفُرشت أرضه بالسبط، فعلقوا الشموع في جدرانها، وجلس جيلة في صدره على وسادة من الحرير الموشى وجلست ابنته إلى جانبه وثعلبة إلى الجانب الآخر وأجلسوا الشاب على مرتفع ليراه الجميع، ثم أخذت الجواري ينشدن أناشيد التهنئة وجاء بعض رجال جيلة يحمل الدرع ثم وقفت هند وأمارات السرور ظاهرة على وجهها فمشيت إلى مقعد حماد فوقف لها وركبته ترتعشان إذ رآها قادمة لتلبسه الدرع، فنزع عن رأسه الكوفية والعقال فبانت ملامح وجهه جيداً فازدادت هياماً به ولكنها استغربت فيه أمراً استغربه كل من شهد الاحتفال ذلك أن حماداً لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلاً حتى غطى ظهره فلم يفهموا معنى إرسال شعره على هذه الصورة.

فتناولت هند الخوذة أولاً فوضعتها على رأسه ثم تناولت بقية أجزاء الدرع فألبسته إياها والشعراء ينشدون والجواري يرتلن، وكلهم فرحون إلا ثعلبة فإنه لبث صامتاً مقطب الوجه ولا سيما لما رأى ابنة عمه تلبس تلك الدرع لحماذ بيديها وهي فرحة بفوزه. أما هي فانتهزت فرصة انشغال الناس بالتفرج وهمست في إذن حماد قائلة: «نلتقي غداً في دير بحيرا».

فلما تم إلباس الدرع عادت هند إلى مجلسها والناس وقوف، وبعد قليل جاءت الأسمطة ومدت الموائد وجلس الناس للطعام. وبعد انتهاء العشاء تفرقوا فذهب كل إلى سبيله وهم يتحدثون بسباق ذلك اليوم وما كان من حماد. وبقي ثعلبة عند عمه وقد أعمل فكره في مخرج ينجيه مما وقع فيه من الفشل.

أما هند فتظاهرت بالتعب واستأذنت في الذهاب إلى غرفتها. ولما بقي جيلة وثعلبة على انفراد، قال ثعلبة: «لم يسؤني أن سبق الرجل وإنما ساءني أن يأخذ الجائزة غريب لا يعرف له نسب ويحرم منها أمراء غسان وفرسانهم».

فقال جيلة: «أما أنا فلم يسؤني أنه نال الجائزة فقد ينالها سواء في سباق آخر، وإنما أعجب لتستره وقد فاتني أن أسأله عن نسبه وسأرسل إليه وأسأله في ذلك».

فقال ثعلبة: «لا بد من معرفة حقيقته فقد يكون جاسوساً أو عينا أرسله اللخميون ملوك الحيرة».

فقال جيلة: «ولكن ملك العراق قد خرج من أيدي اللخميين بعد مقتل النعمان بن المنذر وولاية أياس بن قبيصة من قبيلة طي. هذا إلى أنه لا يظهر في هيئة هذا الشاب وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو أقرب إلى أولاد الأمراء منه إلى السوق، فإذا كان من الحيرة فهو

من أمرائهم لأن الهيبة ظاهرة في وجهه». فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد إلى الروغان فقال: «هل يؤخذ الناس بمظاهرهم؟ كم من رجل تظنه ملاكاً فإذا خبرته أخلف ظنك».

قال: «سننظر في ذلك غدا». ثم ذهب كل منهما إلى فراشه.

— ٣ —

غدر ثعلبة

دخلت هند القصر، وذهبت تَوّاً إلى أمها وكانت شديدة الولع بها لأنها كانت الوحيدة الباقية من أولاد كثيرين، فقبلتها وصعدت بها إلى الطابق العلوي وأمرت الخدم فأعدّوا لها الفراش، ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فزعت حليها وألبستها جلباباً واسعاً من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصل شعرها وجردت ما في صفائرها وما على صدرها وما في أذنيها ومعصمها وقدميها من الحلّى وكان سريرها من خشب الأرز من أجمل ما صنع الصانعون. وعليه الوسائد الحريرية الملونة، غطاؤها من أبداع أنواع النسيج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشمعة فيها بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر. فقد كان من ضروب البذخ عندهم أن يمزجوا الشمع بشيء من الأطياب فإذا أنير تصاعدت عند إحراقه رائحة الطيب. وكان في جدران الغرفة صور جميلة أكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده كلها متقنة التصوير ملونة بألوان طبيعية، وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلاً جعلها كالزجاج تعكس النور والأشباح كمرآة هذه الأيام لأنهم لم يكونوا قد عرفوا المرآة الزجاجية بعد.

فبعد أن لبست هند جلبابها وقفت أمام المرآة فأصلحت شعرها وثوبها، ثم جلست على السرير ولم تنبس بينت شفة، وجلست أمها

على وسادة تعجب بجمال ابتها وبقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والتعقل، وفي نفسها شيء تريد أن تبديه، وهند غارقة في بحار الأفكار يمر في ذهنها ما رأت ذلك النهار من الغرائب، وكلما تذكرت حماداً وسبقه ثعلبة وما أظهره هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية ثم عودته فاشلاً، ازدادت احتقاراً له ونفوراً منه، وحباً لحمداد، ولكنها كانت إلى هذا شديدة الحرص على منزلة أبيها وشرف قبيلتها، فتخشى أن يعلق قلبها بحمداد ويكون من أصل دنيء فيحول ذلك دون رضاء أبيها وعشيرتها فتشقى. فكانت كلما تصورت ذلك اقشعر جسمها فتعلل نفسها بأن من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الأخلاق، مع ما يتجلى في وجهه من الهيبة لا يمكن أن يكون دنيء الأصل وتعد نفسها أن تكشف حقيقة حاله عندما يلتقيان في دير بحيراء.

وكانت أمها (واسمها سعدى) في الخامسة والأربعين من عمرها، لا يزال الجمال ظاهراً في وجهها، فقد كانت من أجمل بنات غسان وكثيراً ما تغزل بها شعراؤهم فلما تزوجها جيلة حسده كل أهل عشيرته عليها.

جلست هند على السرير بجلبابها وقد أرخت شعرها وحسرت عن زندين مستديرين ممتلئين مشرقين يزينهما الوشم. على صورة الصليب وعليه السيد المسيح وصورة مريم العذراء تحمل طفلها، وكأنها المعنية بقول الشاعر:

نالت على يدها ما لم تنله يدي نقشاً على معصم أو هت به جلدي
كأنه طرق نمل في أناملها أو روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها فألبست زندها درعاً من الزرد
واتكأت على وسادة من ريش النعام أهدها إليها امرأة حاكم

دمشق، وألقت رأسها على كفها التماساً للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهار، ولبثت صامته لا تتكلم وأفكارها تائهة فتذكرت القصبة المبرية التي أعطها حماد إياها عند سبقه، وتذكرت ما بدا على وجه ثعلبة من دلائل السوء والحقد مما جعلها ترتاب في أمره وتود أن تسأل في ذلك، فمنعها حماد. وأخيراً، بدأت أمها الحديث: «لماذا لم تنزلي حلبة السباق يا هند؟».

قالت: «لم أرَ مسوغاً، لأن الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدل بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي».

قالت: «وما الذي دعا إلى هذا الجدل؟».

قالت: «بعد أن تم السباق أراد ثعلبة مسابقة السابق ففشل فزادنا خجلاً».

فتبسمت سعدى تبسماً خفياً وقالت: «رأيت الفرسان كثيرين فمن الذي فاز بقصب السبق؟».

قالت وقد أبرقت أسرتها: «ناله شاب غريب اسمه حماد لا يعرف أحد نسبه، فشق ذلك على أبي وعلى ابن عمي، إذ لا يليق أن يكون السباق في حمانا ويفوز بقصب السبق غريب».

قالت: «ومن يكون الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار».

قالت: «ثعلبة ابن عمي وحماد».

قالت: «رأيتهما مرتين».

قالت: «تسابقا في أول شوط فسبق حماد، ولكن ثعلبة أنكر عليه ذلك ونسب السبق إلى الفرس فتنازل له حماد عن فرسه وركب هو فرس ثعلبة. ويا ليتنا بقينا على العار الأول لأن ثعلبة عاد نخذولاً

هذه المرة أيضاً. وما استغربته أن حماداً جاء بالقصة مبتورة كأنها ضربت بسيف».

فضحكت سعدى وقالت: «ألم يخبركم كيف بريت؟». قالت: «لا، وقد هممت بالسؤال فرأيت حماداً يريد التكتّم فكففت».

فقالت: «بورك فيه، إنه حقاً شهم على خُلُق عظيم، ولا ريب أنه رفيع النسب».

فطربت هند لامتداح أمها حماداً وقالت: «ما معنى ذلك يا أماه؟ هل تعلمين من أمر هذه القصة شيئاً؟».

فهمست قائلة: «نعم. اعلمي يا هند أن القصة قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة». فبغتت هند واشتأقت إلى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت: «كيف وقع ذلك؟».

قالت: «إن ابن عمك كان عازماً على الفتك بذلك الشاب، ووالله لو فعل لألبسنا عاراً لا تمحوه الأيام».

فازدادت هند استغراباً وقالت لها: «وما أدراك بذلك يا أماه؟».

قالت: «رأيتهما رأي العين».

فقالت: «وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن أقرب إليهما منك ولم نرهما».

قالت: «تمهلي لأقص عليك الخبر». فأصغت هند بكل جوارحها، فنهضت سعدى إلى الباب فأغلقتة وجلست تقص عليها الخبر وتحاذر أن يسمعها أحد فقالت: «لما خرجتم جميعاً إلى الخيام وخرج أكثر من في القصر وراءكم، بقيت أنا وسليمة المولدة وبعض الخدم، وكنا نرى المتسابقين يبدأون بالشوط ولكننا لا نرى آخره

فخرجنا وفي نفسي أن أرى حلبة السباق وكيف يقتلع السباق القصة فإنه منظر يفرح القلب إذ ليس ألد من النصر، فخرجنا من باب الحديقة الخارجي إلى البساتين المجاورة على ضفة الغدير لا يرانا أحد، حتى وصلنا إلى مكان تحت شجرة أشرفنا منه على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرى ولا نرى. فلما كان الشوط الأخير رأيت ابن عمك متأخراً عن حماد لا لتعب جواده فإننا كنا نرى الجواد يريد أن يطلق له العنان فيمسكه هو كأنه خاف أن يقع عن ظهره، وإلا ذلك لكان السباق فالسبق في الميدان للأفراس إذا أحسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها فخوف ثعلبة أكثر عاراً عليه من تأخره عنه. أما حماد فأطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الأم رضيعها حتى وصل إلى القصة. وفيما هو يقتلعها رأينا ثعلبة وقد هجم واستل سيفه وهم بقتله. فتلقى حماد السيف بالقصة فقطعت ثم رأينا حماداً وقد اقتلع ثعلبة عن صهوة جواده ورماه أرضاً وجثا على صدره فحفنا أن يقتله، وسمعنا ثعلبة يستجير به ويستعطفه فنهض عنه وصافحه وعفا عنه وعادا.

فما أتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند إعجاباً بشهامة حماد، وازدادت احتقاراً لثعلبة وقالت لأمها: «أهذا هو ثعلبة بن الحارث..؟ أيليق بغسان أن يكون ابن ملكها خسيساً إلى هذا الحد..؟ أيليق به أن يغدر بشاب في ريعان الشباب لا ذنب له إلا أنه سبقه؟. هذا إلى أنه نزيل بلادنا وله علينا حق الجوار!».

فرأت أمها أنها على حق، ولكنها لم تشأ أن تمكن البغض في قلبها لابن عمها، فثعلبة أرفع بني غسان مقاماً وليس هناك أكفأ منه زوجاً لهند، ولعل جبلة يرغب في ذلك فإذا نفرت منه كان نفورها سبباً لتغيب عيش ابنتها فقالت لها: «لا بد لنا من تأنيبه ولومه حتى

يرعوي ويتخلق بأخلاق مَنْ كان في مقامه ونسبه».

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكن لترى ما يكون من أمر حماد في الغد، وهي تعلم أن ذهابها إلى الدير لا يتيسر بغير أمها فإذا لحظت هذه اجتماعها بحماد وسألتها عنه. فبماذا تجيب، وأمها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة، وفكرت في الأمر فرأت ألا بد لها من عون أمها، وقد سرها أن سمعتها تنصفه وتثني على شهامته ولكنها رأت أن تجتمع به وحدها أولاً لتعرف منه حقيقة حاله وتستطلع أفكاره ثم تطلع أمها على الأمر بالأسلوب الذي تختاره.

فقالت لها: «لقد نذرت نذراً لدير بحيراء لم أف به بعد، ومضت عليه مدة طويلة ويلوح لي أن ما رأيناه في هذا النهار من نكد إنما كان لتأخرنا عن الوفاء بالنذر».

قالت: «لعله كذلك، فإن لهذا الدير كرامات كثيرة ولا يغتفر تأجيل النذور فأسرعي إلى الوفاء». قالت: «أرى أن أذهب إليه غداً إن شاء الله».

قالت: «ولكنني لا أستطيع الذهاب معك غداً لأنني ذاهبة مع أبيك إلى اللقاء فإذا أجلت الأمر بضعة أيام نذهب معاً».

فسرّت هند لهذا الحل الذي جاء عفواً فقالت: «لا أراني أستطيع التأجيل ولا أرى ما يدعو إلى ذهابك معي فقد أصطحب بعض الخدم متنكرة وأقضي نهاري هناك ثم أعود».

قالت: «افعلي ما بدا لك»، وذهب كل إلى فراشه، أما هند فلم يغمض لها جفن من التفكير فيما مرّ بها، وفيما تقوله لحما إذا اجتمعت به في الغد.

— ٤ — حماد وأبوه

كان حماد قد عاد من صرح الغدير تلك الليلة يتعثر بأذياله
لانشغال باله بهند وبما لا يزال يرنّ في أذنيه من قولها: «سنتقي غداً
في دير بحيراء».

فلما خرج من الصرح لقيه خادمه بقرب الخيام ومعه الفرس،
فنزح الدرع عنه ثم ركب وسار يطلب منزله، وكان مقيماً في قرية
يُقال لها «غسام» على ستة أميال غربي مدينة بصرى، ولم يكن قد أتى
الشام منذ بضعة أشهر، وقد جاءها لأمر لا يعلمه إلا واحد. فأقام
بمنزله هذا يقضي بعض نهاره فيه، وبعضه في الصيد يصحبه أبوه
وبعض الخدم، فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء ويعودون وقد
جاؤوا بصيد كثير من الغزلان وما إليها.

وكان قد تمرّس بركوب الخيل منذ صباه، كما كان جواده من
أحسن الجياد العربية. وكان قد سمع بهند وقرأ شعراً في وصفها قبل
خروجه من بلاده فعلق بها سماعاً. ثم دعاه أبوه إلى أن يصبحه إلى
الشام فأسرّ في نفسه أن يسعى في التقرب منها لظنه أنه دونها مقاماً.
فأخذ يتردد على صرح الغدير زاكباً أو ماشياً يعلل نفسه برؤيتها.
وكان ينزل الغدير أحياناً فتراه ويراهها وهي لا تفقه مراده فإذا سمع
باحتيال تشهده هند هرع إليه عساه أن يلفت نظرها، فكانت إذا رآته
ارتاحت لرؤيته وهيبته وورزانه. فلما كان السباق الأخير أظهر من
الفروسية والشهامة وكرم الأخلاق ما زادها ارتياحاً لمشاهدته، واتفق
أن نزلت السباق يوماً فتخاطبا وتبادلا نظرات الحب فنزل من قلبها
منزلاً رفيعاً وصارت تشعر بشوق إلى رؤيته إذا غاب، على أن ميلها
هذا لم يكن يتجاوز حد الارتياح ولم يدر بخلدها أمر الزواج، على أنها

فهمت أنه متيم بها ولم تكن قد ذقت طعم الهوى على أنها آنست في حماد أخلاقاً تتفق وأخلاقها. فلما شاهدت في السباق شهامته وبراعته رأت في نفسها ميلاً شديداً إليه وهذا أول مرة خطر في بالها أمر الاقتران به وشجعها ما آنست من ارتياح أمها له، وامتداحها شهامته والثناء على مروءته، ولكن أمراً واحداً كان يعترضها فيوقفها عن عزمها وهو تستر حماد، وجهلها نسبه. فخافت ألا يكون ذا حسب ترتضيه، أو أن يكون على مذهب غير مذهبها، فإن العرب كانوا إذ ذاك على مذاهب شتى، فيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس. وظهر أثناء ذلك الإسلام لكنه لم يكن قد أدرك الشام بعد. وكانت الوثنية والمجوسية واليهودية محصورة في جزيرة العرب: المجوسية في بني تميم، واليهودية في نمر وبني كنانة وكندة وغيرهم، وكان كثير من اليهود في يثرب، كخبيز والأوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ولم يكن هؤلاء عرباً بل حلفاء للعرب. وكان عرب الجزيرة يأتون الشام وبصرى للتجارة وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني، فيمكثون في مصر أو دمشق أو غيرها بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ثم يعودون. فخافت هند أن يكون حماد وثنياً أو مجوسياً فيمتنع الزواج بينهما، وأرادت أن تلتقه في الدير لتتحرى ذلك كله.

ومضى حماد بعد خروجه من القصر يحث جواده وخادمه يجري بجانبه وهو يريد أن يدرك منزله قبل أن يقلق أبوه لغيابه، وكان قد فارقه فجر ذلك اليوم ولم يعد.

وبينما هو في ذلك سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه، ثم سمع صوت أبيه يناديه: (حماد) فقال: «نعم يا أبي. هل خرجت للبحث عني؟».

قال: «كيف لا وقد أبطأت وقد مضى هزيع من الليل ونحن كما تعلم في ديار الغربة».

فسكت حماد وسارا معاً على فرسيهما حتى مرا ببساتين القرية بين أشجارها والناس نيام، فوصلا إلى المنزل في أطرافها فدخلاه وقد أنيرت غرفه بالمصابيح، فأسرع حماد إلى غرفته فجاؤوه بالماء والثياب فغسل وجهه ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ على وسادة وأبوه إلى جانبه وكان أبوه - واسمه عبد الله - أميراً من أمراء العراق اللخميين ذوي اليسار، بلغ الخامسة والأربعين من عمره، وقد قضى أكثرها في الأسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب والأيام وعلمته، وقد انقطع في ذلك العام إلى حماد لقضاء مهمة جاء من أجلها إلى بلاد الشام.

فلما جلسا قال عبد الله: «ما الذي أعاق عودتك يا ولدي؟».

قال: «ألم أقل لك أمس أنني ذاهب إلى صرح الغدير للإشتراك في السباق».

قال: «بلى فهل طال مقامكم في السباق حتى الآن، وهل كان المتسابقون كثيرين؟».

قال: «نعم يا أبتاه إن السباق لم ينته إلا بعد الغروب ثم احتفلوا بالباس السابق درع جيلة. أما المتسابقون فكانوا كثيرين وفيهم جماعة من أمراء غسان في مقدمتهم ثعلبة بن الحارث صاحب بصرى».

فقال: «ومن كان الفائز؟».

قال: «ابنك حماد».

فبغت وقال: «أنت؟ مرحى مرحى، هكذا تكون الفروسية، لقد سبقت أمراء غسان وأنت غريب بينهم، فهل لبست الدرع وأين

هي؟».

قال: «نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد نزاع، ولكنني شهدت من كرم أخلاق جبلة ورجاله ما حقق لنا ما نسمعه عن حسن وفادة الغسانيين. أما الدرع فهي معي».

فقال عبد الله: «وهل نزلت فتاة غسان إلى الميدان هذه المرة، فقد أخبرتني بالأمس وسمعت من كثيرين أنها تحسن الفروسية وكثيراً ما تنزل إلى الميدان لمسابقة الفرسان».

فلما ذكرت هند خفق قلب حماد وظهرت عليه البغته ولبث برهة يفكر، فأدرك عبد الله حيرته وقال: «ما بالك لا تجيب يا ولدي؟».

فانتبه حماد وخجل مما ظهر عليه، فقال: «لم أفهم مرادك».

قال: «سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة؟».

قال: «لا يا أبتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وختمت حفلته بإلباس الدرع للسابق»، قال ذلك وأمارات السرور والهيام ظاهرة على وجهه.

فلاحظ عبد الله أن حماداً على غير ما عهده، فأراد سبر غوره فقال: «وكيف رأيت فتاة غسان، هل هي كما نسمع عنها من الجمال واللطف؟».

فأبرقت أسرة حماد، وطفق يصف جمالها ولطفها وصفاً يدل على تعلقه بها، فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبه يخفق، وكثيراً ما كانت تخونه الألفاظ في التعبير عن أوصافها.

فخاف عبد الله على حماد أن يكون قد شغف بها، فأطرق

وظهرت عليه دلائل القلق، فأتم حماد كلامه وعبد الله مطرق كأن أمراً ذا بال اعترضه .

فنظر حماد إليه وقد عجب لحاله وما طراً عليه من التغيير بغتة وقال له : «ما بالك يا أبتاه هل ساءك من أمري شيء؟» .

قال : «لا يا ولدي ولكنني أفكر في هذه الفتاة وما خصها الله به من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات الملوك» .

فسرّ حماد لهذا الإطراء، ولكنه خاف التصريح بأكثر من ذلك لئلا ينكر عليه أبوه طموحه إلى الظفر بإحدى بنات الملوك، فسكت .

وأراد عبد الله أن يعلم هل هند تبادل حماداً الحب فقال : «أرى هنداً قد وقعت من قلبك موقعاً عظيماً، فهل تعلم هي بما تكنه لها؟» .

فقال : «لا أعلم منزلتي عندها، ولكنني لم أرَ منها نفوراً» .

فقال : «قد تكون واهماً فحسبت لطيف حديثها حباً أو ميلاً» .

قال : «لا أظن أن قلبي يخونني، وقد دلتني بعض القرائن على أنها تحبني» .

فقال : «وكيف تحبك وأنت غريب لم تتسب، وبينك وبينها حجاب من منزلتها الرفيعة؟» .

قال : «أعلم أنها تحبني...» وسكت .

فقال عبد الله : «أفصح يا ولدي ولا تحف عليّ شيئاً فأنت تعلم أنني زهدت في العالم كله لأجلك، فاشرح هواك ولا تحف فإن ما يسرك يسرني» .

فقال : «قلت لك أنها تحبني» .

قال: «إذن أنت طامع في الزواج منها؟»

قال: «لا أدري، وكل شيء بقضاء وقدر».

فتحقق عبد الله وقوع حماد في غرام هند، فبغت وصمت وجعل يتلهى بنتف عشونه وقد أهمه الأمر كثيراً.

فلما رأى حماد ذلك ظن أنه استعظم عليه أن يطمع في مصاهرة ملك غسان فقال له: «ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر مني؟».

فابتدريه عبد الله قائلاً: «لا يا ولدي لم يسؤني ذلك ولكنني أفكر في أمر عظيم يهمني كما يهكم وقد قطعنا الصحارى والقفار من أجله وأراك وقد شغلت عنه بأمر آخر».

قال: «وما تعني بالأمر العظيم وما الذي شغلني عنه، لم أفهم مرادك».

فقال: «ألم نأت من العراق إلى بصرى لنفي نذراً نذرناه لك منذ إحدى وعشرين سنة ولم يبق على أجله إلا بضعة أيام». قال: «بلى».

فقال: «فما لي أراك قد شغلت عنه بالحب والحسان؟».

فخجل حماد عند سماع هذا التوبيخ من أبيه فقال: «وهل يؤخذ من كلامي أنني مشتغل بالحب؟». فقال عبد الله: «أتظنني غافلاً أم تحسب دلائل الحب تخفى على البصير؟».

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول أبيه، ورأى الأجدر به أن ييوح له إذ لا غنى عنه في إتمام قصده فقال: «وهب أنني أحبتها وأحببني، فهل هذا يمنع الوفاء بالنذر، وهو قص شعر رأسي في دير بحيراء».

قال عبد الله: إن هناك صلة كبرى لا يمكنني التصريح بها إلا يوم تقص شعرك، وستعلم إذ ذاك أموراً أنت غافل عنها الآن، فلا

تلمني على موقفني في أمر حبك لبنت ملك غسان، أنا أعلم أن حبك لها شرف، لا سيما إذا كانت هي تحبك. ولكنني لا أستطيع التصريح بشيء إلا في اليوم المضروب لوفاء النذر وهو يوم أحد الشعانين. فنحن الآن في الصوم الكبير ولم يبق إلا بضعة أيام فتتم السنة الحادية والعشرون من ميلادك فنقص لك شعرك ونكشف حقيقة أمرك فتدخل عالماً جديداً وتطلع على أسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند».

فتعجب حماد واشتاق إلى مجيء يوم الشعانين شوقاً زائداً، وأخذ يفكر فيما سمعه ثم قال: «وماذا عسى أن يحول بيني وبينها؟». قال: «قلت لك إني لا أقدر على التصريح بأكثر من ذلك، فأرى أن تبصر وتتأني ففي التأني السلامة».

وكان في عزم حماد أن يطلعه على ما تواعدا عليه من اللقاء في دير بحيراء، فلما رأى منه هذا التهويل حسب أنه يحتال لصرفه عن هند، فكتّم أمره.

وكان الليل قد انتصف وغلب التعب والنعاس على حماد، ولحظ عبد الله ذلك فقال: «هلم بنا إلى الفراش يا بني، إلى أن يقضي الله بما يشاء، وأوصيك ألا تقطع أمراً أو تصله إلا بعد يوم الشعانين فانك إذا فعلت شيئاً بعد ذلك فإنما تفعله عن بصيرة».

فذهب حماد إلى فراشه وقد أهمه أمر يوم الشعانين حتى كاد ينسيه هنداً وموعدها، وود أن يفعل ما أمره أبوه، ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن للماء فقضى معظم الليل ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً.

— ٥ —

في دير بحيراء

استيقظ حماد في الفجر، فلبس ثيابه وعبد الله لا يزال نائماً، وأراد أن يوقظه ليستأذنه في الذهاب إلى بصرى بحجة التفرج فخشي أن يصحبه إليها، وعزم على الخروج وحده خفية. . فركب جواده ولبس الكوفية والعقال، وأرسل القباء على كتفيه وظهره كالعباءة، ثم سار مشرقاً قاصداً إلى مدينة بصرى، ولم يصطحب أحداً من الخدم إخفاء لغرضه. وكانت الطريق بين غسام وبصرى على خط مستقيم كأنها عبت بالقدة والفادن والبركار، مرصوفة بالحجارة الصلدة شأن جميع الطرق الرومانية وقد تأكلت الحجارة لكثرة مرور عجلات مركباتهم، وكان يحدها من الجانبين حائطان ضخمان ارتفاع كل منهما ذراع. ولم يسر ساعة حتى أطل على بصرى وأول ما شاهده منها حوضها الغربي الكبير الواقع خارج السور وهو خزان للمياه طوله ١٣٥٠ و١٥٠ قدماً وعرضه ٦٥٠ قدماً. وكان لبصرى أحواض أخرى في الشرق والشمال لخزن الماء خوفاً من الجذب لبعدها عن الأنهر والغدران.

فلما دنا من الحوض عرج عليه ووقف يتأمل اتساعه حتى كاد يحسبه بحيرة كبيرة لأنه كان قد بلغ معظم امتلائه في أوائل الربيع، ثم صعد إلى مرتفع من الأرض ليرى المدينة منه، ولم يكن قد دخلها بعد ولكنه قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان وعرف أنها واقعة جنوبي حوران شرقي نهر الأردن، وهي تبعد حوالي ٩٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي عن دمشق، وحوالي ١٣٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي لبيت المقدس. وهي مدينة قديمة العهد عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان.

فأشرف عليها وقد أشرقت الشمس، فوجدها مربعة الشكل تقريباً تملأ بقعة كبيرة من الأرض المنبسطة، وحولها سور يزيد محيطه على أربعة أميال، ورأى خارج السور البساتين والأشجار والكروم وسائر أصناف الغرس، كما رأى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الأفق. وقد أعجبه منظر المياه في الأحواض حول المدينة تتلألاً بانكسار الأشعة عنها، وشاهد في المدينة بنايات هائلة مغبرة لأن حجرها من الصنف الحوراني الأسمر المشهور.

واشتاقت نفسه إلى مشاهدة أسواق المدينة، فسار نحو بابها الغربي فرأى عنده القوافل، وفيها الجمال والبغال والحمير، بعضها قادم من العراق يحمل الأقمشة الفارسية، وبعضها من اليمن يحمل الأطياب والمر واللبان. وشاهد قوافل أخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام، وتأمل الباب فإذا هو مرتفع هائل مصنوع على النمط الروماني، وفيه العضائد والأعمدة والنقوش، وعلى عتبة من الأعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهم بالدخول من ذلك الباب فرأى الطريق مرصوفاً بالحجارة والناس يتزاحمون فيه ذهاباً وإياباً فأثر الترجل فدخل وقاد الجواد وراءه في طريق المدينة الأكبر وهو يقطعها من الغرب إلى الشرق، ويقطعه شارع آخر مثله من الشمال إلى الجنوب، وهما أكبر طرق المدينة ومنهما تتفرع الطرق الصغيرة والدروب والأزقة والحارات على زوايا قائمة. فعجب لنظام تلك الطرق وحسن هندامها لأنه لم يرَ لها شبيهاً ولا في المدائن عاصمة الفرس في ذلك العهد.

ولم يكد يخطو في ذلك الطريق بضع خطوات حتى تراءت له عن بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق، فعلم أنها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكيراً لنصر أو لاحتفال يفخرون به، فلما دنا من

القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث أقواس: قوس متوسطة كبيرة، وقوسين جانبيتين صغيرتين. وعلو القنطرة أربعون قدماً وعرضها أربعون وسمكها عشرون. وكلها مبنية بأحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة. وفي أعلى القوس كتابة باللاتينية تشوّق حماد إلى معرفة معناها، فالتفت إلى أحد أصحاب الحوانيت وقد عرف من شكل أنفه أنه روماني، وكلمه باللغة الكلدانية المزوجة بالعبرانية. فالتفت الرجل إلى زميل له جالس بالقرب منه كأنه يطلب إليه أن يترجم له، فجاء هذا إلى حماد وأجابه عن سؤاله الخاص بتلك الكتابة بقوله: «معناها أن يوليوس يوليانوس قائد الفرقة الأولى البرطية هو الذي بناها». فأعجب حماد ببذخ الرومان وأيقن أنهم أقرب إلى العظمة والترف من ملوك فارس، وقال في نفسه: «إذا كانت هذه حالهم في دور الانحطاط، فما بالك بهم حين كانوا في إبان مجدهم». ثم مرّ من تحت القوس وظل سائراً حتى وصل إلى مزدحم من الناس عظيم، عند مفترق الطرق حيث يلتقي الطريقان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة وباعة الأقمشة الثمينة. ورأى في أحد أركان المفترق بناء شاهقاً ذا أروقة ونوافذ وأعمدة ونقوش بديعة فسأل عنه فقبل له: «إن هذا هيكل بناء الرومان لعبادة الأوثان قبل تنصر قيصرتهم، وأما الآن فقد اتخذوا بعضه كنيسة والبعض الآخر لسكن كبار رجال حامية الروم في بصرى». والتفت إلى ما حوله فإذا هو في منتصف المدينة حيث تمتد أربعة طرق كبيرة تنتهي عند السور بأربعة أبواب: غربي وشرقي وشمالي وجنوبي. ثم توجه إلى الطرق الأخرى ليمر منها ويخرج من الباب الشرقي ومنه إلى الدير، فشاهد بين أبنية بصرى قصوراً شاهقة معظمها كنائس وبعضها من الهياكل التي بُنيت على عهد الروم قبل تنصرهم، ومنها ملعب بديع كانوا يزاولون فيه ألعاب السباق والمصارعة وما إليها.

وشاهد على الأبنية كتابة، بعضها نقوش وبعضها أصبغة. وأكثرها مكتوب باليونانية واللاتينية، وبعضها بالبنطية، فأخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق وفيها التجار وأكثرهم من الغرباء، بينهم الدمشقي والحلبى والرومي والفارسي والعراقي، ثم وصل إلى سوق الصناع فوجد أكثر الصاغة من الفرس والروم، وصناع الأقمشة الحريرية من الدمشقيين. ومر بسوق الأسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة وأكثرهم من أهل دمشق. ولاحظ أن أبنية بصرى على اختلاف أشكالها مسقوفة بالحجر عقداً على شكل القبور، ورأى الناس تتزاحم في الأسواق رجالاً ونساءً، فيهم الوطنيون ولغتهم الأرامية أو البنطية، وفيهم الروم ولغتهم اللاتينية، وبعضهم يتكلم اليونانية. ورأى جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على بداوتهم لأنهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها إلا لحاجة. فعرفهم من لباسهم البدوي وأعجب بكل ما رآه هناك حتى كاد ينسى مواعده مع هند، ثم انتبه فإذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي قاصداً إلى الدير وقد عادت إليه هواجسه فامتطى حماد جواده ومضى به حتى وصل إلى مرتفع أشرف منه على بناء شاهق كبير حوله الأشجار والبساتين فسأل عنه رجلاً مرّ به هناك ممتطياً حماراً وعليه قيافة أهل بصرى، فقال الرجل: «هذا دير بحيراء يا سيدي».

فساق حماد جواده حتى دنا من الدير وهو يخشى أن تكون هند قد سبقته إليه، مع علمه بأن المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يمكن قطعها في أقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر. وأخذ يتأمل الدير فإذا هو بناءان: أحدهما كبير فيه قبة فوقها صليب وهو بناء الكنيسة والآخر صومعه على رابية. فترجل وشد جواده إلى

شجرة هناك، ثم مشى نحو الكنيسة فوجدها مبنية على النمط الروماني، فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديراً وفيه كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اليونانية، وهي لغة الكنيسة الشرقية إلى ذلك العهد وبها تؤلف الكتب الدينية، وسمع بعضهم يتكلم اللاتينية وهي لغة الحكومة وبها تصدر أوامرها، وبعضهم يتكلم اللغة السريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة أهل البلاد بعد الفتح. وشاهد آخرين يتكلمون لغات أخرى، فسأل عن هذا الاختلاط ف قيل له: إن مدينة بصرى مركز أسقفية بلاد العرب الكبرى، وفيها يقيم رئيس الأساقفة ومنها يرسل الأساقفة إلى ما يتبعها من الأسقفيات، فدخل البيعة وزار هيكلها وقبّل صورها. ثم سأل عن دير بحيراء ف قيل له: «هو هذه الصومعة القائمة على الراية القريبة من الدير».

فسار إليه وعجب لطراز بنائه ولم يكذ يصدق أنه بيت إذ وجده خمسة أحجار ضخمة أربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع واحد ورأى الناس يفتحونه ويغلقونه بسهولة، فسأل رجلاً واقفاً بجانبه لاح له أنه من أهل دمشق: «ما هذا البناء وكيف يصنعون الأبواب من الحجارة؟» فقال الرجل: «إن هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لأن أرضهم صخرية والأخشاب فيها قليلة فيصنعون أبوابهم ونوافذ بيوتهم وأجنحتها من الحجر، وقد يبنون منزلاً كثير الغرف وفيه النوافذ والأبواب والأروقة والسقف ولا يدخلون في بنائه شيئاً من الخشب قط».

فوقف هناك ينظر إلى ذلك البناء الغريب ولم يكذ يهتدي إلى الباب لو لم يرَ الناس يخرجون منه فصعد إلى الصومعة حتى وقف عند بابها فإذا هي غرفة مظلمة أشبه شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ إلا

نافذة ضيقة في بعض جوانبها، ودخل فرأى أرض الغرفة حجراً واحداً أيضاً وفي جدرانها صور وأمام كل صورة مصباح ضعيف النور، وفي بعض جوانب المكان راهب هرم أرسل لحيته على صدره وتجمع جلد وجهه إلا أنفه فإنه ما زال بارزاً كبيراً، ويده مسبحة طويلة، وقد جلس الأربعاء على حجر منحوت كالمقعد والتف بثوبه الرهباني والناس يدخلون إليه يتبركون بتقبيل كفه وهو يتمتم كأنه يدعو لهم، فمن زاره سار إلى الدير بعد ذلك لزيارة الكنيسة وبجوار الكنيسة غرفة لمن أراد الاستراحة أو الإقامة.

فتأثر حماد بمنظر ذلك الراهب الهرم إذ تمثلت له فيه مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحاً تاماً ولكنه لحظ أمراً واحداً لفت نظره، وذلك أنه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك، فتقدم نحوه وقبّل يده فنظر إليه الراهب وتأمله كأنه يعرفه وأمره بالجلوس فجلس وهو أكثر رغبة منه في مجالسته لأنه ود كثيراً أن يعرف قصة ذلك البناء. وكان حماد قد تفقه في علوم تلك الأيام في مدرسة الرهبان الشهيرة بالعراق فتثقف وصار محباً للتعلم، فقال له الراهب: «لعلك من عرب العراق يا ولدي» فتعجب حماد لسؤاله فقال: «نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلك؟».

قال: «عرفته من ملامح وجهك لأنني عاشرت عرب العراق زمناً. وهل أنت مقيم هنا أم جئت زائراً؟».

قال: «جئت لأفي بنذر عليّ لهذا الدير».

قال: «وما نذرك؟».

قال: «نذر أبي ألا يقص شعري إلا في هذا الدير، وأنه لا يقصه إلا بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك

في أحد الشعانين القادم فجئت اليوم للتبرك والتمتع بمنظر هذه الصومعة إذ كثيراً ما حدثنا أهل بصرى عن الراهب بحيراء. أنت هو يا سيدي؟».

قال: «لا يا ولدي إن الذي تسأل عنه قتله بعض الأشرار غيلة».

قال: «كيف قتلوه ولماذا؟. فإني شديد الميل إلى استطلاع خبره؟».

فتنهذ الشيخ تنهداً عميقاً وحدثني ببصره كأن شبابه عاد إليه وأخذ يمشط لحيته بأصابعه وقال: «أما بحيراء فهو من نعم الله على بني الإنسان. ولا أظن الأرض تجود بمثله. وقد وقعت يا بني على الخبر بأمره. فاعلم أن اسمه الحقيقي ليس بحيراء بل يوحنا وأما بحيراء فلفظ كلداني معناه العالم المدقق، لقبوه به لتبحره في العلوم».

فقال حماد: «وهل عرفته يا سيدي عن قرب؟».

قال: «إني أحد تلامذته، وقد تتلمذ له كثيرون غيري، منهم سلمان الفارسي، أما أنا فقد رافقته من أول ظهوره إلى أواخر أيامه».

فازداد حماد ميلاً إلى معرفة حقيقة بحيراء فقال: «وما حكايته؟ فقد شوقتني إلى معرفتها».

فقال: «اعلم يا ولدي أن يوحنا بحيراء كان راهباً نسطورياً على مذهب آريوس ونسطور، ولا أظنك تجهل هذا المذهب وإن يكن أتباعه الآن قليلين لمخالفته مذهب القياصرة».

قال حماد: «نعم أعرف كل شيء عنه، وقد اطلعت على دقائقه على أحسن عارفيه في المدرسة».

فقال الراهب: «إذن لا حاجة بنا إلى شرحه، فأنت تعلم أن

أساس هذا المذهب إنكار ألوهية السيد المسيح وأن تسميته إلهاً غير جائزة، فانتحلوا له اسماً فقالوا: (يجب أن يسمى كلمة الله وأن والدته مريم يجب أن تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله). وأنا أعترف لك بأني تلميذ بحيراء، وأعترف أيضاً بأني تلميذه في كل شيء ما خلا هذا المذهب، فقد قضيت أيام صحبتي له في جدال دائم معه فلم يقنع أحداً الآخر. أما في العلوم الأخرى فله عليّ الفضل الأكبر فقد أخذت عنه علوم الفلك والحساب والطوابع وسائر علوم هذه الأيام، وكان يقيم أولاً بدير فيما بين النهرين بالعراق وكنت أختلف إليه هناك أتلقى عنه بعض العلوم ولم أكن أعرف ما يذهب إليه. فلما اطلع رئيس الدير على ت مذهبه بالأريوسية غضب عليه وأخرجه من الدير، فسار قاصداً إلى دير طور سيناء في العقبة على حدود مصر، فذهبت معه للانتفاع بعلمه وحباً في خيره لعلّي أقنعه وأرده إلى مذهبنا، فرحب بنا رهبان طور سيناء وأعجبوا بعلمه وفضله فأقمنا هناك زمناً ثم جاء كتاب من رئيس ديره الأول إلى رئيس دير طور سيناء أن يخرج من ديره، فأمره بذلك أو يرجع عن مذهبه. فأبى وخرج وأنا معه، ثم أتينا هذا الدير وأقمنا بهذه الصومعة معاً، إلى أن ذهب إلى مكان في جزيرة العرب لم يسمه ولم أعد أراه من ذلك الحين، ثم وقع إلى أن اليهود قتلوه غيلة.

فقال حماد: «ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب إليه؟».

قال: «كلا، ولكنني ظننته ذهب إلى الحجاز لحادث جرى له على مشهد مني منذ أربعين سنة ونيف».

قال: «وما هذا الحادث؟».

قال: «جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب أو غيرها أن تقف هنا للاستراحة من حرّ الصحراء والاستقاء، فيجلس بحيراء

بينهم ولا سيما إذا كانوا من الوثنيين أو المجوس ، وكنت أجلس معه أيضاً . فياخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم إلا خيراً ، وكان يعتقد أن الله ظهر له في الرؤيا وأنبأه أنه سيكون سبباً لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب . لأن العرب كانوا يعبدون الكواكب والأوثان إلا جماعة من النصارى أو اليهود ، وجماعة أخرى كانت تقر بالخالق وتنكر البعث . فكان بحيراء يفكر ليلاً ونهاراً في مصير تلك الجزيرة وأهلها ، فرأى مرة رؤيا قصصها علينا قال : (رأيت فتى جميلاً المنظر شهماً ، مولده ببرج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل ، علمت أنه هو الذي سيهدي أبناء جلدته بني إسماعيل إلى معرفة الله ، وأنه يقوي أمرهم ويشد أزهرهم ويجمع كلمتهم فيذللون أبناء عمهم بني إسحاق ويتسلطون عليهم حيناً من الدهر ، كما أشار إلى ذلك دانيال في نبوءته أنه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة . ثم اتفق منذ حوالي أربعين سنة أي في نحو سنة ٤٨٠ من التاريخ البصري الذي يبدأ سنة ١٠٥ بعد الميلاد ، وهي السنة التي اتخذ فيها الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروجانا الجديدة ، أن وصلت قافلة من قوافل الحجاز وصلت إلى هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون بمكة ، وعندهم مقام شهير يؤمه الناس من سائر أنحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة . وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولهم نسب وشرف يتصل بإسماعيل . فنزلت القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظللتهم جميعاً ، وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وأنزلوا الأحمال التماساً للراحة ثم قدموا للاستقاء . فخرج بحيراء للتحدث إليهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاماً جميلاً تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء ، فحالما رآه بغت والتفت إلي وقال : (أنظر إلى هذا الغلام فإنه مولود في البرج الذي قلت لكم عنه وهو الذي سيهدي بني

اسماعيل. ثم سأل كبير التجار عنه، ف تقدم رجل كهل تتجلى في وجهه دلائل الجلال والوقار، وسأله: (من يكون هذا الغلام؟)، فقال: (هو ابن أخي). فأنبأه بحيراء بمستقبله وقال له: (احذر اليهود فإنهم إذا عرفوه كادوا له كيذا). ثم عرف أن اسم الفتى محمد، واسم عمه أبو طالب. وأقام أولئك الركب عندنا حيناً وقد آنت من بحيراء إكراماً لهم وترحاباً بهم لم أعده مع غيرهم، ثم ساروا إلى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك إلى مكة، ثم كانوا كلما مروا بنا أقاموا عندنا كالعادة».

فقال حماد: «وهل صحت نبوءة بحيراء؟».

قال: «نعم فإن ذلك الغلام القرشي أصبح نبياً كبيراً تسمى ديانتة الإسلام، وقد انتشرت سطوته في كل جزيرة العرب ويسمى أتباعه المسلمين. ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن أعماله وحروبه وانتصاراته. فسكان جزيرة العرب بعد أن كانوا قبائل مشتتة يغزو بعضها بعضاً اتحدوا قلباً وقلباً تحت لوائه، ولا يبعد أن يحمل بهم على الشام والعراق».

فقال حماد: أظنني سمعت شيئاً عن هذا النبي يوم كنت في العراق، فما رأيك إذا حمل على الشام والعراق؟.

فبهت الشيخ وفكر برهة واغرورقت عيناه بالدموع وقال: «آه يا ولدي أظنه يستولي عليهما جميعاً لما نعلمه من اختلال الأحوال، فإن قيصر الروم لم يكذ ينتهي من حروبه مع الفرس بعد، وهذه قلاعنا وحصوننا لا تزال متهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل الشقاء. ألا ترى بطاركنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطان، فبطريك الاسكندرية يقاوم بطريك القسطنطينية، وبطريك انطاكية يخالف هذا

وذاك. وقد كانت ديانتنا واحدة لأن السيد المسيح واحد علم تعليماً واحداً فأبت مطامع بني الإنسان إلا الانقسام فتعددت الفرق المسيحية وأشهرها الآن ثلاث وهي: الملكية القائلون بقول ماركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين بسطوريوس وكرلس وهم الروم، واليعقوبية القائلون بمقالة كيرلس الاسكندري ويعقوب البردعاني وساويروس صاحب كرسي انطاكية. والنسطورية القائلون بقول نسطورس. وترى الشعوب منقسمة أيضاً مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها، حمانا الله من عواقب الغرور، ناهيك باليهود وهم ألد أعداء الدولة وقد يبذلون أموالهم وأرواحهم في سبيل خرابها.

وما أتم الراهب الشيخ كلامه حتى أنهكه التعب وأثر في أعصابه ما قاله عن حال الروم وما خافه عليهم من سطوة العرب، فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يريد أن يبكي، فنهض حماد وقد علم أموراً لم يكن عالماً بها قبلاً ومال ميلاً كثيراً إلى معرفة التفصيل ولكنه خاف أن يثقل على الشيخ بعدما رأى من تعبته وملله، وشغل عن ذلك باستبطاء مجيء هند. فودع الراهب وقبّل يده وطلب رضاه وخرج فإذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة، فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة لعب النسيم بأوراقها وتطايرت الطيور بين أغصانها، فألقى ظهره على جذعها وأخذ يفكر فيما سمعه من ذلك الراهب، فغلب عليه الملل وهو لم ينم أمس إلا قليلاً فغمضت عيناه لحظة رأى فيها حلمًا شبيهاً بما سمعه من الراهب فخيّل إليه أنه سار إلى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وأن نبيهم قال له: «أنت لست حماداً وستلاقي عذاباً ولكنك تجد بعد العسر يسراً».

ثم أفاق على صوت صهيل الخيل، فالتفت فإذا بفارستين بلباس

أميرات البلقاء وراءهما خادمتان وقفتا تحت شجرة بالقرب منه فنهض لتوه فراهما ملثمتين، ولكنه عرف من الفرسين أنهما هند وإحدى خادمتها، فتشاغل ببعض الشؤون لئلا ينتبه أحد إلى حاله ولبث ينتظر إشارتها وقلبه يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكاً حتى صعدت إليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد. فمشى نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فإذا بإحدى المثلثتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها أنها ليست هنداً. فلما دنت منه قالت له أتعرف تاجراً يبيع الحلى كان هنا، فأدرك أن هنداً تسأل عنه باسم أحد باعة الحلى لتخفي أمره على الخادمة فأجاب على الفور: «أنا هو ذلك التاجر فما غرضك؟».

فقالت: «إن سيدتي تسأل عنك».

قال: «وهل تريد ابتياع شيء الآن؟».

قالت: «نعم فأين بضاعتك؟».

قال: «في حانوتي على مقربة من هذا المكان، ولكن الحلى التي أبيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها إلا الأغنياء فإذا كانت سيدتك من أهل اليسار جئتها بما تريد».

فتبسمت المرأة مستخفة وقالت: «نعم إنها من أكثر نساء حوران والבלقاء ثراء».

فقال: «أين هي؟». قالت: «في الصومعة، تعال».

فصعد حتى دخل الصومعة، فرأى هنداً جالسة على مقعد من الحجر فألقى التحية وتجاهل وسأل: «أين التي تريد الحلى؟».

فقالت هند: «هي أنا فأين حليك؟».

قال: «هي في دكاني على مقربة من هذا المكان، هل أذهب وآتي

بها؟».

قالت: «لا ندرى ما نحتاج إليه منها، فربما أتيت بما لا حاجة لنا به وتركت ما كانت إليه حاجتنا».

فقال: «قولي ما أنواع الحلى التي تريدينها فأتيك بأحسن ضروبها وأعود حالاً».

قالت: «نحتاج إلى أقراط من اللؤلؤ وأساور من الذهب المرصع فأت بأحسن ما عندك منها».

فقال: «سمعاً وطاعة». وعاد فركب فرسه وسار بأسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول إلى سوق الصاغة، وكان لا يخلو جيبه من بدرة لما قد يحتاج إليه في غربته، فابتاع أساور وبضعة أقراط وعاد إلى الصومعة ولقيته خادم وقال له: «لعلك بائع الحلى؟». قال: «نعم». قال: «إن مولاتنا تنتظرك في غرفة من غرف دير بحيراء». فعاد إلى الدير فلقيته الخادم ودخلت به على سيدتها وهي في غرفة وحدها. وكانت قبل مجيئه مضطربة استعداداً لساعة اللقاء ولكنها تجلدت لئلا تلحظ خادمته شيئاً يكشف حقيقة أمرها. فلما دخل استقبلته كما تستقبل رجلاً غريباً فأمرت له بوسادة جلس عليها وجلست هي على وسادة أخرى.

فوضع حماد الأساور والأقراط بين يديها فقلبتها، وتظاهرت بأنها أعجبت بإحداها، فقالت: «ما رأيك في هذه الأساور؟». قال: «هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها الراسخون بالعلم على هذا النوع الآخر من صنع خراسان».

قالت له: «وما ثمنها؟». قال: «إنها غالية الثمن يا مولاتي، فهي تساوي خمسمائة دينار». ولم تكن تساوي حقيقة إلا عشرة دنائير.

قالت: «لا بأس، ولكنني لا أستطيع ابتياعها ما لم أرها لأمي».

فقال حماد: «حسناً تفعلين وأين تقيم أمك؟».

قالت: «على مقربة من هذا المكان، ولكنك لا تعرف من نحن ولذا أرسلها مع هذه الفتاة وأبقى أنا هنا ريثما تعود، فإذا استحسنتها أمني أرسلت الثمن فاشتريتها وإلا فإني أعيدها إليك كما هي».

فقال: «ولكنني لا أستطيع البقاء هنا طويلاً».

قالت: «لا تخف. فإن الفتاة ستسير على جواد سريع، وإذا أبطأت عوضنا عليك الخسارة فاطمئن».

فقال: «أرجو إذن أن تحتفظ بالأساور لئلا يقع شيء من أحجارها».

قالت: «لا تخف إنها أحرص منك عليها، ولولا ذلك لأرسلتها مع سواها من الخدم وهي أيضاً متى عادت نالت حظها من بضاعتك». قال حسناً.

فأخذت الأساور ووضعتها في منديل أعطته إلى الخادم وقالت لها: «اركبي الفرس وخذي معك الخادمين وأسرعني إلى أمي واعرضي هذه الأساور عليها وأخبريها عن الثمن كما سمعت وعودي بالجواب حالاً».

قالت: «سمعاً وطاعة». وركبت وسارت وفي قلبها أن تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلي.

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد، فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم رفعت بصرها إليه وقالت: «لقد أحسنت فهم مرادي يا حماد».

فنظر إليها وتنهد وقال: «كيف لا أفهم مرادك، وأنت إذا نطقت فإنما تنطقين بلساني، أو فكرت فإنما تفكرين بجناني؟». فأطرقت حياء تبعثر الحلي الملقاة أمامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء. ولبت هو ينظر إلى وجهها وقد هام بحسنها وأخذ بما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من أشعة الذكاء، وسكت ينتظر منها بدء الحديث.

فقالت: «أظنك تستخف بي وتحسبني جريئة؟».

فنهده وقال: «ما كنت أبخس فتاة غسان حقها أو أجحد النعمة التي أولتني إياها بهذا الاجتماع، وكيف أحظى برؤية بنت ملك غسان ولا أعد نفسي أسعد خلق الله؟».

قالت: «إن هذه الملكة أصبحت أسيرة بكماء لا تعرف ما تقول فقل أنت، لعلك تعبر عن بعض ما بي».

قال: «إذا سمحت مولاتي فأني أسيرها وعبدها ولا أحسب تنازلها إلا منة وكرماً».

قالت: «أتعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله؟».

قال: «لا أدري يا سيدتي فلعلك أردت تأنيبي لأني تطاولت إلى مقام الملوك».

قالت: «كلا فإنك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلم بلساني ولا تفكر بجناني».

قال: «ماذا إذن؟».

قالت وقد توردت وجنتها: «جئت لأهنتك بتلك الدرع دليل سببك فأنت السابق، وفي الإشارة غنى».

قال: «أما تلك الدرع فإنها أئمن ما نلت وما سأل من خيرات هذا العالم فهي تقيني نوائب الزمان، وهي تعويذة أتقي بها حبال الشيطان. ولكن من أين لي أن أكون السابق وأنا رجل غريب لا تعرفون من أمري شيئاً والمقام مقام ملوك؟».

فنظرت إليه بطرف عينها وقد ذبل جفناها وأبرقت حدقتها وقالت: «ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد إلا من ملك القلوب وتسلط على العواطف لا من جمع الأموال وحاز حطام الدنيا الفانية. وما السابق الفائز إلا من حاز قصب السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس».

فالتفت إليها وقد شعر بميلها إليه وقال: «ذلك سخاء عهدناه في بني غسان، فهل تعطفين على أسيرك بكلمة تشفي غليله وتبرد لظاه».

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام، وقالت: «ماذا أقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في قلبي، ولكن مالي أرى حماداً يبخل علينا بكلمة؟».

قال: «بماذا يبخل حماد ولم يبق له ما يجود به ولا يرى حاجة إلى القول، فكل جوارحه قد كتب عليها أنه أسير حبك وإن رضاك أكبر أمانيه».

فنظرت إليه وقد أخذ الحياء منها مأخذاً عظيماً وقالت: «أعذرني يا حماد على ضعفي فجنس النساء مهما تبلغ قوته ضعيف فاشفق وقل كلمة».

فمد يده إلى يدها فإذا هي باردة كالثلج، وخيل له أنها ذائبة بين أنامله، وما لمسها حتى شعر بقشعريرة أشبه بمجرى كهربائي في سائر أعضائه، ولا ريب أنها شعرت بمثل ذلك أيضاً، فجعل يدها بين يديه

وقال: «أقول كلمة وأرجو ألا تكون ثقيلة عليك».

فأطرقت ثم قالت: «قل لقد نفذ صبري وأخشى أن يخوننا الوقت».

قال: «اعلمي أنني أسير حبك ولا أبغي من هذا العالم إلا رضاك فماذا تقولين؟».

قالت: «إنك تعبر عن عواطفني».

فأيقن حماد أنها تحبه ولكنه بقي خائفاً من أن يسبقه ثعلبة إليها فيخطبها ويقبل أبواهما جبلة والحارث ويغلبانها على رأيها، فأراد علم ضميرها فقال لها: «وما شأن ابن الحارث؟».

قالت: «لا شأن له فهو حارث غير حاصد!». فقال: «وما شأن من لم يحرث أو يغرس؟».

قالت: «إن الغرس غرس الله، وإذا لم يبين الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون».

فضغط أناملها وهم بتقيل يدها فمنعه الحياء فأعادها وهو يرنو إليها وقال: «ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبه؟».

قالت: «إن من القلب إلى القلب نسباً، ولا عبرة بقرابة الحارث بعد ما عرفناه من خسة ابنه».

فقال: «وما دليلك على خسته؟».

قالت: «لقد دلتني تلك القصة فإنها حماد ناطق».

فعجب لإشارتها إلى القصة ولأنها عالمة بما فعله ثعلبة بالأمس، فأراد التحقق. فقال: «وماذا قالت لك القصة؟».

قالت: «لقد نطقت نطقاً صريحاً بأن ابن الحارث جبان دنيء».

فقال وقد ملّ الألغاز: «فما قولك فيمن لا تعرفين حسبه ولا نسبه؟».

قالت: «من كان قلبه دليله لا يخشى سوءاً. فحماد أرفع من أن يكون من السوقه لأن أخلاقه جديرة بالملوك فإذا لم يكن ملكاً فهو أمير جليل».

قال: «ولعله من قوم بينهم وبين أبيك عداوة».

فجذبت يدها من بين يديه بلطف وتنفس الصعداء ولسان حالها يقول: «أحبك مهما يكن من أمر». فلم يبقَ عنده ريب في حبها له فاعتدل في مجلسه وقال لها: «إن أسيرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقه بل هو أمير ابن أمير ولكنه دون مقام جبلة بن الأيهم ملك غسان».

فاطمأن قلبها بأنه ليس من السوقه، فأرادت أن تعرف من أي القبائل هو.

وكانت قد لحظت من لهجته أنه من أمراء العراق فقالت: «أمن أمراء العراق أنت؟».

قال: «نعم يا سيدتي فهل يغير هذا شيئاً من شعورك؟».

قالت: «كلا، بل أنت فوق ما تمنيت فإنكم بني لحم أصحاب نسب وحسب ومنكم بنو ماء السماء».

فالتفت إليها وقال: «أما وقد تنازلت فرضيت بحبي، فإني طوع إشارتك، فهل ترين لهذا الأسير حظاً من قربك».

قالت: «لقد أبنت لك مرادي وكشفت لك عواطفِي وأنت على ما رأيته فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة لاسترضاء أبي».

فعظم عليه الأمر لعلمه أن استرضاء أبيها من أصعب الأمور،

وهو يعلم منزلته منها فضلاً عن الضغائن بين لحم وغسان فبهت برهة ولم يتلکم.

فابتدرته قائلة: «ما بالك تتردد؟ هل خفت الطريق؟».

قال: «لا أخاف شيئاً في سبيل قربك، ولكنني أرى الطريق وعراً لما أسسه أجدادنا من الضغائن بين لحم وغسان». فتبسمت وقالت: «لا تخف يا حماد إن ما يصعب عليك يسهل عليّ، فاطمئن إني معك وهذا يكفي».

قال: «رضيت فإن رضاك من رضا المولى وها أنذا أكرّس حياتي في خدمتك».

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب وأظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهماً بالخروج من الغرفة، وفيما هما يتودعان إذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة. فقال حماد: «ما الذي راعك يا حبيبتى؟».

قالت: «أظن ثعلبة قادماً إلى الدير، فلعله علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءاً فالأجدر بنا أن نفرق لئلا نفتح باباً للكلام».

وما أتمت كلامها حتى دخل عليها رجل بملابس الباعة ببصرى، ومدّ يده فألقى قطعة من الخلي في جيب حماد ثم أخرجها وقال: «هذه الأساور لي فمن أين جئت بها إنها مسروقة من دكاني». فلم يجبه حماد وصفعه على وجهه فقلبه على قفاه خارج الغرفة، وإذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فأمسكه أحدهم بذراعه وقال له: «إنك سارق». ففر منه حماد وصاح به قائلاً: «إخساً يا كلب العرب»، وصاحت بهم هند: «دعوه». فهمس هو في أذنها: «احذري أن تخبريهم من أنت لئلا يفتضح أمرنا». فتجمهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتاً يقول: «أمسكوا هذا اللص

وأتوني به حياً أو ميتاً إنه جاسوس ذميم». فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج إلى جهة الصوت والجند يفرون من أمامه ويتفرقون حوله ولم يستطع أحد أن يمسكه فصاح به: «تقدم أنت يا جبان لنرى مَنْ هو الخائن؟». واستلَّ حماد خنجره وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفه بينهم فاعترضه أحدهم وهمَّ بالقبض عليه فطعنه حماد طعنة أصابت كتفه فصاح من شدة الألم، ففترق الناس فأراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هنداً فخاف أن يفتك بها ذلك الخائن فعاد إليها وقال لها: «إنجي بنفسك لئلا نقع كلانا وفي وقوعك عار علينا». فقالت: «لن أتركك بين أيدي هؤلاء اللئام، والله لن يظفروا منك بطائل»، وهمت بأحدهم فاستلَّت حسامه وهجمت على الجند وكانوا عديدين ففترقوا أيدي سباً فقالت: «خسىء الأندال هلمَّ إليّ». وخرجا معاً والليل قد سدل نقابه فأسرعا إلى فرسيهما فركباهما وسارا.

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدما ففضى ليلته يفكر في أمر حماد وفوزه في ذلك اليوم، وكيف ظهر من ابنة عمه ميلها إليه واستخفافها به هو، وكان كلما تصور هنداً تلبس حماداً الدرع والناس يرتلون وينشدون اتقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل إلى هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد أن كان يترفع عنها. وكل ذلك من عوامل الحسد فإن الرجل قد يرى فتاة فلا يعتد بها ولا تحسن في عينيه، فإذا سبقه إليها أحد وأنس منها ميلاً إلى هذا واستخفافاً به حسنت في عينيه فأصبح يرى في خطبته هنداً انتقاماً من حماد وتشفياً من هند، لأنه لحظ منها شماتة به، ففي حرمانها من حبيبها شفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة. فبات ليلته في قصر الغدير يفكر في

ذلك، فلما أصبح أخذ يستطلع أخبار هند فسار إلى المطابخ وتظاهر بالتفرج على مناظر الأطعمة والذبائح فسمع الخدم يتحدثون بعزم هند على زيارة دير بحيراء.

ولم تستطع هند الخروج قبل رحيل ثعلبة فلما علمت أنه ذهب مع أبيها وأمها تنكرت وسارت كما قدما.

وسار هو مع جبلة وامراته إلى قرب اللقاء ثم تركهما وعرج على بصرى فلم يبلغها إلا عند الغروب، فدبر حيلة للقبض على حماد بأن يلصق به تهمة اللصوصية والجاسوسية، حتى إذا انفقت الواحدة ثبتت الأخرى فجاء بأحد خماري بصرى وأوعز إليه أن يتهم حماداً بالسرقة ذريعة للقبض عليه، فإذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية أو اغتاله. وكان أبوه الحارث قد سار إلى بيت المقدس عصر اليوم السابق أثناء غيابه هو في السباق، فإن هرقل امبراطور الرومان، ويسميه العرب قيصر الروم، كان قد تغلب على الفرس وأخرجهم من الشام وانتهى من حروبه معهم في تلك السنة، وكان قد نذر أنه إذا كشف الله عنه جنود الفرس سارَ ماشياً على قدميه من حمص إلى بيت المقدس. فلما نصره الله بعث إلى الحارث بن أبي شمر أن يوافيه إلى بيت المقدس ليعده له الإنزال ويرمم ما تهدم من الأسوار والحصون في الحرب. فانتهاز ثعلبة غياب أبيه واستخدم الجند فجاء بشرذمة منهم إلى الدير وفعل ما فعله.

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هند، فرّ هو ورجاله على أن يكمنوا لهم في الطريق.

— ٦ —

مسبعة الزرقاء

ظل حماد وهند يسوقان جواديهما نحو صرح الغدير، وقد سارا

في غير الطريق الذي ظنا أن الخادمة تعود منه لئلا تلتقي بهما فيكتشف أمرهما. فلما انفردا في الصحراء وأمنا العيون. قال حماد: «تباً لذلك الخائن، والله لوددت لو كانت تلك الطعنة في صدره فنتخلص من شره».

فقالت: «سينال جزاءه، وأخشى أن يكون قد كمن لنا في بعض الطريق».

فقال حماد: «طَيِّبِي نفساً، فإن جنود غسان كلها بل جنود قيصر وكسرى لا تستطيع أن تمس شعرة منك ما دمت حياً مقيماً بجانبك. ولقد شهدت منك اليوم شجاعة حقرتني في عيني نفسي، فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء».

قالت: «تلك دوافع الحب قد تُذهب برشد صاحبها فيقتحم الأهوال».

فقال: «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، فقد شعرت بعد هذه الواقعة أن روابط الحب بيننا قد زادت متانة، ولا أرى في السماء أو في الأرض ما يحول بيننا».

فأوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بأمر ذي بال، فأوقف حماد فرسه فمدت يدها إليه فمَدَّ يده وتصافحا. وقالت: «أعاهدك عهد الله لأبقى على حبك إلى آخر نسمة من حياتي».

فنسي حماد موقفه لعظم غرامه وفرحه بحبها إياه، وقال: «إن هذا العهد يا هند لينسيني كل أسباب الشقاء ووالله لأقتحم أعظم الأخطار وأجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله أكبر الشاهدين».

فأطرقت هند وقد غلب عليها الحياء ولسان حالها يقول: «وإني

أعاهدك بذلك أيضاً».

فقال لها حماد: «أما وقد تعاهدنا على الحب فلتكن تلك الأساور تذكيراً لهذا، وقد أعددتها عن غير قصد، فأرجو أن تقبلها وإن لم تلق بمقام بنت ملك غسان».

فنظرت إليه وفرسها يشاغلها بالإقدام والإحجام كأنه شعر بما يتقد فوّه من لواعب الغرام وقالت: «إن حبنا مقدر منذ الأزل، وقد أراد الله أن تكون هذه الأساور تذكيراً لإعلانه، ولهذا سأحافظ عليها ما حييت، ولكن أتعلم ما هو تذكاري عندك؟».

قال: «كيف لا أعلم وصلصلة تلك الدروع لا تزال ترن في أذني فهي تقيني غائلات الزمان بإذن الله».

قالت: «حرسك الله ووقاك».

فلما تبادلوا العهد أركضا فرسيهما حتى صارا على مقربة من صرح الغدير، وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منه وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون ليهتدي بها المارة ممن يطلبون طعاماً أو ميئاً.

فوقف حماد وقال: «هذا قصرك سيري إليه وأنا أعود إلى منزلي».

فقالت: «أخاف عليك ذلك الخائن فقد يكون كامناً برجاله والليل بهيم وهو يريد سوءاً».

فهر رأسه استخفافاً وقال: «ذريه وكل جند أبيه ولا تخافي عليّ بأساً بإذن الله». فألحت عليه أن يدخل القصر مستضيئاً فقال: «إنك لتزيدني رغبة في المسير وحدي وإني لأستحيي من نفسي أن أخاف ابن الحارث ورجاله ولو كانوا ألوفاً».

فلما لم تجد سبيلاً إلى إقناعه ودّعته فقبض على يدها وضغط عليها وجددا العهد وقالت: «سرّ في حراسة المولى ورعايته». وسارت هي إلى القصر فلبث هو واقفاً حتى تحقق دخولها الحديقة فحوّل جواده نحو منزله وهو على مسافة بعيدة، وحثه على السير وقد ترك قلبه في صرح الغدير ونسي نفسه فلم يشعر إلا وهو في مكان لا يعرفه. فأوقف جواده ونظر إلى ما حوله فإذا به في أرض قفراء لم يعهدها، ففكر برهة لعله يفقه أين هو فلم يستطع، فنظر إلى النجوم وأبراجها، وكان خبيراً بعلمها فرأى أنه ضل الطريق إلى منزله، فحوّل عنان جواده إلى الجهة التي ظن أنها تؤدي إليه، وأركض الجواد حتى وصل إلى البساتين والمغارس.

وفيما هو سائر بين الأشجار والطريق كثيرة الحصى سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فأصاخ بسمعه وحدّق بعينه جهة الصوت وهو يقترب منه والظلام حالك، فلما دنا القادم سمع صوتاً يناديه: «حماد» فعرف أنه صوت أحد خدمه فناده باسمه «سلمان» وهو اسم الخادم. قال: «نعم يا سيدي قف عندك». فوقف حتى تقابلا فقال حماد: «ما الذي جاء بك الآن؟».

قال: «أدر عنان جوادك واتبعني لأخبرك الخبر». وأسرع فتبعه وسارا وهما لا يتكلمان وقد قلق حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فأمسكا عناني الفرسين فقال حماد: «قل يا سلمان ما الذي جئت من أجله؟».

قال: «جئت بأمر من سيدي أبيك لكي تفر في أقرب فرصة من اللقاء إلى عمان».

قال: «ولماذا». قال: «لأن صاحب بصرى بعث شزيمة من رجاله فقبض على أبيك واستولى على كل ما في البيت».

فبغت حماد وقد أدرك السبب ولكنه تجاهل وقال: «ولماذا فعلوا ذلك؟».

قال: «زعموا أنه جاسوس من ملك العراق فساقيه مخفوراً إلى بصرى، وسمعت الرجال يسألون عنك في بادئ الأمر فلما لم يروك قبضوا على سيدي ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئاً، فأسرّ إليّ أبوك أن أقتفي أثرك ثم أفر إلى عمان ننتظره هناك شهراً فإن أبطأ بحثنا عنه في بصرى».

قال: «وهل أصابوه بسوء؟».

قال: «كلا يا سيدي ولكنهم أوثقوه وساقوه إلى بصرى، ولا بد من أن يقتفوا أثرك للقبض عليك، وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك فها بنا إلى عمان لنقيم بها متكرين شهراً ثم يقضي الله بما يشاء».

فانقبضت نفس حماد وكادت تخنقه العبرات، وعلم أن الذين قبضوا على أبيه هم ثعلبة ورجاله، فحدثته نفسه أن يثني عنان جواده إلى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه أطاع أمر أبيه وسار مع سلمان صامتاً يفكر في حاله مع هند وكيف ساقه الحب إلى هذه العاقبة. فبعد أن مشيا مدة صامتين قال حماد: «أتعرف هذه الطرق يا سلمان؟».

قال: «نعم يا سيدي أعرفها جيداً وقد طرقتها مراراً مع سيدي أبيك منذ بضعة أعوام».

وكان سلمان شاباً في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في أكثر أسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الأيام، وكان فطناً يتفانى في خدمة مولاه، مما جعل هذا يركن إليه ويثق به، وقد عهد إليه في العناية بحماد وأن يسير به إلى عمان الواقعة على مسافة ستين ميلاً من بصرى، وعلى أمل أن يتخلص من أسرهِ ويجمع به هناك. وعمان

هذه مدينة قديمة كانت تسمى في عصر الاسرائيليين «ربان عمون» وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم والموايون وأخرجوا سكان شرقي البحر الميت والأردن واحتلوا مكانهم. ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تحربت مراراً حتى بناها بطليموس فيلادلفيا، ثم صارت في أوائل الميلاد أسقفية ذات أهمية كبرى يقيم بها أسقف تابع لأسقف بصرى الأكبر، وفيها كثير من الأبنية الرومانية والهيكل والكنائس.

وما زال حماد وسلمان يحثان جواديهما حتى انتصف الليل وبعدا عن بصرى كثيراً، فوقفا وقد تعبوا وتعب الجوادان. وطلع القمر في ربه الأخير وقد أرسل أشعته على تلك السهول والجبال، والأرض خالية لا أثر للآدميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات وأكثرها من شجر الزيتون والجوز، فسارا حثيثاً وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة شوقاً إلى هند وطوراً خوفاً على أبيه، فإذا تذكر ثعلبة اتقدت نيران الانتقام في جسمه وودّ لو يلقاه ليقطعه إرباً إرباً، ولكنه كظم ما في نفسه وعاد إلى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرهما صوت والجو هادئ وضوء القمر ضعيف. فقال حماد: «أخبرني يا سلمان ماذا فعل هؤلاء الطغام بأبي وبالمنزل؟».

قال: «كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك لا يدري أين أنت، فلما غابت الشمس ازداد قلقه فهمّ بالركوب للبحث عنك، وفيما نحن في ذلك وقد أسرجت جوادي لأكون في ركابه إذا بنا نسمع صهيل الخيل ووقع حوافرها، ثم تقاطر الرجال عشرات فأحاطوا بالمنزل سائلين: أين الأمير حماد؟ وأغلظوا القول فسألناهم عما يريدون منك فلم يجيبونا إلا بالشتم والسباب، فقابلناهم بالمثل،

فقبضوا على سيدي الأمير بعد أن دافع دفاعاً مجيداً وهو أعزل فأوثقوه، ونهبوا المنزل. فاغتنمت فرصة اشتغالهم بالنهب ودنوت من سيدي فأوصاني بأن أقتفي أثرك وأحذرك المجيء. ولولا المقادير لقبضوا علي ولكنني تمكنت من الفرار وجئت إليك».

فقال: «وهل أخذوا متاعنا وأموالنا؟».

قال: «أخذوا ما وجدوه من المتاع، أما الذهب والفضة فهما مكنوزان في مكان لا يعرفه أحد سوانا».

فسأله حماد: «وهل أخذوا الدرع التي جئت بها أمس؟».

قال: «كلا فإنها في هذا الخرج على فرسي».

فسرّ حماد لبقاء الدرع ذكرى حبيبته.

وفيما هما في الحديث أنسا ناراً بعيدة فقال حماد: «ما هذه النار؟ أقريبون نحن من القرى؟».

فوقف سلمان ونظر إلى ما حوله وفكر قليلاً ثم قال: «إن النور الذي تراه آت من بلدة يسمونها بيت الجمال أو أم الجمال. فإذا شئت أن نخرج عليها فعلنا، أو نسير حتى نشرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقي جوادينا ونبيت هناك بقية ليلتنا».

قال: «دعنا من البيوت لئلا ينكشف أمرنا».

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق إلى الغرب وقد غطته الأشجار من الجانبين، فوقفا يتأملان فيه فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدوء الليل بحيث لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وحفيف الشجر يداعبه النسيم، وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفه لا يريهما الطريق إلا بصيصاً. وكان الصدى يردد وقع حوافر الخيل، فسمع له دوي في

جوانب الوادي حتى خيل إليهما أن فرساناً آخرين قادمون، على أن هيبة المكان كانت مسيطرة عليهما ولا سيما سلمان فقد كان أكثر وجلاً من حماد لعلمه أنهما على مقربة من الزرقاء وهي مشهورة بضراوة ما فيها من السباع على أنه كتم ذلك عن حماد لئلا يشير هواجسه واتخذ عدته للدفاع عند الحاجة. فظلا سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا إلى ما فوقهما فإذا هما في وادٍ بين جبلين يكسوه النبات وفيه أشجار كبيرة.

فشدّ سلمان الجوادين إلى شجرة بالقرب من الماء، وسار مع حماد إلى الماء فاغتسلا وشربا، فنزع حماد كوفيته وعقص شعره حتى لا يرف على كتفيه ووجهه، وفرش سلمان عباءته على منبسط من الأرض تحت شجرة هناك ثم جلسا عليها والجوادان يصهلان ويفحصان الأرض.

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان بجانبه يحادثه وحماد ساكت ينظر إلى ما حوله من روعة الطبيعة ويفكر في هند وفي أمره مع ثعلبة، فتركه سلمان وسار إلى الجوادين فحلّهما وجاء بهما إلى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من متكأ حماد، وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما متشاعلاً بتقليب حسامه وعيناه شاخصتان إلى قمم تلك الجبال كأنه يتوقع محذوراً وحماد غافل عن ذلك بهواجسه. فلما سقى الجوادين أعادهما إلى مربطهما وجاء إلى حيث سيده.

أسند حماد ظهره إلى جذع الشجرة. وكان التعب قد أخذ منه مأخذاً عظيماً فالتف بعباءته وغلب النعاس عليه فنام. أما سلمان فلم يستطع رقاداً خوفاً من غائلة السباع وجعل يتوسل إلى الله أن يمضي الليل بسلام. فما زال كذلك إلى قبيل الفجر فذبلت عيناه، ولم يكذب يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معاً وقرقة اللجامين فانتبه

ونظر فإذا بهما قد أجفلا فحقق قلبه واستعاذ بالله ونهض لساعته والتفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً، ثم سمع وقع حجارة تندرج من قمة الجبل المقابل حتى وصل بعضها إلى الماء على مقربة منه وأجفل الجوادان وأكثرًا من الصهيل فانتبه حماد وصاح: «ما هذا يا سلمان؟».

فقال: «انهض يا سيدي إننا في خطر». فنهض حماد وأسرع سلمان إليه وقال: «نحن على مقربة من الزرقاء وأخشى أن يكون بعض السباع قد ورد الماء ولا خوف علينا لأن الماء يفصل بيننا وبينها. فهل إلى جوادك لنعود من حيث أتينا».

وما كادا يركبان حتى رأيا أسداً منحدراً إلى الماء والأحجار تندرج أمامه وعيناه تتلألآن، فأدارا عناني جواديهما نحو الجبل فسمعا صوتاً كالرعد القاصف ارتجت له جوانب الوادي، فقال سلمان: «هذا زئير الأسد يا سيدي فأسرع بنا ولا تخف فإن الماء حائل بيننا وبينه».

فوخزا الجوادين وصعدا حتى وصلا إلى مرتفع والأسد يزأر من بعيد، وهما يحسبانه وراءهما لهول زئيره ومجاوبة الصدى. فلما وصلا إلى قمة الجبل التفتا إلى الوادي وكان النور قد لاح فشاهدا الأسد عند الماء يشرب.

فقال حماد: «ما فعلت بنا يا سلمان وكيف جئت بنا إلى هذا المكان؟».

قال جئته مضطراً وكنت أحسبه بعيداً عن مسبعة الزرقاء، يلوح لي أن الأسد بعد عن عرينه كثيراً فورد الماء ولا يلبث أن يعود ولا خوف علينا بإذن الله». فوقفا برهة ينظران إلى مجرى الغدير في أسفل الوادي فإذا بالأسد قد شرب والتفت يمينا وشمالاً وزأر زئيراً اصطكت له مسامعهما وكان ذلك أول عهد حماد بالزئير أما سلمان

فكان قد شاهد الأسد وسمع زئيره في بعض حدائق كسرى ورآه يغالب ويصارع.

أما حماد فما زال يراعي الأسد في صعوده الجبل وهو يدل بمشيته تيهاً وقد أرسل ذنبه فوق ظهره حتى توارى عن أنظارهما، وكانت الشمس قد أشرقت أو كادت وأحس حماد بالجوع والتعب فقال: «ما عهدك بالطعام هنا؟». قال: «خلّ عنك الاهتمام فأنا كفيل به، فإذا سرنا قليلاً لا نلبث أن نصل إلى دير على مقربة منا نقيم به يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين». فمشيا حتى أشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب فعلما أنه دير وفيه كنيسة فنزلا هناك فاستقبلهما الرهبان بالترحاب وأنزلاهما على الرحب والسعة، فقضيا نهارهما وكان طعامهما مقصوراً على ألوان بسيطة لكنها لذيدة وفي جملتها أنواع من الجبن والقشدة واللبن واللحم المقلي مع البيض وأنواع التين المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلاً عن الخمر المعتقة فإن خمر الأديرة مشهورة بجودتها. ولقيا من حسن وفادة أهل الدير ما شغلهم عن هواجسهما. على أن حماداً لم يهدأ له بال وما برحت صورة هند في مخيلته كما كانت لما فارقتها ليلاً راكبة إلى قصر الغدير وهو ينتظر وصولها إليه.

فباتا ليلتهما في الأحاديث، ولا سيما عن ذلك الأسد. فعلما أن المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقها إلى عمان ولا بد للسائر إلى عمان من المرور بها إلا إذا دار في طريق طويل بعيد.

ولما أصبحت تزودا وصليا وسارا على بركة الله وسلمان يفضل المسير في الطريق البعيد خوفاً من السباع وحماد يأنف من خوفه ويثنيه عن عزمه.

— ٧ —

عبد الله في السجن

لترك حماد وسلمان سائرين إلى عمان ولنعد إلى عبد الله وما كان من أمره، فقد تقدم أنه جيء به إلى بصرى مخفوراً متهماً بالjasوسية وهو يعجب للعنف الذي اتخذ الرجل في القبض عليه. ونظراً لعلمه ببراءة ساحته تحقق أنه لا يلبث أن يقف أمام الحارث فيثبت براءته فيفرج عنه فيذهب إلى عمان حيث يلتقي بحماد ثم يأتيان لوفاء النذر بدير بحيراء، وهذا ما حمله على ضرب الأجل شهراً وقد فاته السبب الحقيقي في أسره.

فسار به الجند إلى بصرى وحجزوه في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور، فبات بقية ليلته قلق البال على حماد لئلا يأتي المنزل قبل أن يلتقي بسلمان فيقع في الفخ، فلما مضى الليل ولم يأتوا به ترجح عنده أنه نجا. وفي الضحى جاءه رجلان عليهما لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الأصفر يتدلى منها خصلات من شعر أذنان الخيل والأدرع من الفولاذ تحتها أثواب حمراء لا تتجاوز الركبة. ويحمل كل منهما حربة صغيرة وترساً من الفولاذ وعلى صدره شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين أحدهما H عرف أنه الحرف الأول من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنه الحرف الأول من اسم الفرقة التي ينتمي إليها الجنديان، ولم يكن يتقلد هذه العلامة غير الخيالة منهم. وكان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي، فأشاروا إلى عبد الله فتقدم وصعدوا به إلى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا إلى قاعة مفروشة بأحسن الأثاث الروماني، وفي صدرها عظيم روماني علم من لباسه ومقعده أنه رئيس الحامية الرومانية، وكان جالساً في صدر القاعة على كرسي

مذهب يصعد إليه بدرجتين، متشحاً بقميص مدرع بحراشف من نحاس محلاة بالذهب تحته ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين إلا قليلاً. وكان ضخماً كثير العضل والدهن. وشاهد بين يديه رجالاً أكثرهم في مثل لباسه وهم أهل مجلسه من الروم، إلا رجلاً كان جالساً بالقرب منه عليه لباس العرب عرف أنه ثعلبة بن الحارث. فتحقق عبد الله أنهم جاؤوا به إلى قائد جند الروم في بصرى، فوقف متأدباً في وثاقه، فخطبه القائد (وكان اسمه رومانوس) بلسان الترجمان قائلاً: «ما اسمك؟». قال: «عبد الله».

قال: «من أي البلاد أنت؟». قال: «من العراق».

قال: «وما صنعتك؟». قال: «إني من أمراء العراق أعيش من ريع أملاكي وأتجر ببعض أصناف التجارة».

قال: «وما الذي جاء بك إلى هذه الديار؟». قال: «جئت لأفي نذراً عليّ لدير بحيراء».

قال: «وما نذرك؟». قال: «أن أقص شعر ولدي في الحادية والعشرين من عمره».

فالتفت رومانوس إلى ثعلبة وأسرَّ إليه شيئاً، ثم نظر ثعلبة إلى عبد الله واستقدمه حتى دنا منه فقال له: «كيف تدعي إنك جئت لقص شعر ابنك وأنت مقيم هنا منذ أشهر ولم تقصه؟».

قال: «لأني نذرت ألا أقصه إلا في أحد الشعانين القادم».

فضحك استخفافاً وقال: «تلك حجج واهية لا ترد عنكم تهمة التجسس في خدمة ملوك الحيرة، وإلا لما أقمتم بقرية بعيدة وتسترتم عنا وحاولتم إخفاء أمركم، فمن كان في مثل ما أنتم فيه من اليسار لا يترك مدينة بصرى بمتزهاتها وطرقها ومسرحها وملاعبها ويقيم بقرية

حقيرة مثل قرية غسام، فاعترف وإلا كان عقابك شديداً». قال: «قلت لكم الصدق كل الصدق».

فقال: «ليس للصدق نصيب من قولك، هذا إلى أنكم تنتسبون إلى أمراء العراق، وقد أخذنا غلامك متلبساً بالسرقة».

فلم يفهم عبد الله معنى كلامه وظنه يغرر به ليستطلع شيئاً عنه فقال: «لعلكم أسأتم الفهم فإننا لا نقترف مثل هذه الأعمال، ولدينا من نعم الله ما يكفيننا مؤونة السرقة».

فهزّ ثعلبة رأسه استهزاء وأخذ يلعب شاربيه عجباً وقال: «وقد تحققنا الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عياناً». ثم قام إليه وأخذ يفتش أثوابه وجيوبه بدعوى البحث عن أوراق أو أشياء تؤيد تهمته فوجد حُقّاً فتحه فإذا فيه خاتم عليه فص كبير من العقيق الأحمر، فتأملته ثعلبة فرأى عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الأقلام التي كانت مستعملة في العراق فظهرت البغته على عبد الله ولكنه تجلد.

فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه ويتأمله فلم يستطع قراءته فالتفت إلى رجل من التراجمة حوله وقال له: «هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم؟».

فأخذه وقرأه وجعل ينظر إلى عبد الله تارة وإلى الخاتم أخرى، حتى ظهرت على وجه عبد الله ملامح الخوف، والحضور ينتظرون ما يقوله الترجمان حتى مل ثعلبة الانتظار فقال له: «قل ماذا قرأت؟».

قال: «إن على هذا الفص اسم (النعمان بن المنذر) وعليه شارة الملك». فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحداً واحداً وينظرون إلى عبد الله. وأخيراً خاطبه رومانوس قائلاً: «كيف وصل

هذا الخاتم إليك؟».

فأجاب وهو يحاول ألا يتلجلج: «ابتعته من بعض الصاغة». فانتهره ثعلبة قائلاً: «أقول بعد هذا أنك لست جاسوساً، وأنت تدعي أنك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصياغ. فمتى كانت خواتم الملوك تُباع في الأسواق؟.. قل ما الذي أوصل هذا الخاتم إليك؟». فلم يجب فأعاد السؤال عليه ثانية وثالثة فأصرَّ على الصمت.

فتفاوض ثعلبة ورومانوس سرّاً ثم قال لعبد الله: «إن وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة في خيانتك إلا إذا أخبرتنا كيف وصل إليك وما هي حكايته».

فسكت ولم يجب. فازداد حنق ثعلبة وقال له: «قل أجب».

فقال عبد الله: «قلت لك إني لا أعرف عنه غير ما قتله، وهو أنه وصل إليّ عرضاً في سوق الصاغة فقد يكون المترجم لم يحسن القراءة أو لعل ما قرأه اسم رجل يشبه اسم الملك النعمان».

فضحك ثعلبة وقال: «هذا كلام هراء، ولو كان أبي الحارث هنا الآن لأثبت نسبة هذا الخاتم إلى النعمان ملك العراق إذ رأى خاتمه على كتبه مراراً، وستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة وإلا فأنت مقتول شر قتلة».

قال عبد الله: «افعل ما بدا لك فما أنا ممن يخافون القتل لأنني بريء».

قال: «سترى عاقبة قحتك هذه عندما نأتي بابنك الغلام الغر ونريك خيانتته رأي العين».

ثم التفت ثعلبة إلى الحراس الأربعة وكانوا لا يزالون وقوفاً على

الباب وقال: «خذوه بأمر البطريق (القائد رومانوس) إلى برج القلعة، وأبقوه مخفوراً ريثما ننظر في أمره».

وكان لقلعة بصرى برج شامخ يستحيل الفرار منه، فلا طريق لمن يحاوله إلا نافذة إذا وثب منها لا يدرك الأرض حياً.

فصعدوا به طابقين آخرين وأدخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فأغلقوا الباب عليه وتركوه. فلما خلا بنفسه أخذ يفكر فيما مرّ به ويراجع ما سمعه عن ابنه فلم يفهم معنى اتهامه باللصوصية. ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لأنه ما زال متحققاً بنجاته من تلك الأشراك. على أن العثور على الخاتم عرقل مساعيه فلبث برهة يفكر ثم نهض إلى نافذة البرج الشرقية فأشرف منها على مدينة بصرى كلها بعماراتها وطرقها وأسوارها وحولها الأحواض المائية الكبيرة وأشعة الشمس تنعكس على أسطحها. وكان الجو صافياً فنظر إلى ما وراء ذلك فشهد في عرض الأفق جبلاً عليه بناء يكاد البعد يحجبه ولكنه عرف أنه قلعة سرخد (صلخد) الشهيرة وبينها وبين بصرى طريق حجري على استقامة واحدة مرصوف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع الرومانية الكبرى وخيل إليه أن بصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء لأن بلاد حوران جبلية جرداء غبراء اللون.

وتحوّل إلى نافذة جنوبية فأشرف على أرض أكثر خصباً من تلك، يتراعى فيها عن بُعد قرية أم الجمال لا يظهر شيء من أبنيتها لبعدها. فتذكر حماداً ومسيره إلى عمان فقال في نفسه: «لعله الآن بقرب هذا المكان مع سلمان». ثم هاجت به هواجسه وتذكر ما مرّ به منذ شبابه وخاف أن يقتل قبل أن ييوج لحماذ بسرّه وقد كتّمه عنه وعن سائر أهل الأرض أكثر من عشرين سنة. فتراكمت عليه

الهواجس حتى نسي موقفه وما هو فيه من الخطر العظيم.

قضى عبد الله نهاره في مثل هذا، ثم جاؤوه ببعض الطعام فلم يتناول شيئاً، وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي إلى النافذة فحدثته نفسه أن يثب من البرج لعله ينجو، فنظر إلى أسفله فإذا هناك هوة عميقة لا يمكن أن يصل إلى قاعها حياً، فصبر منتظراً ما يجيء بالقدر.

وفي اليوم الثالث أفاق على أصوات النواقيس من الأديرة والكنائس، فأطل من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زُينت الشوارع بسعف النخل وأغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحداناً يحملون الشموع وأغصان الزيتون يؤمّد الأديرة والكنائس، وفيهم الرجال والنساء وأولادهم بين أيديهم يحملون الأزهار والشموع وقد تزيّوا بأحسن ما عندهم من اللباس وأنواع الزينة فعرف أنه يوم أحد الشعانين والناس يحتفلون به على عادتهم، وتذكر حماداً وموعد النذر فعظم عليه الأمر واشتد به حتى بكى، ثم عاد إلى صوابه وتجلد تجلد الذين لا يتزعزعون لريب الده فقال في نفسه: «إن الدهر لا يستقر على حال فلا بد لهذه الأزمة أن تنفج».

وقضى بضعة أيام لا يأكل إلا قليلاً وقد هداً روعه وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة ويحمد الله لنجاة حماد لأنه لا يصبر على الأذى ولم يألف مشاق الزمان وكوارث الحداث. ففي ذات صباح جاءه الحراس وأمرّوه بالنزول إلى المجلس فزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي رومانوس وثعلبة قال هذا: «كيف تراك؟».

قال: «أرى أنني أسير بين يدي البطريق».

قال: «لماذا لا تعترف بحقيقة أمرك فنفرج عنك؟».

قال: «قلت لكم الحق فلم تصدقوني».

قال: «أثبتنا أين ابنك فنعفو عنك».

قال: «من أين لي أن أعلم ذلك وقد أخذتموني على غرة وكان خارج البيت فلا أعلم مقره».

ثم كلمه رومانوس قائلاً: «انظر يا هذا، إذا أنت تماديت في إنكارك فلا مندوحة من إرسالك إلى مولانا الامبراطور في حمص فهو أولى بالقصاص ولا ينجيك من بين يديه حيلة، فخير لك أن تعترف هنا وتنجو بنفسك».

قال: «قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم».

فأمر رومانوس بإعداد الحراس ليسيروا بعبد الله والخاتم إلى الامبراطور هرقل في حمص. فقال عبد الله في نفسه: «لعل في ذلك باباً للفرج فإن الامبراطور أكثر رافة وتعقلاً من هؤلاء». فأركبوه فرساً وهو موثق وحوله عشرة حراس بينهم خمسة من جند الروم وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على عادتهم.

— ٨ —

الامبراطور هرقل

كان الامبراطور هرقل إذ ذاك في حمص، وقد جاءها على أثر انتصاره على الفرس انتصاراً لم يكن يتوقعه فنذر أن يسير إلى بيت المقدس ماشياً، فوصل عبد الله إلى حمص وهرقل قد خرج منها على قدميه وفاء لنذره والحرث بن أبي شمر الغساني معه يعد له الطريق. فكان هرقل يسير والبطاركة والأساقفة بين يديه، وعلى رأسه التاج، والصولجان في يده، وقد تزمّل بوشاح أرجواني مزركش وأمامه

الحارث ورجاله يفرشون البسط في الطرق ليمشي عليها. فسار عبد الله مخفوراً وراء الموكب من حمص إلى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة علم في أعلاه نسر من الفضة أو صليب، إلا سرية صليبها من الذهب مرصع بالياقوت والماس كانت تحيط بالموكب عن قرب. وكان الناس في الطرق يخرجون من القرى لمشاهدة الامبراطور ماشياً وحاشيته حوله على البسط والسجاد والناس يلقون الأزهار على الطرق وبعضهم ينثرها على الامبراطور ورجاله وآخرون يرشون الطرق والمارة بالروائح العطرية على اختلاف أنواعها، حتى وصلوا إلى بيت المقدس وقد زيتها أهلها وخرج البطريك والأساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها البخور والند والعنبر والمشاعل أمامهم. فاستقبلوا الامبراطور خارج المدينة وعادوا به بالترتيل والأنشيد والصلوات، والناس يزحم بعضهم بعضاً يتسابقون لمشاهدة الامبراطور. وكانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجاً بالمارة فضلاً عن المطلقين من النوافذ والشرفات وأسطح المنازل، حتى وصل الموكب إلى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلون ويسبحون. ثم أقيمت الصلاة شكراً لله على ما أولاهم من النصر على أعدائهم الفرس.

كل ذلك وعبد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلحظ عندما أشرف على أسوار المدينة أنها متهدمة وآثار منجنيق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالأرض. وما زالوا سائرين حتى أتوا دار الحكومة فساقوا عبد الله إلى السجن فلما أصبحوا ساروا إلى الحارث بن أبي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا إليه عبد الله وحكوا له حكايته ودفَعُوا إليه الخاتم فحفظه حتى يعرضه على هرقل. فلبث عبد الله في السجن شهراً لم يتمكنوا في أثنائه من تقديمه إلى هرقل

لتزاحم الوفود من سائر الأنحاء يهتفون الامبراطور بما أوتيته من النصر.

فلما تمت مهمة الحارث وهم بالرجوع إلى بصرى تذكر عبد الله فاستأذن هرقل أن يدخل به عليه فأذن له، فساقيه مخفوراً إلى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة أعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته، وقد أحرق بها الحراس بأسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفاً إجلالاً للامبراطور. فدخل أولاً الحارث ثم استدعي عبد الله فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الأبهة والعظمة، فشاهد الامبراطور جالساً في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعانه يُبهر الناظرين، وعلى رأسه تاج مرصع يتلألأ، وعلى منكبيه وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب، وفي يده صولجان الملك وهو عصا طويلة من الذهب المرصع في أعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالحجارة الكريمة. وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهيئة زاد المشهد وقاراً، وإلى يمينه بطريك أورشليم بملابسه الرسمية وعصاه، وإلى يساره سرجيوس بطريك القسطنطينية، وإلى كل من الجانبين القواد والأساقفة وسائر رجال الدولة على كراسي من الذهب، وكانت أرض القاعة مكسوة بالسجاد المزركش والأبسطة الثمينة.

ورأى بين الأساقفة أسقفاً رآه مرة في الحيرة وهو كيرلس أسقف فاسيس في بلاد الأكراد، وكان يسمع بسعة علمه ودهائه فعجب لوجوده هناك، وازداد عجباً لما رآه بجانب البطريك الأورشليمي في منزلة البطارقة ورأى بجانب البطريك القسطنطيني بطريكاً لم يعرفه.

فهاهنا الموقف ولكنه تجلد، وقد علمته الأيام أن ما يراه من مظاهر الأبهة ليس إلا أعراضاً زائلة، وأن الحق سلطان يعلو ولا يُعلَى

عليه . ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى التافهة لولا ما أهمه من أمر الخاتم فأحب استطلاع أمره بنفسه ، فلما مثل عبد الله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما ، وأخذ الخاتم بيده يتأمله ثم قال لعبد الله :

«من أين أتيت بهذا الخاتم؟» .

فأجابه عبد الله مطرقاً : «جاءني عرضاً يا مولاي ، فاشتريته» .
قال : «لا يعقل أن مثل هذا الخاتم يُباع في الأسواق أو يلقي على الطرق وهب أنك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الأجدر بك أن ترده إلى صاحبه؟» .

فقال عبد الله : «مولاي يعلم أن صاحب هذا الخاتم إذا صح أنه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة ، فهو في عداد الأموات منذ عشرين سنة وأكثر» .

قال الامبراطور : «أليس من أبنائه أحد على قيد الحياة تدفعه إليه؟» .

فسكت عبد الله . فقال الامبراطور : «ما بالك لا تجيب؟» .
أجب ولا تحف وهب أنك جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسية بعد أن منحتنا العناية الصمدانية أكاليل النصر على أكاسرتكم» .

فقال عبد الله : «لقد نطق مولاي ببرائي من الجاسوسية من تلقاء نفسه والحمد لله إذ لم يبق ثمة حاجة إليها والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس» .

قال هرقل : «نعم ، ولكننا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم إليك وسبب إقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متكرراً على ما علمت من عاملنا هناك» .

فظل عبد الله مطرقاً ولم يجب .

فقال الامبراطور: «قل يا رجل فإن هرقل امبراطور الروم يكلمك» .

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور كأنه يحاول تقبيلهما وقال: «أنا أعلم ذلك يا سيدي ولكنني لا أستطيع التصريح بأكثر مما فهمت به بين يديك» .

قال: «إذن أنت تكتم أمراً تحاذر أن تبوح به» .

قال: «صدق مولاي» .

قال: «أتكتم ذلك عن امبراطور الرومانيين؟ ألا تخشى بطشه أو تخاف الموت؟» .

قال: «لا أظن أحداً لا يخاف الموت، ولكنني أؤثره على التصريح بالسر، وها أنذا بين يديك فأمر بما تشاء» .

فتعجب هرقل لإصراره وقال: «يا للعجب! أتقول ذلك ولا تخاف؟» .

قال: «إني أعلم يا مولاي بأن موتي وحياتي بين شفتيك، ولكنني لا أستطيع غير ذلك» .

فالتفت هرقل إلى من حوله من البطارقة والأساقفة والقواد وقال: «ماذا ترون في هذه الجسارة، فإني أزداد ميلاً إلى معرفة سر هذا الخاتم؟» . فالتفت البطريك الأورشليمي إلى عبد الله وحرّضه على الإقرار، وفعل مثل ذلك أيضاً البطريك الإنطاكي ولكن بلا جدوى .

فأراد هرقل تهديده فأمر بالجلاد فجاء والسيف يمينه فقال له: «ائتني برأس هذا الرجل» . فقاده إلى باحة الكنيسة وعبد الله يسرع

أمامه لا يتردد فربط عينيه وأركعه على نطع ودار حوله دورة والامبراطور يراه، فلما دار الدورة الثانية استقدمه هرقل وأمر بحل رباط عينيه وقال له: «ألا تزال مصرّاً على الكتمان؟».

فقال عبد الله: «أقسم برأس مولانا الامبراطور وسر التثليث المقدس أن ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتك بوجه من الوجوه ولكن كتمان سرّه فرض عليّ لا أستطيع التحول عنه».

فازداد الامبراطور استغراباً وقال لمن حوله: «كيف العمل؟».

فقال عبد الله: «أقترح على مولاي رأياً عساه يحوز القبول».

قال: «ما هو؟». قال: «إننا معشر النصارى نحترم سر الاعتراف فإذا شئتُم أن أبوح بسري لغبطة البطريك الأورشليمي فعلت، على أن يقول لجلالتكم إذا كان السرّ يمسكم من قريب أو بعيد ولا يصرح بتفاصيل قصتي وعندئذ تتحققون صدقي».

قال: «لا بأس». وأشار إلى البطريك فخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة أطلعه فيها هذا على سرّ الخاتم.

ولما همّا بالرجوع إلى القاعة قال عبد الله: «أرجو من مولاي البطريك أن يخبرني من هو البطريك الجالس بجانب البطريك سرجيوس؟».

قال: «هو اسناسيوس بطريك اليعاقبة ومقامه بالاسكندرية وقد جاء ليطلع الامبراطور على الخلاف المذهبي بين الملكية واليعاقبة في مصر».

فقال: «ألا يزالون على خلافهم وكنا ظنناه انتهى؟».

فتنهّد البطريك وقال: «كاد يزول ولكنه لم يزل، ومولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي شديد يعلم عاقبة هذا الانقسام، فلاح

له أن يجد وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة، فاستعان بالبطيريك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد، وعرض عقيدته هذه على البطارقة والأساقفة فقبلها أكثرهم. وفي عزمه أن ينقل البطيريك أثناسيوس إلى كرسي إنطاكية ويرسل الأسقف كيرلس إلى الاسكندرية بطيريكاً ووالياً عليها، لعله يوفق بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري، ولكنني لا أظنهما يتفقان فإن التعصب متمكن من الجانيين وليست هذه الاختلافات في نظري إلا مباحكات لفظية يتمسك بها بطاركتنا رغبة في السلطة الدنيوية فلتكن إرادة الله. فما أجدر بالمملكة المسيحية أن تكون على مذهب واحد تقول قولاً واحداً تأييداً لدولة الروم العظمى، فقد كفانا ما نجم عن هذا الانشقاق من المصائب. ناهيك بما نعانیه من دسائس اليهود فإنهم يبذلون كل ما يملكون بغية هلاكنا لو استطاعوا إليه سبيلاً».

فأعجب عبد الله برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته، وتحقيق ما سمعه عن تأنيه وحزمه، ولكنه لم يكن يرجو له الفوز ببغيته لما يعلمه من تمكن الشحاء بين الأحزاب، ثم قبل يد البطيريك وخرجا.

وفيما هما عائدان إلى القاعة شاهد الحرس في هرج وبينهم رجل غريب بلباس أهل البادية ليس عليه غير الشملة والعمامة متقلداً حساماً أعقف وبيده حربة وقد علاه الغبار ولوحت الشمس وظهرت على وجهه آثار الأسفار وكان عبد الله خبيراً بقبائل العرب لكثرة اختلاطه بهم فلاح له أن الرجل من أهل الحجاز فعجب لمجيئه وليس في بيت المقدس أحد في مثل لباسه وشكله، ولولا اشتغاله بأمر نفسه لخلا به وسأله عن حاله ولكنه اضطر أن يمشي مع البطيريك إلى قاعة

الامبراطور، فدخلوا وجلس البطيريك في مجلسه ووقف عبد الله في موقفه.

فسأل هرقل البطيريك: «كيف رأيت الرجل؟». قال: «رأيت صادقاً وعذرتني في كتمان أمره وأمر هذا الخاتم، وقد أطلعني على خلاصة حكايته فإذا هي مستقلة عن جلالتك ولا علاقة لها بالروم قاطبة، ولكنه سرّ مقدس أقسم على كتمانها فلا يستطيع التصريح به إلا في أوانه».

فاقتنع هرقل والتفت إلى عبد الله وعبد الله مطرق إجلالاً ووقاراً وقال له: «لقد غفرنا لك فاذهب بسلام». وأعطاه الخاتم ونادى الحارث فوقف بين يديه فبلغه عفو وأمره أن يدفع إليه كتاب الأمان فتقدم عبد الله وجثا أمام الامبراطور وشكر نعمته وتقهرق يريد الخروج، فرأى ذلك البدوي قد أذن له في الدخول وفي يده رق من جلد يريد تقديمه إلى الامبراطور، فاعترضه الحارث فقال البدوي: «بيدي كتاب إلى جلالة الامبراطور أريد تسليمه إليه فأخذ الحارث الكتاب فإذا هو مختوم بالطين فقدمه إلى هرقل ووقف عبد الله ينظر إلى ما يكون من أمر ذلك الكتاب.

فرأى هرقل قد فضّه وتأمّله فلم يستطع قراءته فناوله إلى ترجمانه فنظر إليه ثم قال: «إنه مكتوب باللغة العربية».

فقال هرقل: «اتله علينا». فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن إثم الأكابر عليك.. محمد رسول الله».

فلما أتم قراءته ترجمه فدهش من في المجلس لشدة لهجته، فالتفت هرقل إلى من حوله كأنه يستشيرهم في شأنه وهو لم يفهم المراد

منه، لأنه لم يكن قد سمع بتلك الدعوة إلا همساً فقال: «مَنْ يَنْبَنِي بحكاية هذا الرجل؟». فلم يستطع أحد فتقدم عبد الله ومثل بين يديه فقال له: «هل سمعت شيئاً عن صاحب هذا الكتاب؟». وأمر بالكتاب فدفع إليه فقرأه وقال: «نعم يا مولاي إن صاحبه نبي ظهر في مكة من بلاد الحجاز، من قبيلة يُقال لها قريش دعا الناس إلى عبادة الله وكان أكثر العرب يعبدون الأوثان فأجابه جماعة كبيرة منهم بعد أن قاسى العذاب من اضطهاد أهله وعشيرته وأهل وطنه، فهاجر إلى يثرب فنصره أهلها وشدوا أزره وانتشرت دعوته في أقاصي بلاد العرب، ويظهر من كتابه هذا أنه يدعو مولاي الامبراطور إلى الإسلام».

فلما سمع المجلس قوله كثر اللغط فيما بينهم واستخفوا، فالتفت هرقل إليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له: «إن في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة وتطاولاً على مقام الامبراطور». فأشار هرقل إشارة فهموا منها أنه يطلب سكوتهم فسكتوا، والتفت إلى البطريك عن يمينه مستفهماً، فقال البطريك: «إني أرى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل، لأن كاتبه يبدأ خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال: (من محمد رسول الله إلى عظيم الروم). والعادة في خطاب الامبراطور أن يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه فأرى ألا تعيروا هذا الكتاب التفاتاً».

فقال هرقل: «ولكن علينا أن نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاته، فهل تعرفون أحداً من قريش نسأله عنه».

فقال الحارث: «أعرف أميراً من أمراء مكة اسمه أبو سفيان قدم آنفاً لتجارة في غزة، وهو أقدر مَنْ نخبرنا عن صفات هذا النبي». فقال هرقل: «إليَّ به».

فقال الحارث: «سمعاً وطاعة فسيكون الرجل هنا بعد بضعة أيام إن شاء الله».

قال الامبراطور: «وعند ذاك نعقد مجلساً يحضره هذا العراقي لأنه يعرف العربية وعسى أن ينفعنا». وارفضت الجلسة.

خرج عبد الله من المجلس وقد دهمه الوقت وتأخر على حماد، وكان قد عرف أبا سفيان في بعض أسفاره إلى مكة ولم يتح له أن يتحدث إليه، فأحب أن يراه ثانية ويسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة، فسار تَوَّأ إلى دار الضيافة بالدير فأقام على الرحب والسعة، وخرج في أثناء ذلك إلى المدينة فطاف أحياءها وتفرَّج على مشاهداتها فرأى فيها أخلاقاً من اليهود يتخاطبون بالعبرانية الممزوجة بالألفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان.

ورأى جماعة كبيرة من الروم وفي أيديهم أكثر مرافق البلاد ولهم السيادة على أهلها. ولم يسمع في أحاديث الناس إلا الجدال بين القائلين بالطبيعة وبين القائلين بالطبيعتين فأيقن أن هذا الخصام سيكون سبباً في القضاء على الدولة.

فلما أزف الوقت المضروب للاجتماع ذهب إلى الحارث وسارا معاً إلى كنيسة القيامة فدخلوا صحنها فشاهدوا جماعة من البدو عرف عبد الله من لباسهم أنهم من عرب الحجاز، فأدرك أنهم رجال أبي سفيان ورأى بينهم رجلاً يمتاز بحسن زيّه وكبر عمامته واتساع عينيه وقد تزمّل بالعباءة المزركشة وتقلد الحسام دون سائر رجاله فقد كانوا يحملون الرماح ومعظمهم عراة الرؤوس وفيهم من شدّ رباطاً حول شعره من الأعلى.

فلم يتكلم عبد الله ولكن الحارث تقدم إلى أبي سفيان، فوقف له هذا وقد عرف أنه الحارث بن أبي شمر، فحياه وأخبره أنه جاء

طوعاً لأمر الامبراطور. فقال له: «إلبث حتى ندخل على مولانا الامبراطور ثم نبعث إليك». فدخل، فأمر هرقل باستقدام القرشي فخرج الحارث ثم عاد وحده وقال للامبراطور: «إن الرجل أبى الدخول إلا بحسامه». قال هرقل: «فليدخل». فدخل أبو سفيان ومعه بعض رجاله، فبهروهم ما في القاعة من الزينة ودلائل البذخ، ووقف أبو سفيان أمام الامبراطور وقبل الأرض بين يديه وحياء قائلاً: «أبيت اللعن». وهي تحية الملوك في الجاهلية. فتعطف وأمره بالجلوس، فتربع على الأرض وجعل سيفه عرضاً على فخذه وجلس رجال ورائه فأدرك هرقل أنها عادتهم في الجلوس فلم يكثرث.

— ٩ —

صاحب الشريعة الإسلامية

خاطب هرقل أبا سفيان بوساطة الترجمان قائلاً: «من أي القبائل أنت؟». قال: «من قریش». قال: «أتعرف رجلاً اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس إلى دين جديد؟».

قال: «أعرفه وهو من ذوي قرباي، لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدين جديد ونحن على دين آبائنا، وطالما نهيناه فلم ينته». قال هرقل: «أود أن أعرف حقيقة هذا الرجل فقد أثار أمره اهتمامي فهل لك أن تنبئني عنه وعن دعوته وما يدعو الناس إليه؟». فأسند أبو سفيان كوعه على ركبته ليستريح في جلوسه، والتفت إلى من حوله فإذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطارقة والأمراء والقواد، فعلم أنه يقص حكايته على أعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامه فقال: «أبيت اللعن أيها الملك، إن محمداً صاحب هذه الدعوة الذي توصل إلى مخاطبة قيصر الروم قد رُبِّيَ يتيماً الأبوين صفر اليدين، ولكنه من أصل عريق في الشرف والسؤدد من

قبيلة قريش التي أنا منها، ويتصل نسبنا بعدنان، ونسب عدنان بإسماعيل بن إبراهيم فنحن من أشرف العرب نسباً وأطيبهم طينة. وكان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتاً يحج إليه الناس من أقطار العالم اسمه الكعبة بناه في مكة بالحجاز وهي مسقط رأسي ومحل إقامتي ومركز تجارتي ومقام أهلي.

«وكانت ولاية هذه البيت تارة في قريش وتارة في سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين أو أكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية. إذ لا يخفى على مولاي القيصر أن العرب يرجعون في أنسابهم إلى أبوين هما: إسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز، وقحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن. ولم تستطع خزاعة الاستئثار بولاية الكعبة إلا لما تفرقت كلمة قريش وضعف أمرهم، إلى أن ظهر جدنا قصي فبذل الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت إلى قريش وتولى هو كل أعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء».

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الكلمات وأشكل عليه تفسيرها فقال هرقل: «أفهمنا ما معنى هذه الأعمال؟».

فقال أبو سفيان: «ليس في مكة يا مولاي حكومة مستقلة كحكومة القيصر، وإنما هي مكان عبادة لأن الكعبة يزورها الناس كما يزور النصارى ديراً من الأديرة، ولكنها أعظم من ذلك كثيراً، فمن تولى أعمالها كانت إليه حكومة مكة وولاية أمرها على قدر ما يتولى من تلك الأعمال. فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة أي أن مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن أراد ويمنعها ممن أراد. وأما السقاية فهي أن بجانب الكعبة بئراً قديمة يُقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا اسماعيل فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهده يسقي

الحجاج منها، أما الرفادة فهي خراج أو مال تدفعه قريش إلى مَنْ يتولى الرفادة فيصنع منه طعاماً للحجاج الذين يزورون الكعبة من أقطار الأرض لأنهم ضيوف عليه. وأما اللواء فهو العلم الذي يعقدونه للحرب وصاحب اللواء يعقد الألوية للجند الذاهبين للقتال، وهو بمنزلة قائد الجند عندكم. أما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في مكة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة، وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأي وإليه يرجع الأمر. ففي هذه الأمور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة للدين والدنيا، لمن يتولاها فيكون القضاء والجند والكعبة والمال في يده، ولقد حاز جدنا قصي شرف ذلك كله إذ قطع مكة أربعاً بين قومه، وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت إليها سطوتها وعلا نجم سعدا فتيمنت بأمره حتى صارت لا تزوج امرأة لرجل من قريش إلا في داره، وفيها يتشاورون في كل أمر نزل بهم، ويعقدون لواء الحرب ضد غيرهم وصفوة القول كان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره، وكان له أربعة أولاد هم: عبد الدار، وعبد مناف جدنا، وعبد العزى، وعبد. فلما شاخ قصي كان عبد مناف قد شرف في زمانه وعظم أمره وكذلك عبد العزى وعبد الدار، فأراد قُصِي أن يشرف عبد الدار وكان بكره فدعاه إليه وأوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله إلى عبد الدار وإلى بنيه من بعده.

«ثم خلف عبد الدار أولاداً، وخلف عبد مناف أولاداً آخرين وهم: عبد شمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل. وكانوا رجالاً أشداء، وعبد شمس هو جدي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبد الدار على ما في أيديهم من أمر الكعبة، ونازعوهم عليه حتى كاد

يفضي أمرهم إلى الحرب، ثم تداعوا إلى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فأعطيت السقاية والرفادة لبني عبد مناف، وأعطيت الحجابة واللواء والندوة إلى بني عبد الدار، وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف. ولا تظنوا أنني أطلت الكلام على غير طائل أو أنني دخلت فيما لم أسأل عنه فإن لما قلته علاقة كبرى فيما سألتهموني عنه. فقد تولى السقاية والرفادة أولاً عبد شمس، ولكنه كان كثير الأسفار لا يقيم بمكة إلا قليلاً فعهد بهما إلى أخيه هاشم، وهاشم هو جد أبي محمد الذي تسألونني عنه. ثم مات هاشم فوليهما أخوه المطلب وكان سمحاً سمته قريش الفيض لسماحته.

«وولد لهاشم ولد سمّاه شيبة ثم سُمي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد لأبيه. فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن أخيه هذا أي عبد المطلب. وولد لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور منهم عبد الله أبو محمد».

«وكان عبد المطلب قد أراد حفر بئر زمزم فمنعه أقاربه من ذلك، فلاقى أموراً صعباً، ولكنه فاز بحفرها فنذر أنه إذا وُلد له عشرة أولاد لينحرن أحدهم عند الكعبة. فلما همّ بالوفاء بنذره لم يدر أي أولاده ينحر، فاستخار هبل الصنم الأكبر القائم في الكعبة بواسطة القداح».

فأشكل أمر هذه القداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها.

فقال أبو سفيان: «إن لنا في الكعبة أصناماً كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبد وأعظمها صنم اسمه هبل عنده سبعة قداح، هي أسهم بلا ريش، كل قدح عليه كتابة بمعنى، فقدح كُتب عليه (العقل) وقدح عليه (نعم) وقدح عليه (لا) فإذا أرادوا أمراً

ضربوا عليه القداح فإذا خرج (نعم) فعلوا ما جاؤوا من أجله، وإذا خرج (لا) لم يفعلوه، وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا القداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به. فجاء عبد المطلب إلى هبل وأخبر صاحب القداح بنذره. فاصطنع لأولاده عشرة أقداح لكل رجل منهم قدحه وعليه اسمه، وكان عبد الله أبو محمد الذي نحن في صددده أصغر بني عبد المطلب وأحبهم إليه. فلما ضربت القداح خرج القدح الخاص بعبد الله، فهمّ عبد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك وقالوا: (لا بل يجب أن تعذر فيه) فانطلق إلى عرافة في المدينة (يثرب) فوجدوها بخير، فجاؤوها فسألوها عذراً، فسألتهم: (كم دية الرجل عندكم؟). قالوا: (عشرة من الإبل). قالت: (فخذوا الغلام وعشرة من الإبل واضربوا عليه وعليها القداح، فإن خرجت عليه فزيدوا في الإبل عشرة فعشرة حتى يرضى إلهكم وتخرج القداح عليها فتنحروها). فخرجوا وضربوا القداح فما زالت تخرج على عبد الله حتى بلغ عدد الإبل مائة فخرجت عليها، فذبحوها ونجا عبد الله وبقي حياً وتزوج فولد له محمد.

«ولم أطل عليكم الكلام إلا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة وأصنامها، فإنها ضالتنا وغايتنا نستشيرها ونستخيرها، وإليها تحج الناس من سائر أقطار الأرض ولنا بها منفعة وتجارة لما يأتينا بوساطتها من أصناف الناس عربها وعجمها. وقد ذكرت لكم كم سفكنا من الدماء في سبيل استبقائها فهي مصدر نعمتنا ومنبع أقاتنا ومرجع آمالنا. وقد مضت عليها القرون الطويلة قائمة والناس يكرّمونها ويعظمونها ويذبحون عند أصنامها الذبائح ويقدمون إليها الهدايا إلى اليوم. ولكن صاحب هذا الكتاب (وأشار إلى الرق أمام

هرقل) قام يدعو الناس إلى هدم ما بناه أجداده فيها».

فلما بلغ أبو سفيان في كلامه إلى هذا الحد، ظهرت على وجه هرقل دلائل الاستغراب، وخاطب البطريق إلى يمينه باليونانية قائلاً: «أرى هذا الرجل يشكو ممن يريد هداية قومه عن عبادة الأصنام. فإذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية». فتداول الحضور الحديث برهة مؤمنين على ما قال الامبراطور. وازداد شوقهم لمعرفة بقية الخبر وكيف استطاع محمد أن يقوم بدعوته رغم خطورتها ويطمه وضعفه، فالتفت هرقل إلى أبي سفيان وقال له: «لقد أفصحت فيما رويت فهل لك أن تفسر لنا كيف تمكن هذا النبي من القيام بدعوته؟».

فقال أبو سفيان: «رأيت آيت اللعن كيف نجا عبد الله بن عبد المطلب من الموت، وكان أبوه يحبه فزوجه امرأة من قريش اسمها آمنة ولم تطب إقامته معها طويلاً إذ اضطر إلى سفر إلى غزة التي أنا آت منها الآن، ومرض في طريقه فعادوا به إلى مكة فمات قبل أن يصل إلى مكة بجوار يشرب، ودفن هناك. وكانت امرأته آمنة حين مات حاملاً، ولم يترك لها إلا أربعة من الإبل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة. وكانت تقيم بيت في ضواحي مكة عند جبل شريقها اسمه جبل أبي قبيس. وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل وهو العام الذي جاء فيه أبرهة الأشرم من الحبشة لفتح مكة (سنة ٥٧٠ م). فلما ولدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه إليه فباركه وسمّاه محمداً. ومن عادتنا أيها الملك أن نرضع أولادنا من المراضع، ويندر أن يعيش لنا ولد على لبن أمه، وتختار المراضع من أهل البادية لصحة أجسامهن، فاختارت له أمه مرضعاً من أهل الطائف اسمها حليلة فأرضعته حولين قضاها في سهول الطائف وأوديته، فشأ

نشطاً وسمعت الناس يروون عن طفولته أخباراً غريبة لم نسمع بمثلها من قبل . منها أن مرضعته تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فإذا بولدها قد جاء يقول : (إن أخي القرشي أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه)، فخرجت هي تلمسه فوجدته وحده فسألته عن أمره فقال : (جاءني رجلان عليهما ثياب بيض وشقا بطني وأخرجاً منه شيئاً لا أدري ما هو وغسلاه بالثلج) . فخافت حليلة على الغلام فحملته إلى أمه بمكة فقصى فيها مدة يرعى الغنم ويطوف الأحياء مع الأولاد، وكان كل من رآه أعجب بذكائه وجماله ونور محياه، ولم يكذب يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت أمه في الأبواء بين مكة والمدينة ودُفنت هناك، فأصبح الغلام يتيم الأبوين فاحتضنه جده عبد المطلب وأحبه أكثر من حبه لأولاده، فكان الناس يكرمونه من أجل جده، وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والسيوخ ويحدثهم بما يقربه إلى قلوبهم وعواطفهم، وبعد سنتين توفي عبد المطلب فولى السقاية ابنه العباس . أما الرفاة فنيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا، فأصبح محمد يتيماً غريباً فكفله أبو طالب أحد أعمامه، وكان أبو طالب أقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحتضن الغلام وتولى تربيته . والسبب في احتضانه إياه دون سائر أعمامه أن أبا طالب وعبد الله أبا محمد كانا أخوين شقيقين . ولا شك أيها الملك العظيم أن كفالة أبي طالب هذه كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد وبقائه حياً، لأن أبا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فأقام محمد ببيته كأحد أولاده، وكان أبو طالب إذا خرج إلى تجارة أو سفر اصطحب محمداً، فينزل بالأديرة ويجالس الرهبان والعلماء . وأشهر ما سمعناه عنه نزوله بدير بحيراء قرب بصرى . فقد أخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته أن الراهب بحيراء تنبأ بأمور كثيرة عن مستقبل حياته، وأوصى عمه

أبا طالب بأن يعتني به ويحرسه من اليهود. وكان محمد إذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحدث الناس ويجادلهم ويطارحهم الرأي ويُعجبون لذكائه وقوة برهانه، فقد كان على صغر سنّه ذكي الفؤاد فصيحاً واسع الاطلاع مما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في أسفاره، مع أنه أُمّي لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك إلى الآن، وكان مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالأمين فإذا جاء أو ذهب قالوا: (جاء الأمين أو ذهب الأمين).

«وأهل مكة أيها الملك أهل تجارة يحملون الأموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق إلى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيراً حتى إن نساءهم كنّ يتعاطينها. وكان في مكة امرأة غنية اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قُصي، وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال للتجارة في مالها، وتفرد شيئاً منه تجعله لهم. فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أكثر مما كانت تعطي غيره، فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد أكسبها مالاً طائلاً فأحبته وعرضت عليه أن يتزوجها ففعل وولدت له أولاداً وهم: القاسم ويُكنى به (فيقال أبو القاسم)، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. وأما القاسم والطاهر فماتا قبل أن أظهر دعوته. وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من أمره غير ما عرفناه من حُسن خصاله ومهارته واستقامته، ثم اجتمعت قريش يوماً لبناء الكعبة، وذلك على أثر سرقة كنز كان في جوفها، والعثور عليه عند رجل من خزاعة، وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، فأخذنا خشبها وأعددناه لتسقيف الكعبة،

وكان بمكة رجل قبضي يُحسن النجارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها واقتسمنا العمل لكيلا يحوز أحدا من الشرف في ذلك أكثر مما يحوزه غيره. فجننا بالحجارة والأخشاب حتى تم البناء ولم يبق إلا رفع الحجر الأسود الأثري إلى مكانه فاختصم الناس فيمن يرفعه منهم، وكانت كل قبيلة تدعي أنها أحق برفعه، حتى تعاضم الخصام وهموا بالقتال. ثم اتفق رأي عقلائنا أن يحكموا فيما بينهم أول داخل من باب المسجد في ذلك اليوم. فكان محمد أول داخل فقالوا: (هذا هو الأمين قد رضىنا بحكمه). فأخبروه الخبر فرأى رأياً حسناً لم يخطر ببال أحد منا. ذلك أنه أتى بثوب واسع جعل الحجر فيه وقال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية منه). فرفعناه جميعاً حتى بلغنا به موضعه، فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف. وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة، وحدثت حرب الفجار بعد عام الفيل بعشرين سنة. وكان لعمله هذا وقع حسن علينا فخرج الناس من الكعبة يتحدثون بفطنته وتعقله وكنت في جملة المعجبين به ولا أزال أعترف بفضل له لولا ما أراد من تحقير آلهتنا وتعييب أصنامنا كما سأقصه عليكم. وبقينا نتحدث بحسناته ونعجب بأخلاقه حتى بلغ الأربعين، فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في شعب الجبال حتى صار يأوي إلى الكهوف، وذكر أن الملاك جبرائيل ظهر له وعلمه الصلاة فعلمها لامراته خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلي ابن عمه أبي طالب، وكان علي غلاماً صغيراً، وعلمها أيضاً لعبد الله بن أبي قحافة الذي يسمونه الآن أبا بكر، وتبعه آخرون. وهو يتلو عليهم آيات يقول إن ربه علمه إياها ونحن لا نعبأ بذلك لأنه لم يمس آلهتنا بعب. ولكنه ما لبث أن جمع عمومته وأهل عشيرته الأقربين ودعاهم إلى ترك الآلهة فأجابهم عبد العزى (أبو لهب) منكرأ عليه جرأته هذه ونصح له أن يرجع عن ذلك، فأبى.

«ثم بلغنا أنه سبّ آلهتنا وعاب أصنامنا، فشق ذلك علينا واجتمعنا وفينا نخبة من أشراف قريش وتداولنا أمره بيننا، فرأى بعضنا أن نقتله وقال بعضنا: (إذا قتلناه أسأنا إلى عمه أبي طالب وهو رجل جليل القدر فالأجدر بنا أن نخاطبه في شأن ابن أخيه ولا سيما أن أبا طالب هذا ظل على دين آبائنا ولم يؤمن بدعوة ابن أخيه). فسرنا جميعاً إلى أبي طالب في منزله فقلقنا على الرحب والسعة وأكرم وفادتنا على عادته، فلما استقر بنا المقام قلنا: (يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا أو تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه). فأجابنا أبو طالب جواباً لطيفاً ووعدنا وعداً حسناً وردنا رداً جميلاً، فانصرفنا عنه على أمل أن يردع ابن أخيه عن عمله، فإذا هو مصرّاً على ما كان عليه وبقينا نسمع ما كنا نسمع عنه قبلاً. وكان ممن أيد دعوته من قريش ابن عم لامرأته، اسمه ورقة بن نوفل، وكان نصرانياً مثلكم، فاشتد غضبنا وهممنا بأن نفتك به ثم رجعنا إلى مجاملة عمه فاجتمعنا إليه مرة أخرى وقلنا له: (يا أبا طالب إن لك ستاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإننا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى يهلك أحد الفريقين). فآنسنا هذه المرة من أبي طالب إنصياًعاً وكأنه رأى إجابة سؤالنا إذ لا طاقة له بفراق قومه وعشيرته ومعاداتهم، وبلغني أنه لما خرجنا من منزله بعث إلى ابن أخيه فقال له: (يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوا إلي فقالوا كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق). فآنس من إصراره على دعوته وبقائه على عزمه ما كاد يغضبه، لولا أن محمداً قال له: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر أو أهلك ما تركته). ثم بكى فرق له قلب عمه وتذكر أن

ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد إلى نصرته وطمأن قلبه ووعدته أنه لن يسلمه أبداً.

«ثم علمنا ذات يوم أن محمداً ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال: (أفرايتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرائق العلى، إن شفاعتهن لترتضى). فسررنا سروراً لا مزيد عليه وقلنا ها قد تم الوفاق لأنه جاء بمثل عقيدتنا. لكنه ما لبث أن رجع عن ذلك وأبدل بهذه الفقرة الأخيرة فقرة زادتنا نفرة منه، وذكر آلهتنا بكل سوء فقال: (إن هي إلا أسماء سمّيتهن أنتم وأباؤكم). إلى غير ذلك مما زادنا نفوراً وبعداً.

«فحرنّا في أمرنا مع هذا الرجل، ولبشنا نتوقع فرصة لتخلص منه ونرجو رجوعه، فإذا هو باقٍ على عزمه، وكثيراً ما كان بعض رجالنا إذا التقوا به تهددوه فلا يبالي، وفيما نحن في ذلك سمعنا أن عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته وأخذ ينصره، وحمزة هذا رجل شديد تهابه قريش فاشتد به أزره وازداد ثباتاً في دعوته فقلنا: (لندعون محمد إلينا نكلمه ونخاصمه حتى نعذر فيه). فاجتمعنا في الكعبة وفيها كل أشرف قريش، واستقدمناه فجاء فقلنا له: (لقد بعثنا إليك لنكلمك، فإننا لا نعرف رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئاً تراه قد غلب عليك - والرئي التابع من الجن - بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك).

فأجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً: (ما بي ما تقولون، وما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم). فأردنا أن نمتحن اعتقاده فقلنا له: (إن كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فيغير لنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضي من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قُصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وإنه بعثك رسولاً كما تقول). فأجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً: (ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به، وقد بلغت ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم). وطال الجدل بيننا في مثل ذلك وهو باقٍ على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلاً إلى الإيقاع به.

كان أبو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتناولون بأعناقهم، يُعجبون لما سمعوه، فقال بطريق القسطنطينية لهرقل: «إني أرى أن هذا الرجل جاءهم بالحق». وعاد لاستماع الحديث فقال أبو سفيان: «وما زال أمر محمد يستفحل حتى كثر أنصاره، ومن غريب ما رأينا أنهم كانوا يحتملون منا الأمور الصعاب والاضطهاد الشديد دون أن

يكفروا به، حتى إذا ضيقنا عليهم فرّ جماعة منهم إلى بلاد الحبشة فحماهم ملكها وأخذ يناصرهم. أما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون، حتى سمعنا بإسلام عمر بن الخطاب، وهو من أعظم رجال قريش، فتأيدت دعوته به كما تأيدت بحمزة، فعظم أمره واشتد أزره فصار دعائه يتكاثرون يوماً بعد يوم بمن ينضم إليهم من القبائل، فخفنا عاقبة ذلك فاجتمعنا واثمنا على أن نكتب كتاباً نتعاقد فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا ننكح إليهم ولا ننكحهم ولا نبيعهم شيئاً ولا يبتاعوا منا شيئاً، فكتبند صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنها لم لبثت أن نقضت لأننا تعهدناها يوماً فإذا هي قد أكلتها الأرض ففشاء منا وسقط في أيدينا فلبثنا نتنظر ما يأتي به الزمان. ومنذ حوالي عشر سنوات توفي أبو طالب وخديجة، فذهب الذي كنا نهابه ونجل مقامه فلنا من محمد ما لم ننله قبلاً، فسمناه أنواع العذاب والاضطهاد، حتى كثيراً ما كنا ننثر التراب على رأسه، فخرج من مكة إلى الطائف عسى أن تنصره قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته فيها، فلم ينل هناك خيراً بل كانوا يسبون ويؤذونه ويعترضون له في الطريق ويسومونه ألوان العذاب حتى ظنناه يرجع ويترك دعوته ولكنه لم يزد إلا ثباتاً. وكان يذهب إلى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشرأ كموسم عكاظ وغيره ويعرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى دينه. فكاذا أكثرهم إقبالاً عليه قبائل الخزرج من أهل المدينة (يثرب) فإنهم بايعو بيعات تُعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة».

فقال الترجمان عند ذلك: «وما معنى المبايعه عندكم؟». قال أب سفيان: «أن يتراضى الفريقان على أمر كالبيع والشراء، وسمعت أ

محمدًا يأخذ العهد على مبايعته أن يكونوا على دعوته. ومن أمثلة ذلك قولهم: (بايعناك على ألا نشرك بالله ولا نسرق ولا ننزي ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصاك في معروف). وقد كانت بيعة العقبة هذه أول أمر الأنصار وهم أهل المدينة، وسماهم الأنصار لأن أمره ضعف بعد وفاة عمه وخديجة كما قدمت فجاء الخزرج وبايعوه ونصروه فسماهم الأنصار. وهؤلاء ذهبوا إلى المدينة ونشروا دعوته بين أهلها فتبعه منهم كثيرون، فلما رأى تضيقنا عليه بمكة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة وسماهم المهاجرين تمييزاً لهم عن الأنصار. فلما علمنا بذلك وتبين لنا أنه إذا سار إلى المدينة سيمتنع بأنصاره وأصحابه وربما عادوا إلى مناوأتنا، اجتمعنا في دار الندوة بجانب الكعبة للتشاور فيما نفعل بهذا الرجل، فقال بعضنا: ننفيه، وقال آخرون: إن نفيه لا يمنع اجتماعه بأصحابه وأنصاره، فقال آخرون: فلنقتله ونجعل دمه متفرقاً بين القبائل لئلا يجتمع أعمامه بنو عبد مناف على المطالبة بدمه، فجننا برجال من كل القبائل وسرنا جميعاً خلصة حتى أتينا منزله وتربصنا له حتى ينأى فلما ظنناه نام وقد شاهدنا رجلاً ملتفاً ببردة حسبناه هو خرج إلينا ونحن نظنه سواه فكلمنا وحثا التراب على عيوننا وفرّ من أمامنا ونجا، وتبعه من بقي من أتباعه في مكة إلى المدينة. وهناك نصره المهاجرون والأنصار، وهم جنده إلى هذا اليوم مع من انضم إليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها، فإنه لم يدع قافلة لنا تمر بالمدينة إلا غزاها وفرق أسلحتها وأموالها بين رجاله، حتى كانت بيتنا وبينه غزوتا بدر الكبرى والصغرى، وغزوة أحد، وغير ذلك مما يطول شرحه».

فعجب هرقل لحديث أبي سفيان ورآه لما فرغ من حديثه قد

علت وجهه الكآبة فقال له: «وكيف حال صاحبك اليوم؟».

قال: «انتشر أمره بين القبائل في بلاد العرب إلا مكة فإنها لا تزال ممتنعة عليه، ونظنها ستمتنع برجالها. وقد بلغني أنه سيقدم لفتحها ولكنه سيلقى منا غير ما لاقاه في وقائعه الأخرى».

فقال هرقل: «يؤخذ من كلامك أن الرجل جاءكم بالقول الحق، فإن عبادة الله أولى من عبادة الأصنام وأنتم إنما قاومتموه ظلماً».

فقال أبو سفيان: «إن أكثرنا أيها القيصر يؤمن بالله، ولكننا نتخذ الأصنام (ليقربونا إلى الله زلفى) ونحن نعتز بالبعث والإعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل».

فاعترضه أحد البطارقة قائلاً: «لا نظنكم قاومتموه إلا خوفاً على تجارتكم أن تبور إذا حطم آلهتكم وقل ورود الناس إليها».

ثم أشار هرقل إشارة فهم الحضور منها أنه اكتفى، فتقدم الحارث إلى أبي سفيان وأوماً إليه فوقف وقبل الأرض بين يدي هرقل فقال له الامبراطور: «لقد سرنا لقاءك واستفدنا من حديثك، وقد تكبدت المشقة بالقدوم إلينا جزاك الله خيراً». فقبل أبو سفيان الأرض ثانية وقال: «أبيت اللعن أيها الملك العظيم، فإني بالمثل بين يديكم أفاخر أهل الحجاز كافة، إذ قلما تيسر لأحد منهم أن يخاطب قيصر الروم». قال ذلك وخرج ورجاله معه فأمر له هرقل بخلعة من الحرير المزركش.

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وأمر أن يُحفظ في قسبة من ذهب، وأمر بهدية إلى دحية حامل الكتاب. وصرفه.

— ١٠ —

غزوة مؤتة

كان عبد الله قد رأى أبا سفيان قبل ذلك في مكة، فلما خرج هذا من عند هرقل تبعه إلى صحن الدار وابتدره بالتحية ولم يكن أبو سفيان يتذكر وجه عبد الله، ولكنه سرعان ما أنس إليه، لما بينهما من رابطة اللغة في أرض قلّ فيها العرب، ثم سأله أبو سفيان عن وجهة سفره فقال: «إني مسافر إلى عمان». فقال أبو سفيان: «إن في طريقك إليها أودية وعقبات كثيرة، هل جئتها من قبل؟».

قال: «جئتها من هذا الطريق منذ بضعة أعوام».

فقال أبو سفيان: «أما وقد تعارفنا فلنسر معاً لأننا عازمون على الحجاز، ويسهل علينا المرور بعمان فإذا مكثت أنت فيها ودعناك وسرنا في سبيلنا، ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا وأثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يوماً أو يومين حتى نستقدم القافلة ونسير جميعاً».

فقال عبد الله: «حسناً وأنا أذهب الآن لوداع الحارث ولقضاء بعض حاجاتي ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة».

قال أبو سفيان: «نعم الرأي ما رأيته».

وافترقا فعاد عبد الله إلى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجاً يبحث عنه، وسأله هذا: «هل تسير معي إلى بصرى؟». فتحير ولم يدر بما يجيبه وخاف إذا أبى الذهاب معه أن يحمل ذلك محملاً سيئاً وهو لا يريد الذهاب إلى بصرى قبل أن يلتقي بحماد، وخاف أن يخبره بما اعتزمه من الذهاب مع أبي سفيان إلى عمان، فأثنى على تعطفه وشكر عنايته في إنقاذه وقال: «إن مجيئي إلى بيت المقدس قد حَبَّبَ إليَّ الإقامة بها حيناً قبل أن أسير إلى بصرى، على أني حيثما كنت فأنا في ظل حمايتكم وحماية مولانا القيصر».

فسلمه الحارث كتاب الأمان وودعه، فسار عبد الله حتى التقى بأبي سفيان ففضيا بضعة أيام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأوا للسفر. وكانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة.

وفي صباح اليوم الثالث أعدت الخيول لركوب أبي سفيان وحاشيته، فقال أبو سفيان لعبد الله: «هل عندك جواد لركوبك؟». قال: «لا، فأني تركت جوادي في بصرى».

فأمر له بجواد وقال له: «اركب هذا الجواد الآن فإذا جئنا القافلة أعطيناك جواداً يليق بك».

فركبوا حتى جاؤوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبد الله لا يقر له قرار حتى يلقي حماداً. ثم جاؤوه بجواد آخر عليه سرج ثمين فلما وقع نظره عليه اختلج قلبه في صدره لأنه رأى فيه شبهاً بجواد حماد، ثم تأمله جيداً فإذا هو بعينه فأعاد نظره إلى السرج فإذا هو سرج جواد حماد، فبغت وكان أبو سفيان واقفاً على مقربة منه يرقبه فلما رأى ذلك منه سأله عن أمره، فأجابه بقوله: «إني في ريب من أمر هذا الجواد لأنه جواد ابني».

فقال أبو سفيان: «وكيف عرفته؟».

قال: «عرفته من لونه وقده وسرجه وقد رأيته مهراً رضيعاً وأعرف أمه قبله».

فعجب أبو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال: «وأين كان ابنك؟».

قال: «كان راكباً من بصرى إلى عمان فأين ظفرتم بهذا الجواد؟».

قال: «ظفرنا به تائهاً بالقرب من الزرقاء».

فخاف عبد الله أن يكون حماد قد أصابه سوء، فأعاد السؤال عن الظروف التي وجدوا فيها الجواد فقال أبو سفيان: «كنا قادمين من الحجاز إلى الشام منذ بضعة أسابيع، وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر أن تقترب من مسبعتها إذ شاهدنا هذا الجواد تائهاً في الصحراء، فأرسلت بعض رجالي في أثره، وجاؤوا به بعد عنا فسقناه معنا إلى غزة ثم جئنا به إلى هنا كما ترى».

فبهت عبد الله ولبث صامتاً لا يتكلم وقد اشتد قلقه على حماد مخافة أن يكون قد ذهب فريسة السباع وفرّ جواده منه، وهو يعلم أن الجواد أصيل لا يترك صاحبه إلا إذا مات أو أسر أو غاب عنه. ففرقت الدموع في عينيه ولكنه تجلد وقال: «أراني كثير القلق على ابني ولا يهدأ لي بال حتى أتفقد المكان الذي وجدتكم الفرس فيه».

فقال أبو سفيان: «هو في طريقنا إلى عمان فإذا شئت مررنا به وبحثنا معك عما تريد فإن أمر ولدك يهمننا كما يهمنك».

ولم يشأ عبد الله أن يركب جواد ابنه بعدما رابه من أمره، فأركبوه غيره وساروا وهو لا ينسب بنت شفة لتبليبل باله، فقصوا يومين سائرين وعبد الله لا يأكل ولا ينام إلا قليلاً، حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال أبو سفيان: «ها قد بلغنا المسبعة فلنترك القافلة وجمالها وأحمالها ولنصحب بعض الفرسان إلى السهل حيث عثرنا على الفرس، وسار هو وعبد الله ومعهم عشرة فرسان وهم يحاذرون أن يلقاهم أسد أو وحش. فلم يسيروا إلا قليلاً حتى وقف أبو سفيان وقال: «هذا هو المكان الذي عثرنا فيه على الفرس فقد رأيته يركض في هذا السهل».

فقال عبد الله: «وأين المسبعة؟».

قال: «هي إلى يميننا فإذا رأيت أن نخرج عليها فعلنا».

فقال عبد الله: «سأقتني أثر حوافر الجواد لعلّي أقف على أثر لولدي، فإني أخاف أن يكون قد أكله سبع».

فقال أبو سفيان: «نحن معك». وأمر رجاله فتفرقوا بين التلال يبحثون، وبعد برهة عاد أحدهم يسوق جواده حتى دنا منهما فقال: «رأيت آثار أناس بالقرب من شجرة هناك».

فهمز عبد الله جواده وتبعه أبو سفيان والرجل، حتى دنوا من المكان فإذا هناك شجرة كبيرة تحتها بقايا جواد مقتول لم يبق منه إلا جمجمته وسرجه وبعض عظامه. فعرف عبد الله من السرج أنه جواد سلمان خادمه فصاح قائلاً: «هذا جواد سلمان فأين حماد؟». وأخذ يدور حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف من فحوصه أنه عباءة فظنها عباءة حماد مزقتها أنياب الوحوش، فدق كفاً بكف وقال: «هذه هي عباءته فأين بقاياها؟ هل أكله السبع ولم يبق على شيء منه؟». قال ذلك وأخذ قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح: «واولدها!». ولم يعد يستطيع الوقوف.

فتأثر أبو سفيان وكل من حضر من حاله، ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معه. أما أبو سفيان فقال له: «هون عليك أخا لحم فإننا لم نحقق موت الغلام بعد، وأنت لم تعثر على جثته». وأخذ يخفف عنه ويطمئنه بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ له بال ولا ينفك عن البكاء وجعل يدق كفاً بكف ويقول: «أهذه آخره حياتك يا حماد؟ من لي بالأنياب التي نهشت جلدك الناعم فأحطمها؟ وأين تلك المخالب التي غرست أظافرها في لحمك فأمزقها؟ واولدها! أهذا هو وفاء النذر؟ أهذه عاقبة الصبر عشرين عاماً لنقص لك شعرك؟».

فلما رأى أبو سفيان شدة اضطراب عبد الله وبكائه رق له

وخاف عليه، فجلس إلى جانبه وأمسكه بيده وأخذ يخفف عنه بما يؤمله من بقاء ابنه حياً وقال له: «إن ما رأيناه من الآثار لا يدل على شيء مما خفته فلو كان الأسد فتك بابنك لرأيت شيئاً من بقاياها، لأن الأسد إن أكل ثيابه لا يستطيع أن يزدرد سيفه ورمحه وبقية سلاحه، فلعله فرّ ونجا ولم يفتك الأسد بغير الجواد، فأرجع إلى صوابك وتبصر في هذا الأمر فإنك رجل عاقل خبير. هذا إلى أن البكاء لا يجديك نفعاً. هلم نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الحقيقة».

فقال عبد الله: «صدقت أخا قريش، إن البكاء لا يجديني نفعاً ولكنني أخاف إذا بحثت ألا ازداد إلا فشلاً ويأساً فدعني أبك ولدي وأقبل عباءته في هذه الصحراء حتى يلقياني الأسد الذي افترسه، فإذا أنتقم له منه أو أن يفترسني أيضاً فذلك خير لي».

وما زال أبو سفيان يهدى من روع عبد الله حتى نهض وسار ماشياً بين التلال والصحور، وأبو سفيان يصحبه ورجاله منبثون في أنحاء السهل يبحثون. فوصل عبد الله وأبو سفيان إلى غدير صغير أشرفا عليه من أكمة، فأنس عبد الله عند الغدير شبعاً فهرول نحوه فإذا بشباب وسلاح فتأملها فإذا هي عباءة حماد ورمحه وسيفه فضم السيف إلى صدره وصاح قائلاً: «هذا هو سلاحه وهذه هي عباءته لا تلك، فأين هو؟». فأخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتى ملّوا، وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل ولم يجدوا شيئاً فتحقق عبد الله أن حماداً ذهب فريسة الأسد فعاد إلى البكاء حتى انفطر قلب أبي سفيان إشفاقاً عليه، فأخذ يعزيه ويخفف أحزانه وهو لا يزداد إلا بكاء.

فقال أبو سفيان: «يا أخا العرب إن الحزن لا يجدي نفعاً، وإنه لو كان ابنك أسيراً في إيوان كسرى، أو قصر قيصر لبذلنا أنفسنا في

سبيل إنقاذه، لأن لك علينا حق الجوار، هذا إلى أنك رجل وقعت من نفسي موقعاً عظيماً فنعمت بصحبتك، وتراني رهن إشارتك».

فسكت عبد الله برهة ولم يجب، ولبت غارقاً في بحار هواجسه يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله إلى بصرى وما كان من أمر النذر، ثم رجع إلى صوابه وتجلد شأن ذوي العزم، ورأى من الحزم أن يتدبر الأمر بالصبر والتروي فلاح له أن يسير إلى عمان يبحث فيها عن حماد فلعل أحداً ينبئه بحاله، ونظر إلى الشمس وقد قاربت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة أميال، ورأى أبا سفيان ورجاله واقفين ينتظرون وأشفق أن يكون في بقاءه هناك خسارة لهم فقال لأبي سفيان: «إني يا أخا قريش شاكر لحسن صنيعك، وأخشى أن أكون سبباً لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي، فسيروا أتم إلى مقصدكم في حراسة الله».

فأجابه أبو سفيان قائلاً: «دع عنك هذا، إننا لن نبرح هذا المكان إلا وأنت معنا، لنكون في خدمتك حتى تصل إلى مأمئك، وإذا شئت المجيء معنا إلى مكة فعلى الرحب والسعة تنزل عندنا، فاختر لنفسك».

فهمَّ عبد الله بأبي سفيان وضمَّه إلى صدره لما آنسه من تلطفه وقال: «لقد وفيتم الكيل وأجزلتكم الجميل. أما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الأمر فإما أن أسير إلى عمان وإما أن أعود إلى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء».

قال: «إننا في ركابك إلى عمان ثم إلى حيث تشاء»، قال ذلك وأمسك بيد عبد الله وساراً معاً، وعبد الله ممسك بسيف حماد يتنسم منه رائحته، وعادوا جميعاً إلى القافلة.

وكان عبد الله أثناء عودته صامتاً يفكر في حاله ويتردد بين أن

يسير إلى عمان وهو لا يدري ما يلقي هناك، وبين أن يظل في مكانه، على أنه لما تروى في الأمر وراجع ما مرّ به من أهوال ذلك اليوم اعترضه أمل رأى من خلاله بصيصاً هياً له أن حماداً حي، وذلك أنه يفكر في أمر ما عثر عليه من بقاياها فلم يجد دليلاً قاطعاً على موته لأنه لم يعثر على شيء من جثته فقال في نفسه لو أكلته السباع لبقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جحمة أو عظام أو قطع من ثوبه ممزقة، ثم فكّر فيما وجده من السلاح فإذا به لم يره في الموضع الذي رأى فيه بقايا الجواد فقصى مدة يتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا إلى القافلة.

فقال أبو سفيان: «ماذا ترى يا أخا لحم؟ هل تسير معنا إلى الحجاز؟ أم نوصلك إلى مكان تريده في الشام؟».

فقال عبد الله: «إني والله لا أدري ماذا أقول، ولا أعلم ماذا أعمل، فأرى أن تتركوني في هذا المكان أفكر في أمري حتى ألهم أمراً أعمله فأني لا أفقه من أمري شيئاً».

فقال أبو سفيان: «لسنا تاركيك وأنت في هذه الحالة».

فقال عبد الله: «لقد غمرتموني بفضلكم وأنسيتموني حزني بتعزيتكم، وأما وقد أصررتم فأني أود الذهاب إلى عمان لعلّي أستطلع خبراً جديداً».

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم وأصبحوا قاصدين إلى عمان، فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله: «أستودعكم الله فأني سأدخل عمان أنتظر ما يأتي به القضاء».

ودّع أبو سفيان عبد الله ومضى ومن معه في طريقهم تاركين معه جواد حماد وبعض الزاد، فلما خلا عبد الله إلى نفسه نظر إلى

عمان وقد أشرف عليها من مرتفع فإذا هي مدينة خربة لم يبق من أنبيتها الرومانية إلا بضعة مبانٍ متهدمة أعظمها هيكل خرب على تل بالقرب من غدير كاد مأؤه يحف، ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتاً حقيرة يسكنها بعض الفقراء، فسار نحو الهيكل وقطع الطريق إليه على جسر يظهر من منظره أنه كان عظيماً وتهدم فوصل إليه ماشياً يقود جواد حماد وراءه.

فما وصل إلى ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبر وجه الأفق، فجلس على حجر من أحجار الهيكل ملقى عند بابه وأمسك بزمام الجواد ونظر إليه فرآه هادئاً كئيباً كأنه شعر بما يخامر قلب عبد الله من القلق فشاركه في حزنه، ثم نظر إلى ما حوله فإذا هو في أرض خالية من الناس لا يسمع فيها صوت ولا يرى فيها إلا الأشباح والتلال والأحجار والأشجار، والتفت إلى ذلك البناء العظيم فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليه لما يتجلى فيه من آثار الخراب، فكان له من ذلك عبرة ذكرته بمصير كل إنسان، ثم تذكر حاله مع حماد وما مر به من الأهوال، فغلب عليه القلق واشتد به الحزن حتى تفرقت الدموع في عينيه. ثم حانت منه التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثته نفسه بأنه سيجد حماداً بين أهلها فنهض بغتة يريد الذهاب إليها. ثم عاد إلى صوابه فقال في نفسه: «لا أراي إلا في أضغاث أحلام، إن حماداً قد أصبح في عداد الأموات». فعادت إليه أحزانه فجلس على ذلك الحجر كئيباً.

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد أسدل نقابه وعلا نعيق البوم وضجت أصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء، فخاف أن يكون جلوسه خطر على حياته من وحش يفترسه أو لصوص يسطون عليه فيقضي نحبه قبل أن يتحقق

أمر حماد. فعاد إلى ذكرى أحزانه فأمسك بحسامه وقبله وبكى.
وما زال في ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على أثر ما قاساه
من تعب المشي، فأسند رأسه إلى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام
وعنان الفرس في يمينه، فما شعر إلا والجواد يصهل ويفحص
الأرض بحوافره، فعلم أن هناك أمراً ذا بال فوقف وأصاخ بسمعه
وحقق بعينه فلم يرَ شيئاً ولا سمع صوتاً، فعاد إلى متكئه وهو لا
يستطيع الرقاد لشدة القلق، فألقى بأذنه إلى الأرض ليستطلع سبب
اضطراب الجواد لعله يسمع صوتاً أو يستنبئ نبأ جديداً. فسمع وقع
أقدام كثيرة فعلم أن الجواد لم يحفل عبثاً وأن جماعة قادمون إلى ذلك
المكان، فهياً نفسه للدفاع وصعد إلى ربوة بالقرب منه لعله يرى
أشباحاً عن بعد فلم يرَ شيئاً لأن الظلام كان شديداً، فعاد إلى مكانه
وهو يتوقع أمراً خطيراً.

وقضى بقية الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر، وكان قد
أخذته سنة من النوم، فأفاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منه
جماعة كثيرة من الرجال في لباس البدو، فظنهم لأول وهلة من رجال
أبي سفيان، لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم، ولكنه ما لبث أن سمع
بعضهم ينتهرونه، ثم هموا به يريدون القبض عليه فهم بالركوب على
الجواد للدفاع عن نفسه فتجمعوا حوله وهم كثيرون فلم يستطع
دفاعاً، فأمسكوه وأوثقوه وساقوه وهو يكاد يتميز غيظاً فقال لهم:
«ما تريدون مني ولا تار بيني وبينكم؟».

فقال كبيرهم: «ألسنت من بني غسان وقد قتلتم رسولنا وأهنتم
نبيّنا؟».

فقال: «لقد أخطأتم المرمى، فما أنا من غسان وإنما أنا غريب في
هذه الديار».

فقالوا: «إن كنت صادقاً فيما تقول فبريء نفسك أمام أميرنا». قالوا ذلك وساقوه موثقاً وأخذوا سلاحه وجواده، فمشى معهم حتى أشرفوا على خيام مضروبة، فرأى جموعاً كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الأحمال والأثقال والخيول والجمال، فساروا به إلى فسطاط كبير عرف من العلم الأبيض المنسوب أمامه أنه فسطاط الأمير ولم يكذب يدنو من الفسطاط حتى تقاطر الرجال زرافات ووحداناً وكلهم من البدو مكشوفو الرؤوس تغطي أجسام أكثرهم شمالات يلتحفونها، وقد لوحت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الأسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال.

فأوقفوه خارجاً ودخل بعضهم إلى الفسطاط، ثم عاد فقاده إلى الداخل، فرأى في صدر المجلس رجلاً معممًا وعليه جبة جالساً على بساط وبين يديه بضعة من الرجال في مثل لباسه، فعرف أنهم أمراء ذلك الجيش، فاستعاذ بالله مما رماه به سوء طالعته، فخاطبه الأمير قائلاً: «من أنت يا أخا العرب، أنت من رجال الحارث بن أبي شمر؟».

قال: «لست من أهل هذه الديار».

قال: «وممن أنت إذن؟». قال: «من لحم».

قال: «وما جاء بك إلى هذا المكان ولحم في العراق؟. لعلك جئت لنجدة الروم من لحم وجذام وبلقين، فقد علمنا أن هرقل جثد جنداً فيه أخلاط من العرب المنتصرة».

قال: «ولست من أولئك، بل جئت في حاجة ولا ألبث أن أعود».

قال: «أصدقنا الخبر فإنك أسير بين أيدينا».

قال: «قلت لكم الصدق». قال: «وما دليلك على ذلك؟». وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم أنهم من قريش، فتذكر أبا سفيان فظن استشهاده به ينجيه من الخطر فقال: «دليلي أنني كنت بالأمس مع أبي سفيان أمير قريش، وهو صديق حميم لي فإذا كان بينكم فاسألوه».

فما أتم كلامه حتى قطب الأمير وجهه وقال له: «أصديق أنت لذلك المشرك؟ لقد زدتنا شكاً في أمرك. وما الذي دفعك إلى صداقة هذا الزنيم؟».

فارتبك عبد الله في أمره ولكنه تجلد وقال: «عرفته منذ بضعة أيام فقط، وقد جاء لتجارة في هذه الأنحاء فاصطحبته زمناً يسيراً ثم افترقنا بالأمس».

قال ذلك وقد تذكر حكاية أبي سفيان وعداوته لصاحب دعوة الإسلام فأدرك أنه بين أيدي رجال صاحب الدعوة الإسلامية.

فقال له الأمير: «لو اقتصررت على أنك من لحم لهان الأمر، ولكنك أقررت بصداقتك لعدونا، فأنت في أسرنا حتى نرى ما يكون من أمرك». ثم أمر فأخرجوه مخفوراً إلى خيمة منفردة جعلوه فيها.

ولو كان عبد الله ممن لم يألّفوا الأخطار لاستعظم الأمر ولكنه وهو البريء كظم الغيظ إلى أن يتسنى له كشف حاله، وبقي في ريب من أمر هذا الجيش وسبب قدومه من الحجاز إلى الشام، فلما دخل الخيمة جاءه أحد الحراس وأخذ يسأله عن أبي سفيان وكيف لقيّه وأين فارقه فاغتنم الفرصة فقال للرجل: «إلى أين تقصدون بهذا الجند؟».

قال: «نقصد مشارف الشام لحرب الروم؟».

قال: «وما الذي دعاكم إلى حربهم؟».

قال: «دعانا إلى حربهم ما رأيناه من قحتهم».

فقال: «وما أوجب ذلك وأنتم من قريش ومقامكم بالحجاز وليس بينكم وبينهم رابطة؟».

فقال: «إن نبينا محمداً قد أرسله الله للناس كافة، وقد بعث إلى الروم بكتاب دعاهم فيه إلى الإسلام فما وصل الكتاب إلى الغساني أمير العرب المنتصرة حتى مزقه وقتل رسولنا، فكبر الأمر على نبينا فبعث بمولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم».

فقال عبد الله: «قد رأيت رسولكم إلى هرقل وقد جاء بمثل هذا الكتاب فلم يفعل به شيئاً».

قال: «ذلك كتاب غير هذا، وقد أرسله قبله أما أن هرقل لم يفعل مثل ما فعله الغساني فلائنه هاب ملكنا، وأما الغساني فقد غره جهله وسوف يلقي منا ما لقيه عرب الحجاز واليمن ممن أبوا الإسلام».

فقال عبد الله: «ومن الأمير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الأمراء الذين حوله؟».

قال: «هو زيد بن حارثة مولى رسول الله، أما الأمراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه: جعفر بن أبي طالب ابن عم نبينا، والجالس عن يساره: عبد الله بن رواحة. وقد أوصى بالإمارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة، وقد أمرنا نبينا أن نأتي المكان الذي قُتل فيه رسوله وهي قرية يُقال لها مؤتة فدعوا أهلها إلى الإسلام فإن أبوا قاتلناهم حتى نفنيهم عن آخرهم أو يحكم الله بيننا وبينهم».

فأدرك عبد الله سر الأمر. فقال للرجل: «وما الذي جنيتة أنا حتى سقتموني أسيراً وما أنا من الروم ولا من غسان؟».

قال: «ما أظن عليك بأساً من هذا الأمر، ولو لم تظهر صداقتك لأبي سفيان لكان ذنبك خفيفاً ولكنك ستبقى في أسرنا فقد نحتاج إليك أثناء الحرب».

فسكت عبد الله وقد ذهب عنه الروح وصار ينتظر ما يأتي به القدر، وكلما ترجح له موت حماد تمنى أن يقتل فيلحق به. وبعد يومين قامت الحملة إلى مؤتة.

تركنا حماداً وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يؤثر غير الطريق الذي سارا فيه لخوفه من مسبعة الزقاء وحماد يجبه إليه اختصاراً لطول المسافة.

فلما رأى سلمان إصرار حماد أذعن وسارا في أقرب الطرق، ولكنه ظل خائفاً، وأراد الاحتراس فأوعز إلى حماد فلبس درعه تحت أثوابه، وسارا حتى أمسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفته وتناولوا شيئاً من الزاد، وكأن نفس سلمان حدثته بخطر قريب فهم يتجسس المكان قبل اشتداد الظلام. وكان حماد قد نزع عباءته وسلاحه وجعلهما إلى جانبه على ضفة الغدير، فلما نهض سلمان نهض حماد معه وقادا جواديهما وراءهما، وصعدا إلى أكمة أطلا منها على السهل المحدثق بهما وجعلا ينظران إلى ما حولهما من السهول وفيها بعض الآكام تتراءى كأنها جماعات من الناس أو أسراب من الوحوش، فهالهما ذلك المنظر ثم سمعا زئيراً عن بعد فأجفل الجوادان وأخذا يفحصان الأرض بحوافرهما.

فقال سلمان: «ها قد أحدق بنا الخطر وهذا ما كنت أخوفه يا سيدي فهل هم بنا إلى النجاة». فقال حماد: «وما ينجينا؟». فالتفت سلمان فرأى شجرة فقال: «عليك بهذه الشجرة فتسلق أغصانها فإن الأسد لا يقوى على الوثوب إليها». ثم أخذا يتسلقان الشجرة وقد

نسي حماد سلاحه وعباءته بعد أن شدا الجوادين إليها.

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتشبثا بالأغصان وهما يحاذران أن يراهما الأسد على علمهما بامتناعهما عليه، ثم ما لبثا أن رأياه وثب عن أكمة بالقرب منهما أما الجوادان فإنهما أجفلا وصهلا صهيلاً طويلاً وحاولا الفرار فانقطع زمام جواد حماد فهام في عرض الصحراء. وأما جواد سلمان فلم يستطع التخلص وظفر به الأسد فمزق صدره بمخلبه ثم مزق عنقه بأنياه وأخذ ينهش لحمه.

ثم وقف الأسد ونظر إلى ما حوله فرأى عباءة سلمان فهتم بها كأنه ظنها رجلاً فمزقها بين أنياه ومخالبه أي ممزق وأخذ يتيه بمشيته المعهودة حول الشجرة وقد تنسم رائحة الرجلين في أعلاها وعجز عن إدراكهما فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالأغصان وتشبثا في مكانيهما وقلباهما يخفقان خوفاً وحذراً والأسد لا يقلع عن الزئير وهو يخطر ذهاباً وإياباً وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران، حتى ملأ الأسد فزأراً دوى لها السهل الواسع ورددت صداها الآكام، ثم أرسل ذنبه فوق ظهره وعاد من حيث أتى.

ولبثا يرقبانه وهو يخطر الهوينى متبختراً تيهاً وعجباً حتى واره الظلام عنهما، ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهما صامتان لا ينبسان بينت شفة، فلما تحققا النجاة. قال سلمان: «أرأيت يا سيدي ما كنت أخافه، فشكراً لله الذي أثبت الشجرة في هذه الصحراء لتكون سبباً لنجاتنا من الموت بين مخالب الأسد».

فتحقق حماد عظم الخطر الذي تخلصا منه ولكنه أسف لذهاب جواده. ففضيا معظم الليل مستترين فوق تلك الشجرة يخافان النزول منها حتى انبلج الصبح فنزلا ونظرا إلى جواد سلمان فإذا هو مضرج

بدمائه ولا حياة فيه . فقال سلمان : «هلم بنا إلى عمان راجلين ، وقد كان في طاقتنا أن نذهب إليها راكبين . ولكن تلك مشيئة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالب الأسد ، وأما ما خسرناه فمتاع يسهل تعويضه» .

فقال حماد : «إن الجواد عزيز عليّ ، فهل تظننا نظفر به بعد؟» .
فقال : «دعنا من الجواد الآن وهيا نقطع هذه المسبعة قبل أن يدركنا الظلام» .

فقال : «ولكنني أعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير فهلا عدنا للبحث عنها؟» .

فقال : «لا أراني أستطيع تعيين المكان الذي كنا فيه ، لأن الطرق تشابهت عليّ ، وأخشى إذا أطلنا البحث أن تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الأسد مرتين فلا نأمن أن ننجو منه في المرة الثالثة ونحن على أقدامنا» .

فأطاعه حماد وسارا إلى عمان فوصلا إليها وأقاما بها بقية الشهر المعين دون أن يأتي عبد الله ، فقضيا أسبوعاً آخر وهما على أحر من الجمر فلم يأت أيضاً ، فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما إلى بصرى من طريق آخر ، خوفاً من الأسود ، وهما في قلق على عبد الله وغيابه ، وأخذوا يديران وسيلة يدخلان بها المدينة أو ما جاورها على غير علم ثعلبة أو أحد من رجاله .

— ١١ —

بين هند وأمها

كان ثعلبة قد بقي في بصرى بعد ذهاب عبد الله وفي نفسه غل على هند وحقده على حماد ، فبث رجاله في ضواحي المدينة للبحث عنه فلم يقف له على خبر ، فأنفذ نفرأ من خاصته سرأً يتحسسون حال

عبد الله بعد ذهابه إلى هرقل فأنبأوه بما كان من عفو الامبراطور عنه وذهابه مع أبي سفيان، ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئاً بعد ذلك لأنهم لم يستطيعوا مرافقة القافلة خوفاً من انكشاف أمرهم.

واستبد بثعلبة حقه على حماد وغيرته منه فأصبح يصصر على الزواج منها ليحرم حماداً منها.

وقد يعاشر الشاب فتاة أعواماً لا يهيمه من أمرها شيء، ولا يخطر له الاقتران بها، وربما كان في نفسه ترفع عنها وهو يزعم أنها لو عرضت عليه لا يرضاها، فإذا آنس منها ميلاً إلى غيره أو رأى غيره ميلاً إليها ولا سيما إذا كان الحب متبادلاً بينهما فإن عوامل الغيرة تثور في قلبه ويتحول حبه الفاتر إلى شغف شديد ولا يرتاح له بال إلا بنيلها. ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولكنه يتناول سائر أنواعه. فقد ترى عقاراً أو متاعاً معروضاً للبيع ولا يهيمك ابتياعه فإذا رأيت الناس يقبلون عليه آنست في نفسك ميلاً إلى شرائه. والظاهر أن ذلك غريزي في الناس على اختلاف أدوار حياتهم، وإذا أردت أن تطعم الطفل شيئاً لا يحبه نفر منه فإذا تظاهرت بإعطاء هذا الشيء إلى سواه رأيتَه يطلبه بلجاجة ويتناوله بلذة.

فثعلبة لم يكن يهيمه أمر الزواج بهند ولا هو أحبها حب الزواج إلا بعد ما آنس من ميلها إلى حماد، فدفعته عوامل الغيرة إلى الاقتران بها ولكن خبث فطرته جعل ذلك الميل مقروناً بالانتقام. ولما لم يجد سبيلاً إلى ذلك بالقوة عمد إلى الحيلة فحدثته نفسه أن يشكوها إلى والديها ويكشف لهما ما كان من انفرادها بحماد في الدير، ولكنه خاف أن تكون تلك الوشاية سبباً لغضب عمه فينقلب عليه لعلمه بمنزلة هند عنده فربما صدقها وكذبه، ورغب في حماد عنه. فلم يرَ سبيلاً إلى شفاء غله إلا بخطبتها من أبيها.

فلما عاد أبوه من بيت المقدس بسط له عزمه على الاقتران بها لما بينهما من رابطة القرابة، فسُرَّ أبوه بذلك ووعدته أن يخاطب جيلة في الأمر.

وركب الحارث ذات يوم إلى البلقاء في موكبته وحاشيته، فاستقبله جيلة بالتجلة والإكرام، وإن يكن في نفسه منه غيرة لاحترازه الوجاهة عليه لدى هرقل ودار الحديث بينهما، فذكر الحارث رغبته في مصاهرته، فأبدى جيلة ارتياحاً ووعدته بإنجاز الأمر قريباً وهو غافل عما تضمه هند.

فلما رجع الحارث إلى بصرى خلا جيلة إلى زوجته، وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها رفضاً أو قبولاً فقد كانت تعلم ما في نفس هند من احتقار ثعلبة، ولكنها استمهلتته حتى تسأل الفتاة وتطلع على رأيها وإن لم يكن من عاداتهم أن يتركوا أمر الاختيار للبنت ولكن هنداً كانت ذات سلطان على أبويها يحبانها كثيراً ولا يخرجان عن رأيها.

كانت هند بعد أن عادت من الدير إلى القصر قد تمكن منها حب حماد والإعجاب بشهامته حتى أنساها هذا كل شيء، فأخذت تدبر حيلة تتخلص بها من لوم والدتها على غيابها. فلما دخلت القصر رأت أمها في قلق لغيبها فبادأتها بالعتب على إبطاء الخادم بالرجوع إليها بالأساور. فقالت أمها: «إننا استحسننا الأساور وأعدنا الخادمة لتعجيل حضورك. فادعت هند أنها انتظرت رجوعها حتى حل الظلام فاستصحبت بعض خدم الدير حتى أوصلها إلى القصر. فاستغربت أمها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حملتها من المشقة وقالت: «لعل الخادمة سارت إليك من غير الطريق الذي جئت منه ولا تلبث أن تعود».

فتظاهرت هند بالتعب وسارت إلى غرفتها وهي مضطربة قلقة

على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمه من لؤم هذا وخيائته .
 فقضت ليلها لم يغمض لها جفن إلى قبيل الصباح ، فنامت قليلاً
 ثم أصبحت فجعلت تنسم الأخبار ممن يذهب من خدم صرح الغدير
 إلى بصرى لابتياح حاجات القصر ، فما لبثت أن علمت بالقبض على
 عبد الله وفرار حماد ، فسرت لنجاته ولكنها ظلت خائفة لا تستطيع
 سبيلاً إلى الوقوف على خبره فقضت بضعة أيام منقبضة النفس لا يلد
 لها طعام ولا يهنا لها عيش حتى ظهر أثر ذلك في وجهها ، وأمها
 تبالغ في تسليتها لما ألم بها ، وهند تعتذر بانحراف صحتها على أثر
 التعب من ليلة الدير .

فجعلت تخرج معها للنزهة أثناء النهار إلى الضواحي ، تقضيان
 الساعات معاً في البساتين على ضفاف الغدير ، وهند تزدد انقباضاً
 وضعفاً حتى امتنع لونها وقل طعامها . فارتابت والدتها في أمرها
 وازدادت حنواً عليها وميلاً لاستطلاع حقيقة حالها فلم تجد إلى ذلك
 سبيلاً . وكانت سعدى من الذكاء والفطنة على جانب عظيم فخيل
 إليها ألا بدّ لذلك التغيير من سبب ، فلما كلمها زوجها في أمر ثعلبة
 ورغبته في هند ، اتخذت ذلك وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها
 فدعتها ذات يوم إلى الخروج معها إلى الغدير وأمرت الخدم فأعدوا
 لهما وسائل الراحة ، فخرجتا حتى أتتا ضفة الغدير ، وكان الجو صافياً
 والنسيم عالياً والماء يجري أمامهما ، وكانت هند بلباس البيت وقد
 ضفرت شعرها ضفيرة واحدة أرسلتها على ظهرها ، وشدت عصابة
 حول رأسها كمن يشكو الصداع . فقضت مسافة الطريق من القصر
 إلى المكان المقصود تسير الهوينا صامتة تجر ذيل ردائها ، وتتشاغل تارة
 برفعه عن الأرض لئلا يعلق ببعض الأشواك النابتة ، وطوراً تلهو
 بالتأمل فيما يتطاير عن الأشجار من الطيور . فلما وصلت إلى المكان

اتكأت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر، وكانت والدتها قد جمعت بعض الأزهار في ضمة واحدة جاءت بها إليها فتناولتها وهي لا تتكلم فهمت بممازحتها فقالت: «إليك هذه الأزهار فإن لتقديمها معنى تفقهينه».

فتناولت هند الأزهار وهي لا تفهم المراد.

فقالت لها أمها: «ما بالك لا تتكلمين؟».

قالت: «اسأليني أجبك». قالت: «قد سألتك فأجبت».

قالت: «لم تسأليني ولا أجبتك». قالت: «بل أجبت».

قالت: «كيف ذلك ولم أفه بكلمة؟».

قالت: «إن تناولك هذه الأزهار من يدي جواب عن سؤالي».

قالت: «لم أفهم مرادك يا أماه فأفصحي».

قالت: «أضمرت في سري وأنا أقدم هذه الأزهار إليك أنك إذا قبلتها من يدي كان أخذها جواباً عما في ضميري».

قالت: «مالي أراك تخاطبيني بالرموز؟».

قالت: «ما لنا ولهذا فإني أسألك سؤالاً آخر فهل تصدقيني

فيه».

قالت: «قولي فإني طوع أمرك».

قالت: «أتحيين ابن عمك ثعلبة؟».

فلما سمعت ذلك علا وجهها الاحمرار ثم أعقبه الاصفرار وظهر الانقباض عليها ولم تجب.

فقالت أمها: «قد وعدت بالجواب ولا أراك تحيين؟».

قالت: «إني لم أر مسوغاً لهذا السؤال، ولم أفهم مرادك منه، وأنت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي».

قالت: «ما لنا وللمزاح فإني أسألك سؤالاً صريحاً فأرجو الجواب عنه صريحاً فهل تحبين ثعلبة؟». فتجلدت هند وتجاهلت وقالت: «أليس هو ابن عمي، إني أحبه محبة الأعمام وإن يكن لا يستحق هذه المحبة».

قالت: «ولكني أسألك هل تحبينه محبة غير هذه؟». فأدركت هند مغزى كلام والدتها فنفرت ولم تجب.

فاقتربت سعدى منها حتى التصقت بها وقالت: «ما بالك لا تحبينني فإن أباك عهد إلي في أن أسألك عن ذلك، فبم أجيبه؟». فسكتت هند ولبثت تفكر في غرض أمها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئاً قرأته في ملامح وجهها ولكنها تجاهلت ولم تكثرث وظلت متكئة تنظر إلى أمها شزراً.

وكررت أمها السؤال، فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت إلى أمها والاستغراب باد على وجهها وقالت: «أفصحي يا أماه فإن لسؤالك معنى انقبضت له نفسي، فماذا تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي أوجدته القرابة بالرغم مني».

فبهمت أمها ما عند هند من الكره لثعلبة وكانت قد لحظت ذلك قبلاً فتجاهلت حتى تستطلع أفكارها فقالت: «لا تسرعني إلى الطعن في ابن عمك فإنه سيكون أقرب إليك من ذلك».

فنفرت هند حتى وقعت الأزهار من يدها ونظرت إلى أمها معاتبة وقالت لها: «أرجو ألا أسمع منك يا أماه ما يثير عواطفني فإني لا أرى مسوغاً لتكديري بهذه الألغاز، فليس لثعلبة وطر عندي ولا

هو ممن يطمع في قرابة فوق هذه، فبحق حبك لو استطعت التبرؤ منه لفعلت وأنت أعلم الناس بمنزلته عندي وأظنك أقدر مني على الجواب عن هذا السؤال. فهل تمزحين؟.

قالت: «بل أنا جادة فإن عمك الحارث كلم أباك بشأنك، فبم نجيبه؟». فالتفتت هند إلى والدتها باستخفاف كأنها تقول: «لا أصدق ما تقولين».

فأجابتها بملامح عينيها وابتسامتها أنها تريد الجد وقالت: «لا بل إني أسألك سؤالاً صريحاً: هل تحبين ثعلبة».

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجمع الأزهار التي كانت قد وقعت من يدها وازدادت امتقاعاً وظنت سكوتها جواباً كافياً، وظنها في محله لكن سعدى بالغت في التجاهل لعل الحديث يجرها إلى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدير فقالت لها: «ما بالي أخاطبك فتشاغلين عن جوابي. فهل خطابي لا يستحق الجواب عندك؟».

فترامت هند على صدر والدتها تقبلها وقبلت يدها وقد خجلت من هذا التوبيخ وقالت: «ما كان لي أن أفعل ذلك يا أماه، ولكنني أعجب لسؤالك وإصرارك في طلب الجواب وأنت تعلمين أنني أريد التبرؤ من القرابة القديمة فهل أجز عليّ همّاً جديداً..؟ فليس لثعلبة وطر عندي».

فقالت: «أظنك شغلت عنه بغيره...». قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح ولكنها آنست في وجه هند تغييراً سريعاً فعلاه الاحمرار بغتة وسكتت.

فقالت سعدى: «ما بالك لا تجيبيني وأرى وجهك يتكلم وعينك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق؟».

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء، وتصورت ما أتاه ثعلبة، فاشتد تأثرها حتى ترقرت الدموع في عينيها، فحولت وجهها لتخفي على أمها ما كاد يظهر من عواطفها، وتشاغلت بمراقبة غزال نافر رآته يشب على التلال عن بُعد وظلت صامته.

فازدادت أمها ارتياباً في شأنها، ورأت هذه الفرصة مناسبة لكشف المخبأ فقالت لها: «ما بالك تحولين وجهك عني يا هند؟ إنك تخفين شيئاً».

فبقيت هند مشيحة بوجهها وتمنت أن تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان، فأمسكتها أمها بيدها وحاولت النظر في وجهها، فأفلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلا يظهر بكاؤها. فتحققت سعدى أن هنداً تبكي فكاد قلبها ينفطر وقالت لها: «ما بالك يا هند؟ ما الذي يبكيك؟».

فأوغلت هند في البكاء وهي تحاذر أن تسمع أمها شهيقها حتى بللت كمها ولم تستطع كبت عواطفها. فتحققت سعدى أن هنداً مشغولة القلب ولكنها لم تفقه حقيقة الحال، فحاولت استطلاع السر فقالت: «إذن أنت في شاغل عن ثعلبة؟».

فظلت هند صامته خجلاً وقد سترت وجهها بكمها بين يديها. فسكتت سعدى وأخذت تفكر فيمن عسى أن يكون ذلك الشاغل، وخافت أن تلح على ابنتها بالسؤال فتزيدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع. ومضت بضع دقائق وهما صامتتان، وأخيراً تظاهرت سعدى بالجد ونادت هنداً قائلة: «أما وقد ظهر منك ما ظهر فلم يعد ثم داع إلى الإخفاء فقد تحقق لدي أنك في شاغل ذي بال، فأفصحني يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فإني أمك، وأنت تعلمين حبي لك فاجعليني مستودع سرّك واتخذيني صديقة وأطلعيني على

مكنونات قلبك . فنحن الآن في خلوة لا يرانا أحد ، وقد قضيت أياماً أفكر فيما غيرك وقبض نفسك وأنت تخفين عليّ حقيقة حالك . أما ابن عمك ثعلبة فإنه لن ينال منك شعرة وأنا أعلم الناس به ، وهبي أن أباك رضي به فأنا لا أرضاه لك» .

ثم همت بها وضمتها إلى صدرها ، وهند تبالغ في تغطية وجهها حياء . فقالت لها سعدى : «أفصحي يا ابنتي وأخبريني فقد نفذ صبري ، قولي ما في نفسك فأني عون لك على ما تبغين» .

فلما سمعت هند كلام أمها ، رفعت رأسها ونظرت إلى أمها بعينين أذبلتهما الدموع وغيرهما الهيام ، وحاولت الكلام فمنعها الحياء فأعادت وجهها إلى ما بين يديها وألقت نفسها على صدر أمها وقد أخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً .

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت : «قولي يا ابنتي ولا تخشي شيئاً فنحن في خلوة لا يرانا أحد ، هل تحبين أحداً؟» .
فتنهدت هند تنهداً عميقاً ولم تحب ، فعدت أمها تنهدها جواباً شافياً فقالت : «ومن ذا الذي تمكن حبه منك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك أثبت جأشاً من الرجال ، وما عهدناك مسترسلة لعواطفك إلى هذا الحد؟» .

فأطرقت هند وقالت : «لا بأس بي ولا أحب أحداً ، ولكنني أحب التخلص من هذا العالم فأني شقية كُتِبَ عليّ العذاب من يوم وُلدت!» . قالت ذلك وعادت إلى البكاء .

فانصدع قلب أمها لذلك ، وجعلت تقبلها وتضمها إلى صدرها وتقول : «ما هذا الكلام يا هند؟ هل يئست ممن تحبين؟» .

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت : «نعم يا أماه إني يئست ،

فابكي على ابتك وانديها لأنها تعيسة شقية!». فتحققت سعدى صدق ظنها وأرادت الوقوف على جلية الأمر فقالت: «وما سبب تعاستك وأنت فتاة غسان وزهرة هذه البلاد، والناس يتحدثون بتعقلك، وأترابك يحسدنك على مقامك؟».

قالت: «على أي شيء يحسدنني؟» وازدادت بكاء ولسان حالها يقول: «حتى على الموت لا أخلو من الحسد؟!».

فتساقط الدمع من عيني سعدى رغم محاولتها التجلد، إشفافاً على هند وأدركت أنها عالقة بحب رجل لا سبيل لها إليه فقالت لها: «لا تذكرني التعاسة وأنت الأمرة الناهية، ولا تحشي بأساً فأنا آخذ بيدك وأعمل على إسعادك، فأفصحي عن ضميرك، وكفانا بكاء. واعلمي أن ثعلبة سيرتد خائباً».

فحرق هند أسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت: «إن الشر كله من هذا الخائن، وهو وحده سبب الشقاء، وهل تظنينه رغب في خطبتي لأنه يحبني؟».

قالت: «وكيف إذن؟».

قالت: «إنه فعل ذلك انتقاماً من ذلك الشهم الذي أبقى على حياته كرمأ وأنفة».

فتذكرت سعدى حكاية السباق وما كان من شهامة حماد. وأحست كأن غشاوة انقضت عن عينيها فأيقنت أن الفتاة مغرمة بحماد. فبغت ولم تبد جواباً لعلمها أن الرجل غريب عن ديارهم، وكانت قد سمعت بفراره والقبض على أبيه متهماً بالجاسوسية فوقعت في حيرة، على أنها لم تكن تنفر عندما كان هذا الشاب يذكر في عرض الحديث بل كانت تترتاح لذكره والتحدث عنه، لما ظهر من شهامته وكرم أخلاقه، ولكنها استغربت وقوع هند في هواه مع أنفتها وشكها

في حسبه فضلاً عن أنها لم تجتمع به .
ونظرت هند إليها لترى ما يظهر منها بعد هذا التلميح ، فلما
رأتها صامته قالت : « ألم أقل لك إني شقية؟ ها إن الإشارة إلى سبب
شقائي أفقدني حنوك! » .

فقالت : « كلا يا ابنتي ، لقد وعدتك بأن أنصرك ، وما زلت
عند وعدي . ولكن الخبر جاءني على غرة فبغتني ، فهل أنت تحبين
ذلك الشاب؟ إنه حقاً شهم كريم النفس وأنت تعلمين منزلته عندي
من يوم السباق » .

فسكتت هند وكان سكوتها جواباً بليغاً .

أما سعدى فاستعظمت أن تزف ابنتها إلى رجل لا يُعرف له
حسب ولا نسب ، ثم هو متهم مع أبيه بالتجسس ، فضلاً عن غضب
الحارث و ثعلبة عليه ، وخيل لها أن بقاء هند على عزمها قد يحدث
شقاقاً بين جبلة والحارث . ولكنها لم تكشف الأمر لهند إشفاقاً من
جرح شعورها بعدما رأت من شدة تعلقها بحماد ، فعمدت إلى الملاينة
ومسايرتها لترى ما يكون من أمر ثعلبة مع حماد ، فقالت : « إن حماداً
أهل لحبك ، ولكن كيف بلغ بك الحب إلى هذا الحد والرجل غريب
عنا؟ » .

فقطعت هند الكلام وقالت : « ألم أقل لك إني صائرة إلى
الهلاك ، فقد علمت ما يخامر ذهنك ، ولكن ما الفائدة من كل ذلك
وحامد في مكان لا نعرفه ولعله ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم؟ » .
قالت ذلك وعادت إلى البكاء .

فقالت أمها : « لا تجزعي يا هند ، إن الله على الباغي . ولكنني
أستغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة؟ » .

قالت: «هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع، على أن هذا الخائن لا يساوي قدة من نعل حماد». قالت ذلك وهي تشرق بدموعها.

فأخذت سعدى تخفف عنها وتطيب خاطرها حتى سكن روعها، ثم رأت أن تلم بتاريخ هذا الحب وكيف حدث فقالت لها: «ترى كيف أسلمت قلبك لحماذ وأنت لا تعرفين حسبه ولا نسبه؟».

قالت: «إنه حسيب نسيب وسيماء في وجهه».

فقالت: «ولكن الوجوه لا تدل على الأحساب».

فقالت: «علمت أنه من أمراء العراق، وهذا يكفي، وهبي أنه أقل من ذلك فقد ملك عواطفي بقوة من الله تمجد اسمه، فما أنذا أطلعتك على مكنون قلبي». قالت ذلك وأطرقت حياء وقلبها يرقص فرحاً لما آنسته من عطف أمها، فاستأنفت هذه حديثها وقالت: «وكيف عرفت حسبه؟».

فانتبهت هند إلى أنها أخطأت وكذبت يوم ذهبت إلى دير بحيراء، فهتت بيدي أمها وجعلت تقبلهما وتقول: «عفوك يا أماء، لقد ارتكبت ذنباً يوجب غضبك».

فقالت: «وماذا تعنين؟».

فقصت عليها حكاية دير بحيراء، واعترفت بكل ما دار بينها وبين حماد وهي تطرق تارة وتبتسم أخرى، وأمها تسمع لها حتى انتهت فأحست كأنها أفاقت من غفلة، فسايرتها وطمأنتها وقالت لها: «اصبري حتى نرى وسيلة لا تشين شرفك أو شرف الأسرة».

فاطمأن قلب هند لرضاء أمها، ولكنها ظلت على قلقها لغياب حماد، بل صارت بعد ما آنسته من عطف أمها أكثر قلقاً عليه لأن خوفها من المعارضة كان شاغلاً لها عن التفكير فيما وقع فيه حماد من

الخطر .

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما ذاهلتان لو لم تريا
الرعاة عائدتين بالماشية من المراعي إلى الحظائر بالقرب من الصرح،
فهمتا بالنهوض ومشتا الهوينى وكل منهما في شغل . فرأت هند أن
تغتزم الفرصة للاستعانة بأماها على البحث عن حماد، فدنت منها
وأسندت يدها على كتفها وقالت: «ما الحيلة يا أماه لكف سعاية ثعلبة
عن حماد؟ أيجل في شرع الله أن يذهب هذا الشهم فريسة الحسد
والغدر؟» .

قالت: «خففي عنك يا ابنتي وقرى عيناً، فإني كفيلة بنجاته
بإذن الله، ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ماذا جرى له في غيابه» .
قالت ذلك وهي ترتاب في بقاءه حياً وقد يكون ظنها أنه ليس
على قيد الحياة مما أعانها على أن تغتفر لابنتها نزولها إلى حبه وهو
غريب، فبالغت في طمأننتها حتى وصلت إلى صرح الغدير، وقضت
بعض تلك الليلة في مثل هذه الأحاديث .

وفي الصباح التالي بدأت سعدى تستطلع خبر حماد، فعلمت
بعد أيام أن هرقل عفا عن عبد الله وأمر له بكتاب الأمان، فأخبرت
هنداً بذلك فسرت لبراءته من تهمة التجسس، وغدت تترقب وقوفها
على مقر حماد لتبلغه ذلك، فلم تجد إليه سبيلاً، فلما طال غيابه زاد
قلقها ولكنها صبرت في انتظار ما يأتي به القدر وهي تنذر النذور سراً
لدير بحيراء .

— ١٢ —

درع حماد

كانت هند جالسة في حجرتها ذات يوم، فإذا بها تسمع منادياً
بجوار القصر يقول: «من نذر نذراً لنجران المبارك؟» فأطلت من

النافذة فرأت فارساً متمزلاً بعباءة وعلى رأسه قلنسوة الرهبان، وفي يده صليب من الفضة، فعلمت أنه منادي دير بحيراء - ونجران اسم من أسمائه - يطوف البلاد والقرى يجمع النذور على عادته في كل عام.

فلما سمعت اسم الدير ثارت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينها وبينه هناك، على أنها تفاءلت خيراً لعلمها أن المنادي كثير التجوال، ولعل عنده خبراً عن حماد، فأمرت أحد الخدم أن يستقدمه، فجاء الرجل إلى القصر حاملاً خرجاً. فحياها تحية الملوك وناولها الصليب فقبلته وقبلت يده وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج إلى جانبه.

وكانت أمها في شغل ببعض شؤون القصر وليس في الغرفة سواها فتأملت وجه الرجل فإذا به غير الراهب الذي يمر بهم عادة فخافت أن يكون محتالاً أو جاسوساً، فسألته: «هل لك في الذهاب إلى قاعة الطعام؟». فأثنى على كرم الغسانيين واعتذر بأنه غير جائع، فقالت له: «من أين قدم الأب المحترم؟».

قال: «أتيت من الجولان في البلقاء أجمع النذور».

فقالت: «هل جمعت شيئاً كثيراً؟».

قال: «نعم يا سيدتي إن المسيحيين أكثروا في هذا العام من النذور حتى ملأت خرجي هذا من خيراتهم». وتناول الخرج بيده وهزه فسمعت له صوتاً يشبه صليل الحديد.

فقالت: «ما هي أنواع النذور التي جمعتها هذا العام. إني أسمع لها صليلاً».

قال: «إن في خرجي هذا نذوراً كثيرة لم يدخل دير بحيراء

مثلها منذ بُنيَ حتى الآن». قال ذلك وتبسم، فارتابت هند في قوله وأدركت أن وراء ابتسامته معنى خفياً، فقالت: «وكيف تأتني لك ذلك والنذور تُحمل إلى الدير ذهباً وفضة وحجارة كريمة من أقاصي البلاد؟».

قال: «لم أخرج لهذه المهمة إلا في هذا العام فجئت بالعجائب والغرائب».

فأنست في كلامه لهجة غريبة ولم تستغربها لعلمها أن الرهبان في دير بحيراء أخلاط من أمم كثيرة ولغات شتى، ولكنها ازدادت شبهة في مغزى كلامه فقالت: «وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك؟».

قال: «جئت الدير بنذر لم يسبق له مثل لا لغلاء ثمنه بل لغرابته». قال ذلك وحل رباط الخرج ومد يده إليه وحاول إخراج ما فيه فسمعت صليلاً كصليل الدرع، فتذكرت درع حماد فاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت: «هات ما عندك». فأخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليها حتى امتقع لونها وبغت للشبه الذي بينها وبين درع حماد، فتناولتها وتأملتها فإذا هي من تلك الدرع بعينها. فالتفت إلى الراهب فرأته يتغافل عنها ولكنها قرأت في وجهه سرّاً يحاول إخفاءه والابتسام يكاد يظهره، فابتدرته قائلة: «من أين أتت هذه الدرع ومن هو الذي أعطاكها؟».

قال: «أعطانيها صاحبها».

فقالت: «هل تعرف مكانه فإنها مسروقة من عندنا؟».

فالتفت إليها قائلاً: «لا أظن صاحبها سارقاً، فهو رجل أمين ابتاعها بثمن غالٍ جداً».

فقالت: «ربما كان ذلك كما تقول ولكنني أعلم أن هذه الدرع كانت عندنا، فلا بدّ من رؤية الذي أعطاكها، فهل هو قريب من هذا المكان؟».

قال: «هو قريب جداً، وإذا صدق ظني فهو في أقرب مكان منك، وأنت تعلمين أنه ليس سارقاً!».

فأدركت أنه يشير إلى حماد وأنه عالم بشيء مما بينهما، فتجاهلت ولكن الحياء والبغته غلبا عليها فقالت: «ما تعني بهذا الكلام؟ أراك تلقيه جزافاً».

قال: «كلا يا سيدتي، إني أتكلم عن يقين، ولكنك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة في وجهك!».

فتحققت عند ذلك أنه رسول من حماد، ولكن سوء الظن سبق إلى ذهنها مخافة أن يكون قادمًا بدسياسة من ثعلبة، فتجاهلت أيضاً وقالت: «أراك تقول كلاماً لا أفهمه، فلعلك مخطيء في ظنك».

قال: «لست مخطئاً بل أتكلم عن يقين وإن كنت في شك مما أقول فسلي الأساور تصدقك الخبر».

فقالت: «أي الأساور تعني؟».

قال: «الأساور التي بيعت هذه الدرع بها، وإذا بقيت على تجاهل العارف جئتكَ بتاجر الحلي عينه».

فأيقنت عند ذلك أنه رسول حماد إليها، وحدثتها نفسها أن تسأله عنه ولكنها تجلّدت حتى تخبر أمها، فنهضت لتوها ولم تفه بكلمة وذهبت إلى أمها وأخبرتها بما كان فقالت: «أخشى أن يكون الرجل جاسوساً من ثعلبة، فلا تبوح له بشيء قبل أن نتحقق رسالته».

جاءت سعدى وهند تتبعها، فلما دنت من الراهب وقف لها وحياتها فأظهرت الجفاء قائلة: «لعلك قادم من دير بحيراء الآن؟». قال: «كلا يا سيدتي بل أنا آت من البلقاء».

قالت: «أرني الدرع». فأراها إياها فتحققت إنها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقه يوم السباق، فتناولتها من يده وقالت له: «إن هذه الدرع من عندنا، ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي أعطاكها؟». فتبسم الراهب ساخراً وقال: «أظني أعرفه». فقالت: «وأين تركته؟».

قال: «تركته في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر».

قالت: «أمقيم هو هناك أم راحل؟».

قال: «مقيم ينتظر عودتي».

قالت: «وقد استغربت ذلك: «وماذا يتوقع من رجوعك وقد ذكرت أنه دفع إليك هذه الدرع نذراً للدير، فما معنى رجوعك إليه؟ إنني أرى في كلامك تناقضاً».

قال: «لا تناقض فيما أقول فإن صاحب هذه الدرع شرط ألا تكون نذراً إلا بعد أن أعود إليه بخبر عن أمر يهيمه». قال ذلك وهو ينظر إلى هند بطرف عينه كأنه ينتظر إشارة منها، فأنس في وجهها إشراقاً، فتبسم وأوماً بجفنه إلى أمها كأنه يقول: «هل أبوح بالسر أمامها؟».

فتحققت هند أن الرجل مرسل من حماد إليها، ولكنها تجلدت ولم تجبه، فجلس والدرع في يده ينتظر ما تشير به دند. أما هي فأومأت إلى أمها وخرجتا معاً وتركته وحده، ثم قالت

هند لأُمها وقلبها يرقص فرحاً: «لا ريب عندي يا أُمّاه في أن الرجل رسول من حماد، ويلوح لي من كلامه أنه آت ببشرى ولكنه لم يتجرأ على التصريح بها أمامك، لظنه أنك لا تعلمين بما بيني وبين حماد فاسمحي لي أن أكلمه بالصراحة لنعلم الخبر الصحيح». فوافقتها أُمها، وذهبت إلى غرفة أخرى، ثم أرسلتا إلى الراهب فجاءهما والخرج على ذراعه، فلما جلس قالت له سعدى: «عزمت عليك أن تجربنا بحقيقة أمرك ومن هو صاحب هذه الدرع؟».

فنظر الراهب إلى هند كأنه يستشيرها في الجواب، فقالت له: «قل ولا تخف».

فمدّ يده إلى الخرج وأخرج الخوذة وقال لهند: «إذا كنت لا تعرفين الذي ألبسته هذه الخوذة بيدك فمن العبث أن أخبرك عنه». فخفق قلب هند وعلا وجهها بالاحمرار وقالت: «نعم نعرفه، فقل أنت ما اسمه؟».

قال: «اسمه حماد يا سيدتي». فأبرقت أسرة الفتاة أي إبراق، ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طرباً، ولكنها أمسكت وقرأ الرجل في عينيها آيات البشر، ثم قالت: «صدقت، فأين هو حماد الآن؟».

قال: «هو في مكان غير بعيد لا يجسر على القدوم إلى هذه الديار لأسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصتهم».

فقالت سعدى: «قل لنا إذن من أنت فأني لا أظنك راهباً». فرفع القلنسوة عن رأسه وقال: «لا أظنكما تعرفانني، ولكنني أعرفكما بنفسي فأني عبدكما سلمان خادم سيدي الأمير حماد».

فاستأنستا به كثيراً، وأخذت هند تسأله عن حماد وما جرى له،

فقص عليها خبره منذ خروجهما فراراً من غسان إلى أن نجوا من الأسد وسارا إلى عمان وعادا منها، ثم قال: «وقد جئت متكرراً بهذا اللباس وتركت سيدي حماداً في بعض القرى في قلق شديد على أبيه وفي شوق ولهفة لمولاتي». وأشار إلى هند.

فقالت سعدى: «ألم يبلغكما خبر سيدك الأمير عبد الله بعد؟».

قال وقد حلق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره: «لا يا سيدي، فما خبره؟».

قالت: «علمنا أن الامبراطور هرقل عفا عنه وأمر بإطلاق سراحه مصحوباً بكتاب الأمان».

فانبسط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يطير إلى حماد يشره، ولكنه استشار سعدى في الأمر فقالت: «أرى أن تسرع إلى مولاك بالخبر وتطمئنه عن هند، وقل له: إن أمها تهديك السلام، ولكن احذر أن يعلم أحد في الأرض أنك جئت هذا المكان أو نطقت بهذا الكلام، فليبحث هو عن أبيه وستصل الأخبار بيننا على مقتضى الأحوال، وليكن هو مطمئن البال والأيام بيننا». وكانت هند تسمع كلام أمها ساكته، على أنها لم تكتف بهذه المواعيد البعيدة بل كانت تود لو تضرب أجلاً للقاء ولكن الحياء أمسكها.

أما سلمان فسرّ كثيراً لما آنسه في سعدى من الرضاء عن حماد، وإن رأى قولها مختصراً مقتضباً لا يشفي غليلاً، فاكتمى بما سمعه ولبس قلنسوته وودعهما وخرج.

وما كادت سعدى تتحقق بقاء حماد حياً وترى هنداً قد انتعشت قواها وزال امتقاعها، حتى عادت إليها هواجسها بسببه وكانت مسيرتها لهند في شأنه على أساس أنها كانت تحسبه مات بعد أن

انقطعت أخباره. فلما تحققت بقاءه تمثل لها الأمر مجسماً، وندمت على ما فرط منها من مجارة هند، لغموض نسب حماد ولما تخشاه من إيقاظ الفتنة بين زوجها وبين الحارث إذا منعت ثعلبة من ابنتها. ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت رفض طلبه ولكنها أحست بتخرج الموقف، فلبثت برهة صامته تفكر في الأمر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها. فلما طال سكوتها آنست منها تردداً فانقبضت نفسها وعادت هواجسها إليها، فتركها ومشت إلى غرفتها وألقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالته له أمها فلم ترَ في قولها ما يشفي غليلاً، فأحست أن أمها إنما كانت تسايرها تودداً فعظم عليها الأمر.

وفيما هي في ذلك جاءت أمها ورأت الدموع تتلأأ في عينيها، فهاج حنوها ونسيت همومها ودنت منها وهي تبتسم مخفية ما في نفسها وهند تنظر إلى وجهها لعلها تستطلع شيئاً جديداً. فلما رأتها تبتسم اطمأن خاطرهما ولكنها أدركت أنها إنما فعلت ذلك حنواً، فعمدت إلى إثارة شفقتها التماساً لعونها، فتظاهرت بالغضب دلالةً وأطرقت هنيهة لا تتكلم.

فقالت سعدى: «ما لي أراك قلقة؟ ألم يكفك ما سمعته عن حماد؟».

وبقيت هند ساكته، فازدادت سعدى عطفاً عليها، وألقت يدها على كتفها وقالت: «ما بالك ساكته يا هند؟ ألا تشكرين الله على نعمته عليك؟».

قالت: «شكرته كثيراً ولكنني أراه لم يأذن بانقضاء شقائي بعد، فإني لم أكد أسمع ما سرنى حتى رأيت ما كدرني!». قالت: «وما الذي يكدرك؟».

قالت: «يكدرني أن أرى حبل عونك يكاد ينقطع».

قالت: «وماذا تعنين؟».

قالت: «أعني ما قرأته في وجهك من آيات التردد، ولا لوم عليك فقد عاملتني بما أستحقه». قالت ذلك ووقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعقصها أمام المرأة، فقربت سعدى منها تنظر إليها وتتوقع منها ابتساماً، فرأتها لا تزال منقبضة فخافت أن تعود إلى حالها من الضعف فهان عليها أن تعاونها على نيل طلبتها، وهمت بها فقبلتها وضممتها إلى صدرها قائلة: «انزعي عنك الظنون يا هند، فإني على ما عاهدتك عليه ولن تري مني إلا ما يسرك».

فانتعشت نفس هند ولكنها تظاهرت بالشك فقالت: «يكفيني أمل بلا عمل فإني أراك تسخرين بي».

فضحكت سعدى ملء جوارحها وقالت: «ذلك خُلق المحبين فإنهم لا يستقرون على حال».

فنظرت هند إليها شزراً وشعرها لا يزال محلولاً وأصابعها تتخلله. فلما رأت أمها تضحك انبسط وجهها وعادت إليها الآمال فتبسمت وحوّلت وجهها نحو المرأة وتشاغلت بصفّر شعرها.

فمدت سعدى يدها إلى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتم صفرها: «دعينا من صفّر الشعر فإننا فيما هو أدعى إلى الاهتمام».

فقالت هند: «لا أرى الاهتمام بشيء آخر إلا عبثاً».

قالت: «أمن العبث أن نتخلص من مطالب ثعلبة؟».

فلما سمعت اسمه نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت باباً للفرج فقالت: «يا حبذا لو صحّ».

وكانت سعدى قد فرغت من صفّر الشعر، فأمسكتها بيدها

وأجلستها على السرير ونظرت إليها نظرة فهمت هند منها أنها جادة، فأصغت إليها فقالت: «دعينا من الأوهام يا هند ولنبحث في الأمر بالتروي».

فقالت: «قولي ما تريدين واذكري وعدك».

قالت: «لا أقول إلا ما يرضيك ولكنني أعلم أنك عاقلة رزينة ولا أظنك ترتابين في حبي لك وعطف أبيك عليك. وإذا أتينا أمراً ساءك أو سرك فإنما نأتيه التماساً لراحتك».

فخافت هند أن يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد، فلبثت صامته وقلبها يخفق في انتظار اتمام الحديث.

فقالت سعدى: «لا يسعني الإغضاء عن إهمالك البحث عن أصل حماد وفصله، فإن الحب يعمي ويصم. فأرجو منك أن تستجمعي رشذك وتسألني عقلك هل يرضى بما رضيته قلبك».

قالت: «نعم يا أماه، إني في كمال عقلي ولا أرى في عملي هذا خطأ. ولا ريب عندي أنك إذا رأيت حماداً وعرفت ما في أخلاقه فإنك سترين فيه ما رأيته أنا، فهو شاب كريم الأخلاق ولا بد من أن يكون ذا حسب ونسب، فإذا لم يكن ملكاً أرضياً فهو ملاك سماوي ولا تنسي ما شهدناه من شهامته وعظم خلقه فإن هذا وحده يكفي، والمرء بأصغريه لا ببرديه، فهبي أنه ليس ذا حسب فهو لا ريب شهم كريم». قالت ذلك وأمارات الهيام بادية في وجهها تخالطها ملامح الخجل.

فقالت سعدى: «إذا كان الأمر كما تقولين فإني أهتلك بهذا النصيب، ولكننا يجب أن نتدبر الأمر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يعود على أبيك بسوء أو يؤول إلى حرب، وأنت تعلمين علاقته بابن عمه الحارث وما بينهما من المنافسة المموهة بالمجاملة، فنخشى أن

يؤول عملنا هذا إلى حرب تتقد نارها وتسفك فيها الدماء».

فقلت: «أتريدون إذن أن أرضى بثعلبة و...».

فقطعت سعدى كلامها قائلة: «كلا لا أريد ذلك ولا أرضاه، ولكنني أريد ألا تستعجلي الأمر، فإن في العجلة ندامة».

قلت: «وماذا أفعل؟».

قلت: «اتركني لي تدبير ذلك، وأرجو أن تنالي مُناكِ على أحسن سبيل».

قلت: «ها إني قد ألقيت حملي عليك وجعلت قيادتي في يديك فافعلي ما تريدون». فقبلتها سعدى وطمأنتها وسارت إلى غرفتها.

عاد سلمان إلى حماد، وكان هذا في مأمن خفي ينتظر عودته بفارغ الصبر، فلما لقيه استطلعه الخبر فأجابه وأمارات السرور ظاهرة في وجهه، وبشره بالعمو عن أبيه وببقاء هند على حبه وبرضاء والدتها بذلك. فلم يكن يوم أسعد على حماد من ذلك اليوم. فأبرقت أسرته وتمثلت له السعادة خادماً مطيعاً، وقضى بقية يومه يردد حديث سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام أمها.

ثم ما لبث أن عاد إلى ذكرى أبيه وقد خاف عليه طول الغياب، فاستشار سلمان في أمره فقال: «أرى أن نبحث عنه، فإذا التقينا به تركنا تدبير ذلك إليه».

فقال حماد: «أنسير إلى بصرى متكرين؟».

قال: «لا خوف علينا بعد صدور العفو من هرقل، ولكن ثعلبة غادر لا يؤمن جانبه، فامكث أنت هنا وسأمضي وحدي إلى منزلنا في غسام، للوقوف على حقيقة الخبر».

فقال: «وكيف تعلمه؟».

قال: «سأذهب للبحث عن الأشياء المخبأة التي تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها أحد سوانا، فإذا لم أجدها علمت أن سيدي عاد من سفرته وأخذها فنبحث عنه في بصرى وجوارها، وإن لم أجدها علمت أنه لم يعد بعد فأسير إلى بيت المقدس للبحث عنه».

فاستحسن حماد الرأي، ولما أصبحا ركب سلمان وهو بلباس الرهبان وترك حماداً في منزل رجل من بقايا الأنباط الذين كانوا يقيمون جنوبي البلقاء. وكان الأنباط في الزمن القديم أمة عظيمة ذات عز ومجد، وكانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعراق وبلاد العرب، يقيمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد العرب، ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الآن فيما يسمى «باترا» أو «بطره». ويغلب على الظن أن أصلهم من أنباط ما بين النهرين، وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون في أوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الأخرى. وكان التنجيم من وسائل معاشهم وقد حملوه معهم من بين النهرين. وكان صاحب المنزل المشار إليه طاعناً في السن لم يُرزق أولاداً، ويعيش من زراعة بقعة من الأرض صغيرة، ولم يكن يحب الغسانيين لأنهم على زعمه أحدث نعمة من الأنباط وهؤلاء أولى منهم بالسيادة. وذلك طبيعي فيمن كان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير أهله فلا يستطيع حبهم أو الإذعان لهم فإذا خلا إلى نفسه ندد بحكومتهم وعدد معائبهم. وذلك من أدلة الضعف في بني الإنسان.

وكان سلمان لما عاد بحمداد من عمان قد عرف هذا الرجل وعلم كنه حاله، فرأى أنه أحسن ملجأ يلجأ سيده إليه حتى يعود بخبر هند، فلما عاد بخبرها كما تقدم واتفقا على أن يذهب هو إلى غسام سار إليها مطمئن البال، لكنه غادر حماداً على مثل الجمر في

انتظار رجوعه .

فلم يَمْضِ يومان حتى عاد سلمان ومعه التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بجوار منزلهم، فدفَعها إلى حماد وهو منقبض النفس كاسف البال وقال له: «إني لأخشى على سيدي دسيسة ابن الحارث، وأخاف أن يكون قد غضب لما ناله من العفو فأنفذ إليه رجالاً اغتالوه» .

قال: «وما الذي حملك على هذا الظن؟» .

قال: «إني تدبرت الأمر، واستطلعت الخبر من أهل بصرى سرّاً، فعلمت أن الخبر بالعفو وصل إليهم من عشرة أيام، وأن سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت إلى الحجاز رأساً، فهل تظنه سار معها؟» .

فقال حماد: «وكيف يعقل أن يسير إلى الحجاز ونحن على موعد معه للقاءه في عمان، فلا يبعد أن يكون قد رافق القافلة إلى جوار عمان ثم عرج عليها» .

قال سلمان: «ولكنه يعلم أن موعدنا قد فات، إذ قد مضى شهران أو أكثر منذ افترقنا» .

فقال حماد: «لعله أراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا، ولا يلبث أن يعلم بذلك، فلنصبر ونتنسم أخباره» .

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفاً على سيده، ولكنه تظاهر بالاعتناء تخفيفاً عن حماد، وكان لا يزال يزلي الرهبان وقد غشي الغبار فتزع ثيابه وغسل وجهه، وكان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبه يحرس المضارب ريثما يعود. فاغتتما الفرصة وأخفيا ما جاء به سلمان من الأموال فجعلوا بعضه في جيوبهما وبعضه بين

الثياب .

— ١٣ —

خطبة هند

تركنا هنداً في صرح الغدير مؤملة الاجتماع بحماد، ولكنها كانت ترى ظلاً من الريب يعترض آمالها لأن ذكاءها ودقة نظرها أوحيا إليها شكاً في رضا أمها بحماد، أما هذه فكانت تحاول إقناع نفسها بصواب ما وعدت هنداً به، ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها. على أنها كانت تتغلب على ذلك الخاطر إرضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي به القدر.

وفيما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها خادم ينبئها بقدام من البلقاء، فهرولت إليه لعله جاء بخبر من جيلة وقد طال أمد غيابه، فرأت فارساً من رجال زوجها ترجل وقبل يدها، فاستطلعت الخبر فقال: «إن الأمير قادم إليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام».

فقالت: «أهلاً ومرحباً فإننا نستعد لاستقباله». ثم دخلت وقد أدركت أنه آت ليسألها في أمر هند وثعلبة. فانقبضت نفسها وشعرت بحرج الموقف وجعلت تفكر في حل المشكلة.

وفيما هي في قلقها جاءت هند، وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئه ففحق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك وتوقعت أن ترى أمها في ارتباك، فلما علمت بخلوتها دخلت بغتة فرأتها فيما تقدم من الانقباض، وحيثها فانتبهت سعدى لحالها فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها، فابتدرتها هند بصوت مختنق قائلة: «لا يشغلك شاغل يا أماه، فما في الأمر ما يدعو إلى هذا الاهتمام؟».

فقالت سعدى: «لست في همّ يا بنيّتي، ولكنني أشعر بانحراف في صحتي».

فقالت: «صدقت ولكن سببه هند».

قالت: «كلا فإنك تسليتي ومنشأ سعادتي ألا ترينني أنشرح صدري وانبسط وجهي حالما وقع نظري عليك».

قالت: «أرى ذلك ولكنني أرى التكلف بادياً، فلا ترتبكي ولا تقهري نفسك فإن كل حال تزول». وقد أرادت هند بهذا أن تختبر أمها وتتحقق موقفها من أمرها قبل قدوم أبيها لأن على اجتماعهما هذا يتوقف مستقبلها.

فقالت سعدى: «ما بالك تكلميني بالرموز ألم تتحققني الآن أني عند ما وعدتك به؟».

قالت: «تحققت ذلك ولكنني أراني سببت لك تعباً وارتباكاً».

قالت: «إن التعب لأجلك راحة، فأقلعي عن هذه الظنون، وهلمّ ندبر الأمر فنتفق على خطة نسير عليها. فإن أباك قادم غداً، وأظنه سيفتح حديث ثعلبة فماذا نقول؟».

قالت: «أنت تعلمين ما في قلبي فأجيبه بوحى حكمتك. أما أنا فإذا سئلت فلا جواب عندي إلا الرفض مهما يكلفني ذلك».

قالت: «هبي أنه سألنا عن سبب هذا الرفض فهل أذكر له حكاية حماد؟».

قالت: «لا أدري ما تقولين فقد كشفت لك مكنونات قلبي وقد وعدتني بتدبير الأمر فافعلي ما تشائين».

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجازاة ابنتها، وخرجت من حجرتها وأمرت أهل القصر بضرب المضارب وإعداد الذبائح

لاستقبال جبلة وحاشيته في صباح الغد.

فلما كان الصباح قام الخدم ففرشوا البسط ونصبوا الخيام وذبحوا الذبائح وأوقدوا النيران، ولبست سعدى وهند ملابس الاستقبال. وعند الضحى ظهر الغبار من جهة البلقاء فخرج أهل القصر لملاقاة جبلة ورجاله، وأطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على السهل. أما هند فاستلقت على سريرها واجفة خائفة ما تصورته من غضب أبيها إذا علم بما في نفسها، وما لبثت أن سمعت قرقرة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت أن أباه وفرسانه وصلوا، فخفق قلبها ولكنها تجلدت وأطلت من الشرفة فرأت الفرسان يتحولون إلى الخيام المضروبة لهم هناك، وترجل أبوها أمام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد لف رأسه بكوفية حولها العقال، والتف بالعباءة فوق القباء، فاستقبلته سعدى بوجهه باش يخامره بعض الانقباض. ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها، واستغرب ما في وجهها من النحول فسألها السبب فأجابته أمها بأنها تشكو من ألم عارض. ثم ساروا جميعاً إلى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد، فدخل جبلة ممسكاً هنداً بيدها حتى جلس في صدر القاعة وأجلسها إلى جانبه وقد أذكى فيه عواطف الحب والحنو ما آنسه فيها من الضعف فما صدق أن خلاها وبأمرها حتى سألها عما تشكو هند منه، فطمأنته وألحاً عليه أن يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل.

أما سعدى فأنست في وجه زوجها انقباضاً لم تعهده فيه ولا سيما عند رؤيته هنداً بعد غياب طويل، واعتزمت استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع لانشغال جبلة بتفقد غرف القصر ونزوله إلى الاسطبل ليرى أفراساً له كان قد تركها هناك، ولحظت أنه يبدو كأنما فعل ذلك تخلصاً من سؤالها واستفهامها. فلما

كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في أمر يشغله، فلم يدر بينهم حديث غير ما لا بد منه على المائدة. وبعد العشاء تفرق الخدم كل إلى شأنه، وبقي جيلة وزوجته وابنته في القاعة على حدة. وكان جيلة متكئاً على وسادة، وهند إلى جانبه، وأمها بين يديه.

فنظر إلى هند وتأمل وجهها ثم التفت إلى سعدى وقال لها: «لقد أطلت الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتنى، وكنت أعد النفس بالقدوم إليكم منذ أيام فلم أستطع إلا اليوم، وكنت أحسب مجيئي هذا يفرح كربتي فلم أرَ إلا ما يزيدني انقباضاً».

فتناولت سعدى بعنقها قائلة: «ليس في هند ما يدعو إلى الانقباض فقد يمر على الإنسان أيام يتوعك فيها مزاجه لغير سبب يعرفه، ولكنني توسمت في وجهك انقباضاً منذ قدومك هذا الصباح، وكنت أغالط نفسي. وأحسبني مخطئة وقد اعترفت به فأرجو أن تفصح عن السبب».

قال: «ليس فيما تشاهدينه في من الانقباض ما يهيك الاطلاع على أسبابه فهو أمر عارض لا يدعو إلى بحث».

فقالت: «لا أظن أمراً يهيك لا يهمننا، ومهما يكن من شأنه فإن بالنال لا يهدأ إلا بمعرفته».

فقال: «دعينا من الخوض فيه فقد يكون سحابة صيف تنقشع».

فاشتاقت سعدى إلى استطلاع الخبر وأدركت أنه منقبض من شيء سمعه ولم يتحقق صدقه. فقالت: «هَبْ أنك لم تتحقق ما سمعته فأطلعنا عليه».

قال: «جاءنا قادم من الحجاز يخبرنا بقدوم جند من العرب

لحربنا».

فبغتت سعدى وقالت: «وما سبب قدومهم ولا نعرف بيننا وبينهم ما يوجب حرباً؟».

فهز رأسه واعتدل في مجلسه وجعل يمشط لحيته بأصابعه وقال: «إن هؤلاء العرب عصبة قوية برئاسة نبي ظهر بينهم يدعو الناس إلى دين جديد، وقد أرسل إلينا كتاباً يدعوننا فيه إلى دينه فوصل كتابه إلى الحارث فمزقه وامتهن حامله فشق ذلك على صاحب الدعوة فأنفذ جنداً من رجاله لقتالنا، فبثنا العيون والأرصاد لمراقبة طريقهم ولا نعلم متى يصلون».

فبغتت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها: «كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابنه فلا حول ولا قوة إلا بالله». ونظرت إلى أبيها وقد ثارت فيها الحمية وقالت: «وما يخيفنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بني غسان رجال أشداء لا نرهب القتال؟».

فانشرح صدر جبلة لما أظهرته هند من الحماسة وقال: «نعم إننا لا نخاف حربهم، ولكننا كنا في غنى عن حشد الرجال وإعداد معدات الدفاع، وحصوننا لا تزال متهدمة عقب حروبنا مع الفرس سامح الله فيما جرّه علينا من البلاء».

فقالت سعدى: «يلوح لي أن هؤلاء العدنانيين يريدون قتال الحارث لا قتالنا».

قال: «نعم ولكننا تابعون للروم فإذا احتاجوا إلى دفاع استنجدونا جميعاً ولا يسعنا إلا الإذعان».

فقالت هند: «أخطيء الحارث ونحن ندفع عنه؟».

قال: «ذلك ما لا بد منه إذا دعت الحال، وسنرى ما يكون من

أمر هذا الجند، فقد جاءني الحارث أمس وناقشته في الأمر ملياً، وأخذنا في حشد الرجال وإعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال».

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها أيقنت أنهما تحدثا في شأن هند وتوقعت أن تسمع الحديث منه ساعة لا تكون هند معهما، فتظاهرت بالملل وقالت: «أظنك تعبت في سفرك، فهل تذهب إلى الفراش؟». فأدرك مرادها وأجاب دعوتها ونهض، ونهضت هند ولم يفتها الأمر فانصرفت إلى حجرتها بعد أن نظرت إلى أمها من طرف خفي كأنها تذكرها بوعداها.

خلت سعدى إلى جيلة بعد أن بدّلا ثيابهما، فاتكأ كل منهما على سريره، والسريران متقابلان، وفي الغرفة شموع مضاءة، وقد استولى السكوت على صرح الغدير إلا ما يُسمع من صهيل الخيل في معسكر حاشية جيلة من بعيد.

فبدأ جيلة بالكلام قائلاً: «عهدت إليك في مهمة منذ أيام، وكنت أتوقع قدومك إلينا بخبر إتمامها فأبطأت حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيه. وقد آنست منه تغيراً إذ كان يتوقع جواباً عاجلاً، فإن ما سمعه عن قدوم العدنانيين. جعله يرغب في استعجال حفلة الزواج».

فأحست سعدى بما جرت به على نفسها من المتاعب بما أغدقته على هند من الوعود، وترددت برهة في الجواب، فابتدرها جيلة قائلاً: «ما بالك لا تجيبيني؟ هل هناك مجال للتردد؟».

قالت: «لا أدري، ولكن هنداً منذ ذكرت لها هذا الأمر وصحتها كما رأيت».

قال: «وماذا كان جوابها؟». قالت: «لا سلباً ولا إيجاباً!».

قال: «إذن هي راضية؟». قالت: «لا يدل السكوت دائماً على الرضا».

قال وقد بغت: «وماذا إذن؟ أتظننيها ترفض؟».

قالت: «لا أدري، ولعلّي مخطئة في ظني».

فقال وقد استغرب جوابها: «أفصحني فأني أرى وراء هذا التردد ما يؤول إلى خطر جسيم».

فقالت: «وأي خطر تخافه؟».

قال: «ألا تعلمين أن الرفض يدعو إلى نفور بيننا وبين الحارث؟».

فقالت وهي تتجاهل مراده: «وأي علاقة بين الأمرين، أياكون الزواج قسراً؟».

فهبّ من مجلسه وقد ازداد استغراباً وقال: «أبلغ من هند أن ترفض ما اختاره لها أبواها؟».

قالت: «لا تقل: (أبواها) بل قل: (أبوها) فقط».

فحملق وقال وقد علا صوته: «أتجارينها في رفضها يا سعدى؟».

فأجابته بصوت منخفض قائلة: «لا، لم أجارها في شيء، ولكنني خفت عليها الموت، فإذا كنت ترى أن نضحي بهند فريسة لذلك الرجل فزوّجها به». قالت ذلك وأطرقت وقد شرقت بدموعها.

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة، ولبث برهة يحسب نفسه في منام ثم قال: «ماذا تعنين يا سعدى؟ أتتكلمين عن يقين؟».

قالت: «لم أذكر إلا ما تحققت به بعد جدال طويل، وإذا كنت لا تصدق مقالِي فهذه هند ادعها إليك وخاطبها وجهاً لوجه فقد نفدت حيلتي فيها».

فرجع جبلة إلى صوابه وذكر حبه لهند وإعجابه بشهامتها وتعللها، ولكنه خاف عواقب الرفض فقال لها: «أدعها إليّ لأخاطبها وأسمع اعتراضها».

فوقفت سعدى وهمت بالخروج إلى غرفة هند، ولكنها رأت أن مجيئها إلى أبيها في غضبه قد ينتهي إلى عاقبة وخيمة، فرأت من الحكمة أن تخفف من غضبه وتهديء روعه قبل مجيء هند، فدنت منه والدموع ملء عينيها وقالت: «سأذهب لآتي بها على أي ألفتك إلى أمر أرجو أن لا يبرح ذهنك».

قال: «وما ذلك؟». قالت: «أنت تعلم شهامة هند ورقة إحساسها، وكم تحملت من الصبر والكبت لما فاتحتها في أمر ثعلبة، وتعلم أيضاً أننا نحن في ثعلبة وأنه غير كفؤ لها بعد ما خبرناه من خستته وغدره، ولا تظنه يحبها بل هو يريد قتلها. فتدبر الأمر بالحكمة وخاطبها بالحنى ولا تطمع في إكراهها لئلا تسوقها إلى حتفها فتندم حين لا ينفعنا الندم. فمن الحكمة أن نأخذها باللين والمطل ريثما نتغلب على عواطفها».

فقال جبلة: «أراك على صواب، ولكنني لا أستطيع التخلص من شرّ أتوقعه إذا رفضنا. على أي لم أفهم سبب رفضها ابن عمها ولا أعرف في غسان رجلاً أقرب نسباً منه ولا أليق بمقامها. فما بسبب هذا البغض؟».

قالت: «السبب دناءته وخستته، فقد عاشرته أعواماً طويلاً فلم تجد فيه شيئاً من أنفة الرجال وكرم أخلاق بني غسان. ولما حدثني

بذلك. وكثيراً ما كنا نذكر سيئاته في حضورها فلا يسعنا بعد هذا إقناعها بنزاهته وكرم أخلاقه».

فقال جبلة: «صحيح هذا يا سعدى، ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل الجمالة. ولا ريب عندي أن رفض طلبه يجبرنا إلى قتال، ونحن في حال تدعو إلى اجتماع الكلمة لما سمعناه من أخبار الحجاز».

فقالت: «قد يقع هذا ولكنني أكرر ما قلته وهو أن إصرارنا على تزويجها ثعلبة يقودنا إلى ما نندم عليه ساعة لا ينفعنا الندم، فهي لا تحبه ولا يمكن أن ترضاه. فهل يهون علينا أن نخسر هنداً وهي ثمرة حياتنا ومُنَاط آمالنا لنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها؟». قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها؟».

قال: «أراك تؤكدين أنه لا يحبها فلماذا إذن يطلبها؟».

قالت: «هذا ما سأقص عليك نبأه في فرصة أخرى، أما الآن فسأدعو هنداً إليك، والتمس منك أن ترفق بعواطفها ما استطعت لأن العنف لا يجدينا نفعاً».

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت حجرة هند، فرأت الباب موصداً وأنست صوتاً فأصاحت بسمعها فسمعت بكاء يتخلله شهيق فعلمت أن هنداً تبكي، فطرقت الباب ونادتها باسمها فأبطأت قليلاً ثم فتحت فأدنت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت إليها فإذا هي ذابلة الأجفان محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها، ووضعت المصباح على الأرض وهمت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنواً وشفقة وقالت: «لا تبكي يا ابنتي ولا تحزني، فلا يكون إلا ما يسرك».

فقالت: «كفاني يا أمه تعزية، فقد سمعت كلام أبي بأذني».

قالت: «وما الذي أسمعك كلامه وأنت هنا؟».

قالت: «مررت بالباب فسمعتة ينتهرك ويصرّ على قوله وما ذلك إلا لشقائي. فإذا كان لا يزال على عزمه فأستودعك الله». قالت ذلك وعادت إلى البكاء.

فقبلتها سعدى وقالت: «أخطأت يا هند فإن أباك يكاد يسلم معي برفض ثعلبة، وهو إنما ينتظر مشافهتك في شأنه لسمع الجواب من فيك، فها بنا إليه فإنه ينتظرنا في حجرته». وأرادت سعدى أن تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعله يرقّ لها فيجاريها على مرامها. أرادت هند أن تنتظر قبل الذهاب إلى أبيها ريثما تحفّ دموعها، فلم تمهلها أمها. وسارتا حتى وصلتا إلى الحجرة وجبلة متكئ على فراشه وقد استبطأ امرأته وأحب البقاء متكئاً إظهاراً لما في نفسه من العتب على هند. أما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت أهدابها وذبلت أجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجتها واسترسل شعرها على ظهرها. ومشت حتى اقتربت من سرير أمها وأسندت كتفها إلى الحائط ذليلة كئيبة ولبت مطرقة.

فلما رآها جبلة على تلك الحال حنّ لها ونسي غضبه ولكنه ما زال مكبراً عملها فخطبها قائلاً: «ما رأيك يا هند؟».

فظلت صامته تتشاغل بأهداب ضفيرتها بين أناملها، فعاد يقول: «ما رأيك في ثعلبة ابن عمك؟».

فلما سمعت اسمه ارتعدت فرائصها وعادت إلى البكاء ولكنها أمسكت نفسها عن الشهيق فانحدرت دموعها على خديها. فلما شاهد جبلة دموعها شعر كأن قلبه يقطر دماً شفقة عليها وقال لها: «ما بالك لا تحيييني، ونحن إنما بعثنا إليك لنسمع الجواب من فيك. قولي ما رأيك في طلب ثعلبة؟».

فلم تتمالك عن الشهيق، وأرادت الخروج من الغرفة فأمسكت
سعدى يدها وهمت بإرجاعها فألقت بنفسها إلى الأرض وأخذت في
البكاء حتى كاد يُغمى عليها.

فجعلت سعدى تخفف عنها وأومأت إلى زوجها أن يكف عن
السؤال وجاءتها بماء رشتها به وسقتها منه قطرة حتى هدأ روعها،
وجيلة صامت ينظر إليها وقلبه يكاد يتقطع حتى هان عليه كل صعب
فقال لها: «قد فهمت يا هند أنك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين أباك
وعشيرتك؟».

قالت وهي تشرق بدموعها: «نعم أحبك وأحبها وإن كنت
ترى في تسليمي لذلك الخائن راحة لك ولعشيرتك فإني راضية
بالموت فداء عنك وعنهما، وهذه روحي بين يديك فافعل بها ما
تشاء».

قالت ذلك وترامت على أبيها فضمها إلى صدره والدموع
تساقط من عينيه رغم إرادته وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول:
«لا تجزعي يا هند إني على ما تريدني فهوني عليك واستجمعي
حواسك» قال ذلك وأجلسها إلى جانبه فجلست وهي تجمع شعرها
وترسله على ظهرها. ولما رأت انعطاف أبيها إليها تذكرت ما لا يزال
في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمها أن أباه سينكر أمر حماد
أكثر مما يرفض أمر ثعلبة، فأرادت اغتنام فرصة عطفه عساها أن تنال
رضاه فعادت إلى البكاء.

فعجب لبكائها بعد مجاراته لها في رفض ثعلبة، وكان يظن
ذلك كافياً لزوال أحزانها، فلما رآها تبكي ظنها لم تفهم مراده. فقال:
كفي عن البكاء فقد أغفلنا ثعلبة وطلبه فهدي روعك». فلم تردد إلا
بكاء، فأدركت أمها ما في نفسها فأومأت إلى جيلة أن يكف عن

السؤال هنيهة، ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها بمنديلها وتقبلها، ثم أمسكتها بيدها وخرجت بها إلى غرفتها فلما خلت إليها سألتها عن مرادها فقالت: «دعيني يا أماه، دعيني أبك على صباي فقد أدركت ما جررته على نفسي من البلاء».

فعلمت أنها تشير إلى حماد وما تخافه من غضب أبيها إذا علم بحبها له فقالت: «أشكري الله يا هند على أننا قطعنا نصف الطريق». فقالت هند: «لم نقطع إلا السهل منها وبقي الوعر يا أماه». قالت: «إن الذي نجانا من ثعلبة لا يبخل علينا بحماد، طيبي نفساً وقرى عيناً».

قالت: «كيف يطيب لي عيش؟ وقد زهقت روحي قبل أن أقطع السهل الهين من الطريق فكيف وقد وصلنا إلى العقبة التي لا أرجو اجتيازها. فقد رأيت ما أعظمه أبي من أمر ثعلبة وهو يعلم خستته، فمن يتجرأ على ذكر حماد أمامه وهو رجل غريب لا يعرف أصله ولا فصله. آه يا لتعاسي وسوء حظي!».

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت أكثر من خوفها، ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوب المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط آمالها وهند تبالغ في إظهار بأسها.

فقالت سعدى: «خففي عنك وانهضي إلى فراشك، وعلى تدبير ما تريدينه، ولك علي ألا يصبح الصباح حتى يكون أبوك قد رضي بكل ما تريدين».

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش، وأحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الأزمة، ولكنها استبعدت ذلك كثيراً فالتفت إلى أمها وتبسمت تبسم طفل نال أمراً كان يتطلبه باكياً وهو لا يصدق أنه

نالَه . فلما رأتها سعدى في تلك الحال زادت انعطافاً إليها وابتسمت لها والدموع ملء عينيها وقالت: «هَوْنِي عليك فقد قلت لك أني ضامنة لك ما تريدن، ألا يكفيك ذلك؟» .

قالت: «يكفيني يا أماه، ولكنني أرى أبي صعب المراس فلا أظنه يرضى» .

قالت: «لا تستعظمي أمراً تريدن، والله قادر على كل شيء، فاذهبي إلى سريرك والله يفعل ما يشاء» .

سكن روع هند وعادت إليها آمالها بعد أن أَلقت حملها على أمها . ثم نهضت ومشت إلى الفراش وقد أنهكها التعب وخارت قواها من هول ما قاسته تلك الليلة، ولما رأت أمها تهم بالخروج استحلفها أن تبذل جهدها في إقناع أبيها فأكدت أمها لها الوعد وخرجت حتى أتت غرفة زوجها فإذا هو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من هند، فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلاً: «أتظنين هنداً تبقى على عزمها من رفض ثعلبة؟ لقد رأيت أني جاريته في أمر ربما آل إلى حرب بيني وبين الحارث، ولكنني فعلت ذلك مدفوعاً بشفقتي على الفتاة وإن أرجو أن أعود إلى إقناعها في فرصة أخرى . ألا تساعدنني على ذلك؟» .

فابتسمت واستغربت قائلة: «أتظنني جاريته هنداً في عملها هذا عبثاً؟ . ألم أقل لك أني إنما فعلت ذلك مرغمة إذ خفت على حياتها، ولو علمت أن الإصرار ينفعنا شيئاً ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض . أليست هند ثمرة حياتنا ومناط آمالنا وزهرة عمرنا وتعزيتنا في شيخوختنا؟ ألم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين، إن فتاة غسان لأشجع الفرسان في حومة الميدان فإذا ركبت جوادها تطاولت إليها الأعناق

وحامت حولها القلوب. ولقد طالما وقفت في حومة الوغى واستحثت همم الرجال وأثارت هميتهم. فلا يغرنك منها ذلها وانكسارها الآن، فمثلها لا ينبغي تسليمها لرجل لا يساوي قدة من نعلها. وثعلبة كما تعرفه هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب ويغدر كالعقرب. وما أظنك نسيت يوم السباق وما كان من شأنه مع ذلك الشاب الغريب الذي سبقه وعاد من حلبة السباق آخر مرة وفي يده قصبة السبق مبرية بري القلم».

وكان جبلة في أثناء ذلك صامتاً وقد أعجب بفصاحة سعدى واتساق حديثها، فلما ذكرت القصبة تذكر أنه رآها مبرية فقال: «نعم أذكر ذلك».

قالت: «أتدري سبب بريها؟ إنك لو اطلعت على سرّ الأمر لما وسعك إلا أن تلعن الساعة التي ولد فيها ثعلبة في بني غسان، ولوددت لو أن حماداً جاء مكانه لأنه أشبه بشهامتهم وكرم أخلاقهم». فمال جبلة إلى استطلاع السبب فقال: «وما سبب بري تلك القصبة؟» فسرت سعدى لإصغاء زوجها إلى حديثها، وقصت عليه حكاية القصبة وبالغت فيما أظهره حماد من الشهامة وكرم الأخلاق وما كان من ذناة ثعلبة وخسسته، فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه جبلة لما جرّه ثعلبة من العار على الغسانيين وأحس بارتياح إلى حماد. فقال: «تباً لثعلبة ورعياً لذلك الشاب، فيا ليتة قتله ولم نسمع هذا الحديث».

فاستبشرت سعدى وقالت: «أما وقد فتح الحديث وجرنا الكلام إلى هذا الحد فأسألك سؤالاً بصدد ما سألتنيه الليلة». قال: «وما ذلك؟».

قال: «أتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعدما علمته

من نفوره منها؟».

قال: «وما تعنين بنفوره؟».

قالت: «ألم تكن هند ابنة عمه منذ وُلدت؟». قال: «بلى».

قالت: «ألم يكن يجدر به أن يخطبها لنفسه منذ أعوام وقد يخطب أبناء العم من الطفولة؟». قال: «بلى».

قالت: «أتدري ما الذي أمسكه عن خطبتها حتى الآن؟».

قال وقد بهره قولها وتطاول بعنقه لاستكمال حديثها: «لا أدري وماذا تظنين سبب ذلك؟».

قالت: «السبب أنه يحسب نفسه أرفع منها مقاماً، أو لعله كان يتوقع أن نعرضها عليه فإذا قبلها إذ ذاك فإنما يقبلها كرمًا ومئة».

قال جبلة وقد اشتد غضبه: «خسئ النذل وخسئ أبوه قبله!».

قالت: «بل خسئ كل من يقول قوله، فقد علمت أن ثعلبة لم يكن عازماً على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرته ودفعه إلى الانتقام، وإذا أذنت في أن أكشف لك الغطاء فعلت».

قال وقد مالَ إلى استطلاع السرّ: «نعم إني شديد الميل إلى معرفة ذلك فقولي».

قالت: «ولكنني أستحلفك بحبك لهند أن تبقى على حبها وتشفق على صباها وتعذرها فيما رأيته أو تراه من حالها».

قال: «لقد عذرناها من قبل فلا حاجة إلى اليمين».

قالت: «إنما أستحلفك على أمر لم تعلمه بعد».

فازداد شوقاً وقال: «قولي لقد نفذ صبري».

قالت: «لقد علمت حسد ثعلبة لحمداد على أثر فوز هذا عليه في السباق. وقد تعاضم حسده لما رأى هنداً تلبسه تلك الدرع وهي إنما فعلت ذلك بأمرك». قال: «نعم».

قالت: «وقد رأيتك وأنت رجل معجباً بشهامة ذلك الشاب، ولا يخفى عليك أن النساء أكثر إعجاباً بشهامة الرجال ولا سيما من كانت مثل هند في مستقبل العمر وريعان الشباب». قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة، وكانت تتوقع استغرابه.

فحملق جبلة ونظر إليها والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال: «وماذا تعنين؟».

قالت وهي تردد بين أن تصرح له وبين أن تبقى على الكتمان: «أعني أنه لما رأى هنداً معجبة بحمداد ثارت في قلبه نيران الغيرة والحسد والانتقام و...».

فقطع عليها الكلام قائلاً: «أظنك تعنين أكثر مما تقولين؟».

فأرت سعادى أن تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت: «أعني أنه ظنها تحب حماداً فأراد خطبتها ليحرمها منه فينتقم منهما معاً».

فبهت جبلة وقد ارتاب في كلام سعادى بعد أن رأى ترددها، ولكنه استزادها إيضاحاً فقال: «هل كان ذلك ظناً منه فقط؟».

قالت: «لا أدري».

فقال: «أراك تكتمين شيئاً آخر فأفصحى عما في ضميرك».

فسكتت وقد خافت التصريح، ولكنه ألح عليها وهو في ريب من أمرها وقال: «إفصحى؟». فقالت: «هب أنى أكتم شيئاً آخر فما الفائدة من الإفصاح؟».

فأدرك أن لديها سرّاً تخاف إفشاءه فراراً من غضبه فقال وقد

اشتد قلقه وحمي غضبه: «افصحي، هل علمت يقيناً أن هنداً تحب ذلك الشاب؟».

فأطرقت ولم تحب ولكنها أشارت بكتفيها وحاجبيها أنها لا تعلم.

فقال: «ما بالك لا تجيبين هل هند تحب ذلك الشاب؟».

فلما رأت تقطب حاجبيه وحملقة عينيه خافت اشتداد غضبه فنهضت وأرادت تأجيل الحديث إلى وقت آخر وقالت وهي تهم بالخروج: «لا أعلم وسأبحث ذلك ثم أخبرك».

فأمسكها بيدها وأقعدها وقال لها: «يكفي مداجاة، إنك تعلمين ما هناك فقولي ولا حاجة إلى التسويف بعد أن فهمت ما فهمته من خلال حديثك».

فقالت: «إذا كنت قد فهمت فلماذا تستعديني ما قلته؟».

قال: «إذن هي تحبه وترجو أن تتزوج به؟».

قالت: «ربما كان ذلك». وأعرضت عن جلبة متشاغلة بإصلاح فراشها وأظهرت عدم الاكتراث.

فحمي غضبه وأمسكها بيدها وجذبها إليه بعنف وقال: «ما بالك تستخفين بغضبي كأنك لا ترين في الأمر ما يستحق الاهتمام، ألا يهمك أن تقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف أصله ولا فصله وقد يكون من السوق؟».

فنظرت إليه عاتبة وقالت بصوت منخفض: «وهذا ما حملني على الكتمان، لعلمي أنك ستلقى الخبر بما أعلمه من تعلقك بشرف الغسانيين وإنكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم، على أن حماداً ليس من السوق بل هو من أمراء العراق بني لخم».

فخجل لما كان من خشونته معها والغضب يمنعه من الاعتذار ولكنه أمسكها بلطف وقال لها: «ألا تنكرين أنت ذلك أيضاً، وهبي أنه أمير فيينا وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة».

قالت: «لا أخفي عليك أني استعظمت الأمر عند سماعه لأول وهلة ولكنني تلقيته بالحكمة والصبر لأرى حيلة في تدبيره ولو علمت أنت حال هند كما علمتها أنا لفعلت مثل فعلي، ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوك وشفقتك؟ فافعل ما تشاء وإذا ماتت هند فاللوم عليك». قالت ذلك وهي تنظر إليه والدموع ملء عينيها.

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبه وصبر نفسه ونظر إليها بطرف يكاد يدمع وقال: «وما الحيلة التي تريها والحال كما قلت؟». قالت: «إذا أذنت أن ننظر إلى الأمر بعين الحكمة دبّرت لك حيلة نصرف بها هذه المشكلة على أهون سبيل وإلا فالأمر لك». فبهت ثم قال: «ما الرأي؟. قولي».

فجلست إلى جانبه وقالت: «أما الرأي فهو أن نتظاهر بالرضا عما أرادته هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط».

فقال: «وكيف ذلك؟».

قالت: «سأقول أنك لا تمنع في اقترانها بحماد إذا طلبها ثم أبين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبه وهي لا تنكر ذلك. ثم أحجب إليها أن يعمل عملاً نقترحه عليه يكون مدعاة فخر يغنيه عن النسب فإذا قبلت - ولا أظنها إلا قابلة لعلمي بعزة نفسها - اقترحنا على حماد أمراً يقرب من المستحيل. فإذا استطاعه كان

اقتترانه بهند أمراً مقضياً من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول».

فارتاح جيلة إلى هذا الرأي وسألها عما تنوي اقتراحه فقالت: «سننظر فيه ونقرّه وعندما يؤون الأوان».

فسرّ لتعقلها وأثنى على ما أظهرته من الروية والحكمة، فقالت له عند ذلك: «دعني أذهب إلى هند وأطمئنها لئلا تقضي الليلة ساهرة فيعود إليها توقعها». قالت ذلك وخرجت فرأت هنداً مقبلة عليها فنهضت لها وهي تنظر إلى وجهها تتفاءل بما تقرأ عليه من آيات البشر. فرأتها تبسم فاطمأن بالها واستطلعتها الخبر فطمأنتها وأكدت لها أن أباه لا يمنعها مما تريده فلم تصدقها حتى أقسمت بحبها لها، فانبسط وجه هند ولم تمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها أكثر من سرورها. ولكنها ما زالت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح.

— ١٤ —

جيلة والحارث

تركنا حماداً في انتظار خبر عن أبيه وسلمان يتردد إلى بصرى وضواحيها يسأل عنه حتى يشا من العثور عليه فقلق حماد لذلك كثيراً، وخاف أن يكون قد مسّه الضر وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يوم من بصرى فوصل إلى خيمة حماد فرآه غارقاً في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد: «ما وراءك يا سلمان؟».

قال: «ما زلت على ما فارقتني عليه، ولا أراني أستطيع صبراً فأذن لي في المسير إلى بيت المقدس أو عمان لأبحث عن سيدي».

فقال حماد: «ألا ترى أن أسير معك؟».

قال: «لا حاجة إلى ذهابك فامكث ريثما أعود».

فقال: «هل تذهب إلى بيت المقدس أم عمان؟».

قال: «أرى أن أسير إلى بيت المقدس أتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على خبره فضلاً عما في الطريق إلى عمان من الأخطار».

قال: «سر في حراسة الله ولا تطل الغياب فإني في قلق».

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصداً إلى بيت المقدس فبلغها بعد أيام، وجال في طرقها حتى انتهى إلى خان علم من قيافة صاحبه أنه عربي، فدخل والتمس مبيتاً عنده فأعد له غرفة نزل فيها وأرسل جواده إلى الاسطبل، ثم بدل سلمان ثيابه وجاء إلى صاحب الخان فجلس إليه وجعل يحادثه في شتى الشؤون حتى تطرق إلى حكاية هرقل وما كان من مجيئه إلى هناك فقال له: «وهل رأيت القيصر يوم مجيئه؟».

قال: «رأيتُه ماراً بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت علينا الأشغال لتقاطر أهل القرى والبلاد على بيت المقدس».

فقال: «وهل يأتاكم كثير من العرب أم كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من أهل هذه البلاد».

قال: «قلما ترد علينا قوافل العرب، أما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم».

فقال: «وما سبب ذلك؟».

قال: «لأن القيصر بعث إلى أمير من أمراء الحجاز يقال له أبو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعاً في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدمهم لما كانوا يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم، ويظهر أنهم من أهل الرخاء خلافاً لما تعودناه من فقر أهل الحجاز لجذب أرضهم».

فقال سلمان: «كثيراً ما سمعت بأبي سفيان هذا وعهدي به أنه من أعظم أمراء مكة وأنه كثيراً ما يقدم برجاله إلى الشام وضواحيها للإتجار».

فقال: «ولكنه قلما يأتي بيت المقدس، أما في هذا العام فقد جاء بأمر من القيصر».

قال: «وما الذي دعا القيصر إلى استقدامه؟ ومن يكون أبو سفيان حتى يهتم قيصر الروم باستدعائه؟».

فحكى له حكاية الكتاب الذي ورد على هرقل وما كان من أمره حتى انتهى إلى سفره من بيت المقدس.

فأراد سلمان أن يستطلع خبر سيده فقال: «أظن العرب الذين يأتونكم كلهم أو أكثرهم من الحجاز، ويندر أن يأتيكم أحد من أهل العراق».

وكان صاحب الخان قد علم من لهجة سلمان أنه عراقي فقال: «وكثيراً ما يأتينا تجار من العراق أيضاً ولكن قدومهم يكون على الأكثر في أزمئة المواسم والأعياد عندما يكثر الواردون إلى القبر المقدس لأن الناس يحجون إلى أورشليم من جميع أقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان أيضاً لعرض سلعهم، وأهل العراق يحملون إلينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئاً من محصول العراق كالتمر وغيره».

فقال: «هل جاءكم أحد منهم أثناء ذلك؟».

قال: «رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم أحد عندي سوى أمير جاءنا يوم سفر أبي سفيان وسار معه».

فتوسم سلمان من ذلك خيراً فقال: «هل عرفت اسم ذلك

الأمير».

قال: «أظنني سمعتهم ينادونه عبد الله».

فتحقق سلمان أنه سيده بعينه فقال: «هل عرفت شيئاً عن هذا الأمير؟».

فأطرق صاحب الخان هنيهة ثم قال: «لقد أذكرتني من شأن هذا الأمير ما يتقطر له القلب».

فاقشعر بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحوه وقال: «لقد شغلت بالي يا أخا العرب بما أشرت إليه فهل أصيب الأمير عبد الله بسوء؟».

قال: "كلا، ما قصدت إلى هذا ولكنني علمت أنه أصيب بفقد ولد له أكلته السباع في مسبعة الزرقاء".

فعجب سلمان والتفت إلى صاحب الخان وقال: «أعترف لك يا سيدي أن أمر هذا الأمير يهمني كثيراً لأنه سيدي، وقد جئت للبحث عنه فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تم له ومن أنبأ بمقتل ابنه؟».

قال: «لن أخفي عليك شيئاً مما أعرفه، فقد جاءنا هذا الأمير يوم سفر أبي سفيان، ولحظت أنه سار في ضيافته فلما خرجت القافلة أرسلت معها بعض خدم الخان ليشيعوها لعلها تحتاج إلى إرشاد في طريقها، وكان مع القافلة جواد عثروا عليه شاردأ في بعض السهول أثناء مجيئهم إلى الشام. فلما همت القافلة بالمسير قدم أبو سفيان ذلك الجواد للأمير عبد الله ليركبه فلما رآه عرف أنه جواد ابن له كان فارقه في بعض جهات الزرقاء فالتبس عليه أمر الجواد وفراره، وحكى حكايته هذه لأبي سفيان، فرافقه هذا مع بعض رجاله إلى المكان الذي رأوا الجواد فيه، وبلغني أنهم عثروا على بقايا جواد تحت شجرة

وأشياء أخرى استدلوها منها على ذهاب الغلام فريسة السباع. فبكى ذلك الأمير بكاء مرّاً وندب ابنه وبالع أبو سفيان في تعزيتة فلم يتعزّ.

وكان سلمان في أثناء هذه الحكاية مصغياً وقلبه يخفق، فلما وصل صاحب الخان إلى هذا الحد أحس سلمان بقشعريرة وقف لها شعر رأسه وقال للرجل: «وماذا تم له بعد ذلك؟».

قال: «سمعت أنه لما تحقق موت ابنه لم يعد يحلو له الذهاب إلى منزله في بصرى فسار مع القافلة إلى الحجاز؟».

فقال سلمان: «وهل تحققت أنه سار إلى الحجاز؟».

قال: «هذا ما سمعته ولا أدري إذا كان قد رجع عن عزمه بعد ذلك».

قال سلمان وقد ظهرت البغته على وجهه: «إن لحكايته هذه أهمية عظيمة عندي، وأشكر الله لتزولي عليك لأسمعها منك، فهل لك أن تزيدني إيضاحاً إذا استطعت؟».

فقال الرجل: «لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغته على وجهك ما حرك عندي الاهتمام بمصير هذا الأمير، فلندع المكاري الذي قص الخبر عليّ بعد عودته لعله يزيدنا إيضاحاً». قال ذلك ونادى المكاري وكان مشغلاً ببعض شؤون الخان، فجاء فسأله عما يعلمه من تفاصيل حكاية الأمير عبد الله.

وروى المكاري القصة كما قالها صاحب الخان مع بعض التفصيل، حتى انتهى إلى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال: «رأيت ذلك الأمير عائداً على قدميه يحمل سيف ابنه وعباءته، وكان قد عثر عليهما عند ضفة غدير هناك، فاستأنس بهما واستنشق

رائحة ابنه منهما، وأما الجواد فكان مسوقاً وراءه كئيباً كأنه علم بمصير صاحبه، فلما وصلوا إلى الطريق دعاه أبو سفيان للمسير معه إلى الحجاز أو أن يوصله إلى منزله في بصرى فذكر أنه لا يريد العودة إلى بصرى، ثم تردد في الذهاب إلى الحجاز، ولكنه رافقه وساروا جميعاً وعدنا نحن ولا نعلم ما تم له بعد ذلك».

فقال سلمان: «ألم تسمعه يذكر عمان وعزمه على المسير إليها».

قال: «لا أذكر أني سمعته يقول شيئاً من هذا القبيل».

فبهت سلمان برهة يفكر فيما سمعه وهو يعلم أن سيده لا يصبر بعدما سمع من ذهاب حماد فريسة للسباع، وخاف أن يكون قد حمله ذلك على المهاجرة من الشام والمسير إلى الحجاز مع أبي سفيان، ولكنه رأى في ذلك عجلة لم يعهدا في عبد الله، فلبث برهة يفكر ثم استأذن صاحب الخان في الذهاب إلى غرفته ليتبصر في الأمر بعد أن شكره على ما قصه عليه.

فلما خلا إلى نفسه أخذ يفكر في الأمر وقد انقبضت نفسه خوفاً مما قد يصيب سيده من عواقب اليأس وعظم عليه الرجوع إلى حماد بهذا الخبر السيئ فضلاً عن أنه لا يفيد شيئاً. فقضى بقية النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح له بعد إعمال الفكرة أن يتبع خطوات سيده بنفسه فيسير إلى عمان لعله يقف على ما يجلو له الحقيقة. فلما أصبح سار إلى صاحب الخان وأطلعته على عزمه واستأذنه في أخذ ذلك المكاري معه فأطاعه، فركب سلمان والمكاري في ركابه وكلما مرا بمكان حكى له المكاري واقعة حاله حتى تجاوزا طريق المسبعة ووصلا إلى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان: «ألا تسير معي إلى عمان لعلنا نسمع هناك خبراً جديداً؟».

قال: «إني في ركابك حيثما تريد، ولكنني سمعت منذ أيام أن

بالقرب من عمان جماعة من قریش جاؤوا لغزونا فلا نأمن أن نقع في أيديهم غنيمة باردة».

فتذكر سلمان أنه سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصرى أيضاً فتردد في الأمر ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول إلى عمان فقرر رأيه على الذهاب إليها من طريق مجهولة لا يطرقتها إلا القليل من الناس والمكاري يعرفها، فسارا حتى انتهيا إلى عمان فلم يجدا فيها أثراً ولا خبراً.

فعاد سلمان يائساً حزيناً لا يدري كيف يقابل حماداً بهذا الخبر الأبتى، وعلى فرض أن سيده لو كان أطاع عواطفه وسار إلى الحجاز فلا يلبث أن يهدأ روعه ويعود إلى البلقاء للبحث عن ابنه ولا أقل من أن يرجع إلى بصرى بعد أن عفي عنه فيتفقد ما ادخروه من المال والمثمنات في منزلهم بغسام.

فقضى سلمان طول الطريق يفكر في ذلك وكثيراً ما حدثته نفسه أن يتأثر سيده إلى الحجاز لو لم يعرض له الشك في مسيره إليه وعزم أخيراً على الرجوع إلى حماد والبحث معه في هذه الشؤون فإذا تحقق من ذهابه إلى الحجاز سار للبحث عنه فيها.

فلما وصلا إلى منعطف من الطريق يؤدي إلى البلقاء رأساً أثنى سلمان على المكاري وأكرمه وودعه وسار قاصداً حماد.

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه إلى بيت المقدس حتى أحس حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيداً عن حبيته قلقاً على والده، فجلس يفكر فيما مرّ به في ذلك العام من الأهوال وما رآه من حوادث الأيام، وتذكر حاله قبل قدومه البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهم فعلم أن السبب في ذلك كله الحب فتذكر هنذاً وما ناله من رضا أمها فرقص قلبه طرباً ونسي ما ينتابه من

الشواغل، لأن الحب مهما قيل فيه تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الأحزان.

فلم يكن لحماذ من تعزية في غربته إلا رضا حبيبته، فإذا تراكمت عليه الأحزان، تذكر وتصور قربها فانتعشت جوارحه وثابت إليه آماله فينجلي صدره وتنشط نفسه.

فلبث في خيمته برهة يتردد بين اليأس والرجاء، ينقبض صدره تارة وينبسط أخرى. حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم أن مضيفه راجع من مرعاه فحسده لسذاجته وقلة شواغله ولبث يفكر في أمره وود لو أنه مثل حاله خالي البال قليل البلبال لا يههم من دنياه إلا ما يرجوه من غلة أرضه أو نتاج ماشيته. ولكنه تذكر أن ذلك الشيخ لم يعرف الحب ولا شعر بلذته فهو أشبه بالحيوان الأعجم منه بالإنسان.

ثم سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها أنها خطوات الشيخ لأنه كان لا يمشي إلا حافياً، فتحفز لاستقباله فإذا به قد دخل الخيمة والمنجل لا يزال في يده وقد كسا لحيته وعمامته الغبار وانفتح قميصه عن صدره فبان الشعر متجعداً كأنه نبت الحقل يعانق بعضه بعضاً، فلما رآه حماد وقف له وحياء إكراماً لشيخوخته، فألقى الشيخ المنجل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجهه ملامح البشر حتى كاد يبتسم، وكان قد عاشره أياماً لم يرَ ثغره باسمأ قط. على أنه قلما رآه منقبضاً أو مهتماً فلما رآه يبتسم أحس بارتياح وسرور ودعاه إلى جانبه وأخلى له مجلساً على البساط فأبى الجلوس إلا على الأرض، ثم جلس وهو يحك إحدى كفيه بالأخرى ليزيل ما لصق بهما من التراب فلما تفتت التراب عنهما جعل ينفذ لحيته البيضاء لينزع عنها ما علق بها من الأتربة.

فقال له حماد: «كيف أنت اليوم أيها الشيخ؟ أرجو أن تكون في خير وعافية».

فنزح الشيخ عماّمته وتشاغل بنقرها لينفض غبارها ثم قال: «نحمد الله على خيراته، فقد سرّني اليوم أن بقرتي ولدت عجلاً أبلق ولا يمضي عليه العام أو العاّمان حتى أستخدمه في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم».

فعجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هموم أهلها فأراد مداعبته فقال له: «أيكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة؟». وكان حماد عالماً بما يتقوله الأنباط على الغسانيين كما تقدم.

فضحك الشيخ مستهزئاً وقال: «لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فإنها لا تحسن يوماً حتى تسيء أياماً. وهذا الحارث الغساني قد حكم واستبد وظن أن لن يقدر عليه أحد، ثم جاء من ينزع عنه السيادة ويلحقه بأجداده أصحاب سيل العرم الذين جاؤونا فراراً من الفقر بعد أن كانوا يقيمون بأرض تستقي من مستنقعات يجمعونها من مياه الأمطار وراء سد من حجر، فلما انهدم السد سال الماء فأغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تدبيرهم فأجذبت أرضهم ففروا إلى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقدر لهم الملك عن غير استحقاق، حتى جاءهم الآن من ينزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم وما عليهم».

فعلم حماد أن الشيخ يشير إلى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم. ولكنه لم يفقه ما أراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال له: «وما تعني بقرب زوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون إلا قوة ومنعة؟».

قال: «ألم تسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز؟ لقد جاؤوا ليقبضوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم».

فقال: «وما أوجب القصاص؟ وأي علاقة بينهما والحجاز على مسافة أيام من الشام والناس هناك في شغل بأمر دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم إلى دين الله، وقد سمعت بأنه أنشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فأهل الحجاز في شغل عن هذه البلاد».

فضحك الشيخ وقال: «هذا قضاء الله. وأما ما أوجب مجيء العدنانيين فعجرفة الحارث الغساني وكبرياؤه. فقد أنبأني بعض المارين من هنا أن نبي قريش الذي ذكرته كتب إلى الحارث كتاباً يدعو فيه إلى دينه، فبدلاً من أن يقرأه الحارث ويتأمله ويرد الرسول رداً جميلاً، مزق الكتاب وأهان الرسول، فشق ذلك على صاحب الرسالة فأنفذ جنداً لحرب الحارث وفتح بلاده».

فاهتم حماد بهذا الخبر لعلمه أن الحرب إذا قامت عرقلت مساعيه وحالت بينه وبين ما يريد فضلاً عما يخافه على هند من الخطر لأن جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث. على أنه لم يكن يخاف انهزامهم لما كان يتوهمه من ضعف أهل الحجاز وقلة خيراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم، ولكن خوفه على هند من عواقب الحرب أهمه كثيراً، فلبث برهة يفكر في أمره ثم قال للشيخ: «وهل أنت واثق من مجيء هؤلاء الحجازيين؟».

قال: «لا ريب عندي في ذلك».

قال: «هل سمعت الخبر عن ثقة؟».

قال: «سمعت من خبير وأهمني أمره كثيراً حتى تحققته لأنني أفرح لفشل الغساسنة فقد قلت لك أنهم أعداؤنا». وكان ذلك الشيخ

النبطي يظن حماداً يفرح بسقوط دولة بني غسان لأنه من لحم، ولم يدر أن قلبه في صرح الغدير.

فلبث حماد لا يدري ماذا يعمل، وتذكر سلمان وأباه فتراكمت همومه فالتفت إلى الشيخ فإذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن الذين يعملون عمله فتركه حماد واشتغل بهوميه.

ثم أفاق الشيخ مذعوراً لصوت ثوريه وهم بالخروج من الخيمة وهو يقول: «لقد تقاتل الثوران». فخرج حماد في أثره وكان الليل قد سدل نقابه فسارا حتى اقتربا من مربط الثورين فإذا هما لا يقتتلان ولكنهما شاهدا بينهما جملاً غريباً، فتقدم الشيخ إليه وأمسكه بعنقه وأبعده عن ثوريه حتى دنا من نار موقدة يستضيء بها وحماد يراعيه بعينيه، ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك حتى ضحك وقال: «هذه ناقة من نوق أهل المدينة تخلفت عن جند الحجاز الذين قلت لك أنهم جاؤوا لحرب الغسانيين».

فقال حماد: «وما الذي ذلك على ذلك؟».

قال: «دلني عليه شكل الرجل فإنه خاص بأهل المدينة، وكثيراً ما رأينا أمثال هذه النوق مارة بنا إلى الشام وغيرها».

فقال حماد: «يظهر أن العدنانيين قد أصبحوا على مقربة منا؟».

فقال الشيخ: «لا أظنهم قرييين، فقد يكون بيننا وبينهم مسافة أيام، ولعل هذه الناقة قد تاهت منذ بضعة أيام». قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لها بالعلف.

فتركه حماد وعاد إلى خيمته وقد عظم عليه أن يذهب أمله أدراج الرياح لاشتغال جبلة بالحرب فشر بشدة حاجته إلى سلمان.

عاد سلمان بعد أيام كاسف البال لخيبة مسعاه في العثور على

سيده عبد الله ، ولما استطلعه حماد كنه ما علمه قص عليه ما سمعه ثم قال : «يلوح لي أن سيدي رافق أبا سفيان إلى الحجاز، إذ يظهر مما سمعته أنه تحقق خبر مقتل فلم يبق له وطر في الحياة. ولعل أبا سفيان حُبب إليه السفر ورغبه في المسير إلى الكعبة فجاراه».

فقال حماد : «ما أظنه يفعل ذلك قبل أن يأتي إلى بصرى ويستخرج ما خبأناه في غسام».

فقال : «وما أدرانا أنه لم يأت إليها بعد أن استخرجناها، أو لعله أرسل من يبحث عنها فلم يظفر بها، وعلى كل حال فهو ليس في فلسطين ولا اللقاء ولا عثرت عليه في عمان، ويؤخذ من مجمل ما سمعته أنه سار إلى الحجاز، فهل تأذن لي في الذهاب إلى مكة للبحث عنه؟».

قال : «لو كنا على يقين من ذهابه إليها لسرت أنا بنفسني، ولكننا إنما نرجم بالغيب، وزد على ذلك أننا في حال تدعو إلى القلق من أمر الحرب المنتظرة بين الحجازيين والغسانيين، وقد سمعتك تشير إليها في أثناء حديثك وكنت في ريب من أمرها حين سمعتها من شيخنا النبطي منذ أيام».

فقال سلمان : «أما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيه، لأنني رأيت معسكرهم بعيني بجوار عمان، وأما سيدي فالأرجح أنه سار إلى الحجاز، أو لعله أصيب بما عاقه عن المجيء إلى بصرى ولا يلبث أن يأتي، فإذا لم نره بعد أيام علمنا أنه سار مع أبي سفيان إلى مكة».

فلم يرَ حماد بداً من الانتظار، ولكنه عاد إلى التفكير في أمره مع هند وما عسى أن يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف أن يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيه هدرًا.

فقال : «عليك يا سلمان أن تتردد على بصرى لعلك تسمع شيئاً

عن أبي، ولا تنس أن تتحسس من أمر هند وأبيها فقد علمت ما داهم الغسانيين من أمر الحرب على حين غفلة، وأخشى إذا حيي وطيسها أن تذهب آمالنا كلها أدراج الرياح».

فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه: «وما أدراك أنني غافل عن هذا الأمر؟ إنه شغلي الشاغل ليلاً ونهاراً، وكنت عازماً على استئذانك في الذهاب إلى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتقولون أقوالاً لم أصدقها».

فبغت حماد وقال: «وماذا عسى أن يكون تقولهم وعمن يتقولون؟ قل ما الذي سمعته؟».

قال: «لم أسمع شيئاً يوجب قلقاً لأني على يقين من حب هند وثباتها في حبك».

فازداد حماد دهشة وقال: «هند؟. وما شأن هند؟ وماذا يتقول الناس عنها؟ قل يا سلمان».

قال: «هدىء من روعك فإني لا أخفي عليك شيئاً، ولا سيما أن ما سمعته لا يوجب قلقاً ولا يجر إلى خوف».

فقال حماد وقد نفذ صبره: «قل ماذا يقولون؟».

قال: «سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها بأن ثعلبة طلب الاقتران بهند».

فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقروناً بإسم هند اقشعر بدنه وقال: «وكيف طلب ذلك ومتى؟».

قال: «سمعت أنه طلبها على يد أبيه الحارث، وأن هذا خاطب جبلة فوعده خيراً».

فصاح حماد: «وبماذا وعده؟».

فقال سلمان وهو يبتسم: «ما لي أراك قليل الصبر خفف عنك واصغ إلى ما أقول فقد عهدتك صبوراً حازماً».

قال: «إني صبور على كل شيء إلا هند. قل ما كان وعده؟».

قال: «وعده بأن يكلم الفتاة أو بالحري بأن يستشير أمها، إذ لا تجهل أن زواج البنات قلما يتوقف على إرادتهن».

فقال حماد: «وماذا كانت النتيجة؟».

قال: «لم أتحقق الخبر بعد، فقد قال بعضهم: إنه خاطبها فلم تقبل، وقال آخرون أنه لم يخاطبها بعد. ولكن لقيت في الطريق أمس صديقاً لي من أهل بصرى صادقته على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الأمير وأظنه أعلم الناس بحقيقة الواقع، فأنبأني بأن الحارث استبطأ جواب جبلة في شأن هند فسار إليه ثانية يستعجله الجواب على أثر قدوم هؤلاء الحجازيين لأنه يريد التعجيل بالزواج قبل نشوب الحرب».

فخفق قلب حماد ووقف وقد امتقع لونه وقال: «ما هذه الأحاديث يا سلمان؟ إني أراني في حلم، أظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عيثاً، وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة؟». قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه».

فانقادت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهمّ بحماد فضمه إلى صدره وقال له: «خسى النذل إن هنداً أرفع من أن تدنس قلبها بمحبتة، وأنت أعلم مني بأنفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة، ويلوح لي أن التباطؤ في جوابها ناتج عن تمنعها».

فانتعش حماد لسماع هذا الكلام ولكنه بقي خائفاً أن تؤخذ الفتاة قسراً فقال: «حاشا لقلب هند أن يجب ذلك الخائن ولكنني

أخاف أن تُحمل على قبوله مراعاة لما بين أبيهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض، فقد يصعب على هند أن ترفض، ما يريد أبوها».

فقال سلمان: «لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها، فقد أنست من هذه المرأة يوم قابلتها وأنا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها، فهي إذا أرادت تحويل زوجها عن أمر فلا يصعب عليها».

قال حماد: «ومن يبنئنا بذلك ونحن لم نر من حديثها ذلك اليوم ما يدل على إخلاصها لنا، وهذا إلى أن زوجها إذا رفض ثعلبة فقد لا يرضى بسواه».

فأدرك سلمان وعورة المسالك ولكنه قال مستخفاً: «دع ذلك إليّ، فإني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة، والله يفعل ما يشاء».

فسكت حماد عن غير اقتناع، وصبر ينتظر ما يأتي به القدر. وباتوا ليلتهم ولم ينم حماد إلا لما تراكم عليه من الهواجس. أما سلمان فقضى ليلته يفكر في سبيل يوصله إلى المراد، فنهض في الصباح التالي وفي نيته الشخوص إلى صرح الغدير لاعتقاده أن الخبر اليقين عند هند، فلبس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى إذا أتى الصرح سأل عمن يقيم به ف قيل له إن جبلة برحه منذ أيام بعد أن جاءه في زيارة. فتقدم إلى باب الحديقة فاستقبله الخادم وسأله عن غرضه، فادعى أنه جاء في مهمة من رئيس دير بحيراء إلى الأميرة سعدى. وطلب مقابلتها فسألوها فأذنت في دخوله، فلما خلت إليه عرفته، وسألته عن حماد فأنبأها بحاله وأنه جاء يستطلع ما تم من أمره، فاستدعت هنداً وكانت في حجرتها تفكر في حماد وهي لا تعلم

مقره، فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها وأسرعت إليه وأمارات البغته تلوح على وجهها. فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنته، وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعله يلاحظ ما كان يخافه منها، فأنس منها ما حقق آماله برضاها، ولكنه ما زال قلقاً لما عساه أن يكون من أمر ثعلبة وطلبه، فجعلوا يتجاذبون أطراف الحديث وأكثره بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من رفض جبلة طلب ثعلبة ورضائه بحماد، فسرّ سروراً لا مزيد عليه حتى رقص قلبه من الفرح وودّ لو أن له أجنحة ليطير بها إلى حماد يبشره بذلك.

ثم قال لسعدى: «وما هو موعدنا لمخاطبة سيدي الملك في هذا الأمر؟».

قالت: «نحن على موعد من مجيئه إلينا بعد أيام، فإذا جاء وتقدم حماد يطلب هنداً نال مبتغاه». وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبه يرقص طرباً. فقال سلمان: «ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدان من هذا القصر؟».

قالت: «نبعث معك من يعرف مقركما، فإذا كان اليوم المعهود أرسلناه في طلبكما».

قال: «حسناً» وهم بالخروج فوقفتا له فودعهما وخرج وهو لا يصدق أنه سمع ما سمعه، ولكنه لم يعلم بما سيقوم في سبيل سيده من العقبات. ورافقه خادم انتدب لهذه المهمة على أن يكتمها.

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعه حتى تمثلت له السعادة عبداً رقيقاً ونسي أباه وضياعه، لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليه فوعد نفسه بالبحث عنه بعد أن يصير صهراً لملك غسان فيكون أقدر على ذلك.

ما كاد يتوارى جبلة عن صرح الغدير حتى انجلى له خطاه وما كان من تهوره في مجارة امرأته في شأن حماد ولم يعرف كيف يجيب الحارث، وعظم عليه أن يرده خائباً بعد أن وعده لما في ذلك من ضعف الرأي. ففضى معظم الطريق يفكر في هذا فلاح له أخيراً أن يكتم حقيقة الأمر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة إلى ما بعد انقضاء الحرب على نية أن يبعث حماداً في مهمة لا يعود منها وإذا عاد فإنما يعود خائباً فلا يستطيع طلباً ولا ينال وطراً.

أما ثعلبة فكان قد دبر ما دبره وهو على ثقة من رضا هند به ولو بالإكراه، ثم علم بضياح عبد الله وترجح لديه مقتل حماد مما نقله إليه جواسيسه الذين أنفذهم في أثر عبد الله عند خروجه من المقدس، فخدمت غيرته على هند لأنه إنما طلب الاقتران بها ليمنعها عن حماد، فلما علم بمقتله وذّ الرجوع عن طلبه لتبقى منغصة العيش فتخسر الإثنين معاً. فأخذ يترقب فرصة ليؤجل موعد الزواج ثم يسعى سعيه لينتقم من هند، وكانت نفسه تحدثه إذا قبلته زوجاً، بأن يسوف ويماطل حتى تموت كمدأ.

ولم يكن أبوه يعلم بحقيقة مراده، فكان يستعجل جبلة في الزواج إرضاء لابنه، فلما سمع بمجيء الحجازيين إلى عمان سار بنفسه إلى جبلة وألح عليه في إتمام القران قبل نشوب الحرب، ثم تواترت الأخبار بقدوم العرب إلى عمان وشخصهم إلى البلقاء، وبلغ ذلك ثعلبة فجاء إلى أبيه يستشير في إعداد المعدات وتحصين الحصون على حدود البلقاء، فجرهما الحديث إلى هند والزواج، فقال له أبوه: «لقد استعجلت جواب هند من أبيها، ولا شك في قبولها». وأوعز إليه أن يجعل الاحتفال بالزواج بسيطاً إلى ما بعد انتصارهم على العرب فيكون الفرح مزدوجاً.

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في أمر أهمه ثم قال: «إن حالنا الحاضرة يا أبتاه لا تسمح لنا بالاحتفال كما قدمت، فلا أرى أن نستعجل الزواج، ولا بأس من تأجيله حتى تنقضي الحرب!». فعجب أبوه لجوابه بعد ما أنسه من إلحاحه السابق، ولكنه حمل منه على محمل الرغبة في الحرب فاستحسنه وقال له: «أراك تؤثر القتال ودفع العدو على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك».

وكان الحارث يؤثر التأجيل أيضاً ولكنه كان يلح على جلبة رغبة في إرضاء ابنه. على أنه خاف أن يكون في ذلك ما يسيء جلبة أو يكدر العلاقة بينهما فقال: «وبماذا نجيب عمك لو أجابنا بالقبول؟». قال: «نجيبه أننا في حال حرب لا تسمح بزواج».

قال: «ولكننا كنا في مثل هذه الحال يوم جئته وألححت عليه طالباً الفتاة: وقد اعتذر إليّ بأمر الحرب فأجبتته بأننا نود إنهاء أمر الزواج قبل نشوبها، فكيف نعود إليه بهذا العذر؟ ألا ترى في ذلك ما يحمله على إساءة الظن؟».

قال: «لا يهمننا هذا الأمر ساء أم سره فإننا نريد التأجيل». فعجب الحارث لطيش ابنه وتغافله عن حقيقة العلاقة بينه وبين عمه فقال: «ألا تعلم يا ولدي أن مثل هذا قد يسوق إلى حرب بيننا وبينه، فإذا كنت غافلاً عن ذلك فما أنا بغافل، والمسألة دقيقة تحتاج إلى نظر وحسن أسلوب».

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لخرج المقام، وكانت الغيرة قد أعمته فقال: «ولكن الحال اليوم غيرها يوم استعجلت جلبة في أمر الزواج، فقد كان الأعداء إذ ذاك في عمان، وهم قد أقلعوا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء، فاجعل ذلك سبباً للتأجيل».

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر، فاعتزم أن يلجأ إليه في مخاطبة جيلة.

وفيما هما في ذلك جاءهما رسول من جيلة يستقدم الحارث للمداولة في أمر الحرب، فقال الحارث: «ها أنذا ذاهب إلى البلقاء لأعلم رأي جيلة في القتال المزمع، وإذا خاطبني في أمر هند عمدنا إلى التأجيل، فقم أنت على تدبير الجند، واكتب إلى الأمراء أن يجمع كل منهم رجاله تحت رايته ويتهيأوا للقتال عند الحاجة، وإذا رأيت فيهم تقاعداً فاستحثهم واستنهض همهم وادفع إليهم ما يعوزهم من المال، واستشر في ذلك البطريق رومانوس فإنه أوعز إلي أن أجمع عشائر غسان التابعين للوائنا ولا بد من أنه قد كتب إلى جيلة بمثل ذلك أيضاً، فتأهب وإن تكن حالنا مع الحجازيين لا تستدعي كبير اهتمام».

فقال ثعلبة: «إني عامل على ما تريد، ولكنني أرجو منك أن تتمم ما تكلمنا فيه من تأجيل الزواج». فوعده بذلك وركب وحوله رجاله وحاشيته وسار قاصداً إلى البلقاء.

تركنا جيلة في حيرة من أمر الزواج وتأجيله وهو في طريقه من صرح الغدير إلى البلقاء، فلما وصل إلى البلقاء سمع بتحرك الحجازيين من عمان فقال في نفسه: «إن هذا عذر يساعدني على ما أريد، فإن زحف الاعداء إلينا عذر كاف للاشتغال به عن كل شاغل».

وفي صباح اليوم التالي، كتب جيلة إلى الحارث يستقدمه إليه لأن البلقاء أقرب إلى عمان من بصرى، وألح عليه في المجيء وذكر في كتابه أنه يريد التحدث إليه في شأن القتال، وفي نفسه تأجيل الزواج. فسار الحارث إليه، فلما التقيا سلما وأسرعاً إلى الاختلاء

فقال جبلة: «قد دعوتك يا ابن العم لبحث ما علينا الأخذ به من الوسائل لدفع أولئك القادمين، فقد علمت أنهم تحركوا من عمان شمالاً فهم لا ريب يقصدون هذه الديار ولا يلبثون أن يأتونا، وقد بعثت العيون يرقبون حركاتهم فهيء رجالك، وقد أعددت رجالي».

فقال الحارث: «لقد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون للمسير إليكم، وأوصيت ولدنا ثعلبة أن يكتب إلى العشائر الأخرى لتجتمع بجوار بصرى، فإذا اجتمعوا وعلمنا معسكر الأعداء حملنا عليهم معاً، ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم لقلتهم وفقرهم، وقد علمت أنهم حفاة الأقدام لا يلبسون إلا شملات يلتحفون بها كما يفعل سائر أهل الحجاز لا يكاد يمتاز أميرهم من صعلوكهم، ويلوح لي أننا إذا رأينا منهم ما أتعبنا أرضيناهم بمال ندفعه إليهم ولا نظنهم جاؤونا إلا طمعاً في ذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم». قال ذلك ليقنع جبلة بأن مجيئهم ليس لسوء معاملته لحامل كتابهم إليه، فقال جبلة: «لا نرى أن نعرض عليهم شيئاً من هذا إلا بعد أن نرى منهم مقاومة تذكر، ولكنني لا أظنهم يقفون أمام جندنا يوماً واحداً».

ثم تذكر جبلة أمر ثعلبة وهند فقال: «قد ذكرت أن ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن؟».

قال: «نعم هو هناك، وقد أسفت لهذه الحال التي ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه ببنتنا هند».

فقال جبلة وقد سُرَّ بهذا العذر: «حقاً إنها داعية للأسف، على أي لا أرى مانعاً من تأجيل الزواج إلى ما بعد الحرب، فإن فرحنا إذ ذاك يكون مزدوجاً».

فابتسم الحارث فرحاً بما ناله من التأجيل عفواً فقال لجبلة:

«بورك فيك فقد كنت أميل إلى ذلك واستحسنه وأخشى إذا ذكرته لك أن تظن سوءاً فنشكر الله على توارد خاطرينا».

فقال جبله: «هذا هو الرأي الصواب، وسأذهب إلى صرح الغدير فأنبئ سعدى بما تم عليه القرار لئلا تكون مشغلة بالاستعداد بعد أن استعجلت أمر الزواج إجابة لرغبتك، فلا بد من إبلاغها خبر التأجيل بنفسي». وقد أراد الرجوع بنفسه إلى صرح الغدير لتدبير المهمة التي يريد إرسال حماد فيها.

فقال الحارث: «إفعل ما بدا لك وفقنا الله لما فيه الخير». ثم خرجا، وسأل جبله الحارث عمن سار لتفقد حركات الاعداء، فقال هذا: «لقد عاد رسولنا من هذه المهمة الآن، وهو ممن خالطوا الحجازيين، وسأبعث في طلبه».

ثم أمر باستقدام ذلك الرسول، فجاء وأنبأهما بأن الحجازيين قاموا من عمان وساروا يريدون مؤتة عند الكرك، ويتنظر أن يبلغوها قريباً، فقال الحارث: «أتظنهم يصلون إلينا؟».

قال جبله: «ربما فعلوا ذلك». ثم تحول إلى الرسول فقال له: «وهل عرفت عددهم وقواتهم؟». قا: «أظنهم لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل، وليس معهم من العدة والسلاح إلا شيء قليل لا يُقاس بعدة رجالنا وأسلحتهم».

فضحك الحارث مستهزئاً وقال: «أبثلاثة آلاف فارس جاؤوا من أقاصي الحجاز ليحاربوا الروم، وجنودنا تتجاوز مائة ألف ومعها الخيل والسلاح؟».

فقال الرسول: «وقد علمت أنهم أدركوا ضعفهم وقلتهم فوقفوا هنيهة ريثما يأتيهم المدد من الحجاز».

فقال الحارث: «أعلمت أنهم بعثوا يستقدمون المدد؟».

قال الرسول: «كلا ولكنهم تداولوا في ذلك، والأرجح أنهم لا يفعلون، فقد سمعتهم وأنا جالس بين جماعة منهم كأني أحدهم فقال قائل من بينهم: (كيف نهاجم بلاداً لا يقل جندها عن مائة ألف مقاتل، وقد يبلغ المائتين فلنطلب المدد). فقام رجل من كبارهم اسمه عبد الله بن رواحة فقال: (يا قوم والله إن الذي تكرهون الذي خرجتم له. خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الذي أكرمنا الله تعالى به، فإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور وإما شهادة). فسمعت الناس يضحجون قائلين: (صدق والله ابن رواحة). فلا أظنهم بعد ذلك يستمدون أهل الحجاز».

فقال جبلة: «وهل سمعت شيئاً من أهل القرى التي مروا بها فقد يكونون تعرضوا لهم وقطعوا أشجارهم وأذوهم».

قال: «لم أسمع منهم شكوى، فعجبت لحال هؤلاء الحجازيين فإنهم على فقرهم وما يظهر من ضنك أحوالهم لم يؤذوا أحداً من أهل القرى إلا الذين اعترضوهم. ولقد بت في دير بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان في شأنهم فرأيتهم يثنون على حسن سلوكهم فقد مروا بهم ولم يكلفوهم أمراً غير ما احتاجوا إليه من ماء أو علف».

فقال الحارث: «إنهم يلتمسون ثقة الأهلين حتى لا يكونوا عوناً عليهم في هذا القتال».

فقال الرسول: «لا أرى ذلك قصدهم، فقد سمعت من رجل جالسته فاتخذني صديقاً وقص علي قصصاً عن النبي الذي قاموا بنصرته. وما قاله أنه لما خرج نبيهم لوداعهم خارج يثرب وسلم

الألوية إليهم أوصاهم قائلاً: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا شيخاً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء). . .». فأعجب الحارث وجبة هذه الأقوال، وقال الأول: «أما وقد اقترب هؤلاء من البلقاء فلنبعث إلى دمشق نستعجل جند الروم لنكون كتلة واحدة نصده هؤلاء ونعيدهم من حيث أتوا». فوافقه جبة وأفكاره في هند وحماد، وما صدق أن ذهب الحارث حتى ركب راجعاً إلى صرح الغدير بصحبة فارسان، فوصل إلى القصر على غير انتظار.

— ١٥ —

قرطاً مارية

ما كاد جبة يجتمع بسعدى حتى أطلعها على ما تم بينه وبين الحارث ثم قال: «ألا ترالين على رأيك في أمر ذلك الشاب أم تمكنت من تحويل هند عن عزمها فرجعت إلى صوابها».

قالت: «قلت لك قبل الآن أن من يحاول تحويل هند عن حماد فإنه يحاول مستحيلاً».

فتنهده آسفاً على قبوله رأيها وقال: «وأيّن حيلتك التي أعددتها للتخلص من هذه الورطة؟».

قالت: «أرى أن تطلب إلى حماد شيئاً صعب المنال يقدمه مهراً لهند، فإذا لم يستطعه كان الجاني على نفسه وتخلصنا من لوم هند. وقد كلمتها في هذا فرأيت منها ميلاً إلى ذلك فهي تحب أن تعلق منزلة حماد في عيون أهلها، فإذا اقترحنا عليه عملاً يعمله لكي يصبح أهلاً لها فإنها تفتخر به كلما صعب الأمر وكان خطيراً».

فقال: «هل صرحت لها بما نقترحه في هذا الشأن؟». قالت: «لا».

فقال: «وهل عقدت أنت رأيك على شيء؟».

قالت: «أظنني اهتمت إلى اقتراح لا بأس به».

قال: «وما هو؟».

قالت: «لا يخفى عليك أن مارية بنت ظالم، أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المزار الكندي، هي جدة فتاة غسان كافة».

قال: «نعم، وأعلم أنها صاحبة القرطين اللذين يُضرب المثل بهما».

قالت: «إني أرمي إلى هذين القرطين، فلا يخفى عليك أن ملوك الأرض قاطبة لم يحوزوا مثلهما. لأن فيهما درتين كبيض الحمام لم ير الناس مثلهما ولا تقدر قيمتهما بمال».

قال: «نعم».

قالت: «أتدري أين القرطان الآن؟».

فبهت جبلة وقال: «حدثني أبي عن أبيه عمن قبله أن جدتنا مارية أهدت قرطيهما إلى الكعبة في مكة وفاء بنذر، فربما كانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف إلى الكعبة».

فقالت: «مهما يكن من أمرها فإن قرطيهما لا يزالان في الكعبة».

قال: «نعم إني أعلم ذلك».

قالت: «فأرى أن نقترح على حماد الإتيان بهما مهراً تلبسهما يوم زفافها... فما قولك؟».

فأعجب جيلة بذكاء سعدى ولطف حيلتها، وتبسم وأبرقت أسرته، ورأى باب الفرج قد فُتح له فقال: «بورك فيك ونعم الرأي رأيك، إنه اقتراح لا يتأتى لبشر أن يأتي بمثله لأنه بعيد المنال. فإذا فرضنا المستحيل واستطاع حماد المجيء بهما فإنه يكون أهلاً لهند فلا نمنعه منها، فهل تظنين هنداً توافقنا؟».

قالت: «أظنها توافق وإلا فإننا نعذر إذا رفضنا حماداً».

قال: «ها قد تقرر الأمر فخطبها واستدعي الشاب ونوبي عني في إبلاغه بذلك، فأني في شاغل عن هذه الشؤون بما نحن فيه من أمر الحرب المتوقعة».

قالت: «حسناً». وخرجت.

وكانت هند أثناء ذلك تتمشى في الحديقة وقد علمت بمجيء أبيها وأنه إنما جاء واختلى بأمرها في شأنها فلبثت تخطر في الحديقة وقلبها يخطر في صدرها، وأفكارها تجول فيما عسى أن يقر عليه القرار، فلما رأت أمها خارجة أسرع إليها وهمت بسؤالها فأومأت إليها أن تصبر ريثما يرجع أبوها إلى اللقاء، ثم أمرت سعدى الخدم بأن يعدوا الطعام، وخرج جيلة إلى الحديقة متظاهراً بالبحث عن هند، فلما لقيها قبلها وهش لها ودلائل السرور بادية على وجهه، فنفاءلت خيراً ومشت معه وهو يسألها عن صحتها وحالها ويحدثها في شتى الشؤون إلا زواجها فإنه لم يذكره، أما هي فقد منعها الحياء عن ذكره.

ولما فرغ الطعام ودّع امرأته وابنته وعاد إلى اللقاء ولم يكذ يخرج من الحديقة حتى أسرع هند إلى أمها تستطلعها الخبر.

فأجابتها سعدى وهي تبسم قائلة: «أبشرك ببقاء أبيك على عزمه، فقد رد الحارث وابنه، وقبل حماداً كما قلت لك، ولكنه يرى

وأرى أنا أيضاً أن نقترح عليه عملاً يسدّ ما يتقوله الناس عن غموض أصله وفصله. فإنه كما لا يُحْفَى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً إلى الطعن فيه إلا من ناحية نسبّه، فإذا عمل عملاً فذاً كان في ذلك ما يُسكت الناس عن التشكك في نسبّه».

وكانت هند قد سمعت مثل هذا من أمها من قبل فقالت: «إن ذلك يا أمّاه مما يوجب الفخر لنا جميعاً، وأن حماداً لا يتوقف عن عمل يستطيعه، فهل قرّر رأيكما على شيء تقترحانه عليه؟».

قالت: «لقد رأيت أن يكون في اقتراحنا ما يزين به رأسك فضلاً عن شرفك».

قالت: «وما هو؟».

قالت: «رأينا أن نطلب إليه أن يأتينا بقرطي مارية من الكعبة». وحثت لها حكايتهما.

فبهتت هند برهة وقد هالها ذلك الاقتراح، ولكن أنفتها وثقتها بحماد وبطولته هونتاً عليها الأمر فقالت: «لا أظن حماداً إلا فاعلاً ذلك بإذن الله».

قالت: «هلم ندعه إلينا ونعرض عليه الأمر».

فلما سمعت كلام أمها رقص قلبها فرحاً بلقياه وقالت: «استقدميه والاتكال على الله». قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب رؤيته عن تقدير تلك المهمة حق قدرها.

فنادت الخادم الذي رافق سلمان إلى مقر حماد وأمرته أن يأتي به إلى الصرح.

تركنا حماداً وسلمان يفكران في عبد الله وهما بين الرجاء واليأس من أمره، ففضى سلمان أياماً يتردد على اللقاء وبصرى

للبحث عنه فلم يقف له على خبر حتى ترجع لديه أنه سافر إلى الحجاز.

وأما حماد فكان بين شاغلين عظيمين: هند من جهة وأبيه من جهة أخرى، وكلما رأى قادماً ظنه رسولاً من هند جاء يدعوها إليها أو منبئاً ينبئه بخبر عن أبيه.

فلما كان اليوم الذي تقرر فيه استقدامه اتفق أنه أفاق في الصباح منشراح الصدر واسع الآمال. وكان قلما يصبح إلا منقبضاً كثيراً لما يتوالى عليه من المخاوف، تارة على أبيه وتارة على حبيبته. حتى أثر ذلك في صحته فرق جسمه، على أنه كثيراً ما كان يخرج للصيد لرياضة النفس والجسم ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض.

فلما أصبح ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبراً مفرحاً وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليه سيده من الانشراح والاستبشار، ولكنه ما لبث أن رأى فارساً قادماً مسرعاً نحوهم يقصد مضربهم، فتفرس فيه عن بُعد فعلم أنه من رجال صرح الغدير فتفاءل بقدمه وخف لملاقاته، فلما دنا منه عرفه ورآه يبتسم فعلم أنه جاء ببشرى.

وقبل أن يصل الفارس إلى سلمان ترجل ومشى وزمام الفرس بيده، ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا، فاستطلعه سلمان الخبر فقال: جئت أدعو الأمير حماداً إلى سيدتي الأميرة سعدى في صرح الغدير، لأنها تريد أن تفضي إليه بأمر ذي بال.

فقال سلمان: «وهل تعلم الأمر؟». فابتسم الخادم وقال: «لا أدري ولا بد من أن تكون أعلم مني به. وأما أهل القصر عندنا فقد لاحظوا من بعض ما سمعوه سراً وأدركوه ضمناً أن مولاتنا هند ستخطب، وكلنا نتظر ذلك اليوم فإنه سيكون يوماً سعيداً لم تر غسان

أسعد منه، لأن مولانا جبلة كريم النفس سيخلع علينا خلعاً فاخرة وينثر علينا الذهب نثراً».

فتبسم سلمان وقال: «هل عرفتم خطيبها؟».

قال: «نعم هو ابن عمها ثعلبة إذ ليس من أولاد عمها من هو أقرب منه إليها وقد طلبها ولكنني علمت من بعض الخدم أنها لا تحبه ولا تقبله».

قال سلمان: «وهل تستطيع رفض طلبه؟».

قال: «لا أدري، ويظهر أنها رفضته». وكان الخادم قد سمع بأمر حماد ورغبة هند فيه، ولكنه تجاهل لئلا يقال أنه باح بالسر ووّد أن يكون سلمان البادىء بالخبر. وأما سلمان فلم يعد يستطيع صبراً على كتمان هذه الأخبار عن سيده، ولكنه أراد معرفة ما دعا إلى استقدام حماد فقال: «وهل سمعت أمراً حدث قريباً في القصر؟».

قال: «لم أسمع شيئاً، ولكن سيدي الأمير جبلة جاء أمس ومكث عندنا بضع ساعات قضاها في مسارة مع الأميرة زوجته، ثم عاد إلى البلقاء، وما كاد يذهب حتى دعيتني سيدي وأنفذتني إليكم».

فأدرك سلمان أن مجيء جبلة لم يكن إلا لأمر الخطبة، وترجع عنده أنه رضي بحماد ولولا ذلك لما كان ما يدعو لاستقدام حماد عقب ذهابه فدخل على سيده فوجده متكئاً على أثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سروراً ودلائل الفرح ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه أحد، فحياه سلمان وهو يتبسم.

فقال له: «ما وراءك يا سلمان إني أراك مستبشراً».

قال: «لعلها بشرى عظيمة يا سيدي».

قال: «وما ذلك؟».

قال: «إن أهل صرح الغدير بعثوا يدعونك إليهم، فهل تذهب أم لديك ما يعوقك؟». قال ذلك وهو يضحك.

فجلس حماد وهو يظنه مازحاً وقال: «لا أبالي دعاني أهل الصرح أم لا، فإني أراني سعيداً منذ فتحت عيني هذا الصباح».

قال: «وما يضرك أن تتم سعادتك فإن انشراح صدرك فاتحة السعادة، وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل أدخله عليك لينبئك بمهمته».

قال: «لیدخل».

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر، فحيى حماداً وأنبأه بمهمته، فقال حماد: «هل فارقتهم في خير؟».

قال: «فارقتهم يدعون لسيدي الأمير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريباً ليتم سرورهم برؤيته». فاستبشر حماد بما وراء ذلك وقال: «أبلغهم سلامي وأنا سنصبحهم غداً إن شاء الله».

فقبل الخادم يده وخرج، فخرج سلمان لوداعه ودفع إليه عشرة دنانير وقال: «هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك». فُسّر الخادم بالهدية وبالوعد وود أن تتم خطبة هند لحماها لما ظهر من سخائه ورقة جانبه خلافاً لثعلبه.

فلما سار الخادم عاد سلمان إلى حماد فرآه مطرقاً يفكر.

فقال: «ما بال سيدني يفكر، هل بغت لتلك الدعوة؟».

فقال: «كلا يا سلمان فقد كنت أتوقع خبراً مفرحاً منذ الصباح، ولكنني أفكر في أبي ومكانه، فإنه طالما تمنى أن يزوجني ويفرح بي وقد كان يجب أن يسير معنا في هذه الزيارة».

فقال سلمان: «دع عنك الهواجس يا مولاي فقد رسخ في

ذهني أن سيدي سار إلى الحجاز، فمتى أنجزنا أمرنا أذهب أنا وأظلم
أبحث عنه حتى آتي به بإذن الله، فها بنا الآن إلى صرح الغدير». قال: «أرى أن نرحل قبل الفجر». قال: «حسنًا».

لبثت هند تعدّ الساعات والدقائق منذ عاد الرسول إليها مبشراً
بقدوم حماد. ولم تنم ليلتها من شدة الفرح، فلما أصبحت ذهبت إلى
أمها وسألته عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت: «قد أمرت
الخدم أن يعدوا غرفة الضيافة، وألا يُدخلوا إليها أحداً في هذا اليوم،
وأن يذبحوا الذبائح ويمدوا الأسمطة».

فلبست هند ثوباً سماوياً جميلاً، من صنع إحدى خياطات
دمشق، ومشطت شعرها وضفرتة، وجعلت تتشاغل ببعض المهام
إخفاء لما ثار في قلبها من العوامل المتضاربة.

وأرسلت سعدى جماعة من أهل القصر لاستقبال حماد في
الطريق، فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ
تنظر إلى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها
الآكام والغياض، وكلما رأت غباراً أو آنست أشباحاً ظنت حماداً قادماً
فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها، وعند الظهيرة رأت الغبار يتصاعد من
بعض جوانب الأفق ثم بان تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس
من أهل القصر تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم، فازداد خفقان قلبها.
ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثماً بالكوفية،
وكانت أمها واقفة بجانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت
لها: «امكثي هنا حتى أدعوك إلى دار الضيافة».

وخرجت سعدى إلى الحديقة وقد ترجل حماد وبقيت الفرسان
ودخلوا الحديقة بعد أن تركوا جيادهم للخدم. وكان حماد ملتفاً بعباءته
وقد حول أطراف كوفيته عن وجهه وأرسلها على كتفيه فيانت ملامح

وجهه. وتقدم سلمان بجانبه حتى اقتربا من سعدى، فتقدم سلمان وقدمه لها، فسلم عليها وهو يتوقع أن يرى هنداً فلما لم يرها علم أن الحياء منعها من القدوم للقاءه وأنها لا تلبث أن تأتي.

وسارت بهما سعدى إلى غرفة الضيافة، حيث جلسوا والخدم وقوف بين أيديهم فقالت: «هل يأذن الأمير في إعداد ما يلزم لتبديله ثياب السفر قبل تناول الطعام». فأجاب بالشكر، ونهض فغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسهما، ثم جلس وعيناه شائعتان نحو الباب وكلما سمع حركة ظن هنداً قادمة.

أما سلمان فإنه ترك سعدى وحماًداً في الغرفة وخرج يبحث عن هند، وكان قد عرف غرفتها في المرة الماضية، فوجدها واقفة تتلهى بالنظر في أساورها وتديرها حول معصمها وأفكارها تائهة، وقد علت وجهها أمارات البغته. فلما رآها تظاهر بالسعال ليلفت انتباهها، وكانت لعظم تأثرها مرهقة الحس، فذعرت لما سمعت السعال، ثم سلمت عليه، فقال لها: «هل رضيت مولاتي عن راهب الدير جامع النذور؟». فتبسمت ولم تجب.

فقال: «ها قد جئتك باللص الذي سرق الدرع، فهل تريدين معاقبته؟ ولكنني أرجو ألا تحكمني عليه بالسجن!».

فتذكرت زيارته إياها بثياب الرهبان، فضحكت ولكنها بقيت صامئة تنظر إلى معصمها، فدنا منها وقال: «ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي؟ هل أذنبت لأنني تركت صاحب الدرع وجئت وحدي؟».

فلم تجب. ولكنه قرأ آيات السرور على وجهها فقال: «أراك تتظاهرين بأن مجيئه لا يهمك، ولكنني أقرأ على وجهك آيات يكاد ينطق بها لسانك، إني ذاهب لأدعوه إليك».

فرفعت نظرها إليه كأنها تلومه على هذه المداعبة. أما هو فتحول

عنها ضاحكاً حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحامداً جالسين وليس هناك سواهما، فدنا من سعدى وقال: «ما بالي أرى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع أشعة الشمس».

فقالت سعدى: «ألا ترى الأشعة داخلة من هذه النافذة؟». وأشارت إلى إحدى النوافذ.

فقال وهو يضحك: «لا أرى نوراً قط، ويظهر لي أن شمسكم تشرق من الجنوب». وأشار إلى غرفة هند، فأدركت سعدى مراده فتبسمت وأطرق حماد خجلاً، ولكنه ودّ لو يلح سلمان في استقدام هند. فقال سلمان: «أراكم تضحكون من كلامي، وأراني أعلم منكم بمشرق شمس قصركم، ألا أذنت مولاتي في قدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان إلينا؟. فإني أرى الأسمطة قد مُدت وكأني بكم تتهياؤون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدي هند فإنها محور أنسنا ولا أظنك تنكرين علينا ذلك».

فقالت سعدى: «أراك لجوجاً يا سلمان ولا مأرب لك في الأمر».

فضحك سلمان وقال: «صدقت لا مأرب لي، ولكنني أعبر عن عواطف أناس آخرين!». وأشار بطرف عينيه إلى حماد، فتبسم حماد وقد توردت وجنتاه ونظر إلى سلمان كأنه يؤنبه.

فالتفت إليه سلمان وقال: «يظهر أنك لا تريد مقابلة فتاة غسان فإذا كان هذا مرادك فما كان أغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحيرة والعراق؟».

فنظرت سعدى إلى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت: «لم ندع ولدنا حماداً إلا ليرى هنداً وتراه، فإنهما ولدانا ولا

نجهل أنهما يسران بأن يلتقيا، فلا تكن عجولاً. إن هنداً لا تلبث أن تأتي وتتناول الطعام معنا».

ثم وقفت وقالت: «ها أنذا ذاهبة لآتي بها». وخرجت.

فلما خرجت التفت حماد إلى سلمان وأراد معاتبته لما أبداه من الجرأة في خطاب الأميرة سعدى، فقال هذا: «لولا ذلك لطال زمن الانتظار. فهل جئنا لنأكل ونشرب؟».

ثم عاد حماد إلى التفكير في هند وقرب مجيئها وما سيكون من أمرها ساعة اللقاء، فما لبث أن سمع وقع أقدام عليم من ازدواجها أن سعدى وهنداً قادمتان، فتحفز للقيام أما سلمان فوقف بالباب فرآهما قادمتين فتبسم ونظر إلى حماد.

ثم وصلتا إلى باب الحجرة فدخلت سعدى وهند تتبعها مطرقة. وقف حماد ومشى لاستقبال هند، ولم يجرؤ على مصافحتها ولا هي فعلت، ولكن قلبيهما كانا يختلجان فرحاً وكل منهما يتظاهر بالتجلد. فتشاغل هو بإصلاح ردائه وإرسال كوفيته إلى كتفه، وتشاغلت هي بإصلاح قرطها في أذنها.

ثم أشارت إليها أمها أن تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست، وجلس الجميع ولبثوا برهة لا يتكلمون، وحماد ينظر إلى هند محاذراً. فرآها قد تغيرت حالها عما كانت عليه يوم دير بحيراء فذبُل ورد وجنتيها وخف عضلها فزادها ذلك جمالاً وهيبة. وكانت هي تحتلس النظر إليه ولا تكاد تصدق أن أباه رضي به خطيباً لها، ثم يعترضها أمر قرطني مارية فتوجس خيفة.

فبدأت سعدى الكلام قائلة: «ماذا تم في أمر أبيك، هل التقيتم به أو عرفتم مقره؟».

فقال حماد: «لا يا مولاتي، وقد شغل بالنا تأخره، ولم ندع مكاناً لم نسأل فيه عنه، وكان العيب الأكبر في هذا السعي كله على هذا الرفيق (وأشار إلى سلمان) فإنه لم يأل جهداً في البحث والاستطلاع غير أننا لم نقف على خبر يقين».

فقال سلمان: «ولكنني أرجح ذهابه إلى الحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان». وأخذ يقص عليهم ما سمعه من صاحب الخان في بيت المقدس وما كان من أمر أبي سفيان وجواد حماد.

فسأله سعدى عن حكاية الأسد، فأخذ يروي ما لقيه في مسبعة الزرقاء. وكانت هند مصغية إلى الحديث بكل جوارحها، فلما بلغ إلى صعودهما الشجرة للنجاة من غائلة الأسد وأفاض في وصف ما كانا فيه من الخطر تلاً لأت الدموع في عينيها، لما رأى حماد منها ذلك أوشك أن يبكي لفرط ما آتس من رقة عواطفها، ثم أتم سلمان حكايته حتى انتهى إلى آخرها والجميع مصغون لا يفوه أحدهم بكلمة.

فلما فرغ من كلامه قالت سعدى: «يؤخذ من مجمل ما سمعناه أن أباك سافر إلى الحجاز مع أبي سفيان، فلو أنه كان باقياً في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد أن آمنه القيصر». ثم تبسمت وسكت كأن في نفسها شيئاً تكتمه فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئاً، وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأل الأميرة سعدى: هل تأذن في مد السماط لأن وقت الغداء أزف، فقالت: «هاتوا الطعام». والتفتت إلى حماد قائلة: «هلم بنا إلى الغداء وستتم حديثنا بعده».

فمدت الأسمطة وجلسوا على المائدة وحماد يفكر فيما عسى أن يكون وراء تبسم سعدى، فلما فرغوا من الطعام عادوا إلى الاستراحة، وجلسوا ينتظرون حديث سعدى إلا هنداً، فإنها لم تكن

معهم لأن أمها أشارت إليها أن تتخلف هنيهة ريثما يتحادثون في شأنها. فلما استتب بهم الجلوس قالت سعدى: «أظنكما تنتظران مني كلاماً ظهر لكما من تبسمي الآن أني أكتمه».

فقال حماد: «هو ذاك يا مولاتي فأتحفينا به».

قالت: «لقد تبسمت لما اتفق من ذهاب أبيك إلى الحجاز وما نحن عازمون أن نكلفك به».

فعجب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فنظر إليها متسائلاً وهو يقول: «إني رهن إشارتكم، لكم الأمر وعليّ الطاعة».

فقالت: «لا يُخفى على ولدنا حماد أن ما عرفناه من شهامته وكرم أخلاقه يكفي لإقناعنا باسحقاقه هنداً، وأنه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها. ولكننا معاشر العرب نحافظ على الأنساب ونحترم القرابة، ولعلكم علمتم أن الحارث بن أبي شمر قد طلب هنداً لابنه ثعلبة، وهو ابن عمها وأولى الناس بها، ولكننا آثرنا البقاء على ما أرادته هند، ورضينا بحماد لما آنسنا فيه من كرم الأخلاق وعلو الهمة».

فخجل حماد لهذا الإطناب واختلج قلبه فرحاً لما توسمه من تحقق أمانيه فأطرق صامتاً، فقالت سعدى: «ولكن أباه رأى رأياً إذا وافق عليه حماد كان فيه دفع لتقوّل الناس وعتاب الأقارب وفخر لنا جميعاً».

قال حماد: «مري يا مولاتي إني رهين إشارتك».

قالت: «رأينا أن تعمل عملاً نقترحه عليك لا يعظم على باسل مثلك، فإذا فعلته قطعت ألسنة المعارضين وزدتنا إعجاباً وفخراً».

فثارت الحمية في نفس حماد فقال: «قولي يا سيدي، إني فاعل

ما تقولين ولا يثقل عليّ أمر ترضى به هند».

قالت: «نقترح عليك أن تلبس هنداً يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام».

فقال: «لعلك تعنين قرطني مارية؟».

قالت: «إياهما أعني، هل تدري مكانهما؟».

قال: «سمعت أن مارية جدتكم أهدتهما إلى الكعبة منذ أجيال فهل هما باقيان هناك حتى الآن؟».

قالت: «أظنهما لا يزالان هناك، وفي الإتيان بهما من الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم».

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفاً على سيده، لعلمه أن الكعبة أمتع من عقاب الجو، وقد يستحيل الوصول إليها فقال: «هل تأذن سيدتي في كلمة أقولها؟».

قالت: «تكلم»، فقال: «هل تريدان أن تلبس مولاتي هند قرطني مارية عينهما أو قرطين آخرين مثلهما؟».

قالت: «لا نلتمس شيئاً يقدر بالمال يا سلمان، فإننا من نعم الله في سعة وبسطة عيش، ولكننا نريد أن نفاخر أعمامنا بأننا لم نرض لهند إلا رجلاً جاء بقرطني مارية من جوف الكعبة. وهذا ما أضحكني لما سمعت حكاية الأمير عبد الله وذهابه إلى الحجاز، فقلت في نفسي: إن الله قد أذن بذهاب حماد ليلتقي بأبيه هناك لأن مقام أبي سفيان في مكة حيث الكعبة أيضاً».

فالتفت حماد إلى سعدى وملامح البسالة تتجلى في وجهه وقال: «لقد طلبت أمراً ما أسهله في سبيل مرضاة هند، ولسوف ترين منا فوق ذلك بإذن الله».

أما سلمان فاستعظم الطلب ولكنه لبث صامتاً احتراماً لمقام سيده. وكانت هند جالسة في حجرتها وهي تفكر فيما ستقوله أمها لحامد، فلما تصورت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة أمها في ذلك، وأدركت أن أمها دبرت ذلك الأمر حيلة للتخلص منه، فعظم الأمر عليها حتى بكت.

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها إلى أمها، فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها، فلما دخلت الغرفة ورآها حماد على تلك الحال أثر منظرها في نفسه وهاجت فيه حمية الرجال، وقد أدرك أنها تبكي جزعاً عليه فقال لها: «لا تجزعي يا هند، إنك ستلبسين قرطبي مارية وتفاخرين بهما أهل الخافقين!».

فصمتت هند ولم تجب، ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت إعجاباً بشهامته وحبه، على أن خوفها عليه اعترض مجرى عواطفها فهبت الحرارة في جسمها كأنك كشفت الغطاء عن نار متقدة في فؤادها فانبعث لهيها إلى سائر أطراف البدن، وتلاأت الدموع في عينيها فأطرقت وجعلت تتشاغل بأطراف أكمائها مخافة أن يظهر اضطرابها لحامد.

أم هو فلم يفته حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل، ولكنه أراد تشجيعها فالتفت إلى أمها وقال: «طالما شاقني المسير إلى الكعبة لمشاهدة ما أسمعها منها من حج الناس إليها من أقطار العالم، وكثيراً ما سمعت حديث أبي عن الأصنام القائمة فيها وما يقدمه العرب لها من الضحايا. وقد قرأت في بعض الكتب أنها قديمة البناء جداً، وأنها كانت منذ ذلك العهد يؤمها الناس من أطراف الأرض. وقد بُنيت في بادئ الأمر لعبادة الله، ثم جعله بعض العرب مجمعاً لأوثان حملوها إليها من أنحاء شتى من العا.

الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوه إليها من هذه البلاد (البلقاء) اسمه هبل، وكان قبل أن حملوه إليها يسمى (هبعل) وهو لفظ عبراني معناه البعل أي الإله، يشبه في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ (بل) وقد حملوا إليها أصناماً أخرى من مصر وأشور وغيرهما، فاجتمعت فيها مئات منها فأصبح ذلك البيت مجمعاً للأصنام».

فانتبه سلمان وكان غارقاً في تيه أفكاره خوفاً على سيده، فلما وصل حماد إلى حكايات أصنام الكعبة قال سلمان: «نعم إن الأصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها، وقد سمعت كبيراً منهم يقول ذلك لسيدي الأمير عبد الله في بعض سفراتنا إلى مكة، وكان مما قاله: إن كثيرين من عقلاء مكة وهم من قريش إنما يزورون الكعبة لعبادة الله، وإن الاعتقاد بالله قد اتصل إليهم بالتلقين من سيدنا إبراهيم، ولكن بعضهم ضل عن سواء السبيل بما زين لهم من عبادة الأوثان».

فوجهت سعدى خطابها إلى حماد وقالت: «يظهر أن أباك الأمير قد سافر إلى الحجاز قبل الآن».

قال: «نعم يا مولاتي إنه نزلها مراراً، ولذلك ظننا أنه سار إليها هذه المرة أيضاً».

فقالت: «إن ذلك ما يؤكد ذهابه إليها الآن فعسى أن تلتقوا به هناك».

قال: «إني أرجو ذلك وأتمناه لتتم به سعادتني». ثم فكر قليلاً وقال: «متى تريدين مني يا مولاتي أن أبرح البلقاء؟».

قالت: «متى شئت وخير البر عاجله».

قال: «أرى أن نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس

دعاه بالتوفيق».

قالت: «ذلك راجع إليك، أما هو فقد فوض إليّ أن أبلغك رضاه وما تم عليه الاتفاق، فإذا شئت لقاءه فلا شك أنه يسر بليقائك».

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لو لم يشغلها حديث الكعبة. فلما تحول الحديث إلى أبيها استحسنت رأي حماد في زيارته على أمل أن يتحول عزم أبيها عن اقتراحه. فقالت: «حسناً تفعل بزيارة أبي قبل سفرك».

فازداد حماد رغبة في ذلك فقال: «غداً نقبل على مجلس الملك إن شاء الله فنسلم عليه ونودعه». ثم التفت إلى سلمان وسأله: «ألا تعرف الطريق؟». فردت سعدى وقالت: «سنرسل رجالاً يسرون في ركابكم».

وبقي سلمان منقبض النفس من أمر تلك المهمة لعلمه أنها شديدة الخطر لكنه سلم أمره إلى الله. وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير، ولكن هنداً لم تنهأ بذلك الاجتماع لخوفها من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد، على أنها شغلت بحديث حبيبها ولهمت برؤيته عن كل المخاوف، فلم يكن أسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو أنه لا ينقضي، ولا تسل عن حماد وسروره وقد سهل عليه المسير إلى الكعبة أمل به بلقاء أبيه هناك.

— ١٦ —

غزوة بدر الكبرى

أصبحت هند في اليوم التالي كئيبه حزينة، وأحسّت بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلاً. فكانت كلما نظرت إلى حماد خيل إليها أن

أحداً يحاول اختطافه منها فيضطرب قلبها وتسود الدنيا في عينيها، فحدثتها نفسها لأول وهلة أن يتواطأ على رفض أمر القرطين، ولكن الأنفة وعزة النفس اعترضها فصبرت متعلقة بالأمال.

فلما أشرقت الشمس كانت الجياد قد أعدت لركوب حماد وسلمان إلى البلقاء في صحبة بعض الفرسان من أهل القصر، فنهض حماد لوداع هند وأمها وكانتا تنتظرانه في غرفة الضيافة. فلما دخل في لباس السفر وقفت له هند وركبتها ترتجفان فمد يده إليها فمدت يدها فأمسكها فأحس بها باردة كالثلج، ونظر إلى وجهها فإذا به قد امتقع لونه، فلما كلمها مودعاً تناثر الدمع من عينيها فجأة وجذبت يدها من بين أنامله بلطف وأطرقت ولم تجب، فعلم أنها إنما فعلت ذلك خوفاً عليه من هذا السفر الخطر.

فالتفت إليها مبتسماً وقال: «ما بالي أرى هنداً خائفة وعهدي بها تنافس أشجع الشجعان؟ وتسبق أمهر الفرسان؟».

فنظرت إليه بطرف عينيها وتنهدت تنهداً عميقاً، ولبثت صامته ولسان حالها يقول: «إن مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الأحباب شيء آخر».

فأدرك حماد مرادها ولكنه خاف إذا طال وقوفه أن يخرج الغرام فيخرجه عن وقاره، فتحول لوداع سعدى، ثم عاد إلى هند فودعها وتبسم لها، فتبسمت مجارة له ولكن قلبها لم يفرح، فقال لها: «ادعي لنا بسلامة العودة فإذا عدنا كما أردنا كان حماداً أهلاً لهند، فلا تخشى أن تذكره، ولا تتجمل إذا ذكره سواها. وأما إذا لم».

فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج: «ستعود إلينا سالماً بإذن الله». ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول إخفاء عواطفها أمام أمها.

أما سعدى فرأت من الحكمة ألا تطيل الموقف فقالت لحماذ: «سر يا ولدي في حراسة الله وهو ينيلك بغيتك على خير سبيل فتعود إلينا سالماً بعد أن تلتقي بأبيك».

فأثنى على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج إلى الحديقة، وكان سلمان في انتظاره فلما خرج مولاه وسعدى وهند تتبعانه تقدم إليهما وودعهما وهو على غير ما أنساه منه صباح أمس من انبساط أسرته ومجونه، ثم أركب حماداً وركب هو وسائر الموكب وخرجوا قاصدين البلقاء وهند وسعدى واقفتان تنظران إليهم، أما هند فلم يكدهما يدير عنان جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بما دبره أبواها للتخلص منه، فتحولت إلى غرفتها وأخذت في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد، فتبعتها أمها لتخفف عنها وتصبّر لها فقالت: «دعيني يا أماه لقد نفذ السهم وقُضي الأمر، إن حماداً ذهب إلى حيث لا يرجى رجوعه، وقد كان الأجدر بكم أن ترفضوه بدلاً من إرساله في هذه المهمة». قالت ذلك وهي تبكي.

فقالت سعدى: «خلي عنك الأوهام، إن حماداً شجاع باسل وخادمه سلمان خير قدير، فلا يعسر عليهما أن يفوزا بالقرطين، وفي ذلك فخر لك ولنا ومنجاة من أنقال ثعلبة وأبيه».

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهان عليها ما يقاسيه حماد في سبيل إنقاذها منه فسكتت والهواجس تتقاذفها.

أما حماد فما زال حتى أتى البلقاء وهو يظهر ارتياحه لما انتدب له، وسلمان صامت لا يفوه بكلمة.

وكانت البشائر قد سبقتهما إلى جيلة تنبئه بمجيء حماد، والناس يحسبونه أميراً جاء لأمر ذي صلة بالحرب، لأن الروم كانوا قد

استنجدوا القبائل المجاورة لقتال الحجازيين.

أما جبلة فعلم أنه جاء لأجل خطبة هند، فأذن في دخوله عليه في خلوة، فلما التقيا همّ حماد بتقبيل يدي جبلة، فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلس وجبلة يرحب به فقال حماد: «قد جئت يا عماء أشكرك على ما تكرمت به عليّ من الرضا. وألتمس دعاءك في ذهابي إلى مكة فإني شاخص إليها على عجل».

فقال جبلة: «رافقتك السلامة في المسير والإقامة، وجعل الله مسيرك سعيداً ولا حرمك مما تريد، ولكنني أوصيك يا ولدي بأن تبقي ما دار في شأن هند مكتوماً حتى تعود فراراً من مشكلات قد تحول دون ما نحن ساعون فيه».

فأدرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال: «معي خادم بل هو رفيق يودّ تقبيل يديك قبل السفر لأنه سيرافقني ويكون عوناً لي، فهل يأذن مولاي في مثوله بين يديه؟». قال: «ليدخل».

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه، فتقدم سلمان إلى جبلة وقبّل يده، ولبثوا هنيهة يتحدثون فيما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الأمر إليه، ثم نهض حماد وسلمان وودعا جبلة وخرجا يقصداً إلى خيمتهما عند الشيخ النبطي وكلّ منهما في هاجس.

أما سلمان فلم يكن راضياً بما رآه وسمعه، ولكنه رأى حماداً راضياً به مصمماً على تنفيذه، فلم يشأ تثبيط همته، وعزم في سره على أن يبذل جهده في عونه إلى آخر نسمة من حياته.

وصل حماد وسلمان إلى الخيمة في المساء، وكان صاحبها النبطي قد استبظأهما لغيابهما يومين كاملين، فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في السفر والاستعداد له وابتاع سلمان جملين لحمل الماء والثياب والزاد، ثم سألا الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق

يرافقهما إلى مكة بأجر يرضيه، فسألهما عن سبب السفر فانتحلا سبباً أقنعه فقال: «أدلكما على رجل من أهل يثرب التي جاء منها الحجازيون الذين سيخرجون هذه البلاد من أيدي بني غسان، وقد جاءني بالأمس في مهمة من أمير من أمراء ذلك الجيش فدللته على بعض الأماكن التي يتزودون منها، وسمعتة يقول إنه لا يلبث أن يعود إلى بلده فإذا رافقكما إليها كان لكما خير رفيق، ومتى وصلتكم إلى يثرب سهّل عليكم الذهاب إلى مكة».

فقال سلمان: «يدو لي أن صاحبك هذا من أتباع صاحب الدعوة الإسلامية بالمدينة؟».

فقال: «نعم هو مسلم، وقد جاء مع الحملة إلى عمان وسيعود في مهمة فهل استقدمه إليكم؟».

قال سلمان: «استقدمه». فخرج من الخيمة ونادى: «أبا سعيد». فسمعوا صوتاً يقول: «لييك يا أخا العرب»، ثم عاد مضيفهما النبطي فناده بقوله: «هلم إلي».

فجاء بدوي طويل القامة عريض الكتفين خفيف اللحية قارب الأربعين من العمر، وكان عاري الرأس والقدمين، ملتحفاً شملة من نسيج أبيض تغطي بدنه فيلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه إذا اشتد عليه الحر وفي يده رمح ونبلة.

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه أنه حجازي من أهل المدينة، فلما وصل أبو سعيد إلى حماد بهره ما عليه من اللباس الفاخر من الحر والديباج والحرير فعلم أنه أمير ولكنه ظنه من أمراء غسان فلم يهش له فابتدره النبطي قائلاً: «إن الأمير ليس من غسان كما ظننت، بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيته».

فقال أبو سعيد: «وماذا عليه أن يكون غسانياً، فإننا تجاورنا في

منزلك فنحن أخوة».

فقال حماد: «بورك فيك يا أبا العرب ممن أنت؟».

قال: «من أهل يثرب».

قال سلمان: «إن أهل يثرب أكثرهم من اليهود».

قال: «نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن».

قال: «نعم جئتها منذ عشر سنوات».

قال: «لقد تغيرت حالها بإشراق نور الإسلام».

فقال سلمان: «هل نبي الإسلام منكم أم من قریش في مكة؟».

قال: «ليس منا ولكننا قمنا بنصرته وفتحنا له صدورنا ومنازلنا فهو يقيم بمدينتنا وقد سمّانا الأنصار».

قال سلمان: «إذن أنت ذاهب إلى المدينة؟».

قال: «نعم وإلى أين أنتم ذاهبون؟».

قال: «إلى مكة فهل ترافقنا إليها؟».

قال الرجل: «يا حبذا لو كان ذلك في الإمكان».

فقال سلمان: «هل يمنعك بُعد المسافة؟ أم أنت سائر في مهمة عاجلة؟».

قال: «إني ذاهب في مهمة عاجلة، ولكن هذا لا يمنعني من السير إلى مكة لو لم يكن أعداؤنا فيها بالمرصاد».

فقال سلمان: «وأي الأعداء تعني؟».

قال: «أعني أهل قریش أعمام نبينا فإنهم لا يزالون يتربصون للفتك به، وهو إنما جاء المدينة مهاجراً فنصرناه كما قدمت، وقد

تبعه إليها نفر من ذوي قرباه. أما الباقون فلا يزالون في مكة وقد تحالفوا على عدوانه وفي مقدمتهم أبو سفيان الأمير التاجر الشهير». فقال سلمان في نفسه: «هذه مشكلة لم تكن في حسابنا». وتصور أن في الطريق بين المدينة ومكة خطراً لما بين أهل البلدين من العداوة، فنظر إلى المدني وقال: «هب أننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا إلى مكة خطر؟».

قال: «لا خطر عليكم إذا سرتم في الطريق المعبد ولو كنتم من دعاة الإسلام مثلنا لكان عليكم خطر، ولكنكم غرباء سائرون في سبيلكم. ولعل الأفضل أن تسيروا في قافلة لأنكم تكونون في كثرة فلا خوف عليكم بإذن الله». قال ذلك وصمت وأطرق كأنه يفكر في أمر طراً عليه.

فنظر سلمان إلى حماد يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك الثربي فقال حماد: «أرى أن نرافق الرجل إلى المدينة ثم ننظر ما يكون من أمرنا». ثم التفتا إلى الرجل فإذا هو مطرق ينكت الأرض بإبهام رجله فابتدره سلمان قائلاً: «ما بال أخي قريش مطرقاً يفكر، هل من رأي جديد جال في خاطره؟».

قال: «لم يخطر لي رأي جديد، ولكنني تذكرت أمراً ذا بال أظنه يهكم».

فقال سلمان: «وما ذلك؟».

قال: «تذكرت حديثاً سمعته في معسكرنا بعمان فإذا صح أننا سنقصد إلى مكة قريباً فإنكم تصلونها آمين مطمئنين».

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال: «وماذا تعني بقصدكم إلى مكة».

قال: «إن نبينا سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويحطم أصنامها فتصير في حيازتنا، فإذا دخلتموها كنتم آمنين». فقال: «وهل أنت واثق من هذا الخبر، وهل تسIRON إليها قريباً؟».

قال: «إني واثق بصدق الرواية، ولكنني لم أتتحقق الموعد المضروب لغزوها، على أننا سنعلم جلية الأمر متى وصلنا إلى المدينة فهلهم على الاستعداد». قال ذلك وذهب.

فظر سلمان إلى حماد وقال له: «لم يسرني الخبر كثيراً لأن وصولنا إلى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون أسهل علينا قبل أن يفتحها القوم».

فقال حماد: «لا أرى رأيك إذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل أسهل وطريق أقرب، وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن بإعداد حاجات السفر من الجمال والمياه والزاد وعلى الله الإتكال».

فقال سلمان: «أرى أن نركب جوادينا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد، على أن يكونا ذخراً لنا لأن الجمال أصبر على العطش من الخيل».

وفي صباح اليوم التالي جاء سلمان بجملين وخادمين وحملوا ما خفّ وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ النبطي وساروا يطلبون الحجاز.

وما كاد ركب حماد يتوغل في الصحراء بعد مغادرة اللقاء حتى حسّ بالوحشة وتمثل له خطر المسير، وتحقق صدق مخاوف سلمان، ولكنه تجلد وألقى اتكاله على الله.

وبعد مسير بضعة أيام أشرفوا على جبال المدينة فقال الثربي:

«ها قد صرنا على مقربة من يثرب ولا نلبث أن نشرف عليها». فقال سلمان: «إني أعرف المدينة وطرقها فقد أتيتها منذ أعوام».

فقال اليثربي: «إذا أشرفت عليها فسترى فيها تغييراً طراً عليها بعد نزول النبي فيها، فقد بُنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر إليها من أصحاب الرسول وغيرهم».

وبعد هنيهة أشرفوا على المدينة فإذا هي في منبسط من الأرض تحيط بها البساتين والغياض. فقال اليثربي: «هذه يثرب فهل تنزلانها ريثما تصطحبان رفيقاً إلى مكة أو تريان رأياً آخر؟».

قال حماد: «أرى النزول هنا لأشاهد المدينة وأهلها وأرى صاحبكم وأصحابه بعد ما ملأت أذني من أحاديث أوصافه وغزواته».

فانحدروا حتى ساروا على مقربة من السور لا يستغشهما أحد إذ رأوا معهما أحد الأنصار وظنوا أنهما جاءا يعرضان إسلامهما على النبي لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الأيام، وأكثرهم يحيئون ليدخلوا في الإسلام.

فلما دنوا من السور قال سلمان: «أرى أن نضرب خيامنا هنا فنستريح بعض الوقت، ثم نترك دوابنا ومضربنا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافاً».

فقال اليثربي: «أما أنا فلا بد من دخول المدينة الساعة لأنجز مهمتي فعسى أن نلتقي هناك». فقالا: «سر في حراسة الله».

فلما خرج التفت سلمان إلى حماد وقال: «أراك راغباً في دخول المدينة؟». قال: «نعم».

قال: «ولكنني لا أرى ذلك». قال: «ولماذا؟».

قال: «لأننا لم نترك البلقاء ونتجشم الأسفار لنقيم بهذا المكان، هذا إلى أننا نتعرض للخطر إذا دخلنا المدينة».

فقال: «وأي خطر علينا من ذلك؟».

قال: «أخاف أن يرانا هنا أحد من عيون أبي سفيان فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعيها».

قال: «إذا رأينا أبا سفيان قلنا له: «إن عبد الله أبي، وقد نرى أبي معه فنأمن الخطر».

قال: «لو كنا على يقين من وجود مولاي أبيك عنده لهان علينا العسير».

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر أباه وخطيبته وحاله فرغب في إتمام مهمته بالمسير إلى مكة فقال: «أراك مصيباً فالأجدر بنا أن نسير إلى مكة لنبحث عن القرطين فإذا ظفرنا بهما سهل علينا كل أمر آخر».

وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل فأرسلوا خادماً يبتاع زاداً وعلفاً فعاد عند الغروب، فأكلوا وأطعما الجملين والحوادين، وباتوا تلك الليلة، ثم أصبحوا في الغد فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة. وكان سلمان لا يعرف الطريق إليها ولعله كان يعرفها ونسيها، ولكنه كان لا يزال يذكر طريقاً تؤدي إلى مكة عن طريق آبار بدر غربي المدينة، فرأى أن يقصدوا إلى تلك الآبار ليسيئوا عندها ثم يملأوا قربهم ويتجهوا إلى مكة. أما حماد فلم يكن يعلم شيئاً عن تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء. وساروا طول ذلك النهار سيراً بطيئاً لعلمهم أن الآبار غير بعيدة عنهم وأنهم باثنون هناك لا محالة،

فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلوا الأحمال وجلسوا للطعام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة واشتغل الخادمان برعاية الجمّلين.

وعند العصر استيقظ حماد وسلمان فلم يريا الجمّلين ولا راعيهم فبغت سلمان ونهض فنظر إلى ما حوله فرأى كل شيء في مكانه كما فارق، فأخذ يتشوف لعله يرى الجمّلين والخادمين، فلم يرَ آثاراً ولكنه رأى أثر خفاف الجمّلين على الرمال فهمّ بتتبعه وقال لحماّد: «تربص هنا ريثما أرى ما تمّ لهما». فمكث حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر، ثم مالت الشمس إلى المغيب ولم يرجع سلمان، فقلق حماد كثيراً وخاف أن يدركه الظلام وهو وحيد في تلك الأرض.

وفيما هو كذلك رأى أشباحاً تقترب، فتفرسها فإذا هي ثلاثة من الإبل ومعهما الخادمان وسلمان، فعجب للجمال الزائد فلما وصلوا استطلعهم الخبر. فقال سلمان: «أرأيت هذه الناقة؟». فنظر حماد إليها فإذا هي مشقوقة الأذنين فعُجب لحالها وقال: «ما خبرها وما الذي جرى لها؟».

قال: «هذه الناقة التي يسميها الحجازيون (البحيرة) فإن من عاداتهم التي أخذت تتلاشى بعد ظهور الإسلام أن الرجل منهم إذا ولدت ناقته خمسة أبطن وكان الأخير ذكراً بخر أذنّها أي شقّها وأطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكان خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فأرادا أخذها فهمّ بها أحدهما فنفرت منه فظن أنه إذا ركب أحد جملينا أدركها فتعقبها عليه فلم يدركها، واستبطأ رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت أنا بهما فرأيتهما قد عقلاها بعد جهد شديد فوبختهما على ما فعلا فوعدا بآلا يعودا إلى مثل ذلك مرة

أخرى».

عجب حماد لحكاية البحيرة ولكنه أسف لضیاع الوقت حتى دنا المغیب ولم یصلا إلى الآبار فقال: «أرى یا سلمان أن نترك هذه الناقة وشأنها لأننا لسنا في حاجة إليها، وهیا بنا نكمل سیرنا لكي ندرك الآبار، فهل نحن بعیدون عنها؟».

فقال سلمان: «إننا على مقربة منها فهلم إليها». وركبوا جميعاً وساروا یقطعون السهول والأودية حتى خیم الغسق وقد نفذ ماؤهم ولما یصلوا إلى الآبار، فقلق سلمان وخاف أن یكون قد ضل الطريق، فساق جواده إلى أكمة أطل منها على منخفض علم مما یحیط به من الجبال أنه المكان المقصود ولكنه لم یستطع توكید ذلك لبعده المكان وظلامه، فعاد إلى حماد وأنبأه بما كان فاتفق رأیها على أن یتركا الخادمین والجمّلین هناك ویسیرا على الفرسين لیفقدا المكان فإذا كان هو بعینه شربا وسقیا الفرسين لأن الخیل لا تصبر على العطش ثم ینادیان الخادمین.

فهمزا الجوادین فسارا في أرض وعرة والجو هادیء لا یُسمع فيه غیر وقع الحوافر على تلك الصخور، وكان الظلام آخذاً في الاشتداد ولكن القمر أرسل أشعة ضعیفة تبشر بقدومه قبل طلوعه فلما وصلا إلى قمة الجبال المحیطة بمكان الآبار أخذا في الانحدار وهما ینتظران طلوع القمر بفارغ الصبر لیساعدهما على تعین المكان، فوصلا إلى منبسط الوادي ونظرا إلى ما حولهما فإذا هما في وادٍ مظلم تحف به الجبال في أكثر جهاته لا یُسمع فيه صوت ولا یهب فيه نسیم، وكان القمر قد طلع لكن أشعته لم تكن قد أنارت أسفل المكان بعد، فتحقق سلمان أنها أبار بدر، ثم استنار الوادي فتأمله سلمان فإذا هو بعینه ورأى الأماكن التي كانت تُقام بها السوق كل عام، وكانت

تجتمع إليها القبائل للبيع والشراء والأخذ والعطاء، ولكنه آنس في المكان وحشة وكآبة كأنه هجر منذ أعوام، ثم خطر له أن الليل يريه ذلك فأخذ يبحث عن موقع الآبار وحامد في أثناء ذلك صامت لا يبيدي حراكاً.

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانها وقد تهيبا وندما على تلك المخاطرة، وكان سلمان أعظمهما ندماً لأنه ساق سيده إلى الخطر، ولكنه تجلد وسار وحامد إلى جانبه لا يتكلمان حتى وصلا إلى حُفر متفرقة فاستترا وصاح سلمان: «هذه هي الآبار قد أدركناها». وكانا قد أعدا دلوأ يستقيان به فألقى سلمان الدلو فسمع صوته يصدم قعر البئر فأزعجه ذلك، ثم ما لبث أن سمع حركة ورأى حيواناً وثب من البئر وفرّ فتأمله فإذا هو يشبه الثعلب أو الكلب فازداد استغرابه وبغت حماد وقال: «ما هذا يا سلمان أخرج من الآبار ثعالب؟».

قال: «لقد دهشت لهذا الاتفاق. إن المكان هو هو بعينه وقد نزلت فيه منذ بضع سنوات وشربت من مائه ورأيت الناس يستقون منه، فلا أدري ماذا جرى له وتحذثني نفسي بأن أنزل إلى هذه البئر فأني أراها غير عميقة لعلّي أستطلع من أمرها شيئاً، فنزل قدماً ثم الثانية حتى أدرك القعر فأحس كأنه واقف على عظام فمد يده وأمسك العظام بيده فإذا هي مدفونة كلها أو بعضها بالتراب وأخرج شيئاً منها فتصاعدت منها روائح كريهة ولمس عظاماً طويلة ومستديرة وكروية على أشكال شتى فاقشعر جسمه إذ وجدها عظام آدميين فصعد مسرعاً وقد هاله الموقف، ولم يشأ أن يخبر حماداً بذلك لئلا يخاف، وتاقت نفسه إلى استجلاء حقيقة أمر هذه الجماجم والعظام ولكنه كتم ذلك وأوعز إلى حماد أن يعود، فعاد حماد وهو ينتظر أن يسمع شيئاً جديداً فلم يفه سلمان بكلمة، وظلا سائرين في ذلك المنخفض وحامد ينتظر

حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادئ لا يُسمع فيه إلا صوت وقع الحوافر. فلما أبطأ سلمان في الحديث همّ حماد بالسؤال عما رآه وإذا بصوت جمل يهدر عن قرب، فوقفا وأنصتا ليعرفا جهة الصوت فإذا هو جمل منحدر من أعلى الجبل من الجهة التي جاؤوا منها أولاً، فظناه أحد الخادمين قادماً بخبر جديد فلبثا واقفين ينتظران ما يكون، فإذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فإذا هو رفيقهما اليثربي، فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته وأجابه سلمان فتعارفوا.

فلما وصل اليثربي إليهما قال: «ما الذي جاء بكما إلى هذا المكان؟».

قال سلمان: «جئنا نلتمس الماء».

قال: «ألتسمون الماء في هذا المكان وقد أصبح مجمعاً للرمم ومعرضاً للجيف؟».

قال سلمان: «قد كنت أعرفه مستقى فيه ماء عذب، ولكنني عجبت إذ رأيت الجماجم فيه ولمستها بيدي».

فبغت حماد لذلك وقال: «أحقاً ما تقول يا سلمان؟».

قال: «نعم يا مولاي قد لمست الجماجم والسواعد والأفخاذ بيدي وكنمت ذلك عنك لئلا تتهيب».

قال حماد: «الآن عرفت سر سكوتك بعد نزولك إلى قاع البئر». ثم التفت إلى اليثربي وقال: «ما الذي حوّل هذا الماء إلى رمم وعظام؟».

قال: «إن لذلك خبراً طويلاً فسأقصه عليكما متى جلسنا، فقد جئكما بالماء ووضعتة عند الخادمين وراء هذه الأكمة، وقد تستغربان

مجيئي إليكما في هذا الليل على غير موعد، وأما السبب في ذلك فإني كنت في انتظاركما اليوم عند باب المدينة فلما استبطأتكما جئت أفتقدكما فلم أجدكما، وعلمت من قرائن مختلفة أنكما سرتما إلى هذه الآبار، ولما كنت عالماً بجفافها حملت إليكما قربة ماء وسرت أقص أثركما حتى جئت إليكما على عجل كما تريان». قال ذلك وأشار إليهما أن يتبعاه فركبا وسارا معه متهيين المكان بعد ما علما من أمره، حتى وصلوا إلى أعلى الوادي ورأوا الخادمين، وكانا في انتظارهم، فلما وصلوا ترحلوا جميعاً وجلسوا فتناولوا الطعام وشربوا وسقوا الخيل والجمال، وسلمان وحامد ينتظران سماع الخبر بفارغ الصبر.

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد: «أراني في شوق وقلق لأعلم خبر هذه الآبار».

فقال اليثري: إن خبرها غريب يطول شرحه، فإذا أردتم قصصته عليكم الليلة، وإلا ففي الغد».

فصاحا معاً: «بل تقصه علينا الليلة، فالليلة مقمرة وقد تافت نفوسنا إلى السمر».

قال: «إني راغب في رواية القصة لأنها تظهر كرامة نبينا وبها يفتخر المسلمون كما سستمعون».

ثم جلسوا وأخذ اليثري يقص حكايته وحامد وسلمان منصتان والجمالان يتطاولان عن بُعد يستمعان أيضاً.

قال اليثري: «اعلموا أني أقص عليكم خبر أعظم غزوة في الإسلام، وقد شهدها رسول الله بنفسه منذ نحو خمس سنوات، وكنت في المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهوله الأطفال».

فقال سلمان: «ومن قاتلتم هناك؟».

قال: «أهل من أقرباء الرسول».

قال: «وكيف يكونون أقرباءه ولا يقومون لنصرته بل يعادونه؟».

قال: «إن لذلك خبراً طويلاً لا أستطيع بسطه الليلة، ولكنني أوجزه تمهيداً لذكر وقعة بدر التي نحن في صددتها فأعيروني سمعكم».

قال: «كلنا آذان تسمع».

فقال: «لما قام نبيّنا يدعو الناس إلى الإسلام لم يحبه إلا نفر من قريش، وظل أعمامه وأكثر ذوي قرياه على دين آبائهم، وأكثرهم إنما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفاً على تجارتهم أن تكسد لما في تأييد الإسلام من احتقار الأوثان وإبطال عبادتها، فينحط قدر الكعبة فيفل الحجاج إليها. ومعاش قريش وأهل مكة من التجارة، ولا تجارة إلا بالحجاج، فضلاً عما يتمتع به القرشيون من السيادة ببقاء أصنام الكعبة فإنهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد. فلهذه الأسباب وغيرها أصرت قريش على مقاومة نبيّنا. ولكنه لم يحرم أنصاراً شذوا أزره وصدقوا دعوته، ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها، على أنهم لم يستطيعوا حمايته من الأذى فهاجر وهاجروا معه إلى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها أمس، فاستقبلناه مرحبين وولنا بقربه الشرف العظيم».

«ويثرب واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن أراد تجارة أو سفرأ بينهما كان حتماً عليه أن يمرّ بها، فأخذ النبي من يوم نزوله المدينة يجمع أصحابه الذين هاجروا معه وهم المهاجرون، والمدنيين الذين ناصروه وهم الأنصار، ويخرج بهم للغزو أو يرسلهم لذلك، فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام أو غيرها بتجارة أو أموال

خرج برجاله لغزوها فإذا أصاب مالا ورّعه على أصحابه».

«ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى، وسببها أن أبا سفيان بن حرب رجل قريش وأكبر زعمائها كان قادماً من الشام في إبل لقريش عليها أموال كثيرة ومعه ثلاثون رجلاً أو أربعون من قريش، وكلهم من أعداء الإسلام، وفيهم عمرو بن العاص، وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء في طريقها إلى مكة، فلما علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمروره انتدبنا للخروج عليهم، فعلم أبو سفيان بذلك فأنفذ بعض رجاله إلى مكة يستنفرون الناس إلى الآبار لحماية أموالهم، فكان الرجل منهم إذا وصل إلى مكة وقف على بعيده وقد جدعه وحول رحاله وشق قميصه وهو يقول: (يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، إن أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أدري هل تدركونها، الغوث الغوث). فتجهز القرشيون سراعاً لم يتخلف من أشرافهم إلا من عجز عن المسير، فبلغ عدد السائرين ألف رجل ومائة فرس وسبعمئة بعير، وأما رجالنا فكان عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وسبعين بعيراً وفرسين. فسار رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنا إلى مكان اسمه الصفراء، فبعث من يتجسس خبر أبي سفيان فقبل له إنه بالقرب من بدر، فجمعنا في مجلس وجمع أصحابه المهاجرين معنا وشاورنا جميعاً، وكان قد استطاع قوة العدو وأطلعنا عليها وقال للمهاجرين: (ما تقولون هل نحاربهم؟). فوافقوا جميعاً بصوت واحد وقلب واحد، ثم سأل الأنصار فقلنا: (والذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضته معك، وما نكره أن تلقى العدو بنا غداً لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله). فلما سمع كلامهم أننى عليهم وسار وسرنا جميعاً، وكان أبو

سفيان قد نزع إلى الخديعة أثناء تلك الفترة، فسار من يمين الآبار حتى تجاوزها والغير معه، فلقي رجال قريش في مكان يُقال له الجحفة، فخطب أشراف قريش قائلاً: «هذه العير والأموال قد نجت فارجعوا إلى مكة. وكان بين أولئك رجل اسمه أبو جهل لعنة الله عليه فأبى إلا أن يمر بالآبار، فساروا حتى دنوا من الوادي، أما نحن فسرنا نطلب الآبار، فنزلنا عندها ومنعنا الأعداء منها فتقدم زعيم الأنصار منا وهو سعد بن معاذ وقال: (يا رسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا عليهم كان ذلك مما أحبيناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، فيمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك). فأثنى الرسول عليه خيراً، ثم بنينا له عريشاً، وبعد قليل رأينا غبار قريش وظهر رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح يتقدمهم أمراؤهم في أفخر اللباس، وكانوا أهل بذخ وترف وقد أخذتهم الخيلاء والفخر، فلما دنوا منا عسكروا أمامنا، ثم أرسلوا رجلاً منهم ليقدر عددنا فجال بفرسه قليلاً وعاد فأنبأهم بقله عددنا، فتشاوروا في الأمر طويلاً وفيهم من يشير بالرجوع، وكانوا بين أن يرجعوا أو يهاجموا لأن الماء في حوزتنا فإذا لبثوا مكانهم هلكوا عطشاً فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقتلنا، فأقروا الهجوم فخرج منهم أفراد طلبوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم، فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا والتحم الفريقان وكان يوماً عظيماً خاف فيه المسلمون خوفاً شديداً لما رأوا من قلتهم، وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول وقد رأى احتدام الحرب: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض، اللهم انجز لي ما وعدتني). قال ذلك

وهو ينظر إلى رجاله ويدعو لهم بالنصر، وقد سمعت دعاءه بأذني لأنني كنت في جماعة من الأنصار مع سعد بن معاذ واقفين بباب العريش نحرس رسول الله خوفاً عليه من كرة العدو. ولقد رأيت ما كان من فتك المسلمين بالمشركون مما ينشرح له الصدر ولا سيما لما رأيت أبا جهل زعيم القرشيين مجندلاً يتخبط بدمه، وكان أشد الناس عداوة لنبي الله، ورأيت غيره من أمرائهم مقتولين، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان، وشيبة، وعتبة، وأمّية، وغيرهم ورأيت أشد المسلمين فتكاً في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، فقد رأيت يخرق الجماهير وفي صدره ريشة نعامة يمتاز بها من غيره.

«ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم وتفانيهم في نصره الإسلام أن معاذ بن عمرو بن الجموح كَرَّ على أبي جهل وكان محاطاً بزمرة من رجاله فاخرق الناس إليه فضربه ضربة أصابت ساقه فهجم عكرمة بن أبي جهل على معاذ بضربة قطعت يده فطرحتها على عاتقه ولكنها ظلت معلقة، فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويده تجر وراءه فكنت أنظر إلى يده وأشعر كأن يدي في مثل ذلك أما هو فلم يكن يبالي، فلما آذته يده وعاقته عن الحرب جعل رجله عليها وتمطى حتى انفصلت فتركها وعاد إلى الحرب. وكان في المشركين العباس بن عبد المطلب فإنه كان لا يزال متردداً بين الإسلام وبين ما كان عليه أجداده. فلما حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرهاً فأسر فيمن أسره ولكن أسره لم يطل لأن النبي أمر بإطلاق سراحه.

«ولم يمض إلا القليل حتى رأينا المشركين لاذوا بالفرار فأسرنا جماعة كبيرة منهم، ولما انقضت الحرب أمر رسول الله أن يؤتى بجثث القتلى إلى القليب فجيء بها فتكومت كوماً وفيها جثث نخبة أمراء قريش وهي التي رأيت بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم

ففرقت فينا وحملت بشائر النصر إلى المدينة وأخبار الويل إلى مكة، وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش إذ قُتل فيها جماعة من ألد أعداء الإسلام وأشدهم بطشاً ومنهم أبو لهب عم الرسول وكان شيخاً كبيراً لم يحضر الحرب فلما بغته نكبة القرشيين اشتد الأمر عليه فمات بعد تسعة أيام، وأصبح أبو سفيان زعيم القرشيين بعد هذه المعركة وهو كثيراً ما يسير إلى الشام فلعلكم أن تكونوا رأيتموه هناك.

فقال سلمان: «نعم رأيته غير مرة وهو أشهر من أن يُذكر». فقال: «وسترونه قريباً عند وصولكم إلى مكة فإنه عاد إليها منذ أسابيع».

فلما سمعا ذكر أبي سفيان ظنا أن يكون عبد الله معه ولكنهما كتما ذلك، ثم قال اليثربي: «وأصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد ألقوا الجثث فيها فأنتنت. وبطل موسمها السنوي من ذلك الحين، وهذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله على أنكم لم تلقوا فيها وحشاً ضارياً، فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد إلى المدينة نمكث يوماً، ثم تسيروا منها في قافلة إلى مكة وإلا فاختاروا لأنفسكم».

فأعجب حماد بشهامة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في إنقاذهم وقال: «إننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيراً، وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع أن نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت، ولكننا نرى سرعة المسير إلى مكة لعلنا نلتقي فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها».

فقال اليثربي: «لعلكم تتجرون معه فإن له تجارة واسعة مع أهل الشام؟».

قال سلمان: «لا تجارة بيننا وبينه، ولكننا نبحث عن صديق لنا

سار معه من بيت المقدس».

فقال الثري: «أنصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تتصحبون؟».

قال: «نعم ويكون لك الفضل علينا».

قال: «أنصح لكم إذا لقيتم أحداً من المسلمين في المدينة أو غيرها، وعرض ذكر أبي سفيان ألا تذكروا علاقة بينكم وبينه، فإن ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم ضرراً».

فقال سلمان: «لقد أخلصت النصيحة وأردت بنا خيراً فشكراً لك، على أننا لم نقل أننا أصدقاؤه وإنما قلنا إن صديقنا سار برفقته».

فقال الثري: «مهما يكن من الأمر فقد نبهتكم».

قال حماد: «هذا ما نشكرك عليه شكراً جزيلاً».

وكان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد فلما أصبحوا خيرهم الثري في الذهاب معه إلى المدينة أو الذهاب إلى مكة، فاختاروا مكة على أن يمروا بالمدينة في عودتهم، فودعهم وعاد إلى المدينة وتركهم يستعدون للسفر إلى مكة.

لما خلا حماد إلى نفسه، تذكر حاله مع هند وما هو ذاهب فيه، وكان أثناء حديث الثري عن أبي سفيان يهم بالاستفهام عن أبيه ويخاف العاقبة فيمتنع، وأخيراً صبر ريثما يصل إلى مكة ويلتقي بأبي سفيان.

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لا يلوون على شيء، فأمسى المساء وقد أدركوا بقعة من الأرض يكسوها المرعى، وفي أحد جوانبها شجرة تحتها ماء عذب اعتاد المارة الجلوس إليها التماساً للراحة من وعثاء السفر أثناء مسيرهم بين مكة والمدينة.

فجلسوا إلى الشجرة وأوقدوا ناراً يستضيئون بها أو يستخدمونها في معالجة طعامهم، حتى إذا أكلوا جلسوا يتسامرون حتى يجيئهم النعاس، فلما انقضى الهزيع الأول من الليل اضطجعوا للرقاد، وأمروا الخادمين بأن يتناوبا السهر خوفاً من طارئ يفاجتهم، ولم يكد يغمض لهم جفن حتى أفاق سلمان على صوت ضوضاء عن بُعد فألصق أذنه بالأرض فتبين له أن كثيرين من الفرسان قادمون من مكة مسرعين، وعلم أنهم نازلون عند تلك العين لا محالة، فالتفت إلى حماد فوجده نائماً فتردد بين أن يوقظه وبين أن يتركه نائماً، وفيما هو في ذلك أفاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمان جالساً على فراشه فبغت وناداه واستطلعه الخبر.

فقال: «كنت عازماً على إيقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك».

قال حماد: «وما سبب ذلك؟».

قال: «إني أسمع أصوات فرسان قادمين من مكة فأخشى أن يكونوا ذاهبين في غزوة وربما أوقعوا بنا سوءاً».

فقال حماد: «وما الرأي إذن؟».

قال: «الرأي أن نتفق على كلام نقوله لهم يضمن لنا النجاة».

فقال: «وما هو؟».

قال: «يغلب عليّ الظن أن القادمين من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد، وأنهم يريدون المدينة لقتال أو لاستطلاع فهم من أعداء المسلمين وعلينا نحن أن نتجاهل أمر الإسلام ونتظاهر بأننا إنما جئنا لزيارة الكعبة».

فقال حماد: «ولكن ذلك لا أثر له في ديننا».

قال: «إن الكعبة ليست سوى معبد يؤمه الناس من أقاصي الأرض على اختلاف الملل والنحل، فإذا قلنا إننا غرباء قاصدون زيارتها فلا خوف علينا».

فقال حماد: «افعل ما بدا لك وكن أنت المتكلم عني».

ولم يكاد يتمان الحديث حتى جاء الخادم ينبئهم أن الجمع قد اقترب وأنهم يقصدون إلى الماء فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقوداً استئناساً بالنور، فلم يمض قليل حتى وصل إلى الماء فارس ملثم، فلما اقترب من النار نادى: «من القوم؟».

فقال سلمان: «عرب من لحم، ومن أنت؟».

قال: «عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم إلى هنا؟».

قال سلمان: «جئنا لزيارة البيت الحرام؟».

قال: «هل مررتم بالمدينة؟».

قال: «مررنا بها عن بُعد ولم ندخلها».

وما أتم كلامه حتى وصل رفاقه وفيهم الفارس والراجل، فترجلوا جميعاً ودنوا من الماء ففترس فيهم سلمان يسير عددهم فإذا هم نحو الأربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع تبيّنه لشدة الظلام، وكان الرجل يأمر القوم وينهاهم فعلم سلمان أنه رئيسهم، وكان قد أمرهم أن ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة فأخذوا في ذلك وسلمان ينظر إليهم، ثم لاح له أن يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنا منه وحياه فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجهه، ثم التفت إلى سلمان وقال: «أبأني دليلنا أنكم من لحم فهل أنتم قادمون من العراق؟».

قال: «نعم يا مولاي».

قال: «نحن نعلم أن اللخمين من العراق من أهل النصرانية».

قال: «نعم نحن كذلك».

قال: «وكيف تقول أنكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجون إلى بيت المقدس؟».

فبغت سلمان ولبث برهة صامتاً لا يدري بماذا يجب وظهر الارتباك على وجهه ولكنه تجلد وقال: «وهل تقفل أبواب الكعبة دون النصارى إذا جاؤوها زائرين؟».

قال: «لا فالناس يقدمون إليها من أقاصي الأرض على اختلاف مللهم ونحلهم، ولكن النصارى قلما يجيئونها، هذا إلى أن الوقت ليس وقت الحج فأصدقني الخبر».

قال سلمان: «ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانه، ولكنني رأيتمكم جمعاً كبيراً فارتبنا في أمركم فإذا علمنا من أنتم أعلمناكم بحقيقة أمرنا».

وفيما هما في ذلك جاء رجل يقول: «إن الخيمة نُصبت والمائدة أُعدّت». فالتفت رئيس القوم إلى سلمان وقال: «إذا شئت أن تضيفنا على الطعام أتمننا الحديث فإننا نحتاج بعد طول السفر إلى الراحة». فقال: «نترك إتمام الحديث إلى صباح الغد».

قال: «حسناً». وافترقا فصار سلمان إلى سيده فإذا هو لا يزال جالساً على فراشه ينتظر عودته بخبر القوم، فلما رآه عائداً استطلعه الخبر فأنبأه بما كان واستمهله إلى الغد. فباتوا تلك الليلة على حذر، ولما أقبل الصباح خرج سلمان إلى مضرب القوم فإذا أكثرهم من الفرسان، وتأمل لباسهم وحالهم فإذا هم من أهل الحجاز ففكر في

أمرهم ورأى أن يصطحب سيده وأن يسيرا معاً إلى مقابلة زعيم القوم فاصطحبه وسارا إلى خيمته، فلما بلغاها استأذنا في الدخول فأذن لهما، فوجدا الرجل جالساً على وسادة مقطب الوجه كأنه يفكر في أمر أهمه، فلما وقع نظره على سلمان وقف له ورحب به، فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك الزيارة ولكنه قدم سيده في الجلوس فأدرك صاحب الخيمة أنه سيده فرحب به وأجلسه بجانبه، ثم التفت إلى سلمان وقال: «أرى ضيفنا الجديد عراقياً أيضاً؟».

قال سلمان: «نعم يا سيدي إنه أمير من أمراء العراق، وأنا خادم له فهل يتكرم مولاي بذكر اسمه؟».

قال: «أنا عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب».

فقال سلمان: «لعلكم من أهل مكة؟».

قال: «نعم نحن نقيم بمكة، ولكننا سائرون إلى المدينة».

قال: «قد علمنا أن بينكم وبين أهل المدينة عداوة».

قال: «صدقت، ولكن بين أهل مكة جماعة كبيرة على دعوة أهل المدينة، أي أنهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفاً من كبار قريش أن يصيبوهم بسوء، على أنني سألتكم عن حقيقة أمركم فلم تجبني فهل أنتم سائرون إلى مكة للحج حقاً؟».

قال سلمان: «أما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فإني أطلعك على جلية أمرنا لعلك تكون لنا عوناً فيما نحن فيه». قال: «وما ذلك؟».

قال: «نحن يا مولاي كما قلت لك من أهل العراق، وهذا الأمير حماد سيدي، وقد جئنا قاصدين مكة لنبحث عن الأمير

عبد الله أبي مولاي هذا فقد قيل لنا أنه جاء الحجاز مع أبي سفيان منذ أشهر فهل تعلم عنه شيئاً؟».

قال: «أذكر أنني شاهدت أبا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام، ولكنني لا أعلم شيئاً عن الأمير عبد الله».

فقال سلمان: «هل يخبرني سيدي عن سبب قدومه إلى المدينة وهو من أهل مكة، فإني أخاف أن يكون وراء مجيئكم ما يدعو إلى حرب تقفل بها أبواب مكة دوننا».

قال: «أما سبب مجيئنا المدينة فهو أننا من خزاعة كما أخبرتكم، وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة أخرى يُقال لها بنو بكر، فكان النزاع بيننا لا يفتر، حتى ظهر الإسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين إلى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم نبيهم يريدون الاعتماد، فخاف أهل مكة أن يكونوا عازمين على القتال، فمنعوهم دخولها، ثم كانت خصومة انتهت بعهد أبرم بين المسلمين وقريش يقضي بهدنة وسلام، فدخل بنو بكر في عهد قريش ودخلنا في عهد المسلمين، ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجاً على العهد فتعرضوا لنا وقتلوا منا، ورأينا من قريش سكوتاً فاعتبرناه ممالة لهم، ونقضاً للعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين. وكأني بالقرشيين ساعون إلى حتفهم بظلفهم فقد كانت مكة آمنة مطمئنة فعرضوها لهجمات المسلمين، لأننا لما استفحل الأمر ورأينا القرشيين ينصرون البكرين علينا جئنا نريد المدينة لنبلغ الأمر صاحب الدعوة الإسلامية».

فقال سلمان: «وما ظنك به بعد ذلك؟».

قال: «أظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة».

فقال سلمان: «يظهر أنكم على دعوة صاحب الرسالة».

قال: «لقد جرنّا الحديث إلى أمور طالما وددنا كتمانها، ولكننا أصبحنا في حال لا نرى معها بدأ من التصريح، فإننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقاً في دعوته ولا نظنه إلا غالباً. ويدلنا على ذلك انتصاره في حروبه حيثما توجه».

فعاد سلمان إلى ما هم فيه من أمر القرطين والأمير عبد الله، فأخذ يفكر في وسيلة يستخدم بها تلك الفرصة فقال: «أما وقد آنسنا منك هذه الشهامة فهل ترى أن تهدينا إلى سبيل يوصلنا إلى أبي سفيان للبحث عن مولاي الأمير عبد الله؟».

ففكر عمر ساعة ثم قال: «لي عم شيخ يقيم بالكعبة نهاره كله، وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى أبي سفيان، فإذا لقيتموه واستعنتم به في شأن هداكم إلى سواء السبيل، فإذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة فاسألوا عن حرب الخزاعي، فإذا لقيتموه رأيتم فيه شيخاً طاعناً في السن، فقولوا له: إن ابن أخيك عمر بن سالم يقرئك السلام، فإذا وصفتم له حالنا وما شرحته لكم من أمر خزاعة وبكر علم أنكم صادقون في قولكم، فاسألوه ما شئتم فإنه خير مرشد لكم فيما تريدون».

فنهض حماد عند ذلك وأثنى على عمر وودعاه وانصرفا إلى خيمتهما.

وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سرّ سلمان لتلك المصادفة وأمل أن ينال بها خيراً.

ركب حماد وصحبه في ظهيرة ذلك اليوم يريدون مكة فوصلوا إليها بعد مسيرة يوم، ورأوا أهلها في هرج ومرج لا حديث لهم إلا أمر خزاعة وبكر، فساروا في طرقها لا يستغشهم أحد لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء. وأرادوا المسير إلى الكعبة في ذلك اليوم فقال

سلمان: «هلم بنا إلى خان ننزل به جمالنا وأثقالنا ثم نذهب إلى الكعبة أو أذهب أنا وحدي أتحمس الأخبار». فقصدوا خاناً بالقرب من الكعبة نزلاه، وبدلاً ثيابهما وتناولوا طعاماً واستراحا بقية يومهما وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهما نجاح مسعاهما.

فلما أصبحا في اليوم التالي قال سلمان: «امكث هنا يا مولاي ريثما أتدبر الأمر بنفسي وآتيك بالأخبار وإذا أبطأت عليك فلا تقلق».

قال حماد: «سر في حراسة الله».

فخرج سلمان وقد تزى بزى أهل الحجاز لا يريد بذلك تنكراً ولكنه خاف أن تكون غرابة لباسه لافتة للأنظار، فوصل إلى المسجد الحرام ورأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون، وفيهم الواقف والجالس والراكع، ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحدثون ويتحاورون. فسار هنيهة فرأى في وسط الساحة بناء مربعاً تجلله أستار من القباطي علم من طواف الناس حولها أنها الكعبة ورأى فوقها أصناماً هائلة ورأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها، فأدهشه كل ذلك وقال في نفسه: «إذا لم يكن في قيام الإسلام غير هدم هذه الأنصاب وإبطال عبادتها لكفى به فضلاً».

ثم تأمل بناء الكعبة وأخذ يفكر في أمر القرطين وكيف يكونان هناك وإذا جداً فأين يكون موضعهما فلم يزد إلا جهلاً وما زادته تلك الزيارة إلا يأساً.

ثم تحوّل نحو الجماهير لعله يرى الشيخ الخزاعي فطاف المكان يسأل عنه باسمه فقال له بعضهم: «إنه خرج إلى منزله بالأمس لتوعك أصابه». فسأل عن منزله فقليل له: «إنه في مَرّ الظهران بضواحي مكة».

فخرج إلى مر الظهران، وفيما هو في طريقه إليها يسأل عن الطرق ويستفهم عن الرجل رأى أهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كأنهم في خوف من أمر ذي بال، فعلم أنهم يتحدثون بشأن أهل المدينة. وممر جماعة منهم كبيرة قد تحلقوا أمام منزل فخم رُبِطت حوله الخيول، فعلم أنه بيت أمير كبير فسأل عن صاحبه فقيل له إنه منزل أبي سفيان، فلما سمع اسمه شكر الله لوصوله إليه في تلك الساعة على غير انتظار، وأخذ يتفرس في وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجده فسأل بعض الوقوف عنه فأخبره بعضهم أنه فارقهم بقرب عمان وأنهم لم يروه من ذلك الحين. فأسف لذلك أسفاً شديداً وأظلمت الدنيا في عينيه وتشاءم من تلك المصادفة، ولكنه تجلد وسار في طريقه إلى مر الظهران وهو غارق في أفكاره، فوصل إلى المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوه عليه فجاءه وهو لا يرجو أن يصيب منه خيراً.

فسأل عن الرجل فقيل له إنه مصاب بمرض شديد لا يستطيع أن يخاطب أحداً فعاد على عقبيه كاسف البال وقد أخذ منه اليأس مأخذاً عظيماً لا يدري كيف يلاقي حماداً.

فوصل إلى الخان والليل قد سدل نقابه، فرأى حماداً في انتظاره على مثل الجمر، فتظاهر بالتجلد ولم يخبره بخبر أبيه ولكنه أنبأه بمرض حرب ووعدته بأن يواصل السؤال عنه حتى يشفى من مرضه، على أنه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه.

وقضى سلمان شهراً يتردد على بيت حرب يسأل عنه ويدعو له بالشفاء، وعلم بعد ذلك أن الشيخ أخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت إليه آماله، ثم سار إليه ذات يوم وهو يرجو أن يقابله ويشكو إليه أمره. وفيما هو في الطريق رأى أهل مكة في قلق شديد، فمر بمنزل

أبي سفيان لعله يتنسم خبراً عن سيده فرأى المنزل قفراً فسأل عن السبب فقال مخبره: «إن أبا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين إلى مكة خرج إليهم وربما اعتنق دينهم لأنه خرج خائفاً». فسأل سلمان عن جند المسلمين فعلم أنهم صاروا على مقربة من مكة.

فتفرس سلمان في أهل مكة فرأى علامات الفشل ظاهرة في وجوههم، وسمع بعضهم يمتدح الإسلام وينقم على أبي سفيان، وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم ونكثهم عهد بني خزاعة. فعلم أن الأمر عائد إلى المسلمين لا محالة، فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران وأراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور، فالتفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على أكمة في ضواحي مكة ليرى ما يكون، فرأى الغبار قد كشف عن جند كثيف يتقدمه الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين، وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة، وعاد سلمان إلى الخان خوفاً على سيده من الفتح، وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم أبو سفيان عائداً من رحلته يدعو الناس إلى الإسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع إلا ازدراء واحتقاراً وسمع رجاله ينادون: «مَنْ يدخل منزل أبي سفيان أو منزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين، وَمَنْ يدخل المسجد أو يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن». فاطمأن بال سلمان.

فسار وهو يزاحم الجماهير في الأسواق، فرأى أفواجاً من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل، فلم يكذبصل إلى الخان حتى فرغ صبره. فدخل فرأى حماداً قد لبس ثيابه

استعداداً للخروج فقال له : « ما بالك يا مولاي؟ » .

قال : « قد استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لأرى ما يكون » .

قال : « لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم ، اجلس لأقص عليك الخبر » . قال : « قل ما عندك » .

قال : « قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكت عهد قريش . وقد كنا نتوقع لذلك قدوم المسلمين لفتح مكة فتحقق ظننا لأن المسلمين جاؤوا وهم الآن في ضواحي مكة وأظنهم يهاجمون غداً . وقد علمت أن أبا سفيان سار إلى المسلمين وأسلم وعاد يدعو الناس إلى الإسلام بعد أن كان من ألد أعدائه . وسمعت رجاله ينادون بالأمان لكل من يدخل منزله أو منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة أو يدخل المسجد أو يغلق بابه ، فنحن إذا أغلقنا بابنا كنا في مأمن وإلا فهيا إلى المسجد فإنه خير ملجأ » .

قال حماد : « أرى أن نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر فقد يعتدي علينا أحد عفواً فالمسير إلى المسجد أولى فهل أنت واثق من هجومهم غداً » .

قال : « لا أدري ولكنني سأخرج صباحاً وآتيك بالخبر اليقين » .

— ١٧ —

فتح مكة

في صباح اليوم التالي بكر سلمان إلى أكمة تشرف على جيش المسلمين ، فسار إليه يستطلع الخبر فلم يكذب يبلغه حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان وأصحاب الرايات وفيهم قبائل أسلم وغفار وأشجع وسليم وغيرها ، فتأمل عددهم فإذا هو يزيد على عشرة آلاف

وشاهد في الوسط موكباً هائلاً في وسطه راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعاً رأسه على رحله . ورأى على الرجل وراءه رجلاً رديفاً فعجب لذلك واشتاق لمعرفة ، فرأى رجلاً قادماً من جهة الجيش فسأله عن هذا الموكب فقال له : «هو موكب رسول الله ، والراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على رحله وأردف أسامة بن زيد خادمه تواضعاً» ، فعجب سلمان لذلك المشهد البهيج وقال في نفسه : «لا عجب إذا انتصر مَنْ كانت هذه خلاله» . ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح . فقال : «إنهم سائرون إلى مكة من أعلاها في تلك الساعة ، وأن فرقة منهم سائرة بإمارة خالد بن الوليد من أسفلها» . فهرول سلمان بأسرع من لمح البصر فرأى جموع القرشيين يتأهبون للدفاع وفيهم الفرسان والفشل يتجلى على وجوههم ، وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعر يستحشن الرجال بالأناشيد وفي أيديهن الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضاً وتوبيخاً . فلم يزد سلمان من تلك المناظر إلا رهبة وخوفاً وتحقق إذ ذاك أن المسلمين فاتحو مكة لا محالة ، فما زال سائراً حتى أتى الخان فقال : «هيا بنا يا مولاي إلى المسجد فإنه خير ملجأ لنا» .

فأغلقا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبه فرأيا الناس زرافات ووحدانا وقد استولى عليهم الخوف .

وبعد ساعات قليلة ضجّ الناس في المسجد وهم يقولون : «لقد أقبل رسول الله» . فتحقق سلمان أن الفتح قد تم للمسلمين ، فوقف ومعه حماد بحيث يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث أن سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلاً على قدميه ووراءه رجل من أصحابه أخذ بزمام ناقته ، فطاف حول الكعبة سبعاً وكان يأخذ الحجر الأسود بمجحفه في كل مرة والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم

فأشار إليهم أن اسكتوا.

وكان في المسجد ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من أحياء العرب صنم قد شدوا أقدامها بالرصاص، فجاء النبي وفي يده قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجهه أو قفاه وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وكان حماد وسلمان ينظران إلى ذلك ويعجبان، ثم رأياه قد جاء إلى صنم كبير في جانب الكعبة كانا قد عرفا أنه هبل الأكبر فكسره، وكان في الكعبة صور شتى للأنبياء وفيها صورة إبراهيم وإسماعيل وعيسى ومريم فأمر بماء فمسحت كلها.

ولما تكسرت الأصنام وامحت الصور، جلس النبي في ناحية من المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك أنه أبو بكر الصديق، ثم أمر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلّى فيها ركعتين.

ثم وقف على باب الكعبة وقد وقف الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيراً من الأحكام منها: ألا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبيعة على المدعي واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي رحم محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، ولا يُصام يوم الأضحى ويوم الفطر. ومضى فقال: «يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب». ثم قال: «ماذا تقولون وماذا تطنون أي فاعل بكم؟». قالوا: «خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت».

فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَرْيِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء». وقال أقوالاً أخرى أدهشت حماداً وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر سلمان إلى حماد وقال: «والله إني لأعجب لأناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه وأقواله، ولا ريب عندي أن سلطانه سيتسع حتى يغطي الأرض ويمحو دولتي الروم والفرس». ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الإسلام وهم يصلون ويهنئ بعضهم بعضاً وقد هدأت الأحوال وآب الناس إلى السكينة وانطلقوا إلى منازلهم وأشغالهم فخرج سلمان وحماد إلى الخان.

فلما استتب بهما الجلوس التفت حماد إلى سلمان وقال: «لقد شغلنا بهذه الأحوال عما جئنا من أجله، وقد نظرت إلى الكعبة فعظم عليّ أمر القرطين ولم أفهم أين موضعهما، وكيف أستطيع الوصول إليهما بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين؟».

فقال سلمان: «ألم أقل لك يا سيدي إن عمك سامحه الله قد اقترح عليك أمراً مستحيلاً؟ ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الأمر وليس بعد الجهد حيلة».

فقال حماد: «وقد فاتنا استطلاع أمر أبي من أبي سفيان».

فقال: «أعلم يا مولاي أن سيدي ليس مع أبي سفيان فقد علمت أنهم فارقوه عند عمان ولم يروه من ذلك الحين».

فانقبضت نفس حماد لذلك الخبر وبهت مدة لا يتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيه: «أرى يا سلمان أن الله قد أعد لنا أيام شقاء لا تنقضي، وإن نجم سعدي قد أفل يوم خروجنا من البلقاء». قال ذلك وتساقطت الدموع من عينيه على الرغم منه.

فتجلد سلمان وقال له: «تشجع يا مولاي ولا تيأس فإن الله لا يتركك ولا يهملك وأنت إنما تسعى فيما يؤول إلى رفع منزلتك رغبة في إرضاء فتاة أنت تحبها وهي تحبك».

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هنداً وحبها وما آنسه من ضعف الأمل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيه به، ثم قال له: «إن البكاء شأن النساء يا مولاي، وعهدي بك حازم باسل لا تجزع للحوادث فاصبر إن الله مع الصابرين».

قال: «أنا أعلم أن البكاء عار على الرجال ولكن الحب.. آه من الحب.. آه من ثعلبة.. آه من جبلة.. وسكت».

فأخذ سلمان يؤمله بما سيعرفانه من الشيخ الخزاعي، فسكت.

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان إلى مر الظهران يطلب الخزاعي فعلم أنه نقه من مرضه، والتمس مقابلته فأدخلوه عليه فإذا هو شيخ هرم قد أحناه الكبر حتى ابيض شعر لحيته واسترسل على صدره وتجمد وجهه وغارت عيناه وغطاهما شعر الحاجبين. فحياه سلمان فرد التحية وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه ففعل.

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته واستطرد إلى خبر الفتح ثم عرفه بنفسه وما جاء من أجله فرحب به وقال: «نرجو أن يظل كلامنا سراً لا يعرف به أحد سوانا».

قال: «لقد وقعت على خزانة أسرار».

قال: «نحن نعلم أن إحدى ملكات غسان واسمها مارية أهدت إلى الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئاً عن ذلك؟».

ففكر الشيخ قليلاً ثم قال: «نعم يا ولدي إني أعلم ذلك».

قال سلمان: «فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن؟».

قال: «إن حكاية هذين القرطين أصبحت في خبر كان، لأن الكعبة هدمت وبنيت مراراً بعد إهداء ذينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو أربعين سنة وبنائها عبد المطلب جد نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحه مكة أسس، وهو الذي تولى رفع الحجر الأسود حينذاك ووضعه في مكانه قبل ظهور دعوته ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة فيما بينها على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعه في مكانه وحاولت كل قبيلة كسب ذلك الشرف فحكّموا النبي فميا بينهم وهم لا يعلمون شيئاً من كرامته، فأشار بوضع الحجر في ملاء واسعة وأشار إلى كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطرافها فانحسم الخلاف. والخلاصة أن القرطين لا يعلم أحد بمكانهما والأرجح أنهما بيعا إلى أحد التجار المتجولين ودخول الكعبة لمثل هذا الغرض أمر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة المسلمين».

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض وودع الشيخ وخرج إلى حماد. وكان هذا ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما رآه استطلعه الخبر فأطلعه على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الأسف، لكنه شفع حديثه بعبارات التعزية وأمله بوسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين أمام هند، على أن ذلك لم يكن ليخفف شيئاً من قلق حماد.

— ١٨ —

صبر جميل

تركنا حماداً وسلمان وقد غلب عليهما اليأس في مكة بعد أن تكبدا مشقة السفر إليها ولم يظفرا بشيء مما أملاه من الحصول على

قرطي مارية المحفوظين في الكعبة، كما يؤسا من لقاء الأمير عبد الله أبي حماد.

وكان حماد كلما تصور فشله في مهمته اشتد به اليأس والحزن، وعظم عليه أن يعود إلى البلقاء في الشام صفر اليدين، فحدثه نفسه بأن يعتزل الناس ويأوي إلى دير يقضي فيه بقية حياته.

أما سلمان فإنه أدرك حال سيده حماد فثارت في نفسه عاطفة الشهامة، واعتزم أن يبذل أقصى جهده في تعزيته والترفيه عنه، فخرج من الغرفة صباح يوم متظاهراً بحاجة في نفسه وترك حماداً وحده، فلما خلا هذا إلى نفسه خرج من الغرفة وصعد إلى سطح الخان وقد ضاق صدره وصغرت نفسه، وكان السطح تظللله خيمة من ورق الشجر فجلس على وسادة وأخذ ينظر إلى مكة وما يحيط بها، فإذا هي أرض منبسطة في واد تحف به الجبال، فلم تشغله تلك المناظر إلا قليلاً وعاد إلى هواجسه فتذكر حبيبته وأباه، وتصور ما تراكم عليه من الهموم مما ألم به من الفشل وقد قطع البراري والقفار حتى جاء للبحث عن قرطي مارية مهراً لخطيبته ومرضاة لوالديها فعلم من الشيخ الخزاعي أن العثور على القرطين مستحيل. وبعد أن كان على أمل من لقاء أبيه مع أبي سفيان في مكة يؤس من لقاءه، فتصور نفسه مغلول اليدين مقصوص الجناحين واشتد به اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيه، ثم تذكر أنه في غربة لا يجدر به الاستسلام لليأس فأمسك نفسه، ولكن اليأس غلب عليه فانقبض صدره واشتد به الهيام فأخذ ينجي هنداً قائلاً:

- آه منك يا هند، بل آه من هذا القلب الذي عصاني وأطاعك
ونعم ما فعل فإنك والله جديرة بحبه، ولكن أباك - آه من أبيك - فإنه
إنما أراد مستحيلاً فطلب مهر العنقاء أقرب منه منلاً، وكأني به لا

يرضائي له صهراً وعذره مقبول طالما كان نسبي مجهولاً. إن القرطين لم يوجدوا فأنت بعيدة المنال مني. آه يا هند. أأعود إليك بصفقة المغبون؟ وإذا عدت كذلك فماذا يكون رأيك في؟ لا ريب عندي أن أمر القرطين لا يهكم، فأنت لا ترضين أن أشقى في سبيل البحث عنهما إلا مجارة لوالديك. ولكن كيف أعود إليك يا هند صفر اليدين وكيف أقابل جبلة وماذا أقول له؟ لا لا لا... لن أعود إلى اللقاء على هذه الحال وقد فقدت أبي في بلاد لا أعرف فيها أليفاً. ومن يدريني أين هو؟ وأين النذر ووفاء النذر؟ يا ليتني قص شعري قبل أن أفقده فقد وعدني أنه متى وفى النذر وقص الشعر يطلعني على أمور تهمني وقد يكون لها شأن بزواجي، فأين أبي الآن؟ آه يا أبتاه! أين أنت؟ ألا تزال على قيد الحياة؟ من يعلمني أين مقرك فأطير إليك مسرعاً. أما إذا يئست منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة مأرب، فأما أن ألتجأ إلى دير أو صومعة أقضي بقية الحياة وحيداً لا أرى أنيساً أو أن ألقى نفسي في تهلكة... ولكن لا لا، إن قتل النفس ضعف ومذلة، وكيف أفعل ذلك ونفسي رهينة أمر هند، وهند لا تريد قتلها؟.. إذن لأصبرن صبر الرجال وأعيد الكرة في البحث عن القرطين فإذا تيقنت فقدتهما عمدت إلى هند وبسطت لها أمري وأطلعتها على ضميري، فإذا رأيتها تؤثر مرضاة والديها وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيا ومن فيها السلام، وإلا فإني أرضى من الدنيا برضاها فتعاقد وتراضى على أمر يكون لنا فيه منجاة من والديها... وأما أبي.. آه أين أنت يا أبتاه؟ إن ضياعك عرقل مساعي وغل يدي، ولا ريب أنك لو شاركتني في هذا الأمر لسهلت كل صعب وهديتني صراطاً مستقيماً. ولكن الأقدار أبت إلا معاندتي فصبراً جميلاً.

مرت كل هذه الخيالات في ذهن حماد وهو متكئ على الوسادة تارة يبكي وطوراً يحرق أسنانه وآونة يصبر نفسه، وكان لم ينم في الليل الماضي إلا قليلاً فغلب عليه التعب والملل والضجر فجاءه النعاس فأسلم له جفنيه.

مضى بعض النهار وحماد نائم كاليقظان فوق السطح وهو لم يذق طعاماً، حتى إذا كان العصر أفاق على صوت سلمان خادمه ففتح عينيه فرآه واقفاً عند رأسه يناديه وعلى وجهه أمارات البشر كأنه كشف أمراً جديداً، فانبسطت نفس حماد فهب من رقاده وجلس وقال له: «ما وراءك يا سلمان؟».

قال: «ما ورائي إلا الخير».

قال: «أرى على وجهك أمارات البشر، فهل اهتديت إلى طريق جديد يوصلنا إلى ساحة الفرج؟».

قال: «نعم يا سيدي أظنني توفقت إلى شيء من هذا القبيل».

قال: «قل ما هو؟».

قال: «خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد اعتزمت ألا أعود إليك إلا ببشرى خير، فسرت في أسواق مكة وأنا أتوسل إلى الله أن يلهمني رشداً وسداداً أو يهديني سبيلاً أخفف به اليأس عن مولاي. فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابه بغلة عليها سرج ثمين وإلى جانبها غلام، فحدثني نفسي أن أسأله عن صاحب البغلة فقال: (هو حسان بن ثابت شاعر الأنصار). فتذكرت أنني أعرف هذا الاسم، وكنت أسمع به عندما كنت في العراق، وكثيراً ما كان صاحبه يؤم الحيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان، وكثيراً ما كان يفد على ملوك بني غسان فيمتدح جبلة والحارث بن أبي شمر وغيرهما، فقلت في نفسي: (أظنني أصبت ضالتي فالرجل يجالس

أعظم ملوك العرب وربما كان له إلمام بأمر القرطين). فسألت الغلام عن حسان فقال: (إنه في البيت). فاستأذنت في الدخول عليه فأذن، ووجدته جالساً على وسادة في بعض زوايا الغرفة فتأملت به فإذا به قد تبدلت حاله حالاً أخرى فحناء الكبر وضعف بصره وشاب شعره واسترسلت لحيته، فبادرت إلى يده فقبلتها وحييته فرد التحية ورحب بي وأجلسني إلى جانبه وسألني عن أمري، فما زلت أدخل معه في حديث وأخرج من آخر حتى توصلت إلى أمر القرطين فسألته عما يعرفه من أمرهما، ففكر قليلاً ثم قال: (أظنني سمعت ذكرهما في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة). فقلت: (وكيف كان ذلك؟). فقال: (يغلب على ظني أن بعض تجار الفرس الذين يحملون الأقمشة الفارسية إلى مكة عاد منها ذات عام ومعه قرطاً مارية فعرضها على النعمان وأظنه اشتراها منه، فإذا صدق ظني كان القرطان الآن في خزانة الملك النعمان في الحيرة). فلما سمعت ذلك هرولت إليك مسرعاً لنسير إليه، فهل تسير معي؟).

قال: «نعم لا بد من المسير إني أرى في كلام الشاعر باباً للفرج، هلم بنا».

فنهض حماد وقد انبسطت نفسه وعادت إليه بعض الآمال وإن لم يكن في الخبر ما يدعو إلى الأمل، ولكن المرء إذا وقع في ضيق كان سريع التعلق بالأمل ولو كان أوهى من خيط العنكبوت. وأحس حماد بفراغ معدته فتناول شيئاً من التمر يسد به جوعه، وخرج مع سلمان ماشيين حتى أتيا بيت حسان فاستأذنا ودخلا، فتقدم أولاً سلمان فسلم وذكر اسم حماد لحسان وأنه سيده ومن أمراء العراق. فتقدم حماد وهَمَّ بتقبيل يدي الشيخ فمنعه ولكنه رفع نظره إليه وتفرس فيه كأنه يراجع في ذاكرته صورَ أمراء الحيرة لعله يعرف حماداً فتشابه عليه أمره

فسأله عن اسمه واسم عائلته .

فقال حماد : «إني حماد ابن الأمير عبد الله» .

فقال حسان : «لا أذكر رجلاً بهذا الاسم في بلاط النعمان ، أو لعلِّي نسيته فقد قتل النعمان رحمه الله غدرًا منذ أكثر من عشرين عاماً وتفرق أصدقاؤه . على أنني انقطعت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم أعد أقدمها ولا رأيت أحداً من أمرائها . سقى الله تلك الربوع وأعاد سلطة المناذرة فقد كانوا زينة الدولة الفارسية وبيت قصيدها ولا سيما النعمان بن المنذر رحمه الله ، وجازى الباغين عليه شراً» .

فقال حماد : «وهل كنت تفد عليه كثيراً؟» .

قال : «لم يكن يمضي العام قبل أن أزوره مراراً فأركب ناقتي من المدينة حتى آتي البلقاء فأدخل على جبلة بن الأيهم أو الحارث بن أبي شمر الغسانيين ، ثم أقصد إلى العراق فأدخل مجلس النعمان بن المنذر فيخلع عليّ الخلع ويأمر لي بالعطايا ، وهكذا كان يفعل الغسانيون أيضاً . ثم كان ما كان من أمر قتله فانقطعت عن العراق إلى البلقاء حتى ظهر الإسلام وأسلم أهل المدينة فكنت ممن تشرف بالإسلام ولازمت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسير معه أو ألحق به حيثما أقام . وقد عاد الآن بجيشه إلى المدينة ولا ألبث أن أتبعه عاجلاً» .

فقال سلمان : «ذكرت يا مولاي أن القرطين بيعا للملك النعمان فماذا تم في شأنهما بعد موته؟» . قال : «لا أدري ربما كانا في جملة ما استولى عليه قاتلوه من التحف ، فإذا أصبح الظن كان القرطان في خزانة ملوك الحيرة الآن» .

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لا تتحولان عن وجه حماد وهو يتفرسه ويلاحظ حركاته كأنه يعرف له شياً وحامد غافل عن

ذلك بما كان غارقاً فيه من الهواجس بعد أن سمع من أمر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولهما إلى خزانة ملوك الحيرة، ولكنه عزم على البحث عنهما ما استطاع إلى البحث سيلاً.

وبعد قليل همّ حماد بالخروج فسأله حسان: «أين تقصدون؟».

فقال سلمان: «إلى منزلنا لنتهيأ للخروج في الغد».

قال: «هل تريدون الذهاب إلى المدينة؟».

قال: «ربما مررنا بها في طريقنا إلى البلقاء».

قال: «أرى أنكما غريبان قد يعسر عليكما المسير منفردين، وقد آنست فيكما عنصراً كريماً، فهل تقبلان مرافقتي إلى المدينة تقيمان بها ريثما تشخصان إلى البلقاء وربما أرفقتكما بمن يوصلكما إليها».

فنهض سلمان وأثنى على حسان ثناء طيباً وقال: «إننا نشكر لفضل الشاعر شكراً جزيلاً، ولا نعد ذلك منه إلا كرمًا ومنة عرف بها عرب الحجاز منذ القدم».

قال: «عفوًا يا أخا لحم، إني لا أجود إلا بمال المناذرة، ولا أرتع إلا في بجوحة خيرهم، ولا أنكر فضل العراق عليّ وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء، وذلك أمر مشهور لا يجله أحد فكيف بأهله، فإذا شئتما المسير إلى منزلكما الليلة فأعدا أمتعتكما، وإني مرسل معكما من يحملها إلينا فبيت الليلة هنا ونصبح مسافرين إن شاء الله».

بات حماد وسلمان ليلتهما في منزل حسان، وأصبحوا جميعاً يبعثون المدينة وحسان يطرفهم أثناء الطريق بلطائف منظوماته في مدح ملوك الحيرة وفتاة غسان، وحماد يستزيده مما نظمته في جيلة بن الأيهم

ويطرب لكل بيت يسمعه. ولم يكن ذلك إلا ليزيد أشجانه ويذكره بخطيبته، ثم تذكر ثعلبة وأباه الحارث بن أبي شمر فقال لحسان: «وكيف رأيت الحارث بن أبي شمر؟».

قال: «رأيت كريماً محباً للشعراء، ولكنه كان حاسداً لجيلة فكنت إذا مدحت جيلة في حضرته ظهر الحسد على وجهه مع ما كان يحاول إخفائه من عواطفه».

فتحقق حماد أن ثعلبة إنما ورث ذلك الخلق عن أبيه، وزاد عليه اللؤم والخساسة. ولما تذكر ذلك غلب عليه الانقباض وأوجس خيفة على هند من غدره أثناء غيابه، وأدرك سلمان منه ذلك فأراد إخفاء الأمر على حسان فقال: «وكيف رأيت جيلة؟».

قال: «رأيت شهماً عزيز النفس كريم الخلق، كثيراً ما عرضت بحسد الحارث أمامه وهو لا يبالي ويلتمس له عذراً ويغالطني متجاهلاً فكنت أزداد إعجاباً به».

فقال سلمان: «وأي الملكين أشد بطشاً الآن؟».

قال: «إن جيلة أرفع مقاماً وأعز جانباً، ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء أنبأنا بوفاة الحارث».

فبغت سلمان وأفاق حماد من قلقه. فقال سلمان: «وهل تحققتم وفاته؟».

قال: «نعم فقد نقله إلينا بعض الذين أرسلناهم لتجسس أحوال الروم بعد وقعة مؤتة».

فالتفت سلمان إلى حماد فرآه يبتسم ولكن البغته ما زالت ظاهرة على وجهه، فأشار إليه إشارة فهم حماد منها أنه يهنته بانكسار شوكة ثعلبة ولكنه تحوّل إلى حسان وقال له: «وما ظنك بمن يرث الإمارة

بعده؟».

قال: «لا أظن أحداً من أهله أهلاً لهذه الإمارة، والأرجح أن تجتمع كلمة قبائل غسان تحت لواء جيلة بن الأيهم».

فانشرح صدر حماد، ولكن أمر القرطين بقي حاجزاً بينه وبين كل سرور.

وساروا حتى أتوا المدينة صباحاً فوجدوا أهلها في فرح وعز لما نالوه من النصر بفتح مكة، ورأوا الناس عكوفاً على الصلاة. وما زالوا سائرين حتى أناخوا جمالهم أمام منزل حسان، فهتم الخدم بحمل الأمتعة إلى المنزل وأخذوا الجمال إلى العلف، ونزل سلمان وحماد وقد أعجبا بما آنساه من عكوف المسلمين على الصلاة وما رأوا من خشوعهم وتدينهم فضلاً عما شاهدوه من بسالتهم في فتحهم مكة.

أما حسان فلم يكد يصل إلى منزله حتى طلب الراحة من وعثاء السفر لشيخوخته وعجزه، فدعا ضيفيه إليه فجلسا متأدبين فقال لهما: «تذكرت أمراً أظنه يهكمما كثيراً وقد فاتني ذكره لكما قبل الآن».

قال سلمان: «وماذا عسى أن يكون؟».

قال: «ذكرت لكما وقعة مؤتة وأظنكما لم تفهما ما هي».

قال سلمان: «كلا يا سيدي لم نفهم المراد».

قال: «كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أرسل جنداً من المسلمين لحرب الغسانيين في العام الماضي فسار الجند وحاربهم في مكان يُقال له مؤتة بالقرب من بصرى، وستسمعون خبر هذه الواقعة الآن، ولكنني أردت أن أوجه التفاتكم إلى رجل أسره جندنا أثناء تلك الحملة وقد حملوه إلينا، فلما رأيته معهم عرفت أنه أسر ظملاً،

ولما سألته عن خبره علمت أنه ليس من أهل البلقاء بل هو عراقي من أهل الحيرة ذكر أنه كان يراني أثناء وفودي على الملك النعمان منذ أكثر من عشرين عاماً. وبما أنكم من أهل العراق فربما استأنستم بالرجل، والوطن أحسن جامعة بين الناس». قال ذلك ونادى رجلاً واقفاً بالباب فحضر فقال له ادع ضيفنا العراقي.

قال: «لبيك». وخرج ثم عاد يتبعه رجل كهل ملتف بعباءة مقطب الوجه. وكان حماد وسلمان لا يزالان متخمرين بخمار السفر فحالما وقع نظر سلمان على ذلك الرجل أحس بخفقان قلبه كأنه آنس فيه شيئاً لسيدة عبد الله، ولكنه رأى في سحنته ملامح تخالف ما لعبد الله أهمها أن عبد الله كان طويل الشاربين مستدقهما مسترسل شعر اللحية مع خفة، أما هذا فقصير الشاربين واللحية. على أن سلمان ما زال ينظر إليه ويتأمله حتى دنا فوقف له وهم بمصافحته فلم يكذبوه بأول كلمة حتى تحقق سلمان أنه هو سيده بعينه فهم به وقبله وناداه باسمه.

وكان حماد في شغل من هواجسه في هند والقرطين وأبيه، فلم ينتبه إلا وسلمان ينادي بأعلى صوته: «مولاي الأمير؟! أهلاً بمولاي الأمير!». فالتفت حماد فإذا هو أمام أبيه عبد الله، فنهض كما نهض سلمان وهم عبد الله بحماد فضمه وجعل يقبله ودموع الفرح تتساقط على وجهه وسلمان يقبل يد عبد الله ويهتئهما كليهما، فانبسخت وجوه الجميع وزالت منها العبوسة، وجلسوا وعبد الله بجانب حماد قابضاً على يده بين يديه وحسان جالس إلى جانبه وقد عجب لما رآه وسمعه، فسألهم عن أمرهم فحكى له عبد الله هذا الاتفاق الغريب. ثم جلسوا يتحدثون فقال سلمان: «لقد رأيت في وجه مولاي تغيراً كاد يحول بيني وبين معرفته فإني أعهد شعر وجه

طويلاً مسترسلاً فما لي أراه قصيراً؟».

فضحك عبد الله وقال: «إن لهذا التغيير حديثاً غريباً سأقصه عليك بعد أن أسمع حديثكم وما كان من أمر الأسد وضياع الفرس».

— ١٩ —

وقعة مؤتة

قصّ سلمان حكايته مع حماد والأسد وكيف نجوا منه بتسلق الشجرة وما وقع بعد ذلك من حديث هند وأبيها وحب حماد لها، ثم ما كان من خطبة حماد وما اقترحه عليه جيلة بن الأيهم مهراً لابنته وما لاقاه حماد في سبيل ذلك من الأسفار والأخطار حتى جاء مكة وشهدا فتحها، وكيف يئسا من وجود القرطين هناك حتى تجدد الأمل بما علما من أنهما في خزانة النعمان بن المنذر في الحيرة.

وكان عبد الله في أثناء الحديث مصغياً صامتاً وأمارات الاستغراب ظاهرة في وجهه كأنه سمع أموراً لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها، ولكنه سكت وأخذ يقص عليهم حديثه فبدأ بوقوعه بالأسر في غسام ثم مسيره إلى بيت المقدس، ومقابلته هرقل امبراطور الروم، وما سمعه من حديث أبي سفيان ثم سفره معه ومشاهدته الفرس واستدلاله منه على فقد حماد، وكيف رافقه أبو سفيان في مسيرة الزرقاء للتفتيش عن حماد وما شاهدوه من عظام الفرس الآخر وبعض الآثار، حتى انتهى إلى مسيره منفرداً إلى عمان ووقعه أسيراً بين يدي الحجازيين الذين ساروا لمحاربة أهل الشام وما دار بينه وبين بعضهم عن سبب تلك الحملة إلى أن قال: «فلبث أسيراً عندهم وأنا على مثل الجمر لأن أملي لم ينقطع من لقاء حماد، على أي كنت في بعض الأحيان لا أرتاب في فقدته وأحياناً أراجع ما شاهدته من الأدلة

على ذلك فلا أرى ما يقطع بوقوع القضاء، فكان سجنني في معسكر الحجازيين قيداً ثقيلاً عليّ، فبعد أن قضيت زمناً بجوار عمان علمت ذات يوم أن الروم قد جندوا جنداً كبيراً يبلغ عدده نحو مائتي ألف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ولخم وخدام وبهراء. فلما علم المسلمون بذلك خافوا الفشل لأن عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف ناهيك بما في جند الروم من العدة والسلاح. ثم اجتمع جند المسلمين في خيمة ابن روحة أحد أمرائهم وتشاوروا في الأمر فقال أكثرهم: (نكتب إلى رسول الله في المدينة نخبره الخبر، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له). فقام فيهم ابن روحة وخطب خطاباً أنهض همهم فقال: (يا قوم والله إن التي تكرهون لهي التي خرجتم لها تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا إنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة). فقال الناس: (والله صدق ابن روحة). واشتدت عزائمهم وصمموا على الحرب، وكنت أعجب لبسالتهم وإقدامهم واتحاد كلمتهم وتفانيهم في سبيل نصره دينهم.

«وبعد أيام سار الجند، وسرت أنا فيهم مخفوراً أرى كل حركاتهم وسكناتهم، فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على مرحلتين من بيت المقدس يُقال لها مؤتة، وكان جند الروم قد عسكر هناك، فالتفت إلى ذلك الجند فإذا هو مألئ السهل هناك وفيهم الفرسان والمشاة، ورأيت في وسط المشاة رجالاً عليهم ملابس كثيرة الألوان تُبهر النظر تتلألأ في ضوء الشمس، فلم أكن أظن الحجازيين ينظرون إلى ذلك الجند حتى يعودوا القهقري وجللاً ومهابة، ولكن رأيت فيهم ثباتاً لم أر مثله في أسفاري كلها، وما ذلك إلا لوثوقهم

بربهم وعدم مبالاتهم الموت في سبيل نصرة دينهم .

«وخلاصة القول أن المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثة من الأمراء وساروا أمامهم مشاة على أقدامهم حتى التقى الجيشان وانتشبت الحرب، وكان اللواء أولاً بيد زيد بن حارثة فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ولكنه ظل مكافحاً حتى قتل طعناً بالرماح، فتقدم الأمير الثاني وهو جعفر بن أبي طالب، فقاتل وهو على فرس شقراء فألجمها القتال وأحيط بها فتزل عنها جعفر وبقرها وقاتل حتى قُتل، فأخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسه ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قُتل فوق الرعب في قلوب المسلمين وكادوا يفشلون لو لم يقم فيهم رجل لم أر مثله بأسلاً اسمه خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميه سيف الله، فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة فظن الروم أن نجدة جاءت للمسلمين، فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً. ولكنهم لم يبقوا على الحرب فعاد المسلمون يريدون المدينة، وكنت أنا في أثناء هذه الواقعة في حيرة شديدة ولو كانت الحياة عزيزة عليّ لفرت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحرب ولكنني وددت أن أصاب بنبله أقتل بها فلم يقض الله بذلك . فلما عاد المسلمون إلى هنا عدت معهم أسيراً فأصابني في الطريق انحراف صحي فأصبحت وشعر لحيتي يتساقط وكذلك شعر شاربي حتى لم يبق منه إلا القليل، والتقيت بشاعرنا (وأشار إلى حسان) فتعارفنا ودعاني للإقامة بداره فأقمت عنده كما ترون. وفي أثناء ذهاب الجند لفتح مكة زارني الحارث بن كلدة طبيب العرب فوصف لي دهناً من عشب فأخذ الشعر ينمو وأرجو أن يعود إلى ما كان عليه» .

فلما أتم عبد الله حديثه هنا بعضهم بعضاً ثم قال حماد: «وأين

جوادي الآن؟».

قال: «هو معي هنا فهل تريد أن تراه؟».

قال: «نعم». وخرجوا إلى بستان بالقرب من المنزل، وكان الجواد مشدوداً إلى نخلة به فلما وقع نظره على صاحبه أخذ في الصهيل كأنه يرحب بقدومه. وتقدم حماد إليه فلمس جبهته وقبله بين عينيه، ثم عادوا جميعاً والفرح ملء قلوبهم إلا حماداً فإنه عاد إلى تفكيره في هند وأبيها والقرطين، فلما وصلوا إلى المنزل وجلسوا نظر عبد الله إلى حماد وقال له: «ألا تزال مصمماً على الاقتران بهند؟».

قال: «نعم يا أبتاه ولا أظنني قادراً على نسيانها بعد أن كان ما كان».

قال: «وهل نسيت نذرنا لدير بحيراء؟ لنقص شعرك فيه يوم الشعانين؟».

قال: «وما شأن هذا بمسألة الاقتران؟».

قال: «إن له دخلاً كبيراً فيها لأنني سأقص عليك في ذلك اليوم أموراً ذات بال لها علاقة كبرى بأمر الزواج».

فخاف حماد أن يكون هناك ما يحول بينه وبين هند فقال: «وهل في السر ما يمنعني من هند؟».

قال: «لا أقدر على التصريح بشيء من ذلك الآن، ولكن أحد الشعانين يكشف لك كل شيء».

فقال: «إن يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا تقديم الموعد؟».

قال: «كلا يا ولدي بل يجب علينا إتمام النذر كما هو». فوقع حماد في حيرة وأوجس خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينه وبين هند، فودَّ أن يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف

يتصرف، وكان عازماً على الحيرة للبحث عن القرطين، ويظن أن أباه سيكون أكبر عوناً له على ذلك لكثرة أصدقائه هناك فأصبح بعدما سمعه منه لا يستطيع مكاشفته بالأمر إذ صرح بأنه لا يخطو خطوة في سبيل الاقتران قبل يوم الشعانين، فصمت برهة يفكر في الأمر، فخطر له أن يستطلع رأي سلمان على حدة لعله يكون عالماً بشيء من ذلك السر.

فلما كان المساء خلا إلى سلمان وسأله عما يعلمه من أمر يوم الشعانين، فقال له: «إن سر ذلك اليوم مكتوم عن كل الناس، وقد قضيت مع سيدي أبيك أعواماً منذ كنت طفلاً حتى صرت شاباً وأنا أسمع أنه نذر قص شعرك في دير بحيراء عندما تبلغ هذه السن وأنه سيطلقك في ذلك اليوم على أمور تهلك كثيراً ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك. وأعترف لك بأني بذلت قصارى جهدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم أوفق، وتراني أكثر رغبة منك في معرفته فما لنا إلا الانتظار إلى يوم الشعانين».

فقال: «وكيف أقضي هذه الأيام؟ وماذا يكون شأن هند؟ هل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة، وقد تركتها على موعد من اللقاء فمضت سنة منذ تركتها ولم أفعل شيئاً مما تعهدت لها به، ولم نقف للقرطين على أثر ولا أرى أن أعود إليها إلا والقرطان في يدي، وكان الأمل معقوداً بالبحث عنهما في العراق ولا نستطيع ذلك إلا بمساعدة أبي، وقد سمعت قوله فكيف أقضي هذه المدة وأنا بعيد عن هند، أظنها لا تزال على عهدي؟».

قال سلمان: «أما ما عرفته من حبها لك وثباتها في حبك فلا يترك محلاً للشك في بقائها على عهدك وإنها لا يمكن أن تتحول عنك يمنة ولا يسرة. ولكنني أرى أن تكتب إليها كتاباً أو تنفذ إليها رسولاً

تبثها ما عندك وتستملها في إنفاذ المهمة التي أنت سائر بشأنها وتطلب منها جواباً، ومن جوابها تفهم ما يكتنه ضميرها».

فقال حماد: «وهل تظن أن أبي يبقى هنا إلى يوم الشعانين؟».

قال: «لا أظنه يميل إلى البقاء لأن أهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب إما لغزو أو دفع مهاجم ولا وطر لنا في ذلك. فالغالب أنه يفضل الذهاب إلى بصرى يقيم فيها بقية هذا العام».

قال: «إذا كنا ذاهبين إلى بصرى فليس ثم حاجة إلى المخاطبة لأني ألقاها هناك وأجتمع بوالديها وأروي لهما ما وقع فما عليك إلا إقناع أبي بالذهاب إلى البقاء».

قال: «حسناً ولكنك إذا أردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من أبيك».

قال: «ننظر في ذلك». ثم افترقا وأخذ سلمان في تحريض مولاه عبد الله على الخروج من المدينة والإقامة بقية ذلك العام بالبقاء ولا سيما أن الحارث قد مات وخرج النفوذ من بين يدي ابنه ثعلبة.

فوافق عبد الله على ذلك، وقضوا بضعة أيام في المدينة يشاهدون ما أحدثه المسلمون فيها من الأبينة وأحسنها المسجد الجامع، على أنهم كانوا يشاهدون في كل يوم شيئاً جديداً من الإعدادات الحربية للغزو أو غيره مما زادهم تهيئاً لجند المسلمين وحسبوا المستقبل دولتهم حساباً كبيراً.

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير وودعوا حساناً، فأرفقهم بدليل، وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أبصروا بصرى فتشاوروا في مكان ينزلون فيه فاتفق رأيهم على الإقامة بدير بحيراء فاتخذوا فيه غرفة أقاموا بها.

أما حماد فإن عودته إلى ذلك الدير أذكرته أموراً هاجت أشجانه فتذكر اجتماعه بهند هناك لأول مرة وما كان من مجيء ثعلبة بغتة إلى آخر ما حدث له. ثم عزم على المسير إلى جيلة للسلام عليه ثم إلى صرح الغدير لملاقاة هند وبثها ما في ضميره وما بلغت إليه مهمته وما يرجوه من العثور على القرطين في العراق، ولكنه كان كلما تصور وقوفه أمامها موقف المعتذر أو المستمهل اشمأزت نفسه وعسر عليه ذلك الموقف.

— ٢٠ —

في صرح الغدير

فلترك حماداً ووالده وسلمان ولنعد إلى صرح الغدير لنرى ماذا جرى لهند بعد سفر حماد، وكانت قد ودعته يوم سفره وقلبها واجف عليه لعلمها أنه سار في تلك المهمة والخطر ظاهر فيها، ولكن ثقتها بشجاعته وتعقله هونت عليها الأمر لأول وهلة ثم اشتغلت عنه بالاضطرابات والمخاوف أثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابه خوفاً عليه أن يُصاب بسوء إذا تعرض لسهام الحجازيين.

فلما انقضت الحرب وعادت البلقاء إلى السكينة عادت هي إلى الاضطراب واستبطأت حماداً لأنها كانت تتوقع رسالة منه أو خبراً عنه، فلما طال الأمد ولم تسمع عنه شيئاً انقبضت نفسها واستولت عليها المخاوف.

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها وقد أدركت ما بها فأخذت تشاغلها بالآمال وتواسيها بالوعود وهي لا يهدأ لها بال ولا ترتاح إلى حديث. على أنها كانت تعلل نفسها بالذهاب إلى دير بحيراء أيام مرور قوافل الحجاز به لعلها تسمع من أحد حديثاً يطمئنها. وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح إلى كل قادم من الحجاز ولا

سيما الذين يقدمون من مكة، ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اختلج قلبها واضطربت جوارحها وهي مع ذلك لا يهدأ لها بال إلا بالسؤال عنها والبحث عن أخبارها، حتى التقت يوماً بقافلة قادمة من مكة فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين إليها عنوة وقتل بعض أهلها، فارتعدت فرائصها وتصورت حماداً في تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين، فازداد بلبالها وودت لو أنها تطير إلى الحجاز فتري ما تم لحبيبها.

ثم رأت أن ترددها إلى الدير واستماع تلك الأحاديث لا يزيدها إلا قلقاً فانقطعت عنه وانزوت في صرح الغدير لا ترى أحداً ولا تسمع خبراً مخافة أن يكون فيما تسمعه نبأ يسوؤها. ثم سمعت بموت الحارث بن أبي شمر فأحست بارتياح لعلمها أن موته يقلل من نفوذ ابنه لدى أبيها. على أن ذلك لم يزد شيئاً من أسباب سعادتها فالفهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكو همها إليه غير والدتها، لكنها كانت تخاف مخاطبتها في هذا الشأن لئلا تسمع منها ما يزيدها يأساً ففضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزدد إلا نحولاً وانقباضاً وميلاً إلى الخلوة.

وكانت كلما خلت إلى نفسها نظرت إلى الأساور في يدها وجعلت تقلبها وتنسم منها رائحة حماد، فإذا اشتد بها الهيام بكت وتحرق وتنفست على والديها لأنهما أبعدا حماداً عنها، وخيل لها أنهما إنما أرسلاه إلى تلك الأصقاع للتخلص منه. وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى أصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تنفر من مجالسة والدتها وتسيء الظن بها فلم يزيدها ذلك إلا رغبة في الخلوة والانقطاع عن الناس.

وأما والدتها فقد كانت لنباهتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر

يمر في ذهن ابنتها، وكانت تعذرها على ذلك لأنها شعرت هي أيضاً بارتكابها أمراً قبيحاً بإرسال حماد في مهمة خطيرة إلى هذا الحد. وقد زاد في ندمها خبر وفاة الحارث بن أبي شمر وضعف نفوذ ثعلبة مع كره هند له، فتحققت عند ذلك أن هنداً يستحيل عليها الاقتران به، إذ أصبح بعد موت أبيه وضع المنزل ولم يعد جبلة يخشى بطشه لو ردّ طلبه.

فأصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فطيع ارتكبته إزاء ابنتها فحرمتها شهماً يحبها وتحبه، وصارت هي أكثر رغبة من هند في عودة حماد، وصممت على مساعدته إذا عاد ولو خائباً في الحصول عليها. على أنها لم تكن تستحسن مخاطبة هند في هذا الشأن لثلا توطد آمالها ثم قد لا يعود حماد من الحجاز فيكون ذلك سبباً في زيادة أحزانها فصبرت لترى ما يأتي به القدر ولكنها ما برحت تتنسم الأخبار لعلها تسمع جديداً.

أما جبلة فقد كان في البقاء مشتغلاً عن هذه الأمور بما كان من الحرب في مؤتة، فلما رجع المسلمون وتوفي الحارث زاد اشتغاله وعظم اهتمامه بضم قبائل العرب في الشام والبلقاء إليه، لأن العرب المنتصرة هناك قبائل وبطون لكل منها راية وأمير، وكانت في زمن الحارث منقسمة إلى فئتين: إحداهما تابعة للحارث والأخرى لجبلة، فلما توفي الحارث اشتغل جبلة بضم بعض قبائل الحارث إليه إن لم يكن كلها، ولم يطمع في ذلك إلا لعلمه بضعف ثعلبة عن القيام بما قام به أبوه قبله، ولاعتقاده أن أمراء القبائل أنفسهم يكرهون ثعلبة لدنائه وشراسة أخلاقه. فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة، وأحس هذا بضعفه وخاف العاقبة لكن سوء خلقه لم يهده إلى سبيل يسترضي به عمه فأخذ يطعن فيه أمام الأمراء يريد تحقيره في أعينهم

فلم يحتقروا إلا ثعلبة. وبلغ ذلك جبلة فازداد سعيه حتى أخرج كل العرب الغساسنة من حوزة ثعلبة ولم يترك منهم إلا شردمة قليلة. فازداد ثعلبة لؤماً وسفاهة وأخذ يطعن في جبلة وابنته وسائر أهل بيته، فندم جبلة لما وقع منه في حق حماد وأسف لإنفاذه في تلك المهمة الخطرة، ولم يزد مع الزمان إلا ندماً ولكنه كتم ندمه ينتظر ما يجيء به القدر، على أنه اعتزم في سره أن يكفر عما ارتكبه في حق حماد بأن يزوجه بابنته سواء أعاد بالقرطين أم لا، لما في ذلك من النكاية بثعلبة.

وما زالت هذه حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبراً فترجع لديها أنه إما قتل أو فشل وشق عليه الرجوع خائباً فهاجر إلى مكان بعيد، أو لعله فتك بنفسه فراراً من أثقال الفشل وتخلصاً من عذاب الحب. فتراكت عليها الهموم، وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالدتها تسارقها اللحظ وتغتتم فرصة لتخاطبها وهي تتجاهل وتبتعد، فلما سدل الليل نقابه دخلت إلى غرفتها وأوصدت الباب وراءها وجلست إلى النافذة المطلة على الحديقة وألقت جنبها على وسادة وجعلت رأسها على كفها، وكانت الليلة مقمرة والجو صافياً والبدر عند أول بزوغه من وراء التلال وقد أرسل أشعته على الأودية والجبال. فأخذت تتأمل فيما أحدثه من الظلال الطويلة على السهول والبساتين، ونظرت إلى حديقة القصر فرأت أشجارها متشاحجة تناطح السحاب لكن ظلالها أطول منها كثيراً وقد وقعت تلك الظلال على ما هنالك من أغراس الريحان وغيره من أنواع العطريات فحجبتها عن البصر ولكنها لم تحجب رائحتها فتضوع القصر منها. وقد هدأت الطبيعة وأوت الطيور إلى أوكارها وسكنت الرياح فلم تسمع إلا خرير ماء الغدير في وسط

البستان ونقيق الضفادع. ونظرت إلى ضفاف ذلك الغدير فرأت أشجار الحور مرتبة صفوفاً كأنها عذارى جئن للاستقاء فهالهن سكون الطبيعة فبهتن ووقفن على ضفاف الغدير صامتات.

ثم ما لبث القمر أن ارتفع وظهر وجهه واضحاً فاستقبلته هند وجعلت تتأمله فأحست بارتياح إلى منظره، فتذكرت ارتياحها إلى رؤية حبیبها فاختلج قلبها فعادت إلى الانقباض فأرسلت نظرها إلى القمر لعلها تستريح ذلك الارتياح فامتنع عليها.

ولكنها ما لبثت أن تأملت وجه القمر حتى ترقرت الدموع في عينها وأخذت تخاطبه قائلة: «أمشرق أنت على منازل مكة وجبالها الآن؟ وهل حبیبي هناك ينظر إليك ويستقبلك بوجهه، ليته يفعل فتلتقي طرفانا عندك فنجتمع على بعد الدار».

إلى الطائر النسر انظري كل ليلة فإني إليه في العشية ناظر عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده فتشكو إليه ما تكن الضمائر «نعم إني أرى على وجهك صورة كأنها ظل وجهه فهل يرى هو مثل ذلك أيضاً».

ثم عادت إلى البكاء فأطلقت لعينها عنان الدموع ولم تتمالك عن الشهيق وهي تظن نفسها وحدها لا يسمعها أحدٌ ولكنها ما لبثت أن سمعت قارعاً يقرع الباب فعلمت أن أمها سمعت صوت بكائها فجاءت لتعزيتها، فودت هند البقاء في خلوتها فتظاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب. فقرعته أمها ثانية وألحت عليها أن تفتحه فمسحت جفونها ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة. فدخلت سعدى وهمت بهند وضممتها وجعلت تقبلها وتنظر إلى وجهها لتتحقق بكاءها وهند صامتة مطرقة لا تُبدي حراكاً فقالت سعدى: «ما بالك يا هند. ما الذي يبكيك؟

لماذا لا تشكين إليّ همك. أأست أمك، ألا تعلمني أني أحبك؟».

فلبث هند صامته ولكنها نظرت إلى أمها بطرف عينها كالمعابة ولم تفه بكلمة، ففهمت سعدى أنها تعاتبها على ما ارتكبته في شأن حماد ولكنها أرادت مغالطتها فأخذتها بيدها إلى السرير وأجلستها بجانبها وقالت: «ما بالك لا تجيبيني يا هند، أتكتمين عني شيئاً؟ ألم أكن خزانة أسرارك. قولي ما يبكيك؟».

فظرت هند إليها، وكان ضوء القمر واقعاً على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ وهي ساقطة من عينها فانفطر لها قلبها وهمت بها ثانية وضمتها وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع، فحولت هند وجهها نحو النافذة وتنهدت وهي تنظر إلى القمر وضيائه على السهول والجبال.

فنهضت سعدى ووقفت بينها وبين النافذة وقالت لها: «قولي يا هند ما الذي يبكيك، لقد قطعت نياط قلبي ولم يعد لي صبر على بكائك ألا تعرفين قلب الأم؟».

فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة ولكن أمها اعترضت طريقها وأمسكت بيدها ثم وقفت وقفة من ينتظر جواباً، فنظرت هند إليها شزراً وقالت: «نعم يا أماه إني أعرف قلب الأم، ولكن الأم لا تعرف قلب ابنتها».

فتحققت سعدى مرادها وقالت: «ومن قال لك يا هند إني لا أعرف قلبك؟».

فقالت: «لو عرفت قلبي ما سببت له هذا الشقاء لأنني أعرف حنوك».

قالت: «كيف لا أعرف قلبك وقد كشفت لي غوامض

أسرارها» .

قالت : «إذن عرفت حاله ولم تشفقي عليه ، سامحك الله وسامح أبي» . وشرقت بدموعها .

فابتدرتها سعدى بإظهار الاستغراب وقالت : «كيف تقولين ذلك يا هند؟ كيف لم نشفق على قلبك وكل ما حصل إنما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيه من الفخر لك» .

فهزت هند رأسها وهمت بالجواب ثم سكنت ، فأتمت أمها الكلام فقالت : «ومع ذلك فإن الأحوال قد تغيرت بموت الحارث وإذلال ثعلبة ، فسواء أ جاء حماد بالقرطين أم لم يجيء بهما فليس ثم من يقف في سبيله» .

فلما سمعت هند اسم ثعلبة ارتعشت أطرافها وقالت : «آه يا أماه لقد فُضي الأمر . أين حماد الآن؟ . آه أين هو؟ لقد انقضى عام منذ سار إلى مكة ولم نسمع عنه شيئاً» . ثم حولت وجهها نحو النافذة وقالت وهي تبكي : «آه يا حماد آه! . سامح الله من كان سبباً في بعادك . إبيكي يا أماه على هند ، إبيكيها وارثيها ولا يتعب ضميرك أو تندمي على ما حدث لي وله على يدك ويد أبي ، إنما هي الأقدار قد كتبت علينا هذا الشقاء!» . ثم قالت وقد غلب عليها الشهيق وعلا صوتها : «آه يا حماد! . حبيبي أين أنت الآن؟ وعلى الأرض أنت أم في السماء؟ من لي بمن يخبرني بمكانك لكي أطير إليك فأما أن أعيش بقربك أو أدفن تحت قدميك فقد كفاني ما سببته لك من الشقاء وما جزاء عملي هذا غير الموت!» .

قالت ذلك ورمت نفسها على السرير وأمها لا تزال ممسكة بيدها تحاول تلطيف ما بها . فلما ألقت نفسها خافت سعدى أن يغمر عليها فبادرت إلى الماء لترشها به وأمسكتها بيدها وجعلت تخاطبها

وقلبها يتقطع، ولولا اشتغالها بتعزيتها لكانت هي المغمى عليها لا محالة ولكن اشتغال الإنسان بمن يحبه ينسيه نفسه. فهمت بها وخاطبتها فتحققت أنها لم يغم عليها فحاولت إجلاسها وجعلت تقبلها وهند مشغلة بالبكاء والشهيق ويدها على وجهها.

فرأت سعدى أن تتركها هنيهة ريثما يهدأ روعها، فلبثت صامته مطرقة تفكر في أمرها حتى إذا آنست منها سكوناً وهدوءاً، جاءت بكأس من الماء وقدمتها إليها لتشرب، فشربت وهي مطرقة خجلاً لما ظهر من عواطفها رغم إرادتها. فابتدرتها أمها قائلة: «خففي عنك يا هند فإنك مثال التعقل والزناة».

فظنت هند أنها توبخها فقالت: «كفاني توبيخاً فقد علمت أنني أتيت أمراً يُعاب عليه أمثالي ولكن الكأس قد طفحت والأمر نفذ». قالت سعدى: «لم ينفذ شيء بعد يا هند إن حماداً نصيبك، وسواء أجا بالقرطين أم لا فإنه لك وأنت له».

فتنهدت هند وقالت: «هذا إذا قدر لنا أن نراه ولا أظنه إذا فشل في مهمته إلا ضارباً في بطن الأرض حتى لا يعود إلينا صفر اليدين!».

قالت: «تدبري الأمر بالصبر والحكمة واتكلي على الله إنه قادر على كل شيء وهلم بنا نتضرع إليه أن يعيده سالماً».

فتأملت هند في حديث أمها فترجع عندها أنها تقول الصدق، وسرها ما سمعت عن الرضا باقتران حماد بها سواء أجا بالقرطين أم لا، ولكنها أرادت أن تستطلع ما يكتنه أبوها فقالت لأُمها: «هبي أنك رضىت بذلك شفقة على صباي فهل يرضى أبي به؟».

قالت: «إن أباك أكثر رغبة مني في هذا ولا سيما بعد أن وقع

ما وقع بينه وبين ثعلبة الخائن من النفور على أثر وفاة الحارث فطبيبي نفساً وقرى عيناً واتكلي على الله ولنطلب إليه تعالى أن يحفظ لك خطيبك ويعيده إليك سالماً معافى وننسى متاعبنا».

فسكن روع هند وبعد هنيهة سارت إلى فراشها وسلّمت أمرها إلى الله.

أصبحت هند في اليوم التالي وقد عاودها الاكتئاب، فودّت أنها لم تستيقظ أو أنها تظل نائمة فلا تفيق إلا على صوت حماد، فلبثت في الفراش تلتبس النوم وأخذت تتقلب فيه عبثاً. فلما كان الضحى جاءت أمها تتفقدها، فلما رأتها في الفراش انشغل بالها واستطلعت السبب فشكت لها تكاسلها عن القيام، فجلست إلى جانبها تحدثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وأفكارها تائهة.

فلما كانت الظهيرة سمعت صوتاً خارج الصرح ينادي: «مَنْ نذر نذراً لنجران المبارك؟». فحفق قلب هند لذلك الصوت وهبت من فراشها بغتة، وبغتت أمها أيضاً لأنهما تنسما صوت سلمان، وتذكرتا قدومه إليهما قبلاً بشأن حماد، فهرولتا إلى النافذة فرأتا راهباً على مثلما رأتا سلمان قبلاً فتحققتا أنه هو بعينه، فخالت هند نفسها في منام لقدومه عليهما بغتة على غير انتظار، فناداته فتحول ودخل، فخرجت سعدى لاستقباله وظلت هند في الغرفة جالسة وركبتها ترتجفان من التأثير ولم تستطع الوقوف إلا بعد هنيهة وقد سمعت وقع أقدام الرجل مع أمها داخلين إلى القصر فوقفت لاستقبالهما. فوصل الرجل إلى باب غرفتها وحالما وقع نظرها عليه عرفته فعلتها البغته ولم تعد تعلم كيف تكلمه، فابتدرها هو بالسلام وتبسم وهمّ بتقبيل يديها فمنعته وصاحت: «ما وراءك يا سلمان؟». وكانت والدتها قد أغلقت الباب. فقال: «ما ورائي إلا الخير يا سيدي، كيف أنت؟».

قالت: «نحن في خير وكيف حماد وأين هو؟».

قال: «هو في خير، وقد تركته في دير بحيراء ينتظر أمرك ويدعو لك».

قالت: «هل هو في خير وعافية؟».

قال: «نعم يا مولاتي أنه في خير وقد التقى بأبيه في المدينة».

فخرّت هند إلى الأرض فقبلتها وقالت: «نحمد الله على سلامته». قالت ذلك وقد انبسط وجهها وأبرقت أسرتها.

فقالت سعدى لسلمان: «أين حماد، ولماذا لم يأت معك؟».

قال: «إنه بقي في الدير خجلاً من مقابلتكم».

قالت: «وما الذي يخجله؟ إننا لا نريد منه شيئاً غير سلامته».

قال: «والقرطان؟». قالت: «لا حاجة بنا إليهما فقد زال السبب الذي دعا إلى طلبهما».

قال: «إن أمر القرطين قد عاد علينا بالفشل فقطعنا الفياقي والقفار حتى أتينا الكعبة فلم نقف لهما على خبر». وروى لهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير إلى أن التقيا بعبد الله في المدينة وما عزموا عليه من البحث عن القرطين في العراق.

فقالت هند: «دعنا من الأقراط فقد أغنانا الله عنها».

فعجب لذلك التغيير وأراد أن يعلم إذا كان جبلة على رأيهما فقال: «وهل سيدي الملك جبلة في خير؟».

قالت سعدى: «نعم هو في خير ينتظر قدوم صهره حماد بفارغ الصبر».

فلما سمع قولها (صهره) زاد اطمئناناً فقال: «وهل هو أيضاً أغفل أمر القرطين؟».

قالت: «إنه لا يريد شيئاً غير سلامة ولدنا حماد فادعه إلينا لنراه».

قال: «إنه يودّ ذلك من صميم قلبه».

قالت: «فليأت في أقرب وقت، ولكننا نود مجيئه وجبلة هنا ليفرح بعودته، وليكن أبوه معه أيضاً ليتيم الفرح».

ففرح سلمان بهذه الأخبار، ولكن خاطراً مرّ بذهنه، فأسكته بغتة فسألته هند: «ما بالك يا سلمان؟ ما الذي أسكتك، هل هناك ما يمنع مجيء حماد؟».

قال: «كلا يا مولاتي إنه ينتظر هذا الاجتماع انتظار الظمان للماء الزلال، وهو إنما تحمّل الأخطار ومشاق الأسفار طمعاً في ذلك ولكنه...».

فبغتت هند وسعدى معاً وقالتا: «ما الذي يدعو إلى ترددك، قل يا سلمان لقد شغلت بالناس؟».

قال: «لا يخفى عليكما أن سيدي حماداً تشرف بخطبة سيدي هند وأبوه لا يعلم، ولما علم بذلك يوم اجتماعنا في المدينة سرّ كثيراً، ولكنه استمهل حماداً في إتمام هذا الأمر ريثما يأتي يوم الشعانين».

قالت سعدى: «وما علاقة يوم الشعانين بذلك؟».

قال: «لا علاقة له به إلا من حيث النذر، فقد علمتم أن سيدي حماداً منذور منذ ولادته أن يقصّ شعره في دير بحيراء على أن يكون ذلك اليوم يوم الشعانين بعد بلوغه الحادية والعشرين من عمره. فلما حل اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث مما تعلمانه ولم

يتمكن من الوفاء بالنذر، فلما عاد من هذا السفر ذكر له سيدي عبد الله أبوه أنه سيقص شعره في يوم الشعانين القادم أي بعد بضعة أشهر، وطلب إليه ألا يباشر عملاً مهماً قبل ذلك اليوم، لأنه سيطلعه على أمور تهمه، ولكنني لا أظن لها علاقة بهذا الأمر».

فلما سمعت هند ذلك الكلام استعازت بالله مما هو مخبأ لها في عالم الغيب، وقالت في نفسها: «لعل أماننا عراقيل أخرى غير التي انقضت».

فقال سعدى: «ولكن ذلك لا يمنع سيدك عن الحضور لتطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا بقاء بعضنا بعضاً، وقد أزيلت العقبات بموت الحارث وذهاب نفوذ ثعلبة».

فقال سلمان: «نحمد الله على نِعَمه ولا أقدر أن أصف لكم مقدار سرور مولاي حماد بهذه الأخبار، فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع بهما لأخبر سيدي».

قالت هند: «فليات حماد أولاً لنراه، ثم نعين يوماً يجتمع فيه الوالدان، لأننا نخشى إذا انتظرنا اجتماعهما أن يطول الأجل فإن أبي في البقاء ولا يستطيع المجيء إلا بعد بضعة أيام». وأرادت هند بذلك أن تجتمع بحماد على انفراد فتستوضح أمر النذر وعلاقته بالاقتران.

فقال سلمان: «سأذهب لأدعوه وأظنه يكون هنا في صباح الغد إن شاء الله».

فخرج وقد ندم على ما فرط منه من حديثه عن عبد الله، وعلم أنه أخطأ فيما ذكره في شأن النذر وخاف أن يشق ذلك على حماد فعول على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فأسرع حتى أتى الدير في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلمه أنه لا

يريد ذلك .

فلما وصل إلى الدير كان حماد في انتظاره فاستقبله وهو ينظر إلى وجهه لعله يقرأ على ملامحه ما يبشره فرآه يتسم ووجهه منبسّط فرحّب به وسأله عن الخبر فقال: «أبشر يا مولاي إن الله قد محّا كل شقاء كتب علينا، وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند» .

فقال: «وكيف هند؟ هل هي مسرورة برجوعي؟ وهل علمت أننا لم نعثر على القرطين، وماذا قالت؟» .

فضحك سلمان وقال: «إن القرطين لم يعد لهما دخل في أمر اقترانكما، فقد تغيّر وجه المسألة بموت الحارث بن أبي شمر» . وقص عليه الخبر إلى أن قال: «وإذا شئت الاقتران في صباح الغد تم ذلك لأن الفتاة وأبويها راضون بك ولا يريدون منك شيئاً وأما هند فأنت تعلم قلبها» .

قال: «وهل طلبت مواجعتي؟» .

قال: «كيف لا؟ وقد طلبت أيضاً أن يكون مولاي أبوك معك، على أن يكون الملك جبلة موجوداً ليتم تعارفهما، ولا شك أن اقترانك بهند فضلاً عن أنه من أهم أسباب سعادتنا، سيكسبنا نفوذاً لدى ملك غسان» .

فقال: «ولكنك تعلم أن أبي لا يرضى الذهاب معي في هذا الشأن» .

قال: «أعلم ذلك وقد ذكرته أمام سيدتي هند» .

فبغت حماد وقال: «كيف ذكرته؟ وماذا قلت؟» .

قال: «ذكرته بأسلوب لطيف فذكرت أن سيدي عبد الله سرّ

كثيراً بخطبتكما ولكنه يود الوفاء بالنذر قبل عقد القران». قال حماد: «أخشى أن تكون هند قد فهمت شيئاً يحملها على إساءة الظن».

قال: «لا أظنها فهمت شيئاً من ذلك، وعلى كل فإنك ذاهب إليها في صباح الغد، وقد أجلنا اجتماع الوالدين إلى فرصة أخرى، فإذا اجتمعنا فأفهمها الحكاية كما تريد».

قال: «إذن نذهب إلى صرح الغدير في صباح الغد، هل ترى أن نخبر أبي؟». قال: «أرى أن تخبره بأننا ذاهبون لطمأنة أهل الصرح بعودتنا دون أن نتحدث في شأن الخطبة أو الاقتران».

قال: «هذا هو الصواب».

وفي مساء ذلك اليوم خاطب حماد أباه في أمر هند وقال مظهراً سروره: «إن وفاة الحارث ربما سهّلت أمر الاقتران بها، وعدل أبوها عن طلب القرطين».

وظل أبوه ساكناً فقلق وعاد يقول: «ألم تُسر بذلك يا سيدي؟».

فقال عبد الله: «إني مسرور لسرورك، ولكنني لا أزال ألح عليك التزام التريث حتى يأتي يوم الشعانين ونفي بنذرنا».

قال: «أعاهدك على ألا أباهر أمراً قبل ذلك اليوم. ولكنني عازم على الذهاب إلى الصرح صباح غد لمقابلة هند وأمها، وأعتقد أنهما تودان مشاهدتك».

قال: «دع أمر ذهابي إلى ما بعد يوم الشعانين. ولا بأس بأن تذهب أنت غداً على ألا تمضي أمراً كما أخبرتك». قال: «حسناً يا مولاي».

وفي صباح اليوم التالي، ركب حماد وسلمان جوادين وقصدا إلى صرح الغدير.

وكانت هند لم تنم ليلتها إلا عند الفجر لعظم تأثرها بقدم حماد، ثم أفاقت والشمس قد طلعت فظنت أنها أبطأت في الفراش، وخافت أن يكون حماد قد جاء وهي نائمة، فنهضت واغتسلت ولبست ثيابها، ثم عادت إلى غرفتها، وجلست خلف نافذة تشرف على طريق بصرى وعيناها شائعتان نحو الأفق لعلها ترى حماداً قادماً، وكلما رأت شبحاً أو ظلاً أو سمعت صوت صهيل أو وقع أقدام خفق قلبها لعظم تأثرها.

أما سعدى أمها فأوصت الخدم بإعداد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها، ولما فرغت من ذلك فكرت في هند وما يكون من حالها عند ملاقاتها حماداً بعد طول غيبته، فخافت عليها شدة تأثرها، ورأت أن تسير إليها لتذهب ما بها من قلق الانتظار.

وسمعت هند وقع أقدام أمها فنهضت من مجلسها خلف النافذة واستقبلتها باشة، فابتدرتها سعدى قائلة: «ما بالك منفردة يا هند؟ أظنك تتمنين عدول حماد عن المجيء». فضحكت ولم تجب.

فعادت أمها وقالت: «هيا بنا إلى الحديقة نتنسم رائحة الأزهار لأن بقاءك هنا ممل». قالت ذلك وأمسكت بيدها، ومشتا حتى نزلتا إلى البستان وأوغلتا بين الأشجار، وهند تحتلس النظر إلى الطريق من خلال الغصون لعلها ترى حبيبها قادماً، ولكن أمها سارت بها في الحديقة حتى غابت الطريق عن نظرها، فحدثها قلبها بالرجوع إلى القصر لئلا يصل حماد في أثناء غيابها، ولكنها لم تجرؤ على مصارحة أمها بذلك.

وفيما هما سائرتان سمعتا صوت صهيل عرفت هند أنه صهيل

جواد حماد، فخفق قلبها وهمت بالرجوع، وأدركت ذلك أمها فتجاهلت وقالت لها: «دعينا هنا فإنه لا يلبث أن يأتي فراه».

وقد أرادت سعدى أن يكون الملتقى على انفراد مخافة أن يحدث في أثناء ذلك الاجتماع ما لا يُستحسن اطلاع أهل القصر عليه.

سكتت هند ولكنها ما فتئت تنظر من خلال الأشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بصبر شديد، ولم تمض هنيهة حتى رآته قادماً وعلى رأسه الكوفية والعقال وقد تقلد الحسام تحت عباءة حريرية مزركشة بالقصب، فلما وقع نظرها عليه زاد خفقان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبثت أن علته الحمرة. أما أمها فتقدمت حتى التقت بحماد وسلمت عليه، فهمّ بتقبيل يدها احتراماً فمنعته، وكانت هند لا تزال واقفة وقلبها يحدثها بالمسير نحوه ولكن الحشمة والحياء منعاهما. فسارع هو نحوها ومدّ يده مسلماً ووجهه يطفح سروراً وعيناه شاخصتان إليها تتقدان ذكاء وهياماً.

فمدت يدها وهي تنظر إلى الأرض خجلاً ولكن الابتسام غلب عليها، ولما أمسكت يده شعرت بقوة انبثت في كل أعضائها، ثم توردت وجنتاها وأبرقت أسرتها، فقال حماد: «كيف أنت يا هند؟ لقد أطلت الغيبة عنكم، ومع ذلك عدت بخفي حنين».

فغلب عليها الحياء ولكنها نظرت إليه بعينين براقتين تنبعث أشعة الهيام منهما وقالت: «لا حاجة بنا إلى الخفين ولا القرطين، وحسبنا عودتك سالماً، فالحمد لله على ذلك». قالت ذلك وهي تبسم ودموع الفرح تتناثر من عينيها، فأرادت إخفاء دموعها فتحولت نحو شجرة بالقرب منهما تحتها مقاعد من حجر معدة للجلوس، وتبعها حماد وسعدى ساكتين، على أن قلبَي العاشقين كانا يتكلمان ويضحكان، ولعلمهما لو تُركا على انفراد لانطلق لسانهما وتعتابا

وتغازلا ولكن وجود سعدى حملهما على الاكتفاء بحديث القليين .

لما استقر بهم الجلوس قالت سعدى: «لقد أطلت الغياب فانشغل بالنأ كثيراً، ولما سمعنا حكاية سفركم من سلمان حمدنا الله على عودتك سالماً بعد ما قاسيته من الخطر».

قال: «لا يهمني ما لقيته من العناء، وإذا كنت لم أوفق في سفري فما كان ذلك إلا لفقد القرطين من الكعبة في أثناء هدمها وبنائها. على أي اعتزمت مواصلة البحث عنهما في العراق وغيرهما حتى آتي بهما».

فابتدرته هند قائلة: «لا حاجة بنا إلى الأقراط فإن عندنا من فضل المولى ما يكفيننا مؤونة هذه الأسفار».

قال: «وماذا يقول الناس عني وقد عدت صفر اليدين؟ إليس عاراً على حماد أن يعجز عن أمر طلبته هند؟». قال ذلك وعينه تنظران إلى هند، فالتفتت إليه وقالت وهي تبسم: «حسب حماد عندنا أنه جاهد في سبيل القرطين جهاداً حسناً ولا يزال ساعياً في البحث عنهما».

ثم قالت سعدى: «إن أمر القرطين يا ولدي لم يعد يهمننا مطلقاً، فمثلهما كثير عندنا والحمد لله، وفي تاج جيلة لؤلؤتان مثل لؤلؤتي قرطي مارية تماماً».

فقال حماد: «إني لا أجهل نِعَم الله على فتاة غسان زادكم الله نِعَماً، ولكني أحب أن يكون لي ما أستحق به رضاء هند وقومها، فلعل نسبي وحسبي لا يخولاني هذا الشرف». قال ذلك وتبسم والتفت إلى هند فإذا هي تبسم وتنظر إلى الأرض.

فالتفت سعدى وقالت: «إن النسب يا ولدي ليس وحده ما

يرفع قدر صاحبه، فالرجل بأصغريه لا ببرديه، وإن ما شهدناه من شهامتك وكرم أخلاقك لجدير بأن يرفع منزلتك إلى أوج الملوك وكرم من ملك حطته دناءته إلى مصاف الصعاليك وشاهدنا على ذلك قريب». قالت ذلك ونظرت إلى هند كأنها تذكرها بدناءة ثعلبة والمقابلة بينه وبين حماد، فأدرك حماد ذلك وأطرق خجلاً ولكن قلبه رقص طرباً لتخلصه من أمر القرطين، وتمثل له ملاك السعادة طوع إرادته فأبرقت أسرته، ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران بسببه فانقبضت نفسه. على أن اجتماعه بهند أنساه كل ما عداه. ثم استأنفت سعدى كلامها قائلة: «أرى على ثيابك أثر الغبار، فإذا شئت تبديلها والراحة من السفر فهلم بنا إلى القصر».

قال: «لست أشعر بتعب من السفر، وتبديل الثياب أمر مستدرك وإنني لسعيد بالجلوس هنا بين الخضرة والماء. ولا أخفي على سيدي أنني لم أكن أرجو مثل هذا الاجتماع بعد ما قاسيته من المشاق، ولا أنسى يوماً قضيته في مكة على سطح غرفتي».

قالت هند: «وكيف كان ذلك؟».

قال: «لقد ركبت متن الأسفار، وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية وعن أبي، فنزلت بلدًا شهدت فيه حرباً وخطرًا ثم تحققت ذهاب بحثي عبثًا، فلما تراكمت كل هذه المصائب عليّ صعدت إلى سطح غرفتي وقد ضاق صدري وتذكرت هنداً وأبي وما أنا فيه من اليأس فأظلمت الدنيا وضاعت في وجهي».

فقالت سعدى: «لقد سَرَّنا العثور على أبيك ولعله في خير، وشد ما يسرنا أن يزورنا فإني أحب تعريفه بالملك جبلة ليتم سرورنا، فقد زالت كل الحواجز وتمهدت كل العقبات والحمد لله».

فتذكر حماد مسألة النذر وحكاية يوم الشعانين فقال في نفسه:

«لم تزل أمامنا عقبة لا ندري ما وراءها». ولكنه أجاب سعدى قائلاً:
 «إن أبي يُسرّ كثيراً بمقابلة الملك جبلة، وهذا شرف يتمناه لكنه الآن
 في شغل وسيغتئم أول فرصة لمقابلة مولاي الملك».

وفيما هم في مثل هذه الأحاديث آنسوا حركة وجلبة في
 القصر. ثم جاءهم خادماً أنباءهم بقدوم رسول من الملك جبلة مبشراً
 بأنه في الطريق إلى الصرح، فبغت الجميع لقدمه على غير انتظار،
 ونهضوا عائدين إلى القصر استعداداً لاستقباله.

ومشوا صامتين، كل منهم يفكر في أمر، وكان حماد أكثر بغته
 واهتماماً لأنه سيقابل جبلة لأول مرة بعد عودته، فخاف أن يكون
 فشله في البحث عن القرطين سبباً في فتور محبته.

أما هند فكانت تتوقع من أبيها حنواً على حماد بعد ما سمعته من
 أمها، وأما سعدى فلم تستغرب قدومه لأنها كانت قد أرسلت إليه
 أمس تخبره بموعد زيارة حماد، وترجو عودته لمقابلته، ولم تخبر هنداً
 بذلك.

وما وصلوا إلى القصر واستقر بهم المقام في قاعة الجلوس حتى
 نودي في القصر بمجيء الملك، فخرج أهله لاستقباله. وخرج حماد
 وهند وأمها إلى الحديقة لهذا الغرض. وكان الفرسان قد وصلوا،
 فترجل جبلة عن جواده، ومشى بلباس السفر وفوقه العباءة وقد تقلد
 الحسام، وكان يلتفت ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عن حماد، فلما
 وقع نظره عليه أسرع نحوه مرحباً، وصافحه وقبله قبله الأب لابنه
 والناس ينظرون. وكانت هند تراقب حركات أبيها فلما رأت منه ذلك
 رقص قلبها طرباً وتناثرت دموع الفرح من عينيها، وكذلك كان شأن
 أمها. أما حماد فإنه قبل يدي جبلة وقلبه يخفق فرحاً لما تحقق من رضاه
 عنه ثم قال له جبلة: «أهلاً بولدنا العزيز حماد، نحمد الله على

عودتك سالماً».

فقال حماد وأمارات الامتنان ظاهرة على وجهه: «الحمد لله على كل حال، ولكنني أحمدك لما أنعمَ به عليّ من رضا ملك غسان، وأنها لنعمة أعجز عن تقديرها وشكرها».

ثم تحوّل جبلة نحو هند فقَبِلت يده وقَبَلها، وحماد ينظر، فتحرّكت فيه عاطفة الغيرة عليها حتى من أبيها، ثم حتّى سعدى، ومشى الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كأنه يريد أن يلتهمها بنظره.

وكان سلمان واقفاً مع أهل القصر في انتظار جبلة، ولم يشأ دخول الحديقة على حماد عند أول مجيئه مراعاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون التفوه به أمام أحد.

فلما دخل جبلة القاعة ومعه سعدى وهند وحماد، سأل هذا عن سلمان، فدعي إلى القاعة وليث واقفاً متأدباً فنهض حماد وأمسكه بيده وقدمه إلى الملك قائلاً: «أقدم لكم يا عماء رفيقي وصديقي سلمان. فإنه كان معتمدي في أسفاري وهو محب مخلص للملك جبلة وكل آل منزله».

فرحّب به جبلة وأمره بالجلوس فجلس، ثم التفت جبلة إلى حماد وسأله عن أبيه فقال: «تركته في دير بحيراء على أن يحظى بمقابلة مولاي في فرصة أخرى».

قال: «لقد سررت كثيراً باجتماعكما بعد طول التشتت بسبب ذلك الغلام الغر (يريد ثعلبة). وقد كنت في غفلة من أمره إلى ما بعد وفاة أبيه، وعلمت بما ارتكبه هذا الخائن في سبيل الفتك بك على أثر ما أظهرته من الشهامة وكرم الأخلاق، ويكفي أنك عفوت عنه في حلبة السباق بعد ما عانيت من غدره وسوء قصده. وقد نال جزاء

خيانته وغدره. إذ كان الناس يرمقونه ببعض الاحترام مراعاة لمنصب أبيه، فلما توفي الحارث نبذوه نبذ النواة وصار مضغة في الأفواه. ومن أثقل المصائب عليه أن يعلم بمجيئك ونيل مرامك ولا أظنه يسمع باقترانك حتى يقع ميتاً لشدة لؤمه وحسده قبحه الله. وكان جبلة يتكلم ولحيته تهتز وعينه تتقدان غضباً رغم محاولته إخفاء ما في نفسه، فلما أتم كلامه تشاغل بتمشيط لحيته بأصابعه وبالالتفات إلى خيل مربوطة خارج القصر كانت تتزاحم وتتضارب. وظل الحاضرون ساكتين تهيئاً من غضبه، ولكن قلوبهم كادت تطفح سروراً بما قاله عن ثعلبة. ثم وجه جبلة خطابه إلى سعدى قائلاً: «اسقينا شيئاً نرطب به أجوافنا ونشربه نخب اجتماعنا فرحاً بقدوم صهرنا سالماً».

فقالت: «ألا ترى أن نجلس إلى المائدة فتناول الطعام والمدام معاً».

قال: «حسناً تفعلين».

فصفقت فجاء غلام. فقالت له: «هل تمت معدات الطعام؟». قال: «نعم يا مولاتي».

فنهض جبلة ومشى فتبعه الجميع حتى دخلوا غرفة مدت فيها الأسبطة وعليها آنية كلها من الذهب والفضة، فجلسوا يأكلون ويشربون والفرح يغمرهم جميعاً.

أشار جبلة إلى حماد بعد انتهاء الطعام أن يتبعه، فتبعه حتى خرجا من القصر وسارا في بعض طرق الحديقة. فلما انفردا قال جبلة: «اعلم يا حماد أنك الآن بمنزلة ولدي، وقد قسم الله أن تكون صهرأ لي وهذا أمر أحسبه من حظ هند لأنك شهم شجاع. وقد تركت إليك تعيين موعد الاقتران ولكنني أوجه التفاتك إلى أن هنداً

وحيدتنا ويشق علينا فراقها، ولهذا نحب بعد تمام الاقتران أن تقيم عندنا على الرحب والسعة أنت وأبوك ومَن تريد من ذويك، فإن البلاد تحتاج إلى مَن يتولاها وليس لي ولد ذكر فإذا أحسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكاً عليهم».

فلم يعد حماد يدري كيف يشكر جبلة على هذا العطف الكريم، ثم قال: «إن هذه النعم وهذه الشيم مما يقصر اللسان عن أداء الشكر عليها، وأسأل الله أن يجزيك عني خيراً. أما وقت الاقتران فلا يمكننا تحديده الآن لدواعٍ لا أخفيها عليك».

قال: «وما هي؟».

قال: «لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق؟».

قال: «نعم أذكر ذلك، وما سبب طوله؟».

قال: «إن أبي نذر عند مولدي ألا يقص شعري إلا في دير بحيراء بعد أن أبلغ الحادية والعشرين من عمري، وقد حل هذا الموعد في يوم الشعانين منذ عام وبضعة أشهر، فجئنا إلى البلقاء استعداداً لذلك. ثم حدث ما كان من سعي ثعلبة ضدي والقبض على أبي، فلم نجتمع إلا في المدينة أخيراً، وقد رأى أبي أن ننتظر حتى يوم الشعانين القادم لنقص شعري في الدير. وأخبرني أن عنده سرّاً خاصاً بي سيدلي به إلي في ذلك اليوم، وطلب مني ألا أقطع في أمر من الأمور المهمة إلا بعد ذلك اليوم، فما رأي مولاي؟».

فعجب جبلة لذلك السر وقال: «لا أرى مانعاً من تأجيل الاقتران إلى ما بعد يوم الشعانين، فنجعله في يوم عيد القيامة. ولكنني استغربت هذا السر، ألا تعلم موضوعه؟».

قال: «لا يا عماه، لا أعرف عنه شيئاً ولا يعلم به أحد سوى أبي، وقد أخبرني أنه لما وقع في الخطر وخاف الموت لم يأسف على شيء أكثر من أسفه على ضياع ذلك السر!».

قال جبلة: «فلنتظر يوم الشعانين وكل آت قريب».

ثم تحوّلوا نحو القصر، وكانت هند وأمها جالستين في القاعة، فدخل جبلة وحماد، وقضوا بقية اليوم في الأحاديث المتنوعة.

فلما كان العصر التمس حماد السماح له بالعودة إلى الدير لثلاثي سببته أبوه ويقلق لتأخره، فقال له جبلة: «افعل ما بدا لك، وإن صرح الغدير وجميع قصور البلقاء مفتوحة لاستقبالك متى أردت القدوم». فهم حماد بيد جبلة فقبلها، وكذلك فعل سلمان، ثم ودّعا هنداً وسعدى وركبا وسارا وهند تشيعهما بنظرة خلصة حتى تواریا.

ولما وصل حماد إلى الدير في مساء ذلك اليوم كان أبوه في انتظاره، فحكى له حماد ما لقيه من الإكرام والاحتفاء وما دار بينه وبين جبلة مما لم يكن يرجوه. وكان حماد يتوقع أن يرى من أبيه بعد هذا الحديث إعجاباً أو انبساطاً فلم يرَ وجهه يزداد إلا انقباضاً ولم يُجب بكلمة، فلبث حماد ينتظر يوم الشعانين بفارغ الصبر.

— ٢١ —

كشف السر

كان عبد الله كلما دنا يوم الشعانين يزداد انقباضاً، فلما كان اليوم السابق لهذا اليوم، رأى أن الدير سيكون مزدحماً فيه وهو يريد الانفراد بحماد ليكشف له السر حسب وعده بعد قص شعره، فذهب إلى رئيس الدير وأطلعه على قصده، فسأله هذا: «وأي الغرف تريدون؟».

قال: «نريد صومعة بحيراء فإنها منفردة ولها كرامة وبركة».

قال: «ولكن الناس يقدمون إليها في مثل هذا اليوم زائرين». قال: «يزورونها بعد خروجنا منها فربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح إلى الظهر». وكان عبد الله جليل الطلعة محترماً فلم يسع رئيس الدير إلا أن يجيب طلبه.

ثم قال عبد الله: «أعرف راهباً شيخاً من تلامذة بحيراء الراهب صاحب هذا الدير كان يقيم بالصومعة فهل هو باق هنا؟». قال: «إنه باق ولكنه يشكو شدة الضعف لشيخوخته فلا يخرج من غرفته إلا نادراً».

قال: «ألاً تظنه يخرج في صباح الغد إذا توسلنا إليه أن يرافقنا إلى الصومعة ويقص شعر غلامنا».

قال: «لا أعلم، وعندنا من الرهبان والقسس كثيرون يفعلون ذلك».

قال: «صدقت ولكنني أفضل ذلك الراهب الشيخ لأنني أعرفه».

قال: «هلم بنا إليه نسأله فعساه أن يرضى».

وسارا إلى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب فقرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ لفتحه، وبعد هنيهة فُتح الباب وبان من ورائه شيخ هرم قد ابيض شعره واسترسل من رأسه ولحيته وحاجبيه وشاربيه حتى لا تكاد ترى من جلد وجهه إلا بعض وجنتيه وقد تجعدتا وتغضن جبينه وبرز أنفه أعقف واحدودب ظهره حتى لا يستطيع النظر إلى واقف أمامه إلا بجهد، فتقدم الشيخ ويده اليسرى على الباب، وفي يده اليمنى عصا يتوكأ عليها وقد قبض عليها بأنامل لم تترك الشيخوخة عليها لحماً فلصق الجلد بالعظم حتى كان أعرض

ما في الكف عقد الأمشاط عند اتصالها بالأصابع .

فلما فُتح الباب رفع الشيخ نظره وصدق في زائريه وكان قد عرف الرئيس من مجمل قيافته ولكنه لم يعرف رفيقه فنظر إليه نظرة المتأمل من خلال شعر حاجبيه المسترسل ، وأخذ يرفع بيده المرتعشة شعر الحاجبين فابتدره عبد الله بالسلام وهَمَّ بتقبيل يده فعرفه الراهب فقال : «أهلاً بولدي الأمير عبد الله ابن الوطن العزيز تفضل يا ولدي ادخل» . فدخل ودخل الرئيس معه وجلس كل منهما على وسادة وهما لا يجسران على فتح الحديث احتراماً لشيخوخة الراهب .

ثم تكلم الرئيس فقال : «إن ولدكم الأمير عبد الله يلتمس حضوركم الاحتفال بقص شعر ابنه وفاء لنذر نذره منذ بضع وعشرين سنة» .

فتأمل الشيخ برهة ثم رفع نظره إلى عبد الله بغتة والنور ينبعث من حدقتيه كأن الزمن لم يؤثر على حديثهما وقال : «ما اسم غلامكم؟» . قال : «حماد» .

قال : «نعم حماد، أذكر أنني رأيته في الصومعة منذ عامين وأخبرني أنه جاء لقص شعره وكان يوم الشعانين قريباً ألم تفوا بالنذر بعد؟» .

قال : «لا يا مولاي، لم نستطع ذلك لأسباب فرقت بيننا أعواماً فلما اجتمعنا جئنا لنفي بالنذر، فهل تفضل بأن يكون وفاؤه على يدك» .

قال : «إني شيخ ضعيف لا أستطيع الوقوف لتأدية الفروض اللازمة في أثناء الصلاة» .

قال : «يؤديها القسيس وتكون أنت معنا بعد الصلاة فنفرد أنا

وأنت وحماد لكلام أقصه عليكما».

قال: «حسناً يا ولدي ومتى يكون ذلك؟».

قال: «غداً صباحاً إن شاء الله».

قال: «سنتقي إذن صباح الغد في الصومعة».

ثم نهض عبد الله فودّع الراهب وعاد إلى غرفته وجلس ينتظر عودة حماد.

وكان حماد يختلف إلى صرح الغدير مرات في الأسبوع ل يتمتع برؤية هند، فيقضي النهار معها عند أمها ومعه سلمان. وقد شعر بأن ملاك السعادة يحرسه ولا سيما بعدما صرح له جبلة بما اعتزم اختصاصه به في مستقبل حياته. وأصبح لا همّ له إلا مجيء يوم الشعانين ليفي بالنذر ويقترن بهند. على أنه كان إذا جلس إليها ودار الحديث بينهما نسي النذر ومستقبله.

وكان قد سار إلى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معه، ثم عادا في الأصيل، فلما بلغا الدير وترجلا عن جواديهما ودخلا، وجدا عبد الله في انتظارهما وقال لحماذ: «ألا تعلم يا ولدي أن غداً يوم الشعانين؟».

قال: «نعم يا أبتاه وإني لعلّ استعداد للوفاء بالنذر».

قال: «جعله الله نذراً مقبولاً. ولقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في صومعة بحيراء ليكون معنا، هل تذكره؟».

قال: «نعم أذكره، وقد جلست إليه مرة وقصّ عليّ خبر الراهب بحيراء أستاذه».

قال: «لقد وعد بأن يقصّ شعرك ويسمع ما أتلوه عليك بعد

ذلك».

وكان سلمان لا يزال واقفاً بالقرب من الباب يصلح كوفيته وعقاله، فلما سمع ما قاله عبد الله تقدم نحوه ونظر إليه قائلاً: «ألا تظن خادمك سلمان يستحق الاطلاع على هذا السر أيضاً».

قال: «بلى إنك أولى الناس بذلك وستكون أنت أيضاً معنا». وقضوا بقية اليوم يستعدون، وخلا عبد الله في غرفته يعد بعض الثياب.

وفي صباح اليوم التالي ساروا إلى الصومعة مبكرين فأوها قد أضيئت بالشموع، وهي كما قدمنا غرفة كل جدار من جدرانها الأربعة حجر واحد، وكذلك سقفها وأرضها وبابها، وهذا هو شأن أبنية حوران حتى الآن نظراً لكثرة صخورها وقلة خشبها.

ولما دخلوا الصومعة وجدوا فيها الراهب الشيخ ومعه قسيس آخر وشماس. فلما اجتمعوا أخذوا في الصلاة فأحرقوا البخور وحلوا شعر حماد حتى استرسل على كتفيه وظهره وطاقوا به والقسس يحملون الصليبان والمباخر يترنمون حتى تمت الصلاة وقرأوا فصلاً من الكتاب المقدس. وكان الراهب قد تعب فجلس على مقعده الحجري ليرتاح فلما انقضت الصلاة أعطوه مقصاً، ودنا حماد منه وشعره يجلبه، فمد الراهب يده وأمسك خصلة من شعره وبارك وقصها إشارة إلى الوفاء بالندر وبقي الشعر مسترسلاً على أن يقصه عند عودته إلى المنزل.

فلما انقضى الاحتفال أشار عبد الله إلى الراهب أنه يريد الخلوة، فأوعز هذا إلى الحاضرين فخرجوا وبقي هو وحماد وعبد الله وسلمان، وأطفئت الشموع ولم يبق من الأنوار إلا مصابيح الزيت معلقة أمام الأيقونات فأشار عبد الله إلى سلمان أن يغلق الباب فهم بإغلاقه وهو لا يحسب نفسه قادراً على ذلك لضخامته فإذا هو طوع

إرادته لأن لأهل حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الأبواب حتى تُغلق بسهولة.

فلما أغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الأحياء، وخيل لهم أنهم في عالم آخر. وخفق قلب حماد تطلّعاً لما سيسمعه من السر الذي وُعد به، فنزع عبد الله جبته وهَمَّ بصرة كانت معه فحلّها وأخرج منها رداء مزركشاً يشبه الطيلسان كان قد ادخره واحتفظ به منذ أعوام. فقَبَلَه ثم بسطه وجعله على كتفيه ونشر على الأرض أمام مجلس الراهب جلدًا جثا عليه وجلس حماد وسلمان بين يديه والجميع سكوت يراعون حركات عبد الله وسكناته ويبتظرون ما يبدو منه.

ولما استتب بهم الجلوس، التفت عبد الله إلى الراهب وقال: «إننا الآن في بيت الله، وقد اجتمعنا فيه لعمل مقدس فلا يعلم بما سيدور بيننا إلا الله وحده. وسأقص عليكم حكاية أوْثُنت عليها منذ بضع وعشرين سنة، فأرجو أن تصغوا إليّ حتى آتي على آخرها ومتى فرغت منها أَلْتَمَسَ منكم كتمانها عن أهل الأرض كافة، فهل تعاهدوني على ذلك؟».

قال الراهب: «إن سرك لن يتجاوز جدران هذه الصومعة».

قال: «أَلْتَمَسَ من قدسكم أن تتلو علينا الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام، فتلا الراهب «أبانا الذي في السموات الخ». ثم نظروا إلى عبد الله فإذا به قد تأدب في قعوده وامتقع لونه فهابوا منظره، ثم نظر عبد الله إلى حماد ووجه الخطاب إليه قائلاً: «تعلم يا ولدي أن العرب يرجعون في أنسابهم إلى أصلين كبيرين هما قحطان وإسماعيل، ومن نسل قحطان عمرت اليمن وما جاورها، ومن نسل إسماعيل عمرت الحجاز وما جاورها، ويسمى نسل إسماعيل

الإسماعيلية أو العدنانية نسبة إلى جد من أجدادهم بعد إسماعيل إسمه عدنان، كما يسمى بنو قحطان القحطانية، وقد قامت منهم دول ملكت الخافقين، كالتبابعة المشهورين وغيرهم من دول حمير وسبأ. ومن مملكة سبأ خرجت ملكة سبأ التي ذكرت التوراة أنها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة أهلة حتى حدث سيل العرم ففترق أهلها أيدي سبأ، أتعرف ما هو سيل العرم؟». فقال حماد: «لا يا أبتاه لا أعرفه».

قال عبد الله: «اعلم يا ولدي أن اليمن وسائر جزيرة العرب أرض تقلّ فيها الأنهر والينابيع، وأهلها يعتمدون في ري مغارسهم على مياه المطر التي تجتمع في مجاري الأودية وتسيل كالأنهر، ولما كان معظمها يجف في الشتاء فهم يجعلون في تلك الأودية سدوداً من حجر تعترض مسير الماء فيجتمع ويرتفع حتى يسقي أعالي الأرض. «وكان من تلك السدود في اليمن سد كبير يقال له العرم بناه ملوك اليمن القدماء بحجارة ضخمة يمسكونها بالقار وفيه خروق يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون إليه لسقي أرضهم. وكان للسد حفظة يقومون بتعهده وتوزيع مياهه فتقادم عهده حتى تصدّع وخيف سقوطه. وعرب اليمن إذ ذاك بنو كهلان ابن سبأ من القحطانية، وكانت دولتهم قد ضعفت واختل نظامها وآلت إلى السقوط فأهمل أمر السد وقلت المحافظة عليه فأخذ خطره يزداد فخاف الناس تهدمه بغتة فيسل الماء عليهم ويغرقهم ويخرب منازلهم، فأخذوا ينزحون أحياء وبطوناً، وبقيت منهم بقية أصبحوا ذات يوم وقد انفجر السد وطافت المياه فأغرقت بعضهم ونجا آخرون وتفرقوا في البلاد وسُمي ذلك السيل سيل العرم. وكان ذلك منذ ستمائة سنة أو أكثر؟».

وكان السامعون مصغين لحديث عبد الله وهم لا يرون فيه ما يوجب المسارة، فعجبوا لذلك ولكنهم صبروا أنفسهم ليروا ما يكون بعده، فأدرك عبد الله ذلك فقال: «لقد أردت أن أبسط لكم أصل نسب ملوك الحيرة المقيمين بالعراق ثم ألتحق من ذلك إلى كشف السر فامهلوني ولا تملوا».

فأبدوا جميعاً أنهم مصغون بكل جوارحهم لحديثه، فعاد يقول: «قلت لكم أن بني كهلان تفرقوا قبيل سيل العرم وبعده وكانوا أحياء عديدة أذكر منها ثلاثة هي: «لخم، والأزد، وطيء». أما لخم فهم أجدادنا الذين أقاموا بالعراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة (قال ذلك وتنهد). وأما الأزد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد. أما طيء فأقاموا بنجد والحجاز في جبلي أجا وسلمى».

فسر حماداً أن يكون بين اللخمين والغسانيين قرابة ولكنه ما زال قلقاً للوصول إلى آخر الحديث، وكذلك سلمان. أما الراهب فكان أقلهما قلقاً واشتياقاً كأن الشيخوخة وكثرة الاختبار عوداه الاستخفاف بحوادث الزمان فضلاً عن أن ما قصه عبد الله عليهم إلى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عنده. وواصل عبد الله كلامه فقال: «علمتم أن ملوك الحيرة لخميون يتصل نسبهم بكهلان بن سبأ من عرب اليمن القحطانية. وقد نزل بنو لخم بالعراق. وأقاموا حيناً وهم على حالهم من البداوة، وأول من حكم العراق من العرب قوم من حي دوس وهو بطن من الأزد أقرب نسباً إلى الغسانيين منهم إلينا. ولم يمض إلا قليل حتى تغلب أجدادنا عليهم وملكوا العراق تحت رعاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليه الآن واتخذوا مدينة الحيرة قاعدة لملكهم وسموا المناذرة جمع (المنذر) وهو لقب ملوك العراق كما تعلمون.

«ولا أطيل الكلام عليكم خوف الملل، فأقول باختصار: «إنه توالى على عرش الحيرة بضعة عشر ملكاً أشهرهم امرؤ القيس بن عمرو، ومما يؤثر من فضله أن اللخمين لما قدموا من اليمن كانوا على عبادة الأوثان وخالطوا الرهبان وأهل النصرانية فتنصروا، وأول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس هذا، ثم ملك النعمان بن امرئ القيس ويُقال له الأعور، وهو الذي بنى القصرين المشهورين: (الخورنق والسدير) ومن غريب أمره أنه لما عظم ملكه وامتلاّت يده من خيرات الأرض مال إلى الزهد وتنسك. وملك بعده المنذر، ثم الأسود الذي حارب أصحابنا الغسانيين منذ مائة وخمسين عاماً وأسر بعض ملوكهم وكان ذلك بسبب عداوة مستمرة فيما بيننا وبينهم. وتولى بعده ملوك كثيرون كالمنذر بن ماء السماء الذي كان معاصراً لكسرى أنو شروان ملك الفرس المشهور وله معه وقائع وحوادث يطول شرحها. فلتركها وننتقل إلى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر».

فلما ذكر اسم النعمان ابتدره الراهب قائلاً: «أظنك تعني أبا قابوس؟».

قال: «نعم أنه كان يُلقب بأبي قابوس».

قال الراهب: «هذا الذي قتله كسرى برويز، وبسبب قتله صارت وقعة ذي قار. وقد كنت شاباً وشهدت هذه الحوادث، وكنت أعرف الملك النعمان هذا رحمه الله ولي معه حديث طويل».

فنهّد عبد الله وهو يعتدل في مجلسه ويصلح الرداء على كتفيه وقال: «قد وصلنا إلى المراد من حديثي، فأعيروني السمع لأقص عليكم ما أعلمه عن هذا الملك». قال ذلك وشرق بدموعه حزناً، ولولا ضعف النور لظهر الدمع متلاًثماً في عينيه ولكنه تجلّد وعاد إلى

الحديث فقال: «إن الملك النعمان هذا لا أحتاج في وصفه إلى تطويل، ويكفي في وصفه أنه شهم شجاع صادق وقد أعاد النصرانية إلى الملك بعد أن فسدت وأبدل أسلافه الوثنية بها، ولا تتضح لكم دخيلة حديثي إلا إذا ذكرت لكم كيف تولى النعمان الحكم. فقد كان أبوه المنذر ملكاً قبله وكان في بلاط كسرى على عهده رجل عدناني اسمه عُدي بن زيد يحسن العربية والفارسية وله منزلة كبرى ونفوذ لدى كسرى. وكان مقام كسرى بالمدائن، ومقام المنذر بالحيرة وكان للمنذر اثنا عشر ولداً، أحدهم النعمان هذا وقد رُبِّي في حجر عُدي بن زيد ورضع في أهله. وكان من أبناء المنذر أيضاً فتى اسمه الأسود رباه رجل من أهل الحيرة يُقال له ابن مرينا ممن ينتسبون إلى لحم. فلما مات المنذر خاطب كسرى عُدياً فيمن يلي الحيرة وقال له: (إني أرى أن أخرج الملك من أيدي هؤلاء وأجعله في يدي واحد من خاصتي فهل بين أولاد المنذر من يصلح للملك؟). فقال عُدي: (إنهم بضعة عشر رجلاً كلهم أشداء، فإذا أمر مولاي جئته بهم). ثم بعث يستقدمهم وفي نفسه أن يسهل سبيل الملك للنعمان لأنه ربي عنده، فخلا إليه قبل اجتماعهم وأسرَّ إليه أشياء يقولها في حضرة كسرى، ففعل وتولى الملك، فشق ذلك على ابن مرينا لأنه كان يرجو أن يكون الملك للأسود التماساً للنفوذ على يده، فأخذ يحرض الأسود على الانتقام من عدي بدعوى أنه عدناني، فوافقه هذا وراح ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايا والتحف ويشي بعُدي عنده بالتواطؤ مع بعض الحاضرين على الطعن فيه واتهامه بأنه يقول بأن النعمان تحت أمره وأنه هو الذي ولاه الملك. وما زالوا كذلك حتى غضب عليه النعمان فبعث إليه يدعوه إلى زيارته، فلما جاء أمر بسجنه في مكان خارج الحيرة لا يدخل عليه فيه أحد، فعلم عُدي أنها وشاية فجعل يكتب إلى النعمان يستعطفه نظماً ونثراً فلم يجده ذلك نفعاً، فكتب

كسرى إلى النعمان في إطلاقه، ولكن أعداء عُدي - وأكثرهم من بني بقلية وأصلهم من عرب غسان أهل هذه الديار - حرضوا النعمان رحمه الله على الفتك بعُدي قبل وصول كتاب كسرى إليه، وحسنوا له ذلك بحيلة يطول شرحها، وكان الرسول قد مرّ قبل وصوله إلى الحيرة بسجن عُدي وأخبره بكتاب كسرى، ثم خرج من عنده إلى النعمان. وفي أثناء ذلك أرسل النعمان إلى عُدي أناساً قتلوه. ثم كتب إلى كسرى بعد أن جاءه كتابه بأن عُدياً مات. ولكن النعمان ما لبث أن عرف أنه ظلم عُدياً فندم، ولما لقِيَ ولدًا من أولاد عُدي اسمه زيد همّ بإكرامه ورفع شأنه تكفيراً عما فرط منه وأوصى به كسرى فجعله في منزلة أبيه عُدي.

«على أن أهل الوشاية أطلعوا زيداً على قصة قتل أبيه، فحقدها على النعمان وسعى ضده لدى كسرى، وكان الأكاسرة يبعثون إلى أيلاتهم في طلب نساء على أوصاف خاصة لكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من أحياء العرب لعلمهم ببخلهم بكرائمتهم. فقال زيد لكسرى مرة: (إن في الحيرة نساء جمعن كل أوصاف الجمال فإذا بعثت إلى النعمان أرسل إليك منهن). وكان زيد يعلم أن النعمان لن يرضى بذلك فيقع التنافر بينه وبين كسرى، فأنفذ كسرى، في ذلك رسولا ومعه زيد إلى النعمان، فعظم الأمر على النعمان وقال لزيد: (أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى به حاجته؟ إن الذي طلب كسرى ليس عندي). وسأل الرسول زيداً بالفارسية عن معنى المها والعين فأجابه بأنها البقر. فلما رجعا إلى كسرى أخبره بما قال النعمان وأقنعه بأنه أراد الخط من منزلته بقوله: (أليس في بقر الفرس ما يكفيه). فغضب كسرى غضباً شديداً ولكنه كتم ذلك، وشعر النعمان بغضبه فأخذ يستعد لما يتوقع حتى أتاه كتاب كسرى يستقدمه

إليه فعلم أنه قد دعاه ليقنتله، فحمل سلاحه وأهله والتمس الفرار. وكنت أنا ممن لازم النعمان زماناً، وكان يستأنس بي ويرتاح إلى رفقتي فقال لي: (كيف أنت يا عبد الله؟)، قلت: (إني يا مولاي لاحق بك أينما توجهت). فقال: (إن في ذلك خطراً عليك).

قلت: (ما أنا بأحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان). فقال: (بورك فيك). فصحبته من ذلك اليوم، وسرنا حتى أتينا قبيلة طي في أعالي نجد. وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب أن يحموه بين الجبلين (أجا وسلمى) فقالوا: (لا يمكننا ذلك ولولا صهرك لقتلناك فإنه لا حاجة بنا إلى معادة كسرى). فتركناهم وسرنا إلى قبائل أخرى فلم يقبلنا أحد منها خوفاً من كسرى، حتى لقينا رجلاً من قبيلة بكر بن وائل اسمه هانئ بن مسعود، وكان سيداً منيعاً وللنعمان فضل عليه فقال له: (إني مانعك مما أمتع نفسي وأهلي وولدي ما بقي من عشيرتي الأذنين رجل، ولكني لا أرى في ذلك نفعاً لك لأنه مهلكي ومهلكك، فإذا أذنت لي فإني مشير عليك بالذهاب إلى كسرى مستعظفاً، وأحمل إليه الهدايا فإذا صفح عنك عدت ملكاً وإلا فالموت خير لك من أن يتلاعب بك صعاليك العرب).

«فاستحسن مولاي النعمان الرأي ولكنه قال: (ما أفعل بحرمني؟). فقال هانئ: (هَنَ في ذمتي لا يخلص إليهن أحد إلا بناتي). فقبل النعمان ذلك وأنا خائف من عاقبة الأمر، وحدثني نفسي بصدده عن الذهاب فلم أجسر لأني شاهدت وجهه وكان أبرش أحمر كما تعلمون قد امتقع حتى صار كمن أصابه اليرقان ونهض وقد أهّمه الأمر كثيراً وجعل يخطر ذهاباً وإياباً ويفتل شاربیه الأشقرين كأنه خائف من الذهاب. ثم فكر قليلاً وقال لهانئ: (أرى يا أخا بكر أن أرسل إلى كسرى هدايا فإن قبلها سرت إليه). فقال هانئ: (نعم

الرأي رأيت). فأرسلها إليه فقبلها كسرى خداعاً منه قبحه الله. فهمّ مولاي النعمان بالمسير فقلت: (إني سائر معك ووالله لا أفارقك لحظة). فقال: (أرى أن تبقى عند نسائي فذلك خير من أن تذهب معي). قلت: (إني فاعل، ولكنني أرى النساء آمناً في حمى هانئ بن مسعود، فأذن بذهابي معك). فأذن وكأن نفسي حدثني بخطر قريب فسرنا حتى أتينا المدائن فلقينا زيد بن عدي فشاءمت برؤيته وتحققت سوء قصده، وكنت مصيباً في ذلك لأنه لم يكد يلقانا حتى قال للنعمان: (انج نعيم إن استطعت النجاة). فقال النعمان: (فعلتها يا زيد فوالله إن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولألحقنك بأبيك). فضحك زيد لعنه الله وتوعده، فعلمنا أنها حيلة أعداها له، وتحقق النعمان أن ساعته قد دنت وأن القضاء واقع لا مفر منه، فلما وصلنا إلى كسرى أمر فقيدوا النعمان وبعثوا به إلى سجن في خانقين، وكنت أتردد إليه في السجن خلصة وأنا أرجو الإفراج عنه. أما هو فلم يكن يرجو نجاة».

وسكت عبد الله قليلاً، ريثما هدأت نفسه بعد أن هاجت الذكرى شجونها، وبقي الحاضرون مرهفين أسماعهم للوقوف على تنمة القصة، فقال: «وسرت إليه ذات يوم صابحاً فرأيت أنه قد تغير حاله وامتنع لونه كأنه خائف من أمر قريب، ولا أنسى منظره الرهيب في ذلك اليوم، فوقفت أنتظر أمره فقال لي: (أرى أن أسر إليك أمراً فهل تعاهدني على حفظه؟). قلت: (كيف لا؟). فمد يده وأعطاني هذا الرداء المزركش (قال عبد الله ذلك ونزع الرداء عن كتفيه ووضع أمامه). فأخذته منه، ثم أخرج من يده خاتماً عليه اسمه ولقبه وهو هذا (ومد عبد الله يده وأخرج الخاتم من جيبه ووضع على الرداء وقد تغيرت سحنته واختنق صوته وتخلله ارتعاش زاد الحضور تهيأ).

فلما تناولت الخاتم قال لي النعمان: (اعلم يا عبد الله إني في هذا السجن حتى ينقضي أجلي فيخرج ملك الحيرة من أيدي اللخميين لأن زيد بن عدي هذا سيبدل جهده في إذلалهم خوفاً ممن ينتقم لي، ولا أعرف من أولادي مَنْ يرفع هذا العار عنا، ولكن بين أهلي عند هانيء بن مسعود زوجتي سمية وهي حامل ستلد قريباً، فاذهب إليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها إن هي وضعت غلاماً أن تعهد إليك بتربيته حتى يشب شهماً حراً، واحذر أن تقص شعره أو تخبره عن نسبه قبل الحادية والعشرين من عمره، فإذا بلغها فقص شعره في دير بحيراء وأخبره عن نسبه وألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم!).

ولم يكذب عبد الله كلامه حتى استولت البغته على الحاضرين، وخيل إلى حماد أنه في حلم، وجسم لم ذلك الوهم ضعف النور وهدوء المكان. وكانوا لا يرددون أنفاسهم إلا بحذر رغبة في تتبع حديث عبد الله. فلما وصل إلى هذا الحد تحققوا أن حماداً هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون إليه. أما عبد الله فحالماً بلغ إلى قول النعمان له: (ألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم). وقف على قدميه وألقى الرداء على كتفي حماد وألبسه الخاتم ثم أنهضه بيده وأجلسه على المقعد الحجري وهم بتقبيل يده، فخرج حماد وجذب يده منه فقال له عبد الله: «لا تخجل يا مولاي إنك الآن سيدي ابن الملك النعمان». فجلس حماد على المقعد وجلس عبد الله بين يده، وهم سلمان بيد حماد فقبلها وتآدب في مجلسه وهو يقول: «والله كنت أرى هيبة الملوك على وجهه منذ عرفته».

أما الراهب فإنه على عجزه وقف ورفع يده فوق رأس حماد وباركه ودعا له بطول البقاء وقبل رأسه. كل ذلك وحماد يحسب نفسه في حلم ولكنه فرح كثيراً بما علمه من نسبه وودَّ لو أن هنداً حاضرة

فتسمع ذلك فتفرح معه، وخيّل له أن سعدة قد تم لأنه ملك وسيقترن بملكة ويرث ملك غسان. وفيما هو يفكر في ذلك نهض عبد الله وقال: «لم يتم حديثي بعد فهل تسمعونه إلى آخره؟». قالوا: «نعم».

فمد يده إلى جيبه وأخرج أسطوانة من الفضة في حجم الإصبع، وخاطب حماداً قائلاً: «وقد أعطاني مولاي النعمان هذه الأسطوانة واستحلفني أن أسلمها إليك مختومة بعد إتمام الخبر ففتحتها في هذا الدير وتقرأ ما فيها وتعمل به».

فمد حماد يده فتناول الأسطوانة وهَمَّ بفتحها فأمسكه عبد الله وقال: «لا تفعل قبل إتمام الحديث». ثم مضى في حديثه فقال: «فلما أتم النعمان وصيته بكى وبكى، ولكنني كنت أحبس الدمع تشجيعاً له. فقال: (اعلم يا عبد الله أن القضاء واقع قريباً فاحفظ بهذا السر حتى يأتي وقته، أما إذا أنا خرجت من هذا السجن وعشت فللمسألة وجه آخر). وللأسف يا سيدي أنه لم يخرج من ذلك السجن فوفاه القدر فتوفي بداء الطاعون». قال ذلك وتنهّد والدموع ملء عينيه، فتنهد الجميع ثم قال: «أما أنا فسرت إلى هانئ ولقيت والدتك سمية وكانت حاملاً فأسررت إليها ما كان فأطاعت فانتظرت ريثما وضعت ولكنها وأأسفاه عليها لم تعيش بعد الولادة إلا قليلاً فحملتك إلى أهلي وأرضعتك بينهم حتى شببت على ما ترى».

نظر عبد الله إلى حماد في عطف واحترام وقال له: «لعلك تريد أن تعلم ما تم في أمر وديعة أبيك، فاعلم يا مولاي أن كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان أن أهله وماله وسلاحه عند هانئ، ومن ذلك أربعة آلاف شكة، والشكة سلاح الفارس كله. فكتب كسرى إلى هانئ بأن يبعث بالوديعة إليه، فأبى ذلك محافظة على العهد

ورعاية للذمام، وكان لكسرى عامل على عين النمر وما والاها إلى الحيرة اسمه أياس بن قبيصة الطائي، فدعاه واستشاره في الغارة على بكر بن وائل فأشار عليه بأن يفعل، فعقد كسرى لأياس بن قبيصة على كتيبتى أبيك وهما: الشهباء والدوسر، وأرسل معه جنداً آخر بقيادة رجال من الفرس، فكانت حملة ترزعزع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤونة والعدة ما لا يحصى. فلما سمع هانىء بن مسعود بها سار برجاله للملاقاتها فالتقوا في موضع يُقال له (ذوقار) وكانت فيه وقعة عُرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر أمرها في الأقطار، وكانت الغلبة فيها لهانىء ورجالها فإنهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي أعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الإسلام. وفرّ أياس إلى كسرى فسأله عن الخبر فقال: (غلبنا رجال بكر بن وائل وجئنا إليك بنسائهم) ففرح كسرى وأمر له بكسوة ولكن أياساً خاف اقتضاح أمره قريباً، فاستأذن في الذهاب إلى أهله فأذن له فانصرف إلى عين النمر، ثم جاء رجل من أهل الحيرة إلى كسرى وحدثه بهزيمة أياس فلم يصدق وأمر فنزعت كتفاه وظل يصدق أياساً ثم ولّاه الحيرة كما تعلمون، وقد وليها بعده رجل فارسي، ثم وليها المنذر الغرور أحد أخوتك. وهي الآن في يد أياس بن قبيصة ولا تزال الوديعة عند هانىء».

وكان حماد قد ملّ الانتظار تشوقاً إلى ما في تلك الأسطوانة ولكنه صبر حتى فرغ عبد الله من حديثه ونهض وقد أعياه التعب لشدة تأثره وذكرى مصائبه فتناول الاسطوانة من حماد ودفعها إلى الراهب ملتمساً أن يباركها قبل الفتح، فباركها ثم تناولها عبد الله وعالجها بمديّة حتى انفتحت، ودنا من مصباح منير بجانب أيقونة ونظر إلى ما في الأسطوانة وكلهم يتناولون وينظرون معه فإذا فيها

لفافة من جلد، فأخرجها ونشرها بين يديه فرأى عليها كتابة بالأحرف الاسطرنجيلية، وهي كتابة أهل العراق إلى ذلك الحين. فشخصت أبصارهم إلى ما فيها فأخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهالك نصها:

«من النعمان نزيل دار البقاء إلى ابنه المنذر المقيم بين الأحياء. أما بعد فهذا كتاب كتبه وأنا في عالم الوجود وأنت في دار الفناء وستقرأه بعد رجوعي إلى عالم الغيب وبروزك في عالم الأحياء. فإذا قرأته وقد وفيت نذكرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم أن عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف أجدادك المناذرة من آل لحم ألا تقرب امرأة ولا تشرب خمرًا حتى تنتقم لأبيك من أكاسرة الفرس، فإذا فعلت ذلك فإنك مبارك أنت ونسلك. وإن لم تفعل فإن رفاقي ترتعش حنقًا ونفسي تتألم وهي تنظر إليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك. وسيجمعني وإياك موقف نتحاسب فيه والسلام».

فلم يكد عبد الله يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائص حماد، ورأى مساعيه كلها ذاهبة أدراج الرياح. على أن الحمية ثارت فيه وهاجت النخوة في رأسه وشعر بدافع يدفعه إلى الأخذ بثأر أبيه من أكاسرة الفرس، وقد استعظم الأمر وهاله الإقدام عليه فوقف مبهوراً لا ينبس ببنت شفة.

وكان عبد الله ينتظر ما يبدو منه فلما رآه صامتاً قال له: «هذا هو السرياسيدي قد أطلعتك عليه فألقيت عن عاتقي حملاً حملته عشرين عاماً ونيفاً، وكنت أخاف أن أقضي نحبي قبل إفشائه فانظر ماذا تفعل»..

فقال حماد: «لقد ألقيت عنك حملاً أنقلتنني به، وأرجو أن أوفق للقيام بما عهد إليّ والله منجدي ونصيري». قال ذلك وتحفز للخروج

من الصومعة فأوقفه عبد الله والتمس من الراهب أن يختتم حديثهم بالصلاة، فصلى وتضرع إلى الله أن يساعدهم على كتمان الأمر. ثم خرجوا وكان على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوه ورأوه. وحماد أكثرهم بغتة وانذهالاً لأنه أصبح لا يدري ماذا يعمل، وهل يسير إلى هند ليطلعها على سرّه وليس في ذلك السرّ إلا ما يوجب كدرها لأنه حائل بينها وبين الاقتران إلى أجل غير معين وإن يكن في إطلاعها على حقيقة نسبته ما يسرها. أم يخاطب جبلة في الأمر لعله يشير عليه أو ينجده. أم يؤم العراق فينزل المدائن ساعياً في الانتقام من كسرى. فلما فكر في مسيره إلى هناك تهب لعلمه بما يحول بينه وبين ذلك المرمى من العقبات فإن الأكاسرة أهل بطش ومنعة. فسار إلى الدير وقضى ليله ساهراً لعظم تأثيره وهو يفكر في طريقة تهوّن عليه المشاكل.

— ٢٢ — دولة الفرس

ما برح الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة آشور حتى تولى الملك سردنقول في القرن الثامن قبل الميلاد عرش هذه المملكة فلم يحسن سياستها، وشغل عنها بمجالسة النساء واللهو على اختلاف أنواعه، فأبغضته الرعية وودت التخلص منه، فاتفق كبيران من قواده على إخراج الملك من يده وهما: أرباسيس قائد عسكر مادي، وبيليزيس قائد جند بابل، فاتحدوا على محاربته وحاصراه في نينوى، فلما أيقن بالهلاك أحرق نفسه وقصره في سنة ٧٦٠ ق.م. وهكذا انقضت مملكة آشور الأولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها أرباسيس، وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون المدبرون والجهلاء الظالمون، ومن أشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة،

فافتتح بابل وما بين النهرين وأرمينيا وسوريا وآسيا الصغرى وجانباً من بلاد العرب، وتولى بعده ابنه قمبيز ففتح مصر في عهد ملكها أماسيس. ثم خلفه داريوس وآخرون لم يحسنوا السياسة فتقهقرت المملكة واختلت أحوالها. فلما ظهر الاسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع في ملك فارس ففتحها واستولى عليها، ولكن عمر الاسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكته فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس الذي لم يطل حكمه، وغزاها البريطانيون بقيادة أرساسيس الأول وظلت في حوزتهم خمسمائة سنة. ثم أنف الفرس من رضوخهم للنير الأجنبي فثاروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم اسمه أزدشير، فطرد البريطين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ بإسم الدولة الساسانية، ومن ملوكها كسرى أنو شروان الملقب بالملك العادل وهو أعظمهم، وصار لفظ كسرى لقباً لكل من ملك بعده منهم.

وكان مقام الأكاسرة في المدائن. وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طار ذكره في الآفاق يسمى إيوان كسرى أو طاق كسرى.

وحكم كسرى أنو شروان ٤٨ سنة ثم خلفه ابنه هرمز، وكانت أمه ابنة ملك التتر فاستوزر أستاذة الحكيم بزرجمهر فسارت الأحكام في أيامه على مثل ما كانت عليه في زمن أنو شروان، فلما توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات وأهمل شؤون المملكة، فعصاه الولاة وغزاه ملك التتر فأعانه عليهم قائد من قواده اسمه بهرام كان آية في الدهاء والذكاء، فطردهم من البلاد ثم تحوّل إلى محاربة الرومانيين ولكن بعض المقربين من هرمز وشوا إليه ببهرام، فأظهر له هرمز بعض الاحتقار مما أحققه عليه، فجاهر بعصيانه وخلعه وولى

بعده ابنه كسرى برويز وكان صبيّاً صغيراً، فطمع بهرام في الملك، وفرّ برويز من وجهه واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد الامبراطور موريس فأنجده ورد الملك إليه، ففر بهرام إلى بلاد التتر فأحسنوا وفادته ولكنه ما لبث أن توفي هناك مسموماً.

واستبد كسرى برويز بالحكم وقد عقد النيّة على صداقة الامبراطور موريس الذي رد إليه الملك، فبالغ في إكرام الرومانيين في بلاده فلما مات ذلك الامبراطور عاد إلى مناوأة الروم فأثار عليهم حرباً عواناً، وغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس فعثر هناك على الصليب الذي يُقال أن السيد المسيح صُلب عليه وكان في صندوق من الذهب في حفرة، فحمّله إلى المدائن. وكان برويز رغم ذلك خاملاً مترفاً منغمساً في الملاهي إلى أقصى حد حتى قيل إنه تزوج ١٢ ألف امرأة واقتنى خمسين ألف جواد، وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية يدعوه فيه إلى الإسلام. فاحتقر الكتاب وأساء حامله.

ثم ما لبث برويز أن علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده، ولم يقوَ على دفعه فما زال هرقل هاجماً وأهل القرى يفرون من أمامه حتى وصل إلى المدائن وبرويز لاهٍ بقصره ونسائه، فلما أحس بقرب الخطر فرّ، فقم عليه ابنه شيرويه فقتله وحكم مكانه سنة ٦٢٩ م ولكنه لم يحكم طويلاً فخلفه آخرون بالتعاقب حتى سنة ٦٣٠ م فتولت عرش الفرس فتاة من آل ساسان اسمها (بودان دخت) وهي ابنة كسرى برويز وفي أيامها هجم هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحمله إلى القسطنطينية، وحكمت بعدها أختها (آزرميدخت) سنة ٦٣٢ م (١٠ هـ) واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسمومة، وملك بعدها ملكان لم يطل حكمهما، وأخيراً أفضى الملك

إلى (يزدجرد شهريار) وفي أيامه فتح العرب بلاد فارس .

وكانت المدائن عاصمة الفرس ، ويسمىها اليونان كتي سيفون ، ويسمىها الطبري طيسبون . والغالب أن كتي سيفون قسم من المدائن وكانت على عشرين ميلاً من جنوب بغداد على الضفة الشرقية لدجلة ، يقابلها في الغرب بلدة اسمها (كوش) وبينهما جسر عظيم مبني من السفن . وكان إلى جوار ذلك المكان أيضاً آثار مدينة يونانية اسمها (سلوقية) نسبة إلى سلوقوس خليفة الاسكندر هناك . وقد سُميت هذه الأماكن كلها باسم المدائن (جمع مدينة) . وأصل بناء المدائن أنه كان في مكانها حصن كبير يسمى حصن كتي سيفون كان البريطانيون (الفرثيون) أبان سلطنتهم على العراق يقيمون به أثناء الشتاء لصفاء الجو هناك . وكان إلى جوار الحصن كما جرت العادة في مثل هذه الحال . وظلت المدائن مقام الأكاسرة في زمن الشتاء . وكانت محاطة بسور منيع عليه الأبراج والقلاع ، يزيده مناعة أن مياه دجلة تحيط به من جهة ، والآجام والمستنقعات تحيط به من الجهة الأخرى . فأصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستحيل وصول الأعداء إليها قبل أن تمزقهم نبال الفرس من الأسوار . وقد كان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينهما اسمها (نهر ملكا) ومعناها بالكلدانية نهر الملك ، تسهل نقل السفن بين النهرين .

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلّم ممتد بطول الضفة يصعد عليه الناس من النهر إلى المدينة بدرجات متينة مبنية من الحجر ، ويسمى هذا السلّم باصطلاح أهل تلك البلاد «مسناة» .

وكانت سفن الفرس ترسو عند المسناة فتبدو مئات منها هناك حتى تحال سواريتها غابة من الأعمدة تناطح السحاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل ، وشكل السفن يشبه شكلها في

العراق الآن، مبتورة المؤخرة كأنها قطعت بسكين قطعاً عمودياً فصارت عريضة ملساء، وأما مقدمها فإنه يصعد مستدقاً رويداً رويداً حتى إذا انتهى إلى أعلاه انحنى على شكل المنجل فتخال تلك السفن إذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد أديرت مقاديمها نحو المدينة سيوفاً عقفاء يحملها جند من الحرس يحمون بها المدائن.

ولو أطللت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لخيّل لك أنها غوطة فيها البساتين والمغارس بينها القصور والمنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الإيوان كأنه ملك عظيم الشأن يحف به الخدم والأعوان.

أما إيوان كسرى فهو قصر باذخ يسمونه أيضاً الطاق، جرى اسمه على ألسنة العرب وأقلامهم مجرى الأمثال لعظمته وفخامته حتى عدّوه من المباني العجيبة. وقد بناه سابور ذو الأكتاف وهو سابور بن هرمز في القرن الرابع للميلاد، لكنه يُعرف باسم إيوان كسرى أنو شروان. وقضى سابور في بنائه عشرين سنة ونيفاً، وأقامه وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لا يحول بين الإيوان والنهر إلا الحدائق والبساتين، وهي تنتهي عند الضفة بالمسناة المتقدم ذكرها وتحيط من مختلف الأنواع، ويحيط بالحديقة سور مبني من الآجر له أبواب عليها الحرس بقلانسهم وتروسهم ورماحهم، وفوق الأبواب رسوم فارسية نقشت على طينها قبل حرقه كما كان يفعل الآشوريون. وعلى جانبي الباب الأكبر المطل على المدينة تماثالان كبيران يمثلان الثور الآشوري المجنح برأس إنسان طويل اللحية متوّج الرأس، وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الأفيال وفيه بعض الفيلة المعدة لركوب الأكاسرة. وبين أبواب الحديقة والإيوان طرقات مرصوفة بالحصى ألواناً على شكل الفسيفساء يتألف من ترتيبها بعضها بإزاء بعض رسوم

تمثل أسوداً وأدميين وفرساناً ومركبات عليها الملوك والقواد يجذون في صيد الأسود، تشبه رسوم ملوك آشور أسلاف الفرس فيما بين النهرين. وأكبر تلك الطرقات وأوسعها طريق ممتد من الباب الكبير إلى باب الإيوان يصطف إلى جانبه الحرس عند دخول كسرى إلى الإيوان.

وأما بناء الإيوان فيتألف من قاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون، مبنية بالآجر والجص وسقفها عقد واحد، تقوم على عمد من الرخام المنقوش، ويصعد إلى أرض الإيوان بدرجات عند بابه. وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام، وإلى جانبي العرش مجالس أعوانه ومرازبته. وجدران الإيوان وسقفه مزينة برسوم بديعة في جملتها صورة كسرى أنو شروان وغيره من الأكاسرة العظام، وأبيات من شعر مكتوب بالحرف الكلداني الذي كان يكتب به الفرس قبل الإسلام. وفي سقف الطاق رسوم الأفلاك والأبراج والنجوم من ذهب منزلة في قبة زرقاء.

وكان للإيوان شرفات مزخرفة بالنقوش تُشرف على الجهات الأربع قائمة على أعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطاق من جهاته الأربع، طول الشرفة الواحدة خمسة عشر ذراعاً. وقد أدخل في بناء الإيوان من الذهب ما ربما زادت قيمته على مليون دينار.

وباب الطاق كبير نقش على عتبته العليا رسم الشمس مذهبة، وعلى كل من جانبي الباب تمثال أسد كأنه يمشي وعينه تتلألأ. والأسدان مصنوعان من الرخام محليان بالذهب وفي موضع العينين منهما زمردات زرقاء بديعة الشكل. وأما عتبته السفلى فمصنوعة من الرخام المرمر. ولا يخلو باب الإيوان من عشرات من الحرس، ولا

يخلو مجلس الأكاسرة من مئات من العلماء بين كاهن وساحر ومنجم،
ويسميه الطبري الحزاة فضلاً عن الحجاب والحراس والبوابين.
هذه كانت حال الإيوان عند ظهور الإسلام في القرن السابع
للميلاد.

— ٢٣ — ناسك حوران

تركنا حماداً في دير بحيراء غارقاً في لجج الأفكار تتقاذفه
العوامل بين المسير إلى العراق والمسير إلى البلقاء وكلا الأمرين شاق،
وكلما تصور مسيره إلى مدائن كسرى هاله موقفه موقف الخصم أمام
ملك الفرس وعظم عليه الانتقام منه وهو فرد وذاك سلطان ينصره
الجند والأعوان. ولم يكن ذلك ليهوله أو يكبر عليه لولا أمر هند
وتأجيل الاقتران. ولقد كان ميلاً كل الميل لاطلاع هند على ما كشف
له من نسبه مع ما جد من أمر التأجيل ليرى ما يبدو منها ومن أبيها،
ولكنه أثر الانتظار حتى يجد إلى ذلك سبيلاً لاثقاً. فلما تكاثرت عليه
المشاغل وضاق صدره خرج من غرفته دون علم عبد الله أو سلمان
بخروجه، وسار يلتمس مكاناً يخلو فيه لعله يوفق إلى رأي يخفف
قلقه. وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل فلاحته له أكمة على
بضعة أميال منه فركب وسار نحوها، وفيما هو في الطريق غاب
وجدانه بما اجتذب انتباهه من الشواغل فسار الجواد حثيثاً وحماد لا
يعلم، فلم ينتبه إلا وهو في سفح جبل فالتفت إلى الوراء فإذا ببصرى
والدير قد غابا عن بصره، ونظر إلى الشمس فراها مائلة نحو المغيّب
فوقف يفكر فيما يفعل وهل يعود إلى بصرى أم يجلس هناك هنيهة،
فنظر إلى ما حوله فرأى نفسه في وادٍ بين جبلين أجردين كسائر جبال
حوران، فترجل وقاد جواده صعداً يلتمس قمة أحد الجبلين لعله
يشرف منها على بصرى فيعرف جهتها. وفيما هو صاعد حانت منه

التفاتة إلى الجبل المقابل فرأى كهفاً نحتته يد الطبيعة في سفح ذلك الجبل ولاح له شبح يتلصص بين الصخور هيئته بين الآدمية والوحشية لطول شعره وعريه. فوقف حماد ينظر إلى ما يبدو منه فما لبث أن رآه يهرول نحو الكهف حتى دخله وتوارى.

فمال حماد إلى استطلاع حقيقة ذلك الشبح وتحول نحو الكهف يقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكان صوتاً غير صوت وقع أقدامه وقرقرة حوافر جواده تدوي في أنحاء ذلك الوادي ويتخلل الدوي طقطقة حجارة تتدحرج من مواقع حوافر الفرس ممتزجة بصوت صهيله. فنزل الوادي ثم همّ بالصعود حتى إذا صار على مقربة من الكهف رأى صخراً يتدحرج نازلاً نحوه فتحول من طريقه وعلم أنه إنما دحرج من الكهف عليه عمداً فلم يبال، بل ازداد ميلاً إلى معرفة ذلك الشبح فما زال صاعداً حتى دنا من الكهف فإذا بصخر آخر يتدحرج فنأدى بأعلى صوته: «لا ترمنّا بالحجارة فلسنا براجعين من هذا المكان قبل الوصول إليه». فردد الوادي صدى كلامه أضعافاً فتهيب من موقفه وزاده تهيئاً قرب غروب الشمس واختلاط الظلال حتى كادت تتحول إلى ظلام. فشعر إذ ذاك بأنه أساء التصرف بمجيئه إلى ذلك المكان الوعر مع ما فيه من الوحشة، ولكنه تجلد وتفقد حسامه وخنجره. ثم ما لبث أن وصل إلى باب الكهف فظهرت له مغارة لا يرى آخرها لعمقها ولا يستطيع الدخول إليها والفرس معه فوقف وهدق ببصره إلى الداخل لعله يرى أحداً فلم يقع نظره على شيء فصاح قائلاً: «من يقيم بهذا الكهف فليخرج إلينا لأننا غير متحولين عنه قبل أن نراه ولا خوف عليه». قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبة لسكون الطبيعة سكوناً لا يتخلله تغريد طائر ولا نقنقة صفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حي أو جامد

غير سهيل الفرس ووقع حوافره. فهم حماد بشدّ الجواد إلى صخر والدخول إلى المغارة بنفسه. وفيما هو يهيم بذلك ظهر له شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لأقدامه وقع فثبت حماد قدمه وتحفز للدفاع إذا اقتضت الحال. فلم يكذب يفعل حتى وصل ذلك الشبح إليه فإذا هو رجل عار يكسوه شعر رأسه المسترسل إلى قدميه وقد علاه الشيب، على أن الكبر لم يغير شيئاً من اعتدال قامته الرجل ورشاقة حركته وحدة بصره وإن يكن جلد وجهه قد تجعد وشعر حاجبيه وشاربيه قد طال وشعر صدره أصبح لغضه وبياضه كأنه زبد الصابون، وطالت أطراف يديه ورجليه.

فلم يكذب نظر حماد يقع عليه حتى هاب منظره، ولو لم ير في يده صليباً كبيراً لخيّل له أنه من مرّدة الجان ولكنه أدرك لأول وهلة أن الرجل ناسك من نساك تلك الأيام انقطع عن العالم وأوى إلى الكهوف التماساً للعبادة. وكان قد سمع بكرامة هؤلاء النساك وصدق نظرهم في عواقب الأمور، فلاح له أن يخاطبه فيما هو فيه ويستشير في أمره لعله يخفف شيئاً من قلقه. فتقدم نحوه باحترام وهمّ بتقيل الصليب في يده، فأدناه من فيه فقبله ثم خاطب الناسك قائلاً: «لعلك ناسك مقيم بهذا المكان؟». فأجابه الناسك بحني الرأس أن «نعم». فقال: «هل تأذن لي في أن أثبتك بعض ما في ضميري على سبيل الاعتراف لتشير عليّ بما يوحى به إليك الروح القدس؟».

فأجاب الناسك بالإشارة أنه لا يستطيع التكلم الآن لأن من شروط نسكه أن يصمت أسبوعاً وينطق أسبوعاً، وأن آخر أسبوع الصمت ينتهي الليلة فإذا جاء في الغد خاطبه. وكان التنسك شائعاً في تلك الأيام، والنساك أنواع منهم من ينذر الصمت طول الحياة أو بعضها، ومنهم من ينذر العري أو الجوع أو السهر أياماً، ومنهم من

ينذر العيش على عشب الأرض وهؤلاء فئة كبيرة كانت بين النهرين سموا «النسك الرعاة» فيقيمون بالمغاور والكهوف المظلمة.

وكان ناسك حوران هذا قد نذر الصمت أسبوعاً فسّر حماد بتأجيل المقابلة خوفاً من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقه في عودته لشدة الظلام. فقال: «ألا آتي إليك معي بطعام أو نحوه من بصرى؟». فأفهمه الناسك بالإشارة أنه من النسك الرعاة الذين يعيشون على عشب الأرض.

فقال له: «ولكنني أرى الأرض هنا مجدبة لا عشب فيها».

فأشار الناسك بيده إلى مكان وراء ذلك الجبل فيه مرعى.

فقال حماد: «وأين الطريق إلى دير بحيراء؟». فدلّه على طريق سهل غير الذي جاء منه، فودعه وقبل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل إلى الطريق فركب وسار قاصداً الدير، فلما بلغه وجد عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقا لغيابه، وقال له عبد الله: «لقد شغلت بالنا بغيابك».

فلم يشأ حماد اطلاعهما على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمان ريثما يسمع كلام الناسك فيطلعهما على الحكاية كلها، وبقي ساكناً. فقال عبد الله: «ما الذي حملك على الركوب منفرداً؟». فكبر عليه الإقرار بقلقه وتهيبه من الأمر فقال: «خرجت للترويح عن النفس».

فأدرك عبد الله حاله، ولم يشأ أن يثبط عزيمته ولا أن يزيد قلقه خوفاً عليه من اليأس فقال له: «أرى سيدي في اهتمام وقلق وما في الأمر ما يدعو إلى ذلك».

فظل حماد صامتاً مفكراً، فأدرك سلمان أن في نفس حماد كلاماً

لعله لا يريد التصريح به على مسمع منه فتظاهر برغبته في ترك الغرفة لأمر يهيمه، فلما خرج قال عبد الله لحماذ: «ما بال سيدي لا ييوح بسرّه؟ أأست شريكك في أمرك؟».

قال: «بلى أنت بمنزلة أي، ولا أخفي عليك شيئاً، فإني في قلق وارتباك وأراني في حاجة إلى مَنْ يفرج كربتي برأي أو مشورة ومسألتنا على ما تعلم من الدقة والخطر».

فقال عبد الله: «هلم بنا إلى الراهب الشيخ الذي شاركناه في سرّنا لعله يشير علينا بما يفرج كربتنا». فوافق على ذلك وخرجا حتى أتيا غرفة الراهب فدخلوا عليه، وكان متكئاً فجلس ورحب بهما فجلسا ثم قال عبد الله: «إنك يا مولاي شريكنا في سرنا وعالم بما في ضميرنا فهلا أشرت علينا بما يخفف عنا؟».

فقال الراهب: «إن المسألة غاية في الدقة والمشقة، وقد أدركت ذلك منذ سمعت القصة ولا أدري بماذا أشير». قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هبّ من مجلسه بغتة وقال: «أرى أن تذهبا إلى ناسك حوران فإنه يقيم بكهف على مقربة من هذا المكان، فعساه يشير عليكما بما فيه خيركما».

فبغت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال: «هل تظنه قادراً على ذلك؟».

قال: «نعم يا سيدي أنه أوتي علماً وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة».

فقال عبد الله لحماذ: «هل عرفته قبل الآن؟».

فقال: «أعترف لك بأني وصلت إليه اليوم اتفاقاً وخاطبته فأجابني بإشارة يديه أنه لا يستطيع التكلم إلا في صباح الغد لأنه ممن

نذروا السكوت أسبوعاً والتكلم أسبوعاً».

فقال عبد الله: «فلنذهب إليه غداً إن شاء الله، فهل ترافقنا يا حضرة الأب المحترم إلى مغارته؟».

قال الراهب: "يا حبذا لو استطعت المسير إليه معكما، ولكنني شيخ لا أقوى على المشي ولا الركوب والطريق وعمر، فسيرا إليه يحرسكما الله ودعوني هنا أصلي وأتضرع إليه تعالى أن يسهل سبيلكما». فودّعه وخرجا.

في صباح اليوم التالي قال حماد لعبد الله: «ألا نصطحب سلمان في مسيرنا إلى الناسك؟».

قال عبد الله: «لا أرى ما يمنع ذلك وسلمان كما تعلم أكثر غيرة علينا من غيرة أحدنا على الآخر، ولا أخالنا نستغني عنه فيما نحن فيه، ولا يليق بنا وقد صحبناه أعواماً خدمنا بها خدمات جمة أن نخفي عليه أمراً نجريه».

قال حماد: «ذلك ما أراه»، وبعثا إليه فصحبهما، وخرجوا في الصباح على جيادهم وحماد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل وأطلوا على الكهف فقال حماد: «هذا هو الكهف وكأني أرى الناسك في انتظارنا عند بابه».

فنظر عبد الله إلى الكهف فوقع بصره على الناسك وتيب منظره، ثم صعدوا فلما دنوا من الكهف تحفز الناسك لملاقاتهم وكانوا قد ترحلوا ومشوا نحوه فقال: «أهلاً بكم ومرحباً». وأخذ يتفرس فيهم واحداً واحداً بعينين براقيتين تحت حاجبين بارزين.

فقال حماد: «مرحباً بك أيها المتعبد التقى، لقد جئناك اليوم حسب وعدك، وهذا أبي (وأشار إلى عبد الله) وهذا صديقي (وأشار

إلى سلمان). . .». وتقدموا جميعاً وعبد الله ينظر إلى وجه الناسك كأنه يعرف وجهاً مثله، وكان الناسك مشغولاً بإعداد أحجار يجلسون عليها وهو يخطر أمامهم عارياً وشعره مسترسل عليه يجلل بعضه فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر إليه إلا خلسة.

فلما أعد الحجارة تقدموا إليه وقبلوا يده فباركهم وجلسوا. أما هو فجثا على التراب جثو المستريح وجمع شعر رأسه ولحيته في حجره وأخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم إمكانه القيام بحق ضيافتهم.

فقال عبد الله: «لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحاباً، فقد بلغنا أنك من رجال الله المختارين، فنظرة منك تغنينا عن أثاث القصور». قال ذلك وهو ينعم النظر فيه لعله يذكر الوجه الذي يشبهه.

فقال الناسك: «إني أحقر عباد الله وأشكر لكم حسن ظنكم بي وما تكبدتموه من المشقة في زيارتي، فأبسطوا ما في أنفسكم لعلّي أستطيع بمشيئة الله أن أخدمكم لمجده تعالى».

فقال عبد الله: «إننا من طائفة النصارى الذين يعتقدون بكرامة النساك عباد الله ونعتقد أنهم ينطقون بوحى منه تعالى، وقد جئنا لنظلعك على سر لم يطلع عليه أحد سوانا وراهب مقيم بدير بحيراء. والسر ذو خطر يستلزم إصغاء وكتماناً، ونحن معاشر النصارى نعلم خطورة سر الاعتراف وما فيه مما يدعو إلى الثقة التامة بأمثالكم».

فقال الناسك: «قل يا ولدي ولا تخف».

فالتفت عبد الله يميناً وشمالاً كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وقال: «يظهر لي أنك من أهل العراق».

قال الناسك: «لقد أصبت المرمى. وما الذي ذلك على ذلك؟».

قال دلني عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيل لي إنك من النساك الرعاة وهم كثيرون في العراق».

قال: «نعم يا ولدي إني كما قلت».

قال: «هل تعرف الملك النعمان بن المنذر؟».

فلم يكده عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغته على وجه الناسك وأبرقت عيناه وقال وهو يشرب بعنقه ويحديق بعينه: «نعم أعرفه».

فعجب عبد الله لتلك المظاهر ولكنه تجاهل وقال: «تعرفه معرفة جيدة أم تسمع بإسمه وأخباره!».

فقال الناسك ويده في لحيته يمشطها بأصابعه: «بل أعرفه كما تعرف ولدك هذا». قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم أنه يبكي. فقال عبد الله: «أراك يا سيدي قد اهتممت لحكايتنا من أول كلمة قلناها».

فقال الناسك ويده إلى عينيه يمسح بها دموعه وقال: «إنّ ذكرى الملك النعمان تهيج أشجاني وتفتت كبدي، فهل يهمكم من أمره ما أهمني؟ أم جاء ذكره على لسانكم عرضاً».

قال: «بل هو محور حكايتنا ومرجع سرنا رحمه الله».

وكان حماد وسلمان شاخصين يعجبان لما يبدو من الناسك، وعبد الله يزداد استئناساً بطلعته ولكنه لم يدرك ما الذي يدعوه إلى ذلك.

فقال الناسك: «قل ما عندك عن النعمان، إني أرتاح لذكره ولكنني أتأسف لتذكري عاقبة أمره».

فأشار عبد الله إلى حماد وقال للناسك: «إذا كان النعمان يهمك

إلى هذا الحد، فانظر إلى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفه؟».

فمسح الناسك عينيه ونظر إلى حماد وجعل يتفرس فيه ولم يكذب
يتأمله حتى صاح بأعلى صوته: «إنه ابن النعمان لا شك في ذلك». وهَمَّ به وضمه وأخذ يقبله.

فخفقت قلوبهم وبكوا جميعاً والناسك يضم حماداً إلى صدره
يقبله ويبكي.

فازداد عبد الله استغراباً للأمر وقال للناسك: «لقد أذهلتنا بما
بدا منك، فكيف تقول إنه ابن النعمان وقد كان أبرش أحمر وهذا
أسمر أدهج».

قال: «إن ملامح النعمان قد تمثلت فيه وهو الرجل الذي
رغبت عن العالم وانقطعت إلى هذه الجبال من أجله».

فبهتوا لهذا القول ولم يفهموا مغزاه، فأراد عبد الله أن يستطلع
حقيقة الخبر فقال: «وهل تعرف الذي يكلمك؟».

فنظر إلى عبد الله نظر المتأمل وقال: «لعلك صديق الملك
النعمان وشريكه في مصابه (شمعون الحيري)». وكان هذا هو الاسم
الذي عُرف به عبد الله إذ ذاك.

فذهلوا جميعاً ولا سيما عبد الله فأعاد نظره إلى الناسك وازداد
استئناساً به ولكنه لم يذكر كيف عرفه فقال: «أما وقد علمنا أنك
شريكنا في الأمر فأخبرنا مَنْ أنت وفرّج كربتنا».

فصعد الناسك الزفرات وقال: «أما أنا فإني القس الذي ارتد
النعمان إلى النصرانية على يده بعد أن كان أسلافه قد نبذوها وعادوا
إلى الوثنية أو المجوسية ديانة الفرس».

فانتبه عبد الله من غفلته كأنه أفاق من رقاد وقال: «لعلك

القس يعقوب؟».

قال: «نعم، وقد كنت مقيماً بدير هند الكبرى المنسوب إلى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار وهو في ظاهر الحيرة، وكانت هند هذه كما تعلمون قد ترهبت فيه فسُمي باسمها، ولكنني كنت أختلف إلى النعمان كثيراً ويطلعني على أسراره حتى كان ما كان من أمر سجنه في خانقين، فبرحت الحيرة وسرت إلى هناك وجعلت أتردد إليه في السجن. ألا تذكر أنك كنت تراني هناك؟».

قال: «أذكر ذلك جيداً وما زلت منذ رأيته الآن وأنا أفكر فيه». ثم همّ عبد الله به وتعانقا وهما يبكيان، أما الناسك فتحول نحو حماد وضّمّه وجعل يقبله ويبكي ويقول: «أحمد الله على أني رأيته قبل موتي».

ولبثوا برهة صامتين وكل يبكي ويمسح دموعه بكمه إلا الناسك فقد كان يمسحها ببطن كفه.

ثم قال عبد الله: «أقصص علينا بقية الخبر يا حضرة القس المحترم».

قال: «كنت أتردد إليه في السجن أصلي له وأباركه وأدعو له، وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه: «لدي سر سأطلعك عليه في فرصة أخرى». وكنت أتوقع سماع ذلك السر في كل زيارة وهو يسوفه. وكنت كلما سرتُ إليه رأيته وأعجبت بغيرته عليه. فسألته عنك يوماً فذكر لي أنك مستودع أسراره وأنه يثق فيك وثوقاً تاماً. وما زلت أختلف إليه حتى أصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا أظنه إياه. فزرتة ولم تكن أنت ساعتئذ هناك فقال لي: (أراني لن أنقّه من مرضي هذا، ولعلّ القضاء سيعاجلني وأخاف ألا أملك فرصة أخاطبك بها). فقلت: (قل يا سيدي ولعلّ الله شافيك

بإذنه). ثم بكى وبكى.

قال الناسك ذلك وخفته العبرات والجميع سكوت يصغون إليه ويتناولون بأعناقهم ويحدقون بأبصارهم في شفتيه وهما ترجفان من شدة التأثير، فسكت الناسك هنيهة ريثما استرجع قواه ثم قال: «فأمسكني النعمان رحمه الله بيدي وأداني منه وأسر إليّ أمراً خطيراً ذكر أنه أسره إليك ولا أدري هل يجوز لي التلفظ به وهو سر الاعتراف».

فقال عبد الله: «لقد قلت أني عارف به فلم يعد من قبيل سر الاعتراف وقد أطلعت ابنه ورفيقنا هذا عليه».

فقال الناسك: «أما والحال على ما تقول فأخبركم أنه أداني منه وهو جالس على فراشه في ذلك السجن وقال: (إني سأقضي نحبي هنا ظلماً من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على إنسان، وسأترك أهلي وأولادي دون أن أراهم وأودعهم، وإني عالم أن سلطان الحيرة سيخرج من بني لخم بعد موتي، فأسرت إلى شمعون أن يربي ولدألي لم يولد بعد وأن يكتم نسبه عنه حتى يبلغ العشرين من عمره فيقص شعره في دير بحيراء ثم يطلعه على حقيقة نسبه. وتركت لولدي هذا وصية حرضته فيها على أن ينتقم لي من دولة الفرس). فلما سمعت كلامه اقشعر بدني واستعذت بالله من ذلك كله وقلت: (يا سيدي الملك، أراك تستعجل الأجل وليس ما يدعو إلى قربه، وأما الانتقام فاتركه إلى الله سبحانه وتعالى وهو الديان العظيم). فأجابني والدموع تحنقه: (لقد قُضي الأمر يا أبتاه ولا أرى الرجوع عنه والله يقضي بما يشاء). قال النعمان ذلك واختلج صوته وارتعدت فرائصه ثم غاب صوابه. وفيما نحن في ذلك جاء السجنان يشدد النكير على من يدخل إلى النعمان فخرجت ولم أعد أراه، ثم ما لبثت أن سمعت بانتقاله إلى

دار البقاء (قال الناسك ذلك وتنهد) وعلمت واحسرتاه عليه أنه لم يمت بخانقين بل نقلوه إلى ساباط فمات فيها فلما سمعت ذلك كرهت الدنيا وتحققت فناءها وازددت زهداً فيها، فالتجأت إلى النسك واخترت أكثره زهداً وهو هذا الذي أنا فيه، أعيش على نبات الأرض وأمكث عارياً كما ترون. وكنت مقيماً بالعراق مع رفاق كثيرين من الرهبان وذكر النعمان لم يبرح من ذهني يوماً واحداً وصورته نصب عيني وهو على ذلك الفراش في خانقين وما زلت أردد كلماته الأخيرة، فأحببت الاطلاع على ما فعلته أنت من هذا القبيل فلم أعرف مقامك، ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاته ولم أرك ولا عرفت مقرك قلت: (لعله يقيم بالبلقاء قرب دير بحيرة لأجل وفاء النذر عند حلول الميعاد). فجئت وأقمت بهذا الكهف وفي نفسي شيء أريد أن أطلعك عليه فلم أسمع عنكم خبراً ولا أنا أستطيع البحث لانقطاعي عن الناس فضلاً عن أني لم أكن أعرف اسمك الجديد فكنت أتوقع أن أسمع خبراً عن شمعون الحيري فلم أسمع هذا الاسم قط».

قال عبد الله: «وما الذي في نفسك وتريد أن تطلعني عليه؟».

قال: «هو خبر يتعلق بوصية النعمان لك ولابنه، فأحك لي ما تم في أمر النذر هل وفيته وأطلعت هذا الملك على حقيقة نسبته؟».

قال عبد الله: «نعم يا مولاي لقد وفينا النذر بعد ميعاده».

وحكى له القصة من أولها إلى آخرها حتى أتى على سبب مجيئهم إليه فقال: «وقد جئنا إليك لعظم ما قام في نفس مولانا الملك من الاهتمام بأمر الانتقام، لعلك تشير علينا بما يخفف ما بنا، أو تهدينا سبيلاً مستقيماً».

فقال الناسك: «لقد وقعتم على خير، وإن في بقية قصتي ما

يفرج عنكم كل كرب إن شاء الله».

فاستبشر عبد الله وحامد وسلمان بانفراج الأزمة، وسروا لقدمهم على هذا الناسك، فقال عبد الله: «أخبرنا ببقية قصتك بورك فيك».

قال: «كنت لفرط اهتمامي بأمر الملك النعمان ووصيته لا أبرح أفكر في هذا الأمر نهائياً وأحلم به ليلاً، حتى استيقظت ذات صباح والناس يتحدثون بأمر كسرى برويز قاتل النعمان وأن ابنه شيرويه تأمر عليه وسجنه فقلت في نفسي: (هذه عاقبة القوم الظالمين). ثم ما لبثت أن سمعت بأنه قتله فاعتبرت بحكمة الله سبحانه وتعالى وشعرت براحة، فبت تلك الليلة أتأمل في عاقبة الظالمين وقول القائل: (وأذّر القاتل بالقتل). فرأيت في منامي كأن الملك النعمان قد أدم إليّ بلباس ناصع البياض ووجه منير باسم، فخشعت لرؤيته على هذه الصورة ثم سمعته يقول: (لا تعجب يا يعقوب لمقتل برويز المجوسي فقد أعد الله له ما هو أعظم من ذلك ليعتبر القوم الظالمون).

فقلت وقد بهرني نور وجهه فأطرقت: (وماذا عسى أن يكون أعظم من الموت قتلاً بسيف البنين؟). فقال لي: (سوف ترى وكل آت قريب). فرفعت نظري لأراه فغاب عن بصري، واستيقظت من منامي مذعوراً. ولم تمض بضع سنوات حتى وقع في سلالة برويز ما لم نسمع مثله في غابر الأزمان أتدرون ما هو؟».

قال عبد الله: «وماذا تعني؟».

قال: «كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولداً كلهم ذو أدب وشجاعة ومروءة، ومنهم شيرويه الذي تولى الملك بعده، فوشى رجل اسمه فيروز بأخوة شيرويه إليه فأمر بقتلهم جميعاً، فقتلوا صبراً

في ساحة الإيوان وهو ينظر إليهم، ولكن شبرويه لم يهدأ له بال بعد عمله هذا فإن أخته بوران وأزرميدخت وبختاه توبيحاً شديداً فبكى بكاء مرأً ورمى بالتاج عن رأسه، ولم يزل بقية أيامه مهموماً دنفاً، ولاقى المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فأباد أكثر أهل بيته، وأخيراً مات وهو كئيباً حزيناً، فهل هناك ما هو أشد وطأة من هذا الانتقام؟. وزارني ملاك النعمان بعد هذه الحوادث وهو يضحك وأمارات البشر ظاهرة على وجهه فهمت بالوقوف للقاءه فشعرت بنفسي ثقلاً لا أستطيع النهوض فابتدرني هو قائلاً: (لقد انتقم لي الله من برويز المجوسي فطابت نفسي، وأرى وصيتي لولدي حملاً ثقيلاً على عاتقه، فقد شعرت بضعف بني الإنسان واقتنعت بما أشرت عليّ به وأنا في سجن خانقين). قال ذلك وتوارى عن بصري وأنا راقد لا أستطيع حراكاً، ثم استيقظت وصورة النعمان أمام عيني ويكاد النور ينبثق من وجهه».

فلما بلغ الناسك إلى هذا الحد من حكايته شعر كل من السامعين بانفراج الأزمة، وأحس حماد كأن حملاً ثقيلاً نزل عن ظهره. أما سلمان فكان إلى ذلك الحين صامتاً لم يفه بكلمة، فلما فرغ الناسك من كلامه وقف سلمان وهَمَّ بيد الناسك فقبلها وقال: «لقد أتيّتنا فرجاً من عند الله ولكن قلوبنا لا تشفي إلا بعمل نعمله على قهر أولئك الكفرة الغاشمين».

فنظر الناسك إليه وتبسم تبسماً قلما تعودده وقال: «تلك أعمال الله يا ولدي وستسمع بذهاب دولة الفرس قريباً فلا يبقى ثم من تنتقمون منه».

فلم يفهموا مغزى كلامه فقال عبد الله: «هل تعني شيئاً محدوداً أوجي به إليك فإنكم معشر الناسك ذوو كرامة؟».

قال الناسك: «أشير إلى أمر لا يحتاج إلى وحي أو كرامة بل هو ظاهر يفهمه كل عاقل. أرى حال الفرس واختلال شؤونهم واضطراب أحوالهم حتى توالى على عرش ملكهم خمسة ملوك في خمس سنين، وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وإبادة الآخرين، وأضعفهم رأياً يزدجرد الذي يتولى الملك الآن، فلا بد من زوال دولة الفرس على يده. ألا يدلكنم شيخوخة دولتهم وهرمها على قرب انقضاء أجلها؟ إن للدول آجالاً كآجال الناس، وهي تمر بأدوار تنتهي بالموت. ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث أن تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد».

قال عبد الله: «ولكن لا تنقضي دولة إلا على يد دولة أخرى تقوم مقامها، فمن سيخلف هاتين الدولتين؟». قال: «أما سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذي كان يقيم بديره هنا؟».

فتذكر حماد ما سمعه من الراهب الشيخ في تلك الصومعة يوم جاءها لملاقة هند هناك فقال: «سمعتها من الراهب الشيخ، فقد حكى لي مرة أن بحيراء رأى في منامه فتى جميل المنظر مولده برج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل، وعلم منه أنه هو الذي سيهدي أبناء جلده بني اسماعيل إلى معرفة الله، فيقوي به أمرهم ويشد أزهرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون أبناء عمهم بني إسحاق ويتسلطون عليهم مدة توافق ما أشار إليه دانيال في نبوته وأنه يخرج من أولئك العرب اثنتا عشرة دولة، أليس ذلك ما تعنيه؟».

قال الناسك: «هذا ما عينته وأزيد عليه أن الرجل المنتظر قد ظهر في جزيرة العرب ودعا الناس فيها إلى عبادة الله ونبذ الأوثان، وقد فتح مكة وكسر أصنام الكعبة وانتشر سلطانه في الحجاز واليمن، وسيفتح الشام والعراق ويخلف الفرس والروم في سلطانهما».

فقال حماد: «لقد شاهدنا قوته وسلطانه بأعيننا يوم فتح مكة، وكان يوماً مشهوداً، ويظهر من رغبته في سبيل الله وتفاني أنصاره وأصحابه في نصرته أن دولته ستغلب الدول كلها إن عاجلاً أو آجلاً».

قال: «فليس ثمة إذن ما يدعو إلى تكبد الخطر للانتقام من أكاسرة الفرس، وقد رأيتم أن قاتل حبيبنا النعمان قُتل هو وأولاده شر قتلة، وسيقضي العرب على دولتهم إن شاء الله».

فوقع كلام الناسك على قلب حماد برداً وسلاماً، فارتاح باله من أمر الانتقام المعجل وانصرف فكره إلى هند وشعر بميل شديد إلى رؤيتها وخاف أن تسيء الظن به إذا طال غيابها بعد يوم الشعانين وهم في اليوم الثاني منه، فتظاهر بميله إلى الانصراف، وأدرك عبد الله ذلك فقال للناسك: «أتأذن لنا في الذهاب على أن نغتني الفرص لزيارتك حيناً بعد حين، وهل تطلب منا أمراً نقضيه لك؟».

قال: «لا أريد من هذا العالم شيئاً، فقد رأيتم زهدي فيه، ولم يكن في نفسي شيء غير رؤية ابن حبيبي النعمان لأقص عليه ما أوثمت عليه مما خاطبني به أبوه في الحلم، فأحمد الله على نيل بغيتي فإذا مت الآن فإني أموت قرير العين ناعم البال».

فقال عبد الله: «أطال الله بقاءك، ونرجو أن نراك مراراً». قال ذلك ونهض فنهضوا جميعاً وودعوا الناسك وانصرفوا على جيادهم وكأن على رؤوسهم الطير.

أما حماد فإن ذهنه ما برح مشغولاً بأمر هند، ورغب في اطلاعها على حقيقة نسبه، فلما وصلوا إلى الدير مروا بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوا على ما دار بينهم وبين الناسك، فلما أنبأوه بما علموه من أمره أطرق يفكر ثم قال: «لقد خيل إلي منذ رأيت هذا

الناسك أنه لم يغادر خصب العراق ويقيم بهذه الجبال المجدبة إلا لدافع دفعه إلى ذلك، وقد صدق ظني ويسرني أنه أطلعكم على ما خفف قلقكم وهون عليكم فما أنتم في حاجة إلى الانتقام من كسرى وقد كفاكم الله مؤونة ذلك. أما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منها فقد أيدته الحوادث الجارية، فإن هؤلاء الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فتحاً وقاتلاً فدانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد، وقد شهد حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطش هؤلاء العرب وقوة جامعتهم، كما شهد كل من رأى حروبهم في مؤتة هنا بأنهم كافحوا كفاح الأسود وصبروا على الحرب صبر الرجال، ولكنها أول مرة لاقوا فيها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية فلم يفوزوا، والظاهر أن وقعة مؤتة كانت أمثلة علمتهم كيف تؤكل الكتف حتى إذا رأوا في جندهم الكفاءة أعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق أيضاً». فقال عبد الله: «وهل علمت أنهم حملوا على العراق؟».

قال: «نعم إنهم حملوا عليه حملة إذا لم يكن فوزهم فيها تاماً فلا أقل من أن يؤذوا الفرس ويضيقوا عليهم». فقال حماد: «وكيف عرفت ذلك يا مولاي؟».

قال: «أخبرني بذلك تاجر من أهل مكة تعودنا لقاءه هنا كل عام أو عامين ولي معه صداقة ودالة، فقد مر بي من بضعة أيام وأطلعني على حوادث تلك الدولة بعد فتح مكة حتى الساعة فإذا هي مما يدل على أن دولتي الروم والفرس زائلتان، إذ أخبرني ذلك التاجر أن أولئك الحجازيين بعد أن فتحوا مكة عادوا إلى المدينة وأنفذوا جنداً منهم إلى من بقوا في جزيرة العرب على غير الإسلام فغزوا غزوات عدة فازوا فيها كلها. ومن أكبر قوادهم رجل اسمه خالد بن الوليد

أتى بالمعجزات في حروبه حتى سماه النبي (سيف الله). ومنهم أيضاً علي بن أبي طالب ابن عم النبي وهو بطل مجرب، وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريه اسمهم عبد الله بن أبي قحافة ويُلقَّب بالصدِّيق وكنيته أبو بكر وهو حمو النبي والد امرأته عائشة. ومنهم رجل آخر ينذر مثاله في العالم في شدة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمه عمر بن الخطاب، وآخر اسمه عمرو بن العاص، وغير هؤلاء جماعة كبيرة. فتمكن بذلك من إذلال قبائل العرب حتى إنه لم يعد يحتاج في إذلالهم إلى إرسال الرجال بل كانوا يفدون عليه وفوداً يلتمسون الدخول في دينه عن رضا وطيبة خاطر. وقد جند جيشاً بقيادة رجل اسمه أسامة بن زيد وأمره أن يسير إلى فتح الشام، وفيما هو في ذلك وإفاه القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خلف أبطالاً قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعده حموه أبو بكر المتقدم ذكره وهو شيخ جليل القدر، وأخبرني التاجر المكي أن المسلمين لما مات النبي اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعده لأنهم قسمان: قسم يُقال لهم الأنصار، وقسم يُقال لهم المهاجرون».

فقال حماد: «وما معنى هذه الأحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا؟».

قال: «لا يا ولدي إن المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة إلى المدينة يوم شدد أهل الكير عليه هناك فتبعه من قريش أكثرهم غيرة عليه فسُموا المهاجرين، وأما الأنصار فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرته لما جاءهم مهاجراً فحاربوا معه فسُموا الأنصار. وقد اختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يخلف النبي وكادت تقوم بينهم فتنة. وقال لي التاجر المكي أن الفضل في فض هذه المشكلة لأحد المهاجرين وهو عمر بن الخطاب الذي ذكرته لكم الآن، فهو الذي

توسط في الأمر وبائع أبا بكر فبايعه الناس احتراماً له أو خوفاً منه فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قريش قبيلة النبي».

قال عبد الله: «فخليفة المسلمين الآن أبو بكر الصديق هذا؟».

قال: «نعم، وقد حدث عقب وفاة النبي أن تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الإسلام في حياته، فارتد كثيرون منهم إلى ما كانوا عليه من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما. وخاف المسلمون عاقبة ذلك فاجتمعوا وأوعزوا إلى أبي بكر أن يعدل عن إرسال الجند إلى الشام لاحتياجهم إليهم في قمع المرتدين فأبى إلا إنفاذ ما أمر به النبي، فأرسل أسامة وجنده إلى الشام. ومما حكاه لي التاجر المكي حكاية وقعت لأبي بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس».

فقال عبد الله: «وما هي؟». قال: «أخبرني التاجر أن أبا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة، وكان أسامة راكباً وأبو بكر ماشياً، فخرجل أسامة من ذلك لأنه شاب وأبو بكر شيخ فضلاً عن كونه رئيسه، وأراد أن يترجل ويركب أبو بكر، فأبى إلا أن يشيعهم ماشياً. ويدل ذلك على رغبة حكامهم في الخدمة لا الرئاسة. ومما أوصاهم به قبل عودته قوله: (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً). هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا؟ لا أنكر عليكم أن النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكامنا نبذوا الدين نبذ النواة وسيعود ذلك عليهم وبالأ». قال الراهب ذلك وقد أخذت الحدة منه مأخذاً عظيماً حتى ارتجف صوته وارتعشت لحيته ثم سكت.

وكان عبد الله وحامد وسلمان متطاولين بأعناقهم يسمعون

حديث الراهب وقد زادهم تأثراً ما أنسوه من اهتمامه فقال عبد الله : «إن مثل هؤلاء لا بد من أن يغلبوا العالم ويفتحوا الأمصار، فعساهم أن يبدؤوا بالعراق وينقذوننا من دولة الفرس الظلمة» .

فقال الراهب وقد تنفس الصعداء : «إنك تتمنى أمراً قد وقع فعلاً، فإن جيش أسامة هذا لم تطل غيبته لعلمه أن الخليفة في حاجة إليه لقتال أهل الردة. فعاد بجنده وانضم إلى المسلمين في حروب أهل الردة. وكان بعض الناس قد ادعوا النبوة، منهم رجل في اليمن اسمه الأسود العنسي التفّ حوله حزب كبير، ورجل آخر في نجد اسمه طليحة الأسدي من بني أسد. وآخر في اليمامة اسمه مسيلمة، وآخر اسمه ذو التاج لقيط بن مالك وغيرهم كثيرون من المتنبيين ودعاة الأحكام حتى لم تبق قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين واليمامة ومهرة إلا نبذت طاعة المسلمين وارتدت عن الإسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن أبا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعده في ذلك قواده المحنكون ولا سيما خالد بن الوليد فإنه عمل أعمالاً غريبة، وكذلك عمرو بن العاص وغيرهما، فقضوا في الكفاح سنة كاملة حتى دانت قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقام أمرهم» .

فقال حماد : «يا حبذا لو يسير خالد الذي ذكرته إلى العراق» .
فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس وقال : «لقد أصبت يا ولدي. وهذا هو ما حدث فقد سار خالد إلى العراق لفتح الحيرة وقتال الفرس» .

فهبّ سلمان للحال وقال لحماذ : «ألا يأذن لي مولاي في السير إلى الحيرة. إني لا يهدأ لي بال إن لم أبلّ يدي بدم الفرس فعساي أن أشهد بعض المواقع أو أخدم المسلمين خدمة تساعدكم على إنقاذنا من

أولئك القوم المجوس».

فقال حماد: «إني أولى منك بذلك ولقد كنت عازماً على التماسه لو لم تلتسمه أنت».

قال سلمان: «أما أنت فقد طال غيابك عن أمير غسان وابنته فسر إليهما وعساي أن أعود إليكم قريباً بخبر النصر».

فانته حماد لأمره مع هند فاغتنم وجوده عند الراهب فرصة لاستفتائه في أمر الاقتران بعد حكاية الوصية، ولكنه استحي فخطب عبد الله على أنفراد قائلاً: «أتظن أنه يجوز لنا المخاطبة في أمر الاقتران أم نحن لا نزال مقيدين بالوصية؟».

قال عبد الله: «دعني أسأل الراهب ونأخذ رأيه فما يشير به نفعله». وتحول نحو الراهب فسأله فقال الراهب: «يظهر من خطاب الناسك لكم أنه يحلکم من ذلك القيد، وفي العدول عن الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لأن ديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعيننا وتحظر علينا الانتقام».

فسر حماد لهذه الفتوى وسكت، حتى إذا خرجوا من عند الراهب تفرد بعبد الله وقال له: «ألا ترى أن نذهب غداً إلى البلقاء لنقابل جبلة فقد فرغنا من النذر وأن لكما الاجتماع ولا سيما بعد أن ظهر ما ظهر من أمر النسب».

فقال عبد الله: «أرى يا مولاي أن تبقي أمر نسبك مكتوماً كما كان لنرى ماذا يحدث من حوادث الزمان».

فأجفل حماد وقال: «ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق إليه الناس، وبخاصة أن غموض نسبي كان عقبة في سبيل زواجي بهند؟».

ففكر عبد الله هنيهة ثم قال: «أرى مع ذلك، ألا تذكره، وعلى كل حال فالأمر راجع إليك».

فسكت حماد، وكانا قد وصلا إلى باب الغرفة وسلمان يتبعهما وقد أدرك أنهما يتكلمان في شأن هند فتقهقر قليلاً، فلما وصلا إلى الغرفة التفت حماد ونادى سلمان فأسرع وهو يقول: «أتقدم إليك يا مولاي أن تأذن لي في الذهاب إلى الحيرة غداً صباحاً، وإن يكن يعز عليّ ألا أشهد الاحتفال باقترانك، ولكنني لا ألث أن أعود إليكم بما يسركم إن شاء الله، وأرجو أن تذكروني في حفلة الزواج كما سأذكركم في ساحة الحرب».

فقال عبد الله لحماد: «دعه يذهب يا سيدي لعله يأتينا بخير فقد انتهينا من المشاكل والأسرار ولا نظننا نحتاج إليه في شيء، وقد تقرر اقترانك بهند ورضي أبوها ووفينا النذر».

فقال حماد: «اذهب يا سلمان في حراسة الله ولا تقطع عنا أخبارك».

فقضى سلمان ليلته تلك يستعد للمسير إلى العراق، وفي الصباح ودّع حماداً وعبد الله وسار إلى الناسك يلتمس بركته ودعاه قبل المسير.

فلما خلا حماد إلى عبد الله قال له: «ألا نسير إلى جيلة أو إلى صرح الغدير؟ أم هناك سر يمنع ذهابنا؟».

قال: «لقد آن الوقت، وإني لم أؤخر اقتران سيدي عبثاً فقد كان ثمّة ما يدعو إلى ذلك».

قال: «إني لا أنسى جميلاً صنعتة معي، ولكنني أعترف لك بأن اطلاعي على نسبي قد قلل أسباب سعادتي، فأحسبني كنت أسعد

حالاً يوم كنت حماد ابن الأمير عبد الله أما وأنا المنذر بن النعمان فأراني تعيشاً يتيماً مظلوماً».

قال عبد الله: «كنت أتوقع ذلك منك، ولكنني لم أرَ بداً من أن أؤدي إليك أمانة مقدسة عهد إلي في أدائها».

قال: «لم أقل إنك أخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب، على أنني كلما تصورت هنداً ومعيشتي معها سلّوت الدنيا ومتاعبها».

قال عبد الله: «ولا تنس أنك ستكون عما قليل ملك غسان، والغساسنة لا يقلون سطوة وبطشاً عن ملوك الحيرة فضلاً عن علاقتهم بدولة الروم المسيحية التي هي خير من دولة الفرس المجوسية التي كان أجدادك على صلة بها».

فانبسط وجه حماد لذلك فقال: «أذهب معاً إلى صرح الغدير؟». قال: «لو علمت أن جبلة هناك لذهبت معك، لأن من اللياقة أن نتعارف قبل ذهابي إلى الصرح».

فقال: «إذن أذهب أنا فألتمس لك موعداً نجتمع فيه بجبلة ونتم الاقتران؟».

قال: «حسناً تفعل». فأخذ حماد يعدّ جواده للركوب.

كانت هند حين أتى يوم الشعانين قد ملّت الانتظار، وكانت تتوقع أن ترى حماداً في مساء ذلك اليوم أو في صباح غده فمضى اليوم والغد وهي تعدّ الساعات والدقائق وتحسب لتأخره غير حساب، فلما كان اليوم الثالث أفاقت من رقادها قلقه البال فنهضت وسارت إلى والدتها والتمست منها أن ترافقها إلى دير بحيراء أو تأذن لها في الذهاب إليه وحدها.

فقالت سعدى: «لا أرى هذا ولا ذاك، فلو رأى حماد المجيء إلينا لجاء، وربما كان في سر أبيه ما يمنعه من المجيء». قالت: «ماذا تعنين يا أماء؟».

قالت: «لا أعني شيئاً ولكنني لم يعجبني أمر أبيه هذا، فقد صاهرنا ولده على غموض نسبه وأكرمناه والتمسنا لقياء فلم يأت، وها قد انقضى موعده منذ يوم الشعانين».

فانقبضت نفس هند لذلك وقالت: «لا تلومي الغائب قبل حضوره فربما منعه عن زيارتنا مرض أو شاغل ذوبال، أما ما أشرت إليه من تدلل الأمير عبد الله أو كبريائه فليس ثم ما يسوغ الاقتناع بصحته».

وسكتتا هنيهة مطرقتين ثم قالت سعدى: «يجب علينا أن نبحث عنه لنعرف سبب غيابه، فلنتنظر هذا اليوم أيضاً فإذا لم يأت أنفذنا إليه رسولا».

فخرجت هند وهي تفكر في أمر حماد، فلبست ثوبها وخرجت إلى الحديقة تتلهى بمشاهدة أزهار الربيع وعيناها شائعتان بين الأشجار، وهبّ عليها النسيم فتعاطم حفيف الأوراق وعلت أصوات الطيور مغردة، وهند تود انقطاع النسيم وخرس الأطيّار مخافة أن تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع أقدام حماد إذا جاءها ماشياً بين الأشجار، أو تخفي صوت جواده إذا صهل عند وصوله إلى الصرح. وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحقق بعينيهما وتصيح بسمعها وقد صارت الشمس في الهاجرة، رأت فارساً قادماً عن بعد عرفت من جواده وظاهر لباسه أنه حماد، فهرولت إلى أمها وأنبأتها بقدمه، فدخلتا إلى قاعة الجلوس حتى جاءهما مخبر بقدمه فخرجت سعدى للقاءه ورحبت به فقبل يدها ودخلا الصرح.

وكانت هند عند الباب فسلم عليها ودخلوا جميعاً إلى قاعة الجلوس، وقد آنست هند في وجه حماد تغيراً بعد قص الشعر ولكنها عجبت لمجيئه وحده وأرادت الاستفهام عن السبب فمنعها الحياء على أن أمها ابتدرته بالسؤال عن أبيه.

فقال: «إنه كان عازماً على المجيء معي، ولكنه رأى من اللياقة أن يقابل ملك غسان قبلاً، ولو كان سيدي العم هنا لأنفذنا إلى أبي رسولاً فجاء معه».

فقالت: «جعل الله نذركم مقبولاً، هل سمعت الحكاية التي وُعدت بسماعها بعد قص شعرك؟».

قال: «نعم سمعتها». وحدثته نفسه أن ييوح بها فتذكر تحذير عبد الله فأمسك، ولكنه رأى في سكوته عنها ما يُريب.

أما سعدى فلم تزد على هذا السؤال تأدياً، فلما لم يجيبها غيرت الحديث وسألت: «ألا يحسن الخروج إلى الحديقة؟». وكان هو يود ذلك لعله يخلو إلى هند.

وخرج حماد وهند من باب خاص صغير في القصر إلى الحديقة، وتحلفت سعدى ريثما توصي قيمة القصر بإعداد مائدة الغداء.

فمشى حماد وهند في طرقات الحديقة حتى انحذرا إلى ضفة الغدير وماؤه يجري على حصباء تتلأل كأنها الدر، وقد فاحت روائح الأزهار وغلبت عليها رائحة اللوز وزهر البرتقال، وعلت ضوضاء الأطيّار وحفيف الأشجار.

أما هند فما صدقت أنها خلت بحماد حتى نظرت إليه شزراً وهي تبسم وعيناها مشرقتان تتلألآن وقالت: «ما الذي دعاك إلى التعجيل بزيارتنا، أما كان الأدل على شوقك أن تبقي زيارتك إلى عيد

الفصح؟».

فأدرك مرادها فأحب أن يعث بها فقال: «تركنا يوم الفصح لمخاطبة أبيك في شأن الإكليل، أم ترين تأجيل ذلك إلى الأحد الجديد؟».

فخجلت وأطرقت وقد توردت وجنتها فازداد إشراق وجهها وقالت: «لو عرفت أنك تجيبني بمثل ذلك ما أقدمت على سؤالك». قال وقد أعجبه خجلها وازداد هيامه بها: «لم أكن أظن ذكر الاقتران يسؤوك ونحن إنما نسعى جهدنا في الحصول عليه». قال ذلك ونظر إليها كأنه ينتظر جوابها. أما هي فحولت وجهها عنه وخطرت نحو شجرة من البرتقال متظاهرة بقطف زهرة منها تشمها، فتبعها حماد وهو يقول: «ما بالك تهربين مني يا هند؟ إذا كنت تريدين التخلص من قربي، فقولي كما قال غيرك أن نسبي غامض فلا أستحق بنت ملك غسان».

فلم تجبه على هذا السؤال، وكان يتوقع أن يجرها الحديث إلى حكاية السر فيخبرها بحقيقة نسبه ويرى ما يبدو منها. وخاف أن تأتي أمها فيقطع الحديث، فدار نحوها حتى قابلها وجهاً لوجه وأمسك يدها فأحس كلاهما بقشعريرة الحب فقال حماد: «لِمَ لَمْ تسأليني عن حكاية السر؟».

فقالت له وهي ممسكة يده تنظر إليها: «إن حكاية السر عزيزة لديك لا نستحق سماعها!».

فأدرك أنها تعاتبه لسكوته عن الإجابة عن سؤال أمها فقال: «كل عزيز يهون لأجلكم يا حبيبتى». قال ذلك ومد يده إلى جيبه فأخرج خاتماً دفعه إليها وقال: «هذا هو سرنا فانظري إليه».

فتناولت الخاتم وتأملته فإذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت: «إنه لا يزال سراً إذ لا أستطيع قراءته». فقال: «أنا أقرأه لك. لقد نُقِشَ عليه اسم النعمان بن المنذر».

فلم تفهم المراد فقالت: «وما معنى ذلك؟».

قال: «معناه أن نسبي الذي كان غامضاً عنك وعني كان شيئاً في هذا الخاتم».

فأنعمت فكرها في مغزى كلامه فأدركت أنه ينتسب إلى النعمان ولكنها استبعدت ذلك فقالت: «لعلك تنتسب إلى الملك النعمان؟».

قال: «هو أبي!». وجعل ينظر إلى ما يبدو منها فرآها قد علتها البغته وظهر الإعجاب والسرور جليين على وجهها. ولكن الأنفة والرزانة منعتهما من إظهار البغته فقالت: «ومن أنباك بهذا النسب؟ وكيف خُفي عليك إلى الآن؟».

قال: «لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكان، وإذا كان الخاتم لا يكفيك فانظري إلى هذا الرداء». وكشف عباءته عن برد النعمان وكان تحت أثوابه، فنظرت إليه. فلما تحققت نسبته عظم في عينيها ولكن الاستغراب غلب عليها وهي تحسب نفسها في حلم.

ثم سمعا وقع أقدام من ناحية القصر فنظرا وإذا بأمرها قادمة، فأسرع حماد إلى الخاتم فخبأه وطلب إلى هند كتمان الحديث حتى حين، فوافقت على أنها كانت تود لو تطلع والدتها على ذلك الخبر.

أما سعدى فإنها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر، فنظرا إليها فقالت: «لقد أطلت الغياب لاشتغالي برسول قديم من عند الملك جبلة

ومعه هذا الكتاب». ودفعت الكتاب إلى هند ففضته فإذا هو من أبيها يقول فيه: «هل عرفتم شيئاً عن ولدنا حماد؟ وهل وفي نذره؟ إني أحب أن أراه قبل سفري إلى الامبراطور فقد أنفذ إليّ رسله للذهاب إليه لمهمة سأقصها عليكم عند الاجتماع».

فقالت سعدى: «اكتبي إليه أنه جاء وقد وفى النذر».

فقال حماد: «أرى أن أسير إلى أبي وأجيء به ليتشرف بمقابلة الملك جبلة أيضاً».

قالت: «حسناً تفعل». فعادوا إلى القصر وكتبوا إلى جبلة بذلك على أن يكون مجيئه في الغد».

وكانت المائدة قد أعدت فتناولوا الطعام، ثم ركب حماد عائداً إلى دير بحيراء.

ظلت هند تفكر فيما سمعته من حماد عن نسبه، وأدركت أمها فيها تغيراً ظاهراً يدل على شيء في نفسها تكتمه، فلما كان المساء وذهبت هند إلى فراشها ذهبت إليها سعدى وأخذت تجاذبها أطراف الحديث حتى باحت لها بالسر، فلم تكن سعدى أقل استغراباً من هند وحسنت لها أن تطلعاً أباهما على ذلك.

فلما جاء جبلة في ضحى الغد أنبأته بالخبر، وكانت تتوقع منه ارتياحاً واستحساناً ولكنها رأت انقباضاً، فندمت هند على تصريحها بالسر وخافت أن يترتب على ذلك ما يسوؤها. وكان خوفها في محله لأن جبلة ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس غارقاً في بحار التأمل لعلمه أن حماداً إذا تزوج هنداً سيكون وريثه في الملك إذ ليس له ذكور يرثونه، فإذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الغساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه إلى المناذرة أن الملك سيخرج من يد الغساسنة إلى المناذرة فيكون قد سعى إلى زوال ملكه.

فارتبك في أمره فلم يعد يعلم ماذا يعمل، وود لو أنه زوج هنداً
لثعلبة إبقاء للحكم في غسان. لكنه كتم ذلك كله وتظاهر باستغراب
ما سمعه.

أما هند فكانت تراعي أباه وتراقب حركاته وتنظر إلى ما يبدو
منه وقد انقبضت نفسها وأسفت أسفاً شديداً لما فرط منها.

وفيما هم في ذلك سمعوا قرعة اللجم وصهيل الخيل عند
باب الحديقة، فأطلقوا وإذا بحماد وفارس آخر عرفوا أنه أبوه،
فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جبلة همّ بتقيل يده
فمنعه وتعانقا، وتقدم عبد الله إلى جبلة فصافحه وتعارفا. ودخلوا
جميعاً إلى قاعة الجلوس وأخذوا في الأحاديث المتنوعة إلا حديث النذر
فإنه لم يدر بينهم أبداً.

ثم قالت سعدى لجبلة: «ذكرت لنا في كتابك أن الامبراطور
هرقل أنفذ رسولاً يدعوك إليه، فما سبب ذلك؟».

قال: «هناك اضطراب في جو السياسة أوجب التأهب للحرب
عاجلاً».

فبغت الجميع، واستعاذ حماد بالله وخاف أن يحول ذلك بينه
وبين هند إلى أجل بعيد فقال: «وما ذلك الاضطراب يا عماه؟».

قال: «لقد أنبأنا الجواسيس أن الحجازيين الذين جاؤونا منذ
بضع سنين قد استفحل أمرهم واتسع سلطانهم، وقد توفي نبيهم
وخلفه أحد أصحابه فجند جنداً كبيراً أنفذه لقتالنا ولا يلبث أن يصل
إلينا قريباً. فبعثت إلى هرقل بذلك فأرسل يستقدمني إليه في حمص
للمباحثة في شأن التجنيد، وقد قيل لنا أن حملتهم هذه المرة ستكون
أصعب مراساً من الماضية وقد جاؤوا فرقاً يقودهم أعظم القواد».

فقال عبد الله: «سمعنا بإنفاذ ذلك الجند إلى العراق لحرب الفرس وليس للشام».

قال: «ذلك جند آخر بعثوه إلى العراق في العام الغابر، أما الآن فإنهم عازمون على المجيء إلينا».

فقال حماد: «هل يرى سيدي العم أن غيبته ستطول هناك؟».

قال: «لا أدري ولكنني أحسب الأمر يقتضي وقتاً طويلاً».

فقال: «إذن نسير في خدمتك».

قال: «لا أرى حاجة إلى ذلك، والأولى أن تبقى في بصرى ريثما أعود أو أبعث إليكما. أما سعدى وهند وسائر أهل هذا القصر فيسيرون معي خوفاً عليهم من غائلة العدو وهم في هذا الخلاء».

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبها وكادت الدموع تتناثر من عينيها وقد أدركت أن أباهما يضمّر السوء لحماها».

أما حماد فلم يكن أقل وجللاً وهو لا يعلم ما في نفس جيلة، وظنه لم يعلم بحقيقة نسبه أو حدث ما يوجب نفوره، ولكنه استعظم فراق هند بعد أن كاد يظفر بها على أثر ما قاساه من المشقة والبلاء في سبيلها.

أما عبد الله فأدرك أن في الأمر شيئاً جديداً أوجب هذا التباعد، ولولا ذلك لم يكن ثمة ما يمنع مسيرهم معه حيثما سار، فخامره شك في كتمان حماد فنظر إليه بطرف خفي، ففهم حماد مراده فانتبه إلى أنه أخطأ باطلاع هند على ذلك السر.

وشاركتهم في ذلك الإحساس سعدى لأنها أعلم الناس بأخلاق زوجها فقالت له: «ألا ترى أن نسير جميعاً معاً، وما الفائدة من بقاء حماد هنا؟».

قال: «بل أرى بقاءه هنا، وسأخبرك بما يمنع ذهابه معنا». قال ذلك وفي كلامه غنة الجفاء فسكتت وسكت الجميع.

ثم آن الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعاً، فلما نهضوا أمر جبلة بأن تعد الركائب لمسير زوجته وابنته معه في ذلك اليوم، فشق ذلك على عبد الله ونفر من جبلة لما اتفق له معه في المقابلة الأولى. وعوّل على تحويل عزم حماد عن هند كأنه لم يدر بما في قلبه من لواعج الغرام، وفاته أن الحب يتعاضم كلما ازدادت في سبيله العقبات.

فاستشار عبد الله حماداً في الانصراف فأجابه إليه رغماً عنه، ووقفاً فتقدم حماد إلى جبلة وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه، وودعه عبد الله. وسار حماد إلى سعدى وهند يودعهما، وكانتا قد خلتا وهند تبكي وتنتحب وأما تحفف عنها وتلتمس الأعدار لما ظهر من جفاء جبلة. فلما سمعت وقع أقدام حماد خرجت هي فودعته واعتذرت عن هند بأنها تشكو من صداع ألم بها حتى أبكاه.

فأدرك حماد أنها شعرت بمثل شعوره، وترجع لديه أنها باحت بالسر ولم يلم إلا نفسه. فقال والدمع يتلألأ في عينيه: «أريد أن أرى هنداً قبل ذهابي وإن تكن باكية». وكانت هند قد استعدت للقاءه فمسحت دموعها وحاولت إخفاء ما بها وخرجت إليه وهي تتجلد ومدت إليه يدها فتجلد هو أيضاً وودعها مبتسماً وتحت ابتسامه غيظ يكاد يميزه، ثم ودع سعدى وخرج فلقى عبد الله في الحديقة ينتظر قدومه فركبا وحماد يلتفت وراءه يودع القصر وأهله وهو غارق في لجج الهواجس.

وكان حماد صامتاً يراجع في ذهنه حوادث ذينك اليومين ويتحرق ندماً لما باح به من أمر نسبه، وشعر بخطئه نحو عبد الله لأنه

لم يطعه في كتمانة فظل صامتاً يتردد بين الخجل والفشل .

أما عبد الله فلم يبق عنده شك في تغير جبلة وفساد ما بنوه وضياع ما أملوه، ولكنه لم يذكر ذلك لحماذ رفقا بعواطفه وعول على أن يثنيه عن عزمه فيما بعد .

فلما دنوا من الدير قال عبد الله: «أترى يا سيدي أن نقيم بالدير أم نذهب إلى بصرى؟» .

قال: «لك الأمر، ولكنني أرى بصرى أفضل لنا بعد ما سمعناه من حملة العرب الحجازيين» .

قال: «الأمر إليك» . ودخلا الدير فباتا ليلتهما فيه على أهبة الانتقال إلى بصرى، ولم ينم حماد إلا قليلاً لكثرة ما تراكم عليه من الهواجس .

فلما أصبحا أخذوا يستعدان للركوب، فذهب عبد الله لوداع الراهب وظل حماد وحده يشتغل ببعض المهام وفيما هو ينظر إلى خارج الغرفة رأى امرأة تنظر إليه فعرف أنها الجارية التي رافقت هنداً إلى الصومعة يوم التقى بها في المرة الأولى هناك فبغت لرؤيتها وهرب إلى إليها .

فقالت له: «أتعرف بائع الحلي؟» .

فقال: «نعم، إني أنا هو» .

فدفعت إليه مندبلاً كان في يدها وتحولت راجعة .

فقلب المندبيل بين يديه فإذا هو رسالة قد كُتب فيها: «لا يضعف عزمك ما رأيته أمس من أبي واصبر إن الله مع الصابرين» . فعلم أنها رسالة من هند فأبرقت أسرته وانفرجت كربته وطوى المندبيل وخبأه، ولكنه ود لو يعلم أين هي فيسير إليها ويقيم بقربها يتنسم

أخبارها، فتذكر أن أباه سائر إلى حمص لمقابلة هرقل فقال في نفسه: «لا أظنه يحمل أهله معه إلى هناك فربما خلفهم في البلقاء». وكان يفكر في ذلك وهو يتظاهر بالاستعداد للمسير فجاء عبد الله فركبا وسارا إلى بصرى وأقاما بمنزل عال قرب السور. فتذكر عبد الله يوم ثعلبة وموقفه أمام رومانوس (روماس) حاكم بصرى وما كان من أمر الخاتم، ولكن ثعلبة ضعف أمره وخرج من بصرى فأقام في بعض القبائل الغسانية، ورومانوس ما زال حاكماً هناك. وكان حماد قلقاً على هند لا يهدأ له بال، ومما زاد الحالة ثقلًا عليه لومه نفسه لبوحه بنسبه، وقد عرف قيمة نصائح عبد الله وتحقق أن الاختبار والمعاينة يكسبان المرء علماً وحكمة لا يدركهما بالذكاء وحده، ومال إلى استشارة عبد الله في ذهابه إلى البلقاء، وشعر بحاجته إلى سلمان لأنه كان يغنيه عن تجشم تلك المشاق بنفسه، ثم أجفل بغتة وخاف إذا استشار عبد الله أن يشير عليه بترك هند وهو لا يستطيع ذلك ولا تسهل عليه مقاومته بعد أن اختبر صدق نصائحه فسكت وسلّم الأمر لله.

أما عبد الله فكان يتجاهل كل ما يظهر على حماد من القلق. ويدعوه حيناً بعد آخر إلى الخروج للصيد كما كانا يفعلان أول مجيئهما تلك الديار، وكان حماد يسير معه لعله يوغل في البرية فيقف على قادم أو غاد فيطلع منه على خبر هند. ولم يكن عبد الله يفتاحه في أمرها إلا عرضاً في أثناء كلامه عن قوات الروم ونحو ذلك، فإذا آتس من الحديث اقترباً من الموضوع تباعد عنه وهو يتوقع أن يفتر ميل حماد من تلقاء نفسه. وكان حماد أكثر رغبة عن الخوض في ذلك الموضوع لئلا يسمع نهياً أو نصحاً يبعده عن هند.

فقضيا أشهراً على تلك الحال، وهما لا يسمعان إلا باستعداد

الروم لدفع المسلمين، وأن جند المسلمين وصلوا إلى ضواحي الشام، وأقام بعضهم باليرموك. وكان حماد كلما سمع خبراً من هذا القبيل ازداد قلقاً حتى لم يعد يصبر على البقاء في بصرى ومال إلى الخروج منها إلى البلقاء لعله يعرف شيئاً عن هند. وعبد الله يشغله تارة بالصيد وطوراً بزيارة رومانوس صاحب بصرى، وكان رومانوس قد عرف منزلة عبد الله على أثر ما كان بينهما من أمر تسيير عبد الله إلى هرقل وما ناله من العفو. فكان يجتمع برومانوس وحماد معه، ويخرجان أحياناً لزيارة الراهب الشيخ ودعوته إلى زيارتهما. أما الناسك فسارا إليه مرة فلم يجدها.

— ٢٤ —

فتح الحيرة

خرج حماد وعبد الله إلى ضواحي بصرى في ذات يوم للصيد كعادتهما، فقال حماد: «أرى الصيد قليلاً في هذه الجهة لوعورتها وقلة المرعى فيها، ألا ترى أن نسير إلى البلقاء لعلنا نعثر على صيد كثير؟». فقال عبد الله: «إن الصيد يكثر أحياناً ويقل أحياناً، أما إذا شئت الذهاب إلى البلقاء فالأمر لك». قال: «أرى في الانتقال خيراً».

وفيما هما يتحادثان رأيا سرباً من الغزلان قادمًا من عرض البر لم يرَيا مثله قبلاً فبغتاً وقال حماد: «ما هذه الغزلان؟ إني أراها تطلبنا وذلك لم يتفق لي منذ طلبت الصيد».

فقال عبد الله: «إن مثل كثرتها هذه تدل على أمر خطير».

قال: «ماذا عسى أن يكون ذلك؟».

قال: «لا يجتمع هذا العدد منها ويسير في جهة واحدة إلا فراراً

من جند الروم، فلعل جند العرب قادم إلى بصرى». قال ذلك وصعدا إلى ربوة أشرفا منها على سهول بعيدة فرأيا غباراً يتصاعد عن بعد فقال عبد الله «لقد صدق ظني».

فقال حماد: «أظنهم جنود المسلمين قادمين لحصار بصرى، فيا ليتنا خرجنا منها قبل الآن».

قال عبد الله: «إذا لم يكن لنا بد من ملجأ في هذه الديار خوفاً من المسلمين فإن بصرى أحسن المدن وأمنع الحصون، واسمها يدل عليها فإن لفظها في الكلدانية معناه الحصن المنيع. ألم تر سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعه المعاول ولا تهدمه المجانيق؟ وقد رأيت أبوابها فإن منها يخرج اثنا عشر ألف فارس مرة واحدة عند الاقتضاء، فالمسلمون إذا فتحوا بصرى هان عليهم فتح سواها. وتربصنا داخل أسوارها خير لنا من الخروج إلى اللقاء أو غيرها. زد على ذلك أن أهل بصرى أشداء وهم أكثر الناس حرصاً على دينهم وأشدّهم دفاعاً عن مدينتهم فإنها أعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر».

فبغت حماد وعظم عليه الأمر، وعلم أن أمر هند لا بد من تأجيله طوعاً أو كرهاً، وهب أنه عزم على اللقاء أو دمشق فإن جبلة وقبائل غسان وجنود الروم أصبحوا في شاغل يشغلهم عن كل شيء، ولكنه أراد أن يتحقق قوة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع فقال وهو يدير رأس جواده نحو بصرى وعبد الله يتبعه: «وما هي قوات الروم في الشام؟ وكم مدينة مثل بصرى عندهم؟».

قال عبد الله: «اعلم يا سيدي أن ولاية سوريا أو ولاية الشام تُقسم إلى خمسة عشر قسماً أحدها بصرى، وقوات الروم كبيرة وعدتهم كثيرة، ولكنهم شغلوا عن دينهم بديناهم واستولى عليهم

الانقسام». وما زالوا في مثل هذا الحديث حتى بلغا المدينة فرأيا أهلها في هرج والجند في حركة يستعدون للدفاع، فدخلوا الأسواق فرأيا الناس مجتمعين يتساءلون عن الجند القادم وأمارات الاستخفاف ظاهرة على وجوههم.

فقال عبد الله: «هلم بنا إلى منزلنا فإنه عالٍ يشرف على الأسواق وما وراءها».

فسارا وقال حماد: «ما قولك في رومانوس حاكم بصرى هل هو خائف أم مستخف؟».

فقال عبد الله: "لا أظنه خائفاً وعنده مثل هذه الحصون وهذه القلاع فضلاً عن العدة والرجال ولكنني أظن الولاية ستخرج من يده إلى والٍ آخر جاء منذ أيام اسمه تراجان (ديرجان) وهو بطل محنك وقد سمعت الناس يتحدثون بنفور بينهما وليس هذا وقت التنافر". ولما وصلا إلى المنزل أطلا من بعض نوافذه فإذا بالغبار قد بان عن جند كثيف تتقدمه الأعلام والفرسان.

ولم يكذ يظهر جند العرب حتى تسابق الناس إلى الأسوار ينظرون إليهم وهم يهزأون بهم وبألبستهم وسداجة معداتهم. وبعد قليل جاء رومانوس فوقف في بعض الأبراج ونظر إلى جند العرب وقال لمن حوله من الضباط: «لا نرى أن نغلق أبواب بصرى أمام هذا الجند الضعيف ولكننا نخرج إليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردهم على أعقابهم». وأمر بالجند أن يعسكروا خارج الأسوار مقابل معسكر العرب.

فلما رأى عبد الله هذا التهور خاف العاقبة لما يعلمه من بطش العرب وصبرهم على القتال، وكانت له على رومانوس دالة كما تقدم فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثته نفسه بأن ينصح له ألا

يفعل، فسار إليه وحامد معه وقد علم أنه توجه إلى دار حكومته، فلما وصلا إلى الدار وجداها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وكلهم راضون عن رأي رومانوس، ولم ير عبد الله تراجان بينهم، فلما رأى إجماعهم على ذلك علم أنهم لن يصغوا إلى كلامه فرأى أن يخاطب تراجان في الأمر فسأل عنه فقبل له: «إنه في منزله». فسارا إليه وكان عبد الله قد عرفه واجتمع به مراراً، فاستأذن في دخولهما عليه فأذن لهما، ووجداه مقطب الوجه ولكنه رحب بعبد الله وبعد أن جلس هذا وبجانبه حماد قال تراجان بالعربية وكان يعرفها: «هل تعرفون هؤلاء الحجازيين؟».

قال عبد الله: «لقد عرفناهم وحضرنا حروبهم غير مرة».

فقال: «وكيف رأيتموهم؟».

قال: «رأيناهم أشداء صبورين لا يعبأون بالعدة ولا بالكثرة».

قال: «أترون الخروج إليهم خطأ».

قال عبد الله: «نعم يا مولاي، وهذا ما جئنا به إليك، فكيف تخرجون إليهم فتعرضون جندكم لنبالهم وسيوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة».

فتنهذ تراجان وقال: «هكذا أراد رومانوس ولقد نصحت له فلم ينتصح، وكأنه به يلقي بجند الروم إلى التهلكة».

فقال عبد الله: «أليس من سبيل إلى إقناعه؟».

قال: «كلا لأنه عنيد معتد بنفسه، وسيكون فشله عظيماً، وإذا فشل فإنما يكون دمه على رأسه». قال ذلك وهو يلعب صلياً من الذهب معلقاً في عنقه.

فآيس عبد الله في كلام تراجان لهجة الشماتة، فسكت وودعه

وخرج وحامد معه، فلما خرجا قال حماد: «ما ترى في أمر هؤلاء؟ إني أخاف أن تعود العائدة على هذه المدينة فيصيبنا ما يصيب أهلها».

قال: «وما العمل يا سيدي أنخرج إلى المسلمين؟».

قال حماد: «أرى أن نتربص لنرى ما يكون من حربهم».

وسارا حتى أتيا المنزل، وكان الليل قد سدل نقابه فأطلا على معسكر العرب فإذا بهم قد نصبوا الخيام وأوقدوا الوقود ونصبوا الأعلام.

فقال: «من هو يا ترى أمير هذه الحملة لعله خالد بن الوليد؟».

قال: «إن خالدًا في العراق على ما علمت ولكن الأمراء غيره كثير».

وباتا ليلتهما والجند يستعد للخروج، وفي الصباح أفاقا على دق الأجراس إيذاناً بخروج الجند، وكان فيهم اثنا عشر ألف فارس، والقسس أمامهم بالصلبان والمباخر. فسار عبد الله وحماد إلى الأسواق فرأيا الناس يسرعون إلى الكنائس يقيمون الصلاة باليونانية ويدعون لجندهم بالنصر. وكانت خدمة الصلاة في سائر كنائس المشرق إذ ذاك باليونانية وأما لغة رجال الحكومة وأعيان المملكة فكانت اللاتينية ولغة الشعب اللغة الوطنية أو اليونانية، وصعد الكهنة على الأسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بمياه المعمودية وأخذوا يرمنون وينشدون الأناشيد المسيحية وفيهم الرجال والنساء والأولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الروم.

أما جند العرب فكان قائده شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي، وجهه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف فارس لفتح

بصرى. وكان أبو عبيدة قائداً عاماً لجنود المسلمين في الشام ولاء القيادة العامة الخليفة أبو بكر الصديق.

فوقعت بين الجيشين وقائع عدة ظهر فيها الرومانيون واختل أمر المسلمين حتى كادوا يعمدون إلى الفرار وعبد الله يراقب حركاتهم وحماة إلى جانبه، وإذا بغبار يتصاعد من جهة الأفق وبأن من تحته جند عرفوا من نوع نظامه وشكل أعلامه أنه جند المسلمين، فعلموا أنها نجدة جاءتهم ولم يلبثا أن رأيا في مقدمة ذلك الجند رجلاً ضخماً عريض اللحية طويل القامة تحفّق فوق رأسه راية سوداء هو خالد بن الوليد، فاشتد أذى المسلمين وأعادوا الكرة فتقهقر الروم حتى دخلوا الأسوار وأقفلوا أبواب المدينة، فلقي تراجان رومانوس راجعاً فذكره بنصيحته فغضب رومانوس لشماتته به.

فلما علم عبد الله بما تمكن من النفور بين القائدين خاف سوء العاقبة.

وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فنزل إليه رومانوس والناس ينظرون إليهما وما يؤول إليه نزاهما وبعد براز طويل عاد كل منهما إلى معسكره.

فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه ما يدل على تغيير في مقاصده وقد فترت همته عن الدفاع فلحظ ذلك فيه الذين يعرفون أخلاقه، وأما عبد الله فاجتمع بحماة وقال: «إني خائف من هذا الرومي فوالله لا يلبث أن يسلم المدينة لأنني رأيت من مطاولته في النزال ما يوقع الشبهة فيه».

فقال حماد: «ولقد سمعت من بعض أصدقاء تراجان اليوم أنه جادل رومانوس ووبخه وشمته به لما آل إليه خروجه فشق ذلك على رومانوس وتوعده وقال له: (إذا كنت أفرس مني فنازلهم). فأجابه

تراجان وشتمه وعلا الخصام بينهما وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس وبعضهم لتراجان وتوعدوا رومانوس بالقتل واتهموه بالخيانة وقالوا له: (لا نرضاك حاكماً علينا وقد ولينا تراجان). فسكت ولم يجبههم وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ثم قال: (فليزل هو لنرى بطشه)..». فلما أصبحوا نزل تراجان على جواده بعدته وسلاحه وطلب المبارزة، فخرج إليه فارس عُرف من لباسه وهيئته أنه خالد بن الوليد فطال النزال بينهما والجيشان ينظران وكأن على رؤوسهم الطير، فمضى معظم النهار ولم ينل أحدهما الآخر بشر فرجع كل منهما إلى معسكره وأسرع الناس للقاء تراجان وسؤاله عما لقي من عدوه، وكان أول من لاقاه رومانوس وقد نظر إليه مستهزئاً ضاحكاً كأنه ينتقم منه لشماتته به قبلاً، فانتهره وعيَّره بأنه مخلوع فقال رومانوس: (سنرى من هو المخلوع منا). وتركه ومضى.

وكان عبد الله وحماد ينظران إلى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ما رأياه وسمعا تهديده خافا فقال عبد الله: «لقد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا أظنه إلا فاعلاً شراً». فقال حماد: «وما شأننا في ذلك؟».

قال عبد الله: «إنما يعيننا من الأمر المحافظة على حياتنا مخافة أن يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا ناقة لنا في الدفاع ولا جمل، ألا نظننا كنا آمن على حياتنا لو أقمنا بدير بحيراء». قال حماد: «وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فيه ولا جند ونحن الآن في أمنع مدن الشام».

قال: «لم أقل أن الدير أحصن من بصرى، ولكنني علمت أن خليفة هؤلاء المسلمين لما خرج لوداعهم يوم تسييرهم إلى الشام أوصاهم بالرهبان والأديار خيراً فهم لا يسيئون راهباً ولا يخربون

ديرًا».

فقال حماد: «لو ذكرت ذلك لفضلت البقاء في الدير، ولكن السهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي فيما تراه من الحصار فما الرأي؟».

ففكر عبد الله قليلاً ثم قال: «إن سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا، فلو استطعنا استطلاع شيء منه لعلمنا طريق النجاة فأرى أن أسير إليه الليلة لعلّي أتسم خبراً».

قال: «حسناً تفعل».

فضى حماد وعبد الله بقية يومهما في المنزل، وبعد العشاء سار عبد الله إلى دار رومانوس وبقي حماد وحده، ولم يمض إلا القليل حتى عاد عبد الله وعلى وجهه ملامح البغته، فقال حماد: «ما وراءك؟».

قال: «لا أظن الأمر إلا عظيماً، فإني سألت عن رومانوس في قصره، فقيل لي: (إنه نائم). فلم أصدق أنه ينام الآن فخرجت أستطلع الخبر من بعض الحرس فعلمت أنه خرج إلى حيث لا يعلم أحد، ويخيل لي أنه سار ليدير مكيدة يسلم بها المدينة و...».

فقطع حماد عليه الكلام قائلاً: «أجل أظنه سيفعل ذلك لأن هذا القصد كان ظاهراً على وجهه فما الحيلة؟».

قال: «لا حيلة لنا يا سيدي إلا التربص إلى الصباح فإذا تحققنا عزمه على ذلك دبرنا حيلة ننجو بها بأنفسنا». وباتا تلك الليلة على مثل الجمر.

وفيما هما نائمان بعد نصف الليل سمعا طارقاً يطرق الباب، فهبّا من رقادهما مذعورين يسألان مَنْ الطارق؟ فسمعا صوتاً يقول:

افتحا إني أنا خادمكما سلمان!». .

فهرول عبد الله للحال ففتح الباب والبيت مظلم فإذا برجل عليه لباس أهل الحجاز وفي يده مصباح، فبغتنا لمنظره ولكنه قال: «إني عبدكما سلمان، لا تخافا». ورفع العمامة عن رأسه فعرفاه وصاح به حماد: «أين كنت يا سلمان وما الخبر؟».

قال: «جئت من معسكر خالد، ولا يلبث هو ورجاله أن يستولوا على الأسوار فجئت لأعلمكما بالأمر لتكونا على بصيرة، وهذا علم من أعلام المسلمين أنصباه على باب منزلكما لتأمنا سيوفهم إذا دخلوا المدينة».

فقال عبد الله: «بورك فيك أيها الصديق الأمين». فدخلوا جميعاً وأوصدوا الباب وسأله حماد أن يقص عليهما الخبر فجلس وهو يلهث من التعب والبغته وقال: «أخبركما بالاختصار أن رومانوس صاحب بصرى خرج إلى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقة غلमानه فاعتنق الإسلام وقال لخالد بن الوليد: (أرسل معي من تعتمد عليه لتسليم المدينة). فأرسل معه عبد الرحمن بن أبي بكر ومائة من المسلمين، فجئت أنا معهم وأدخلنا من خرق السور، وأخذ الأمير عبد الرحمن ورجاله إلى قصره ليسلحهم ويسير بهم لقتل تراجان مناظره في الحكم، وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركم سألت الراهب الشيخ عنكما فأخبرني بأنكما مقيمان ببصرى ودلني على هذا المنزل، فهرولت إليه لأعلمكما بجلية الخبر وأتيت بهذا العلم أنصبه فوق الباب حماية لكما. وبعد قليل تسمعان تكبير المسلمين على أسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجاً فيهمج الجميع وتكون مذبحة هائلة».

فأثينا على همته فترامى على يد حماد فقبلها وقال: «لقد وددت

لو كنتما معي في معسكر هؤلاء الحجازيين لتروا ما رأيناه من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم، على أن خالداً وجنده لو لم يصلوا إلى بصرى الآن لذهب جند شرحبيل أيدي سباً وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في شدة وضنك لقلتهم وكثرة الروم».

فقال عبد الله: «وهل خالد وحده من القواد العظام».

قال سلمان: «فيهم كثيرون، منهم عبد الرحمن ابن خليفهم أبي بكر وهو الذي جاء معنا يتسلم المدينة. ولقد رأيت من حروبهم وبطشهم في العراق ما سأقصه عليكما إن شاء الله».

فهم حماد أن يسأله عما فعله خالد في العراق فسمعوا الضوضاء والضجيج وبين الأصوات صوت التكبير.

فقال سلمان: «إن المسلمين الآن على الأسوار وعما قليل يفتح جنود رومانوس أبواب المدينة فيدخلها المسلمون فالبثا هنا لنرى ما يكون». فما لبثوا أن سمعوا ضجيج الناس وبكاء النساء والأطفال فتحركت الشفقة في قلوبهم وثار الحمية في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفاً على حياتهم. فما طلع النهار إلا وقد فتح المسلمون بصرى وأعملوا فيها السيف ثم سكنت الغوغاء بعد قتل تراجان وتسليم أهل بصرى.

ففتح سلمان الباب وخرجوا إلى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع فأروا جثث بعض القتلى هناك بين ميت ومحتضر، وقد تلطخت الأثواب بالدماء والمسلمون قد توغلوا في المدينة وامتلكوها ولكنهم لم يقربوا منزل عبد الله لوجود العلم على بابه.

وفيما هم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي إليه حال بصرى وقد اطمأن بهم، سأل سلمان حماداً عما تم من أمر هند فأخبره بجلية الخبر وكيف شغلته الحرب عن الاقتران، وعبد الله يسمع

ويتجاهل، حتى انتهى إلى عودهم من صرح الغدير بخفي حنين، وحاول حماد إذ ذاك أن يُبين لسلمان أن عمه جيلة أصاب بذلك وأنه لا يزال على حبه واعتباره وعبد الله لا يجيب ولا يعترض.

أما سلمان فتكدر لهذا التغيير وقال: «وما هو موعد الاقتران يا مولاي؟».

قال حماد: «لما تنتهي الحرب ويرجع جيلة وأهله إلى البلقاء». قال سلمان: «أظنهم هناك، فقد أنبأنا جواسيس العرب بأن جيلة سار برجاله إلى اليرموك لنصرة جند الروم في حرب المسلمين، ولا يلبث جند خالد بعد قليل أن يذهب إلى هناك لنصرة المسلمين، فإذا كان جيلة في اليرموك فما أظنه يترك أهل منزله في البلقاء وهي عرضة لغزوات العرب، وأظنه يرسلهم إلى دمشق، ومع ذلك فإني أرى أن أسير مع خالد حتى آتي اليرموك وأبحث عن جيلة وأعود إليكم بالخبر أو لعلني أعود إليك برسالة من هند».

قال ذلك وتبسم كأنه يريد أن يعث بحماد، فأجابه حماد بمثل ابتسامه وهو ينظر إلى ما يبدو من عبد الله، فإذا به في شغل عنهما ينظر من نافذة الغرفة إلى الشارع والاهتمام ظاهر على وجهه، وسمعا قرعة اللجم وضوضاء الناس فالتفتا إلى ما هو ناظر إليه فوق نظرها على راية سوداء تحتها جند العرب في وسطهم بعض الفرسان وفي مقدمتهم فارس كبير الجثة عريض اللحية طويل القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير العمامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه أثر الجدري، وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل يتنقل بمشيته كالعروس ويكاد الشرر يتطاير من حدقيه، ووراءه فرسان حولهم الأعلام وهم فرحون بما نالوه من النصر. فالتفت سلمان إلى عبد الله قائلاً: «أعرفت من هو هذا الفارس يا سيدي؟».

قال عبد الله: «قد عرفته منذ كان في وقعة مؤتة وكنت أنا أسيراً عندهم، أليس هو خالد بن الوليد؟».

قال: «بلى أنه هو بعينه، أنظر إلى هذه القامة وتلك الطلعة، إن خالداً يا مولاي من معجزات خلق الله، لم أر ولم أسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه، فلا غرو إذا سمّوه سيف الله. ولقد رأيت منه أعمالاً تعجز الأبطال في حروبه بالعراق، وسمعت من أخباره ما تشيب لهوله الأطفال، فقد كان قبل إسلامه هو المقدم على خيل قريش في الجاهلية، فأسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص ولم يزل منذ أسلم يوليه الرسول أئنة الخيل في مقدمتها، وقد علمت أن في عمامته خصلة من شعر النبي يتبرك بها. وقد شهد وقعة مؤتة بالبلقاء وعلى أثر ما أظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله، ثم كان عوناً عظيماً للمسلمين في كل حروبهم حتى تولى أبو بكر فأنفذه إلى فتح العراق كما علمتم».

فقال عبد الله: «وما هذه الراية السوداء؟».

قال سلمان: «هذه راية ذات شأن عظيم عندهم ويُقال لها العقاب».

فقال حماد: «لم نخبرنا بما فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المدائن ودخلوا عاصمة الفرس؟».

فقال سلمان: «لو بقوا هناك لفعلوا ذلك، ولكن خليفتهم استقدمهم لنجدة الشام، ولولا قدوم خالد إلى بصرى لما استطاع شرحبيل فتحها فقد وصلنا إليهم وهم في شدة وجهد وضيق».

فقال حماد: «أخبرنا يا سلمان عما فتحه خالد من العراق وكيف رأيت حال الفرس؟».

قال: «أما خالد فإنه من أعظم القواد وخيرتهم، وقد لقيته في الحيرة يوم فتحها وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب لأن العراقيين قد ملوا حكومة الفرس وظلمهم وعتوهم واحتقروهم لاختلال أمورهم، فأول مكان وصل إليه خالد بلاد بانقيا وباروسما والليس فصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار سوى حوزة كسرى، وهي فريضة كان يقتضيها الفرس عن كل رأس أربعة دراهم. ثم ساروا إلى الحيرة وعليها أياس بن قبيصة كما تعلمون فإنه تولاها بعد ما قضى الله من أمر مولانا رحمه الله».

قال ذلك وتنهد، فتنهد حماد وعبد الله وهما صامتان يسمعان حديث الحيرة، فقال سلمان: «لم يكد خالد يصل إلى الحيرة حتى خرج إليه أياس وسائر أشراف حكومته كأنهم كانوا منه على موعد، فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية، فبلغت جزيتهم تسعين ألف درهم. وقد أخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن أنها جزية أخذها المسلمون من الفرس. ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في مواضع عدة فازوا في أكثرها ومنها وقعة الشني ووقعة الوجلة ووقعة الليس وكل ذلك قبل وصولي».

«وكنت لما ودعتكم قد سافرت إلى الحيرة فبلغتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها، وأهلها بين راض بالصلح وناقم على أياس. وسمعت الفرس منهم يتذمرون وكاتبوا بذلك كسرى أبرويز وكان يتولى عرش الأكاسرة إذ ذاك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة، فأنفذ جنداً بقيادة رجل من مرابطته اسمه الازاذبه لمحاربة العرب، فوصل الجند وأنا في الحيرة وكان خالد قد برحها إلى بلاد أخرى يلتمس الفتح ثم سمع ازاذبه بقدومه فخرج إليه وعسكر عند

الغريبين وخرجت أنا معهم، وعلم أن خالداً ورجاله قادمون بالسفن بالفرات فأرسل ابنه ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج بـرجاله على الخيل حتى قتل ابن الازاذبه وتقدم نحو الحيرة.

«ومن غريب الاتفاق أننا بينما نحن في الغريبين وصل ساعي البريد من المدائن يحمل كتاباً إلى المرزبان فلم يكذ يفتحه ويقرأ ما فيه حتى تغير لونه واستولى عليه الجزع، فخاف كل من رآه، ولم نعلم ما دعاه إلى ذلك إلا في اليوم التالي إذ شاع في المعسكر أن كسرى أبرويز قد مات، فوقع الاضطراب في الجند وانشغل الازاذبه واضطرب، ثم جاءه الخبر بمقتل ابنه وتقدم العرب نحوه، فتقهقر نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغريبين.

«أما أنا فلما رأيت اختلال أمر الفرس قلت في نفسي: (قد آن الوقت الذي فيه أستطيع القيام بالمهمة التي جئت لأجلها). فخرجت من الحيرة في ليلة ليلاء حتى أتيت معسكر العرب فالتمست الأمان وأن أرى الأمير خالداً، فأخذوني إليه فطلبت الخلوة به وقلت له: (أعلم أيها الأمير أن حال الفرس في اختلال لموت مليكهم وانقسامهم فيما بينهم، فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب، وأما الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخلتهم). وأطلعته على خفايا كنت عالماً بها فسر بي كثيراً وأثنى عليّ، فقلت في نفسي: (هذه فرصة أغتنمها لحفظ ما لمولاي هناك من الأموال والعقار). وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عبد الله فطيت خاطرهم وذكرتهم لهم أني إنما أتيت الحيرة لتفقد حالهم وأوصيتهم بالعناية باستغلال الأرض، فلما آنست من خالد ارتياحاً إلى خدمتي التمت منه حماية تلك المزارع فوعدني. وقبل هجومهم

على الحيرة أخذت علماً مثل الذي نصبته هنا، وبعد قليل هجم المسلمون على المدينة ففتحوها فظلمت في معية خالد حيثما ذهب.

«ويسرني أن أخبركم بأن سقوط الحيرة كاد يقضي على دولة الفرس كلها، لأن الدهاقين وهم ولاية الفرس كانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فجاءوا وصالحوه وسلموا إليه، فأخذ الجزية منهم وكتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام ويهددهم بالقتال، فلم يكن يمر يوم لا نرى الناس قادمين زرافات ووحدانا ولا سيما عرب العراق وهم النصراني، وبعد قليل سار خالد وأنا معه ففتح الأنبار، ثم عين النمر، وغيرهما. وقد لاحظت منه أنه لم يتجراً على المسير إلى المدائن قبل الاستعداد الكافي.

«وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من الخليفة أبي بكر يأمره بالذهاب إلى الشام لنصرة جند العرب على فتحها، فجئت معه حتى أتينا بصرى وهي محاصرة وأنا لا أعلم مقرهما فخطر لي أن أسأل راهبنا الشيخ فأخبرني بمقامكما هنا فتربصت حتى تم الفتح وجئتكما».

وكان عبد الله وحماد صامتين يصغيان لما يقصه عليهما سلمان، فلما انتهى إلى هذا الحد قال حماد: «وما ظنك ببتمة فتح العراق فإن خالداً لم يفتح منها شيئاً كثيراً والمدائن لا تزال على ما هي والفرس لا يزالون حاكمين».

قال: «رويدك يا سيدي إن العرب لا يلبثون أن يعيدوا الكرة، وأظنها تكون القاضية وخالد لم يأت بصرى إلا مدداً لجند الشام فطب نفساً إن الله سيتم انتقامه من أولئك الطغام؟».

فقال عبد الله: «وما العمل الآن؟».

قال سلمان: «أرى يا سيدي أن أبقى أنا مع خالد كما كنت فأسير معه إلى اليرموك، فقد سمعت أن العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالاً شديداً وسيسير لنجدتهم».

فقال حماد: «وأين اليرموك؟».

قال: «هي على مقربة منا غرباً على نهر يُقال له نهر اليرموك يصب في نهر الأردن وقد عسكر العرب عند مائه».

فنتهد حماد وفي نفسه شيء يكتمه، فأدرك سلمان أنه يفكر في هند وجبله فقال: «ولا بد من أن يكون جبله مع جند الروم فإذا جاء اليرموك فلا أعدم وسيلة أستطيع بها مقر هند فأبعث إليكم بخبرها».

فقال حماد: «ألا ترى أن نسير جميعاً مع خالد؟».

فقال سلمان: «لا أرى حاجة إلى ذلك بعد أن أوعز إليك جبله بالإقامة هنا ريثما يبعث إليكم، فلعله يفعل ذلك وأنتم بعيدون عنها فتفوت الفرصة، وأما إذا سرت أنا وبقيتما أنتما هنا فنكون قد أمسكنا الحبل من الطرفين».

أما عبد الله فظل صامتاً وحماد ينظر إليه فأدرك أنه غير راضٍ عن كلام سلمان فقال له: «ما رأيك يا عماه؟».

فقال عبد الله: «الرأي رأيك يا سيدي، ولكنني أرى جبله وأهل منزله لا يهمهم شيء من أمرنا أقمنا في بصرى أم رحلنا عنها، يدلك على ذلك سكوتهم عنا وقد أصاب بصرى ما أصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا».

فقال حماد: «لا نظنهم علموا بما آلت إليه حالتنا، وهب أنهم علموا فكيف يستطيعون الوصول إلينا والمدينة محاطة بالعدو».

فلما رأى عبد الله حماداً يدافع عن جبله قال: «لعل لهم

عذراً». وسكت.

ثم خرج سلمان إلى معسكر خالد ليرى ما تم عليه الأمر، فرأى العرب قد ولوا أرماتوس بصرى، وأخذوا يستعدون للسير، فعاد فأخبر عبد الله وحامداً بذلك وهما يودعاها فقال له حماد: «لا حاجة بي إلى أن أوصيك بإنفاذ خبر جبلة إلينا على عجل وإطلاعنا على ما تم لأهل بيته».

قال: «سمعاً وطاعة وسيأتيك الخبر سريعاً». ثم ودَّعهما وخرج.

ولم يكن سلمان أقل من حماد قلقاً على هند، وقد شارك عبد الله في ارتياحه من جبلة فعول على استطلاع كنه الأمر وإنفاذ ذلك إلى سيده.

— ٢٥ —

واقعة اليرموك

وفي اليوم التالي سار خالد وشرحبيط وجنودهما إلى اليرموك. وقد تكامل فيها من المسلمين ٣٦ ألفاً منهم تسعة آلاف بقيادة خالد فيهم ألف من الصحابة بينهم مائة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى، ومن قوادهم: أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحبيط، وأبو سفيان بن حرب. وكان كل منهم قبل قدوم خالد يحارب الروم بمن معه من الجنود وفق ما يراه. فلما ولى أبو بكر خالداً القيادة العامة على جند الشام كافة، كان هناك من يحسبون أبا عبيد بن الجراح أولى منه بتلك القيادة، فوقع بين جند المسلمين اختلاف في هذا الشأن، ورأى خالد جمع كلمتهم وقد أدرك ما في نفوس بعضهم، فوقف فيهم

خطيباً بعد أن جمع الأمراء حوله وقال: «إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وارضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده. ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعلموا فيما تؤمرون به بالذي ترون أنه رأي من واليكم ومحبه».

قالوا: «هات فما الرأي؟». قال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان يكون لما جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان من الأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا، وإن هذا يوم له ما بعده، إن ردناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلتتعاور الامارة، فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني أتأمر اليوم». فأمره وهم يرون أن الأمر لا يطول.

وأعجب سلمان بجرأة خالد وصدق عزمه، وأخذ منذ وصوله يحاول الخروج إلى معسكر الروم ليرى جيلة أو يسمع خبراً عن هند، فصعد إلى ربوة على ضفة ذلك النهر ونظر إلى معسكر الروم فرآه قد ملأ الفضاء وفيه الرايات والصلبان، فأمعن نظره فيه فرأى معسكر الغسانيين منفصلاً إلى جانب، وشاهد راية جيلة وفسطاطه في وسطه، فحدثته نفسه بأن يسير إليه ولكنه خاف أن يستغشه المسلمون، فرأى أن يعرض عليهم ذهابه للتجسس على عدوهم

واعتزم مخاطبة خالد في ذلك فصار إلى فسطاطه وفيه الأمراء قد اجتمعوا للمفاوضة في أمر الحرب فهاب الدخول وصبر حتى ارفض الاجتماع وبقي خالد وحده فالتمس الدخول عليه، فأذن له، فدخل وقبل يده فقال له خالد: «ما خبرك؟». قال: «هل يأذن لي مولاي في كلمة لعل فيها نفعاً؟». قال: «قل».

قال: «هل بعثتم من يستطلع أخبار الأعداء ويسبر قواتهم ومواقعهم وعدد جندهم؟».

قال: «لقد فعلنا ولكنني أرى أنك أجدر بذلك».

قال: «إني عبد مطيع، فإذا رأيت أن أسير في هذا الأمر فعلت».

قال: «سر على بركة الله».

فقبل يده وخرج فترى بزي الغسانيين وسار حتى اختلط بالغسانيين فالتقى بأناس عرفهم في اللقاء، وقد ظنوا أنه كان معهم من قبل، فاستطلعهم خبر هند فعلم أنها مع أمها في دمشق، ثم استخبر عن قوات الروم فعلم أنهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لأهل الدولة وبعضها للنجادات من الأرمن والسراني والمصريين، وأن جملة الجند ٢٤٠ ألفاً ما عدا العرب المنتصرة من الغساسنة وغيرهم فوقعت في نفسه من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم، وتردد في الرجوع إلى خالد ولكنه قال في نفسه: «أذهب الآن إلى المسلمين فإذا رأيت فيهم تضعضاً فررت إلى الغساسنة».

فلما سدل الليل نقابه عاد إلى معسكر المسلمين وأطلع خالدًا على حال الروم فقال خالد: «لا تهمنا كثرتهم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

فقال سلمان: «ليست القوة في الكثرة يا مولاي ولكنها في الاتحاد فقد علمت أن هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لاختلاف أغراضهم ومشاربهم». ثم ودّعه وخرج وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند إلى حماد.

فلما أصبح سمع التكبير والأذان في معسكر المسلمين، ثم رآهم قد أخذوا يتأهبون للقتال فوقف يتأمل في نظامهم فرأى خالداً وقد وقف وسط الأمراء وأمر أن تنظم الجيوش كراديس، فقسم الجند ٣٦ كردوساً وجعل قلب الجند كراديس وأقام عليه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان. وفيما خالد يعبىء الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!». فقال خالد: «بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان فوالله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) بريء وأنهم أضعفوا في العدد» وكان الأشقر قد حفى في مسيره. ثم أمر أن يبدأوا القتال فحاذر سلمان أن تصيبه نبله، فتنحى وهو خائف أن تعود العائدة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم، ووقف في منعطف يؤدي إلى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجلاً من جند المسلمين وقوفاً، فتأملهم فرأى بينهم أبا سفيان وكان قد عرفه في بعض أسفاره مع سيده عبد الله إلى الحجاز، فتذكر ما كان من حديثه في بيت المقدس ويوم اعتناقه الإسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفه هناك والحرب منتشبة، فدنا منه وأبو سفيان لا يراه فسمعه يخاطب رفقاءه فيقول: «يا مشيخة قريش ومهاجري الفتح (الذين هاجروا يوم فتح مكة وأسلموا) لا يهمننا من هذه الحرب إلا الانحياز إلى الغالب، فإذا

غلبت الروم كنا معهم وإذا انتصر المسلمون فإننا معهم». فعجب سلمان لكلامه وعلم أنه إنما أسلم خوفاً على حياته لا رغبة في الإسلام ولكنه ظل في ريب من هذا الأمر، فأصاخ بسمعه لما يقوله بعد ذلك فرآه إذا تهقر العرب وتقدم الروم قال: «إيه يا بني الأصفر!». ولم يكد أبو سفيان يتم كلامه حتى صرخ متأوهاً، فنظر فإذا بنبله أصابت إحدى عينيه ففقأتها، فقال سلمان في نفسه: «لقد نال هذا الرجل جزاءه». وخاف سلمان البقاء هناك لئلا يُصاب بنبله فسار إلى ناحية أخرى والحرب قد حمي وطيسها فرأى بريداً قادماً من جهة البلقاء فعرف صاحبه، وكان قد رآه في الحجاز فعلم أنه بريد قادم من المدينة بخبر جديد. وكان صاحب البريد مسرعاً وعلى وجهه أمارات البغته فناداه فوقف فقال سلمان: «هل تريد الأمير خالداً؟». قال: «نعم أين هو؟». قال: «في المعمة ولكنني أوصلك إلى فسطاطه». ثم انطلقا وعينا صاحب البريد على الجند وحركاته، فلما رأى جند العرب ظافراً لم يتمالك أن قال: «لم يقدر لأبي بكر أن يسمع بخبر هذا النصر قبل موته!».

فقال سلمان: «وهل مات أبو بكر؟».

قال: «نعم مات، وقد جئت بخبره».

فقال: «ومن تولى بعده؟».

قال: «تولى عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم».

فبغت سلمان لذلك الخبر وقال: «ألا تظن وفاته تؤثر في مجرى الأحوال؟».

قال: «كلا، ولكن عمر يفضل أبا عبيدة على خالد، وقد أنفذني بعزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية أبي عبيدة، على أنني لا

أرى أن أبلغهم الخبر قبل انقضاء الوقعة لئلا يفشلوا أو يختلفوا فيما بينهم».

فقال سلمان: «حسناً تفعل، ولكن ما الذي حمل الخليفة عمر على نقل القيادة إلى أبي عبيدة، لعله أشجع من خالد؟».

قال: «كلا ولكن أبا عبيدة رجل كريم الأخلاق لين سهل حلیم رؤوف، وهو أقدم في الإسلام من خالد، والقيادة تحتاج إلى حكمة وتأن أكثر من حاجتها إلى الشجاعة».

قال سلمان: «نعم ولكنني علمت أن النبي سمى خالداً (سيف الله) أليس هو أحق بالقيادة؟».

قال: «إن النبي سمى أبا عبيدة (أمين الأمة). وكان يحب صحبته والاتصاف به. والحق يُقال أن كليهما عظيم، ولكن للخليفة رأياً في ذلك فإنه ساخط على خالد بسبب حكاية وقعت منه في أيام أبي بكر».

فقال سلمان: «هلم بنا نجلس في مأمن ريثما تنقضي الحرب لأنهم إذا رأوك لا ينفكون عن سؤالك حتى تخبرهم بموت أبي بكر وعزل خالد».

فاستحسن صاحب البريد الرأي وعرج مع سلمان إلى شجرة تواليا وراء جذعها، ثم قال صاحب البريد: «لما أحس الخليفة أبو بكر بدنو الأجل وأأسفاه عليه دعا كاتبه عثمان بن عفان وأملى عليه كتاباً قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين: أما بعد...). ثم أغمى عليه وكان عثمان وسائر الصحابة لا يرون أحق بالخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم، فأتم الوصاية عثمان من عند نفسه فكتب: (أما بعد فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً). ثم أفاق أبو

بكر من غشيته فقال لعثمان: (اقرأ). فقرأ ما كتبه، فكبر أبو بكر وقال: (أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي هذه؟). قال: (نعم). قال: (جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله). ثم قرأوا هذا العهد على الناس. ولما قبض أبو بكر بايعوا عمر وهو الآن خليفة رسول الله، وقد سمّوه أمير المؤمنين تخلصاً من تكرار لفظ خليفة لمن يتولى الخلافة بعده.

وفيما هما في الحديث وأعينهما شائعة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقروا وعبر العرب خندقهم واستولوا على أسلابهم وفرّ الروم ومن معهم من العرب المنتصرة وغيرهم وتم النصر للمسلمين، ولم يمض إلا القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الأثاث والحلي والأسحلة وغيرها. فمشى سلمان وصاحبه نحو فسطاط خالد فرأياه عائداً وحوله الأمراء على غير نظام لما دار بينهم من أحاديث النصر. فحالما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفه، وأشار إليه أن يتبعه إلى الفسطاط ففعل وأنبأه بموت أبي بكر وخلافة عمر وعزله وولاية أبي عبيدة، فأوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل إنسان.

أما سلمان فإنه عاد إلى مشاغله بأمر هند، وشق عليه انهزام جبلة وخاف أن يكون قد قتل، ثم علم ببقائه حياً فمال للذهاب إلى حماد ليطلعه على ما علمه عن هند، ولكنه أراد استطلاع نية المسلمين ووجهة مسيرهم قبل ذهابه فقصى أياماً يبحث عن ذلك فعلم أنهم عازمون على دمشق، فخاف على هند لعلمه أنها فيها وودّ لو يعلم أين أبوها وما هو عازم عليه بعد شخوص العرب إلى الشام، فعول على استطلاع ذلك من جبلة، فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره، فعلم أنه سار في جملة منهزمي الروم إلى حمص والامبراطور هرقل فيها، فقصده إليها.

تركنا حماداً وعبد الله في بصرى ينتظران عودة سلمان بخبر
 وقعة اليرموك ومقام هند. وكان حماد شديد القلق على هند وقد حدثته
 نفسه بشرّ أصابها أو بفشل يتهدهده على أثر ما قاساه في سبيل الحصول
 عليها من الأسفار والأخطار. وخيل له أنها خرجت من يده وذهبت
 مساعيه كلها أدراج الرياح، فعظم عليه الأمر وأنس من نفسه ميلاً إلى
 المسير إليها واستطلاع ما في نفسها ولكنه لم يكن يعرف مقرها فلبث
 ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين.

وكان يتلهى بالخروج للصيد ونحوه وهو لا يهدأ له بال،
 وأدرك عبد الله فيه ذلك لكنه تجاهل منتظراً أن ينفر حماد من هند
 ويعدل عنها من تلقاء نفسه. وقد فاته قول القائل:

وإذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد
 فكان يصاحبه إلى الصيد ويكثر من محادثته في شؤون مختلفة إلا
 مسألة هند فإنه لم يكن يفتحها قط. ولم تمض أيام حتى سمعا بانهمزام
 الروم في اليرموك فصارا يتوقعان رجوع سلمان.

وفي صباح ذات يوم نهض حماد وأخذ يتأهب للخروج إلى
 الصيد، وفيما هو يفتش بين أثوابه عثر بالدرع التي ألبسته إياها هند
 يوم السباق، فلم يكذب ينظر إليها حتى اختلج قلبه لما قد تذكره من
 حوادث الحب فعظم عليه احتباسه في بصرى لا يعلم مقر حبيبته مع
 ما ظهر له من التي زادت الأمر إشكالاً. فوقف برهة ينظر إلى الدرع
 ويقبلها بين يديه وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليه
 اليأس وكادت الدموع تتناثر من عينيه. وكان عبد الله غافلاً أو
 متغافلاً عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة له وترك حماداً في الغرفة
 وحده.

وبعد قليل سمع حماد صهيل جواد غير جواده وغير جواد

عبد الله، فانتبه بغتة وأطل من النافذة فإذا براكب ترجل ودنا من الباب وكأنه في ريب من أمر أهله، فأمعن حماد نظره فيه فلم يعرفه، فنزل للقاءه بالباب فسأله الرجل: «أليس هذا منزل الأمير عبد الله العراقي؟».

قال حماد: «نعم هو بعينه».

قال: «وأين ابنه الأمير حماد؟».

قال: «هو أنا. ماذا تريد؟».

قال: «إن بعض الناس في حاجة إليك ينتظرونك في دير بحيراء».

فلما سمع حماد ذكر الدير خفق قلبه واستبشر فقال للرسول: «إني سائر إلى هناك على عجل».

فودعه الرجل وركب عائداً من حيث أتى، وأسرع حماد فارتدى لباسه قبل أن يأتي عبد الله، ولكنه لم يكد يخرج ويركب حتى لقيه عبد الله واستغرب ركوبه قبله، فاعتذر بأنه يود الخروج لزيارة الدير وحده، فأذعن له وهو في ريب من الأمر.

فهزم حماد جواده ولم يقف إلا أمام باب الدير فرأى هناك جواداً عرف أنه من جباد أهل صرح الغدير، فاستبشر ودخل الدير يتناول بعنقه ويحدق بعينه، فرأى امرأة عرف لأول وهلة أنها من خادמות هند وهي التي حملت إليه الرسالة الأولى قبل ذهابه إلى بصرى. فلما رآته حيته وهمت بتقيل يده فرد السلام ولسان حاله يسألها عن هند، فمشت أمامه إلى غرفة دخلها ثم مدت يدها إلى أثوابها وأخرجت منديلاً فدفعته إليه وهي تقول: «إن سيدي هنداً تسلم عليك وقد أرسلت إليك هذا المنديل». فقلب المنديل بين يديه فإذا فيه كتابة كتبت

بالدم بالأحرف النبطية، وفيها تقول: «لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتى عاد إلى مصاحبة أي، وإلى مطلبه الأول، وأنت تعلم أن الموت أهون عليّ من ذلك، فأدركني قبل فوات الفرصة فإني مقيمة بدمشق ولعل حامل كتابي أن يزيدك إيضاحاً». فلم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصه والتفت إلى المرأة يستطلعها الخبر فقالت: «إن مولاتي هنداً مقيمة بدمشق في منزل قرب كنيسة مريم، وقد أرسلتني بهذا الكتاب وأوصتني بأن أسلمه إليك في هذا الدير». قال: «قد قرأت الكتاب ولكنني لم أفهم حقيقة المراد فهل ثعلبة الآن في دمشق؟».

قالت: «كلا بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص». قال: «وما الذي جمعه بالملك جبلة وقد كانا متخاصمين؟». قالت: «نعم كانا متخاصمين ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودهما في وقعة اليرموك». فقال حماد: «كذلك يتصافى العدوَان إذا أصيبا بسوء معاً، وماذا جرى بعد ذلك؟».

قالت: «كنا مقيمين بدمشق مع سيدتي هند وأمها وبقية الحاشية، فورد كتاب من مولاي جبلة إلى سيدتي الأميرة سعدى ينبئها بقرب قدومه مع ثعلبة إلى الشام لعقد قرانه على هند في أثناء مهادنة العرب، فلم يسع سيدتي بعد تلاوة الكتاب إلا أن تخبر هنداً به، ثم أرسلتني في هذه المهمة وأوصتني أن ألقى إليك الأمر كما وقع لتتدبر في إنقاذها فإنها تفضل الموت على الاقتران به».

فلما سمع حماد ذلك الحديث ثارت الحمية في رأسه واتقدت نيران الغيرة في قلبه، وود لو أن له أجنحة ليطير إلى دمشق ولكنه

لبث برهة يفكر ثم قال للمرأة: «وأين ثعلبة الآن؟».

قالت: «هو مع سيدي جبلة قرب حمص، ولكنني أظنه أقفل قاصداً دمشق».

فازداد قلقاً وأخذ يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم قال لها: «ارجعي إلى سيدتك وأخبريها أنني قادم إليها على عجل وربما وصلت إلى دمشق قبلك».

قالت: «وماذا يؤكد لها أنني لقيتك وقصصت عليك الخبر، ألا تذكر لها علامة تبين لها ذلك؟».

ففكر قليلاً ثم قال: «قولي لها أن صاحب البرد والخاتم قادم إليك وهذا يكفي».

فودعته وركبت وركب الخادم ورجعا. أما هو فوقف يفكر في حاله مع عبد الله، وتردد بين أن يعود إلى بصرى فيخبره بجلية الخبر أو أن يسير توطاً إلى دمشق، فلبث برهة في حيرة حتى خاف أن تفوته الفرصة فذهب إلى غرفة الراهب الشيخ فإذا هو متكئ، فاقترب منه وحيّاه، فرحب به وسأله عن أمره فقال: «لقد جئتكم بوصية أرجو أن تبلغها إلى الأمير عبد الله».

قال: «وما هي؟». قال: «أن تذكر له أنني سرت إلى دمشق لأمر ذي بال، فإذا استبطأ عودتي فليدركني هناك».

قال: «سأفعل ذلك إن شاء الله».

وودعه حماد وخرج على جواده قاصداً دمشق.

— ٢٦ —

حصار دمشق

كانت هند بعد سفرها من صرح الغدير ووداع حماد، قد خافت

أن تذهب آمالها أدراج الرياح لما آنتسته من جفاء أبيها على أثر ما سمعه عن نسب حماد. فلم يكد يتوارى حماد عن عينيها حتى أحست بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت إلى البكاء، وكان أبوها في شاغل بأمر أهل القصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد، فجاءت سعدى إلى غرفة هند وقد أدركت حالها وتوقعت بكاءها فأخذت تطيب قلبها وتواسيها بالوعود، وهند لا تزدد إلا بكاء، فقالت لها سعدى: «لا يفيدنا البكاء، وإنما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيه من الحكمة فاصبري وتبصري عسى أن تكون العاقبة خيراً».

فتنهدت هند وقالت لها: «دعيني يا أماه، لقد كفاني ما قاسيته من أنواع الشقاء وما سمعته من الوعود، فقد كان عذرکم في رفضه جهلکم بنسبه، ثم قبلتموه على غموض نسبه، فما بالکم ترددتُم وقد علمتم بشريف أصله؟ أليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبه الله علي؟». قالت ذلك وأوغلت في البكاء. فبكت سعدى لبكائها، ولكنها تجلّدت وطيّت خاطرهما وقالت لها: «اسکتي لئلا يسمع أبوک صوت البكاء فيزيد الخرق اتساعاً، أما أنا فأني ضامنة لك ما تريدين إن حماداً لك وأنت له فلا تجزعي». وأخذت تخفف عنها حتى سکن روعها ومسحت مآقيها ولبثت صامتة وقد ذبلت عيناها وتعكرتا وتكسرت أهدابهما، وأخذت تراجع في ذاكرتها ما مرّ بها من الأهوال بسبب الحب، وكيف كانت قبل ذلك السباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى، وكانت تتعزى بما ترجوه من لقيا الحبيب ولكنها تذكرت أنه خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب فكتبت إليه ذلك الكتاب إلى دير بحيراء تلمس صبره.

وفي اليوم التالي سافر أهل الصرح جميعاً إلى البلقاء فأقاموا هناك إلا جبلة فإنه سار إلى الامبراطور هرقل في حمص فأمره بإعداد الرجال

من غسان وغيرهم. وكان ثعلبة قد ضعف أمره وأهمله جبلة لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة الحارث، ولكنه أصبح بعد ما عرفه من نسب حماد ميالاً إلى مصافاة ثعلبة ليتزوج هنداً فينجي ملكه من الخروج إلى المناذرة. فلما احتاج إلى الرجال من غسان اضطر إلى استقدام ثعلبة فكتب إليه فجاء برجاله وانضم إلى رجال جبلة وهما على ظاهر الفتور، ثم علم جبلة بقدوم المسلمين إلى اليرموك وبصرى فخاف على أهله في البلقاء فاستقدمهم إلى دمشق وأسكنهم بيتاً مع نساء بعض أصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم. واشتغل هو بحرب اليرموك وغيرها، فلما قُضي على جنوده بالانهزام في وقعة اليرموك شعر بزيادة الميل إلى مصافاة ثعلبة. وذلك أمر طبيعي في الناس بل هو جارٍ في سائر أنواع الحيوان فإذا رأيت ديوكاً في منزلك تتخاصم وتتضارب وقد عسر عليك مصافاتها، فأجمعها في قفص وامنع الطعام والماء عنها فلا تلبث أن تراها قد اصطحبت وتصافت. كذلك الناس فإنهم لا يزالون في خصام حتى يصيبهم سوء ويقعوا جميعاً في مصيبة واحدة فتراهم قد تألفت قلوبهم!

فلما أصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع جبلة وثعلبة للنظر في أحوال الجند، وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلما رأى من عمه مؤانسة وتقرباً زاده رقة واستئناساً فاجتمع قلباهما. وما لبثت المصافاة أن جرتهما إلى حديث الاقتران فعاتبا وتشاكيا لما مر من الجفاء بينهما فاعتذر كل منهما أعذاراً انتحلها لنفسه، وكان ثعلبة أكثرهما سروراً بذلك لأنه أصبح بعد موت أبيه ضعيفاً مردولاً. وقد علم أنه إذا تزوج هنداً كان الوارث الوحيد لرياسة غسان جميعاً. وكان قد درس أخلاق عمه جبلة وعرف ميول قلبه، فتظاهر بما ينطبق على نيته حتى حُبب إليه مصاهرته ووعدته بهند.

أما جبلة فإنما حمله على مصاهرة ثعلبة استبقاء الحكومة في بني غسان وإنقاذها من المناذرة، ولولا ذلك لما رأى في ثعلبة ما يقربه منه أو يفضله على حماد.

فلما تحقق ثعلبة رضاء عمه عنه سألته عن يوم الاقتران فقال جبلة: «أرى أن يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين». فقال ثعلبة: «ولكن تلك الفترة ليس لها حد معروف، وما أدرانا متى تنقضي، وكيف يرتاح بالناس وأهل البيت مقيمون بدمشق ونحن لا نستقر على حال. فإذا رأى عمي أن نستعجل الاقتران كان ذلك أقرب إلى جمع الشمل».

فأجابه جبلة إلى مرأته، وكانا بجوار حمص بعد وقعة اليرموك، فكتب جبلة إلى سعدى ينبئها بنتيجة ما دار بينه وبين ثعلبة ويبين الوجه الذي حمله على اختياره دون حماد فقال: «إننا بزواج هند بثعلبة نستبقي الملك في الغساسنة ونخلصه من خطر الوقوع بين أيدي المناذرة». وأوصاها بالتأهب لعقد القران قريباً. ولم تتم سعدى قراءة الكتاب حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تحشاه على هند إذا علمت بما نواه أبوها، وأعادت تلاوة الكتاب بتمعن فأدركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاعه على حقيقة نسب حماد وشعرت بأنها هي السبب في كل هذه المتاعب، فرأت أنها مطالبة شرعاً بإنقاذ ابنتها من مخالب ثعلبة، فضلاً عما في نفسها من الاحتقار له. فأخذت تفكر في طريقة تصل بها إلى ذلك، والوقت ضيق لا يتسع للصبر والتؤدة، وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكاً وتسألها عن السبب فتتجاهل. وما زالت سعدى في مثل ذلك يومين كاملين حتى خافت فوات الفرصة فرأت أخيراً أن تستقدم حماداً على عجل وهند لا تعلم، فإذا حضر شاورته في الأمر. فكتبت إلى حماد الكتاب الذي

تقدم ذكره بحبر من الدم استحثاً له على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد.

لم يكد حماد يغادر بصرى حتى أدرك صعوبة المسير إلى الشام وحده وهو لم يطرق تلك البلاد إلا قليلاً. وأقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمر في حوران واللجاء، وكلا الصقعين وعر خطر، وهناك طرق أخرى تختلف بُعداً ووعورة. فلم يرَ بداً من اصطحاب دليل من أهل هذه المنطقة. ثم سار معه شمالاً يقطع الجبال والأودية والسهول والغابات، ولا ينام إلا قليلاً. ولكن الدليل تاه مرة فأضاع يوماً كاملاً حتى اهتدى إلى الطريق، وبعد بضعة أيام أشرفا صباحاً على غوطة عظيمة هي بساتين واسعة الأطراف فيها الأغراس من المشمش والرمان واللوز والبرتقال والخوخ والسفرجل والكرم وسائر أصناف الفاكهة، تجري بينها الأنهار وتتناغى فوقها الأطيوار. وظهرت لحماذ وراء تلك الغوطة أبنية توارت وراء الغبار، فوقف ينظر إلى ما حوله وقد تعب جواده، فسأل دليله عن تلك الأبنية فقال: «إنك يا مولاي في غوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهاها، وما تلك الأبنية التي تبدي لك من وراء الغوطة إلا دمشق الفيحاء مقر والي الروم».

فقال حماد: «وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا؟».

قال: «لا أدري ما هو، ولعله غبار الروم وقد خرجوا للسباق، أو هو غبار جنود المسلمين فقد علمت من بعض القادمين من جهات اليرموك أن المسلمين لما غلبوا الروم هناك ساروا إلى دمشق ولا يبعد أنهم جاؤوها وحاصروا».

فاستعاذ حماد بالله وخاف أن يكون كلام الدليل صواباً فيمتنع عليه الدخول إلى المدينة وربما وقع في أيدي المسلمين أسيراً ولا يدري

ما ينجيه منهم، فتذكر سلمان لاحتياجه إليه في تلك الحال وندم لمجيئه منفرداً، ولم يرَ لديه مَنْ يستشيرَه ويعتمد عليه غير ذلك الدليل . وكان هذا شاباً من عرب الغساسنة المقيمين ببصرى، في العشرين من عمره، يتكلم العربية واليونانية . فقال له حماد: «أتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن؟» .

قال: «أعرفها جيداً وقد أقمت بها أياماً، وكثيراً ما جئنا مع أبي لوفاء النذور أو الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان» . فقال حماد: «وهل تعرف كنيسة مريم؟» .

قال: «نعم أعرفها فإنها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي إلى الطرف الغربي، أي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند أول وصولنا المدينة إلى الباب المقابل له في الطرف الآخر منها في الغرب، ويُقال له باب الحباية» .

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين به على الوصول إلى منزل هند، وأخذ يتلطف في معاملته ويسترضيه بالإكرام والهدايا، وبعد أن وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابه وسارا في الغوطة والأشجار تظللهم . ولم يسيرا قليلاً حتى غابت المدينة عنهما، ثم أشرفا على مرتفع أطلا منه على سهل أمام دمشق فرأيا الخيام والاعلام والخيول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء .

وأدرك حماد أنها أعلام المسلمين وخيامهم، وتحقق ذلك مما شاهده وراءها من مرابض الجمال ومساكن النساء، فأيقن بعرقلة مساعيه وأنه لن يستطيع الدخول إلى دمشق، وخاف المسير إلى معسكر العرب لئلا يستغشوه فوقف حائراً لا يدري ما يعمل . وفيما هو يهتم بالاستفهام من الدليل على سبيل يدخل به المدينة سمع قرقعة لجم ووقع حوافر خيول على الحصى في جدول جف مأؤه بين الأشجار،

فأوجس خيفة وحوّل عنان جواده نحو الصوت وتهاً للدفاع، وأمر الدليل فانحدر بين الأشجار يتشوف من خلالها ويصيح بسمعه، فلم يكذب يقف هنيهة حتى سمع صوتاً يناديه باسمه فحقق قلبه لاستثناسه بذلك الصوت فأجابه: «مَنْ أنت؟». ثم أدرك أنه صوت الأمير عبد الله لكنه استبعد أن يراه هناك وعهده به مقيم ببصرى، ثم ما لبث أن رآه قادماً على جواده ووراءه فارسان عربيان فتحقق أنه هو بعينه وأحس قلبه بانفراج الأزمة واستغرب مجيئه، فإذا بعبد الله قد ترجل وضم حماداً وقبله. فقال حماد: «ما الذي جاء بك يا أبتاه؟».

قال: «جئت لحراستك يا مولاي، وقد علمت من الراهب الشيخ أنك شخصت إلى الشام فأسرعت إليك لعلمي بما قد تلقاه من العراقيل في سبيل الدخول إليها، وقد صح ظني وشكرت الله لمجيئي لأنني رأيت العرب محدقين بالمدينة وقد حاصروها حصاراً شديداً، ولولا سابق معرفتي بخالد بن الوليد لما تمكنت من خدمتك. وقد مضى عليّ يومان أطوف هذه البقاع ومعني هذان الفارسان نتوقع وصولك لنسير بك إلى خالد وقد أمنتنا».

فشكره حماد وأثنى على غيرته وسأله عن حال المدينة فقال: «إنها في حصار شديد لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد. وأنت ما الذي جرّك إلى هذه المخاطرة؟». فقصّ عليه حكايته وأطلعه على كتاب هند والخنجل ظاهر على وجهه.

فحدثته نفسه أن يثني عزمه عن هند، ولكنه علم أنه لن يصادف منه إصغاء، فضلاً عما قد يلجئه إليه من التستر في أعماله فشجعه وقال له: «لا بأس عليك يا ولدي فإن ثعلبة لم يستطع دخول المدينة ولن يستطيعه».

فقال: «وما الذي أنباك بهذا؟».

قال: «لم ينبئني أحد ولكنني عرفت أن الغساسنة كلهم وفيهم جبلة وثعلبة مقيمون بحمص خوفاً من هجمات المسلمين، وكان هرقل قد أنفذهم مع جند الروم لنجدة دمشق فلم يستطيعوا دخولها فعادوا على الأعقاب».

قال: «وما العمل الآن؟».

قال: «هلم بنا إلى معسكر خالد فإنهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم إلا إذا أحببت الرجوع إلى بصرى فإن ذلك آمن لنا وأبقى».

فصمت حماد ولسان حاله يقول: «كيف أعود عن دمشق وهند محصورة فيها؟». فابتدره عبد الله قائلاً: «لا بل أرى أن نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع أمراً ننقذ به هنداً من الخطر». فأبرقت أسرة حماد لما آتته من مجارة عبد الله فقال: «نعم الرأي رأيك فهل بنا». وهموا بالمسير نحو دمشق فقال الدليل: «هل ترى حاجة إليّ بعد الآن يا سيدي؟» فقال حماد: «نعم أرى أن تبقى معنا لعلنا نحتاج إليك في شيء ونحن في مأمن ولك علينا خير المكافأة». فأذعن وسار معهما.

وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبد الله بلسان أهل العراق فقال: «هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق؟».

قال: «هم عديدون وقد تفرقوا فرقاً بينهم فرقة خالد عند الباب الشرقي، وفرقة أبي عبيدة عند باب الجابية في الغرب، وفرقة عمرو بن العاص عند باب الفراديس، وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر، وفرق أخرى عند الأبواب الأخرى. وهناك فرقة يقودها جبار عنيد يُقال له ضرار بن الأزور تطوف حول الأسوار. ويخيل لي أن الروم لا يستطيعون الصبر على الحصار».

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على معسكر العرب عند الباب

الشرقي. فرأوا الخيول والجِمال ترعى في البساتين ومعها العبيد والخدم، ورأوا النساء في أخبيتهن يتحدثن بأمر الجهاد وهنّ مشتاقات إليه اشتياق الأبطال إلى ساحة القتال.

فلما وصلوا إلى المعسكر أتوا فسطاط خالد فدخله عبد الله وحماد بلا معارض، وكان خالد جالساً في صدر المكان فرحب بهما ودعاهما للجلوس، فنظر حماد إلى مَنْ في الفسطاط فرأى رومانوس صاحب بصرى إلى جانب خالد وقد اعتمّ بالعمامة وتزمل بالرداء العربي وغادر القلنسوة والقباء، وكان خالد قد استقدمه معه ليرجم بينه وبين الروم، فتهيب حماد من مجلس خالد ومن أحرق به من الأمراء وفيهم جماعة كبيرة لهم يعرفهم ولكنه رأى الشجاعة والإقدام تلوحان على وجوههم.

فتقدم عبد الله إلى خالد فعرفه بحماد، فأثنى خالد عليه وقال: «إن غلامك سيزداد زينة بالإسلام». فسكت عبد الله ولم يجب.

أما حماد فلم يكن همّه إلا هند وحالها في دمشق، ولو لم يطمئنه عبد الله ببعد ثعلبة عنها لما صبر على البقاء هناك، لكنه ما فتىء يفكر في حيلة يدخل بها المدينة ليرى هنداً ويطمئنها ويسعى في إنقاذها.

وبعد قليل استأذن عبد الله خالداً في الخروج إلى خيمة أعدت له، فخرج وخرج حماد معه حتى أتيا الخيمة فقال حماد: «ما الرأي الآن؟» إني أرى هنداً في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة.

قال: «تمهل يا سيدي لعلنا نوفق إلى ذلك في الغد». وباتا تلك الليلة وأفاقا في الصباح على أصوات الأذان والصلاة فقال عبد الله: «لا أرانا نستطيع شيئاً طالما كنا في هذا المعسكر، هلم بنا إلى معسكر

أبي عبيدة عند باب الحايية لعلنا نسمع خبراً». فمشيا كأنهما من الجند وتركا الدليل في الخيمة، حتى أتيا معسكر أبي عبيدة فدعاها إلى خيمته، وكان عبد الله قد عرفه وسمع بسهولة أخلاقه وطول أناته ورغبته عن سفك الدماء. فبعد السلام والترحاب قال عبد الله: «ألا يرى مولاي مخابرة هؤلاء الروم في أمر الصلح عسى أن يسلموا ويكفوكم مؤونة الحرب».

قال أبو عبيدة: «إني أرغب الناس في ذلك، ولكن خالداً يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال».

فقال عبد الله: «وما ضر لو أنفذت إليهم أحداً يستطلع رأيهم وأنت رئيس هذا الجند والمتصرف فيهم؟».

فقال: «لا أرى بأساً في ذلك إلا أنهم يحسبوننا خائفين».

قال: «أرسلوا من يستطلع رأيهم إذ قد يكونون راغبين في الصلح وهم يحسبونكم لا ترضون به، فإذا سار إليهم أحد فليكن كلامه من عند نفسه».

قال: «ومن لنا بمن يعرف لسانهم؟».

قال: «لا أظننا نعدم وسيلة». وكان حماد قد تعلم شيئاً من اليونانية في أثناء إقامته ببصرى، وهَمَّ عبد الله بأن يشير بإرسال حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتاً فابتدره حماد قائلاً: «إني أقدم نفسي لهذه المهمة».

فقال أبو عبيدة: «على أن تسير إليهم خفية، فإذا فزت في مهمتك انحجبت الدماء على يدك وإلا فإننا باقون على حالنا من الحرب. واعلم أن قائد جند الروم هناك رجل اسمه توما وهو صهر الامبراطور هرقل فيسرُ إليه واستطلع رأيه من قبلك في التسليم».

فُسِّرَ حماد بمهمته، وخرج من فسطاط أبي عبيدة وعبد الله معه، فناداهما أبو عبيدة فعادا فقال لحماذ: «إذا سرت أنت بقي أبوك عندنا رهناً فإن النفس أمانة بالسوء». فرضيا وخرج حماد وحده وبقي عبد الله هناك وقد ندم لما جرّه على حماد وعلى نفسه من الخطر وضاق صدره وخاف العاقبة.

أما حماد فإنه حمل علماً أبيض وركب جواداً وأسرع نحو المدينة فلم يتبين الأسوار حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسوس بصلبانهم والجند بأعلامهم، ورأى بعضهم يهيم بأن يرميه بالنبال، فأشار إليهم عن بعد أنه إنما جاء مسلماً فكفوا عن أذاه، حتى إذا دنا من الباب هاله عظمه فقد كان مؤلفاً من ثلاثة أبواب صفّاً واحداً المتوسط منها كبير ذو قنطرة واسعة وإلى جانبه بابان صغيران، وفي أعلى الباب صورة النسر الروماني تحته كتابة باليونانية، وفوق النسر جدار فيه مرامي النبال والناس يتزاحمون فوقها تتلألاً ألّبستهم بألوانها الحمراء والزرقاء مما يدل على البذخ والترف، وفوق رؤوسهم الخوذ من الفولاذ. فناداهم بلسانهم ذاكراً أنه يريد الوصول إلى رئيسهم.

نزل بعض الجنود ففتحو لحماذ أحد البابين الصغيرين، فدخل بجواده وسلاحه، وقد أحدق به الرجال، فتهيب الموقف لكنه تجلد وطلب أن يرى البطريق توما، فقالوا: «إنه في قصره بالقرب من كنيسة ماري يوحنا». فترجل ومشى بين الحراس في شارع عريض قد استطال على استقامة واحدة يبتدأ بالباب الأوسط ولا يكاد يرى آخره وأرضه مرصوفة بالحجارة الصوانية الضخمة، وإلى كل من جانبه رصيف عريض أوله عند أحد البابين الصغيرين، وعلى الرصيف أساطين فخمة من الرخام متراسة على طول الطريق. ولم يكن حماد قد دخل الشام قبل ذلك الحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدنية ما لم

ير مثله في بصرى .

فما زال سائراً وحوله الحراس وأهل المدينة يطلون من الشرفات والنوافذ ينظرون إليه ويتحدثون بأمره وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يرى هنداً بينهم وكلما وقع نظره على أنثى ظنها هي، وكان يخترق الصفوف بلحظة لعله يرى قبة أو كنيسة على أمل أن تكون كنيسة مريم حيث تقيم هند، حتى مرّ بكنيسة علم من بعض حديث القوم أنها الكنيسة التي ينشدها، فخفق قلبه وشاعت عيناه وهو يلتفت إلى ما حولها من النوافذ فرأى جموعاً من الناس ولكنه لم ير هنداً بينهم، فسار والناس حوله يتحادثون بلسانهم وقد علت الضوضاء يتخللها قرقرة حوافر الخيل على البلاط .

وبعد أن ساروا حيناً، انعطفوا إلى شارع آخر حتى وصلوا إلى باب كبير يحف به الخدم والأعوان فوقفوا عنده، فعلم أنه القصر، ثم ذهب بعض الحراس لينبثوا البطريق بقدم الرسول، فأمر بإدخاله عليه، فجردوه من سلاحه فدخل وركبته ترتعشان لهول ما يتوقعه فدخلوا به إلى صحن الدار فأعجبه ما رآه في أرضها من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهيئات آدميين وحيوانات بالفسيفساء بألوان بديعة متراسة قطعاً صغيرة بصناعة فائقة . وفي وسط الدار بركة من الرخام يتدفق الماء منها . ثم دخلوا به في قاعة مفروشة بالرياش الثمين مما يبهر النظر وعلى جدرانها وسقفها صور بعض القديسين، وصورة الامبراطور هرقل بتاجه وصولجانه، وصور أخرى دينية . ورأى على النوافذ أستاراً من الديباج والحرير المزركش بالقصب، والأرض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رسوم الأسود والفهود والخيول في أبدع ما يكون . فدعوه إلى الجلوس هناك ريثما يخرج إليه البطريق، فجلس يتوقع قدومه وهو يهون على نفسه ويتجلد

حتى سمع وقع أقدام كثيرة ورأى أهل القصر في هرج وتزاحم، فعلم أن الرجل قادم، رآه وقد دخل القاعة فإذا هو طويل القامة عظيم الهامة كثير الهيبة، وطيلسانه يكاد يجر وراءه، وسيفه إلى جنبه، وهو في رداء قصير إلى ركبتيه كثير الألوان مزركش بالذهب. وعلى رأسه قلنسوة أشبه بالتاج مرصعة بالحجارة الكريمة. فحالما رآه حماد وقف إجلالاً له وتقدم نحوه متأدباً. فنظر توما إليه بعينين حادتين يكاد النور ينبثق منهما، فهاب حماد منظره لكنه تظاهر بالتجلد، وحيّاه تحية الملوك وصبر حتى جلس وأمر له بالجلوس، فجلس يفكر فيما يبدأ به الحديث.

فابتدعه البطريق قائلاً: «لعلك من هؤلاء العرب المغتربين؟». قال: «كلا يا مولاي إني غريب الديار وقد وقعت بين أيديهم بالاتفاق».

قال: «لقد لاح لي ذلك من شكل لباسك فإني أراك حسن البزة وهؤلاء على ما أعلم حفاة عراة ولم يسقهم إلينا إلا قرب آجالهم. هل أنت على دينهم الجديد؟».

قال: «كلا يا مولاي إني على دين النصرانية». قال ذلك وأخرج من بين أثوابه صليباً من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقه. قال: «لعلك من الغساسنة؟».

فتحير حماد في الجواب مخافة أن يكون في تصريحه بالصدق ما يوغر صدر البطريق عليه فقال: «إني غريب الديار ولكنني مقيم ببصرى الآن».

فقال: «ومن أي البلاد أنت؟».

فتذكر حماد الصلح الذي أبرم بين الفرس والروم على أثر

الحروب الأخيرة فقال: «إني من أهل العراق ولما تم الصلح بين ملكنا وجمالة الامبراطور هرقل قدمت إلى البلقاء».

فقال توما: «وما الذي جاء بك إلينا؟». قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجهه.

فهاب حماد منظره ولكنه تذكر أنه ملك ابن ملك فعادت إليه أنفة الملوك فقال: «إذا أذن مولاي في خلوة بسطت له رأبي». وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية فأشار إليهم فخرجوا وجلس البطريق إلى جانبه. فقال حماد: «أقسم لمولاي بحرمة الصليب والمعمودية أني إنما جئت إليه أنوي له ولدولة الروم خيراً».

قال: «لقد صدقت قل ما في نفسك».

قال: «إني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ساحة القتال وتفانيهم في سبيل الجهاد، فخفت أن يطول الحصار فيصيب هذه المدينة شر. وقد عرفت قائد جند العرب الأكبر وهو رجل ميال إلى السلم رغب في حجب الدماء فقلت في نفسي: (لعلني إذا توسطت في أمر الصلح بينكما أن أفعل خيراً). فاحتلت في دخول المدينة لأعرض هذا الأمر عليك».

فلم يكدهم حماد يتم حديثه حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما، فقطب حاجبيه وتململ في مقعده ونظر إلى حماد بعينين براقيتين يكاد الشرر يتطاير منهما وقال: «وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (وأشار إلى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر) ورأس الامبراطور هرقل، لو لم تسبق إلى إقناعي بنصرانيتك لارتبت في حقيقة مقاصدك. كيف تدعونا إلى صلح قوم ساقهم الفقر إلينا وغرهم الجهل في منازلنا؟ أنخالهم يحسبوننا مثل حامية بصرى التي خانت ملكها وسلمت إليهم؟ ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن أسوار

هذه المدينة خاسرين منذ بضعة أسابيع». ثم نهض وهو يقول: «إني سأعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم». قال ذلك ويده على قبضة حسامه وهو يخطر في الغرفة غضباً.

فكبر ذلك الانتهاز على حماد، وجرت دماء الملوك في عروقه، وحدثته نفسه أن يغلظ له القول ولكنه كظم وقال: «إن الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب، ولا أخال مولاي يحسبني أجهل بطش الروم وشدة بأسهم، ولكنني رأيت في الصلح حجباً للدماء فإذا كنتم ترون الحرب فأنتم أصحاب الأمر».

وكان البطريق لا يزال واقفاً فلما سمع مقالة حماد جلس إلى مقعد آخر ويده لا تزال على قبضة حسامه وقال: «لولا علمي بحسن نيتك لما أبقيت عليك، ولكنك مع ذلك ستبقى في حاشيتي حتى ترى عاقبة الغرور، وترى حال هؤلاء العرب في حربنا».

فاستعاذ حماد بالله من ذلك، وكان في حسابه أن يطلق سراحه فيفتش عن هند فندم على مجيئه وظل صامتا. ثم سمع البطريق ينادي أحد رجاله فلما حضر أوصاه بأن يحتفظ به ويستبقه في حاشيته ريثما يأتيه منه أمر آخر. قال ذلك وخرج مسرعاً غاضباً وسيفه يقرقع على البلاط وراءه، وطيلسانه يكاد يتطاير عن كتفيه. وبقي حماد وحارسه في القاعة هنيهة ثم أشار إليه الحارس أن يخرج فخرج واختلط بالحاشية كأنه منهم، ولكن لا يؤذن له بالخروج من القصر إلا معهم. ولم يسعه إلا أن يصبر منتظراً ما يأتي به القدر.

وفي مساء ذلك اليوم سمع أهل القصر يتحدثون بعزم توما على الصلاة في كنيسة ماري يوحنا صباح الغد، وكان يوم أحد، وأنه دعا رجال حكومته وأعيان المدينة للاجتماع فيها فأمل حماد أن يتنسم خبراً عن هند هناك.

وفي صباح اليوم التالي، سمع حماد دق النواقيس في سائر كنائس المدينة، ثم رأى أهل القصر يتهايئون للذهاب إلى الكنيسة فسأل حارسه: «ألا أذهب معكم؟». فقال: «إن الصلاة لا تمنع عن طالبها. تعال معنا».

وبعد قليل خرج توما في أحسن ما يكون من اللباس، فمشى وحوله الأعيان والوجهاء ورجال الدولة في أفخر الألبسة من الحرير المزركش على أجمل ألوانه وأزهاها.

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فوصلوا إليها بعد دقائق. وتأمل فيها حماد فإذا هي محاطة بسور عظيم الارتفاع يقع في النفس رهبة فدخلوا منه إلى باب الكنيسة الجنوبي وهو كبير مرتفع الأعتاب، فدخلوا منه إلى صحن الكنيسة وهو فسيح مبلط بالرخام الملون طوله نحو مائتي خطوة وعرضه مائة وخمسون. وتحيط به الأروقة وفيها الأعمدة الهائلة من الرخام الأبيض النقي أو الجرانيت الملون بأحسن ما يكون من الدقة، وتعلوها تيجان جميلة الصنعة على النمط الروماني أكثرها محلى بالذهب. حتى إذا أشرف حماد على الهيكل حيث تقام الصلاة بهره ما على جدرانها من الصور البديعة بالألوان الطبيعية وفيها الذهب فضلاً عن النقوش الجميلة من الفسيفساء البلورية بالألوان البديعة. وكان حماد أينما يلتفت تتمثل له عظمة الروم في إبان مجدهم، فبهت لأنه لم يشاهد مثل هذه الكنيسة قط، وأدرك حارسه ذلك منه فقال له: «ما لك ذاهلاً؟». قال: «إني لم أر مثل هذه الكنيسة في الشرق بإنطاكية، من هو الذي بناها من الملوك؟».

قال: «إنه بناء أقدم من النصرانية عهداً، فقد كان هيكلاً وثناً من أيام الآراميين الذين ورد ذكرهم في التوراة، بني لعبادة إله من ألهمتهم اسمه رامون، وكان له مذبح جميل أمر آحاز ملك يهوذا أن يبني

مثله في هيكل سليمان بأورشليم. فلما استولت دولتنا الرومانية على الشام قبل النصرانية اتخذوه معبداً لأوثانهم، حتى إذا تنصر قياصرتنا جعله القيصر أرخاديوس كنيسة باسم يوحنا المعمدان. وكان بعضه قد تحرب فرممه ونقش فيه صور القديسين. ومن جملة ما نقشوه آيات من الكتاب المقدس كثير منها على الجدران والسقف، وأظنك قرأت ما هو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليه باليونانية (ملكوتك أيها المسيح ملكوت أبدي وسلطانك يمتد مدى الأبدان) ..».

ولم يكد ينتهي الرجل من حكايته حتى انتظم عقد الصلاة، وقام الأساقفة بمباخرهم وصلبانهم وعلت أصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وخشع الناس. ونظر حماد إلى الجماهير فرأهم وقوفاً وقد ولوا وجوههم نحو المشرق وفي مقدمتهم توما جالساً على كرسي من العاج المرصع بالفسيفساء، فوقه قبة من العاج بديعة النقش. ولما انقضت الصلاة حوّل توما وجهه نحو الجماهير وبيده صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة، وأمامه منضدة عالية فوقها كتاب مغشى بالذهب عرف حماد أنه الانجيل الشريف، والتفت توما وقد تغير منظره وهو يهییء كلاماً يقوله فأصغى الناس ففتح الانجيل ووضع يده اليسرى عليه وفي يده اليمنى الصليب يشير به وهو يتكلم وقال ما معناه: «اعلموا يا معشر النصارى، إن عمي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب إلينا يستحثنا على دفع هؤلاء الأعراب عن أسوار دمشق وإخراجهم من بلاد الشام، فقد ألقوا الفتن فيها، وما هم بالحقيقة إلا قوم جياع عراة، ساقهم فقر بلادهم وجذب أرضهم إلى التماس غزو الشام وطمعاً في غياضها وخيراتها. وقد أطمعهم فيها ما لاقوه من ضعف حامية بصرى وقائدها رومانوس اللعين الذي قاده الانتقام إلى

التسليم. أما أنتم فإنكم رجال أشداء قائمون على الولاء، ولهذا لن يهكم من أمر هؤلاء شيء. ولا أحرصكم إلا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد أن لنا أن نفقه حالنا ونعتبر بما صار إليه الناس قبلنا، وما هؤلاء العرب بشيء يذكر إذا نحن اتحدنا وإلا فإن العاقبة وخيمة، فإذا رأيتم الخروج إليهم خرجنا وأدقناهم مر العذاب».

فقال رجل واقف بالقرب منه: «ما لنا وللخروج إليهم ونحن آمنون في أسوارنا؟ فلنهملهم حتى يملوا الإقامة فينقلبوا على أعقابهم».

فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفيهم خير رجال الدولة، فرأى التردد والخمول مستولين عليهم، وكان يحسب كلام توما يثير فيهم حمية فإذا هو لم يسمع منهم إلا تمتمة. ولم ير إلا تقاعداً، وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيه من الترف والبذخ والرخاء وفسدت أخلاقهم وساءت آدابهم. فقابل ذلك بما آتسه في جند العرب من الأنفة وعزة النفس والنشاط ووحدرة الكلمة، فتمثلت له عاقبة الأمر جلياً، وأيقن أن الدائرة ستدور على الروم إذا هم لم يصالحوا العرب فلبث ينتظر ما يأتي به القدر.

وعادوا من الكنيسة وهم يتحدثون بما سمعوه، وحماد منشغل بهند. وقد حاول الخروج منفرداً إلى كنيسة مريم فلم يستطع لأن حارسه لم يكن يفارقه لحظة، وخاف إذا خرج خلصة أن يعدّ خروجه ذنباً يستوجب عليه القتل، فصبر على مضض.

وفي صباح الغد خرج توما ومعه رجاله إلا الحارس فإنه بقي في القصر وحماد معه، وأنس في خروجهم حركة غير اعتيادية فاستطلع الخبر فقال الحارس: «البطريق سار إلى الأسوار يرمي العرب

منها بالنبال». ولم يأت المساء حتى عاد الروم وفيهم توما ويده على عينه وقد جاءه الأطباء، فسأل حماد عن حاله فعلم أنه أصيب بنبله من نبال العرب فقأت عينه، وأنه تشاءم من ذلك كثيراً فقال حماد في نفسه: «عسى أن يرجع إلى صوابه ويرغب في الصلح».

ومضت بضعة أسابيع والحرب سجال بين الفريقين، وكان الروم ينتظرون أن تصل إليهم نجدة من هرقل، فلم تصل. وفي ذات صباح جلس في بعض غرف القصر يائساً أسيفاً، فجاءه رسول يدعوه إلى توما، فسار إليه وقلبه يخفق مخافة أن يكون هناك خطر على حياته.

فلما دخل عليه رآه جالساً على سريره مقطب الوجه، فحياه، وردّ توما التحية محتفلاً، ودعاه إلى الجلوس بجانبه، ثم أخذ يبش له في رقة لم يعهد لها فيه. وبعد حين أشار توما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرهما، ثم قال لحماد: «دعني أقص عليك خراً أفلقني وهو حلم رأيته امرأتني في منامها ليلة أمس وهي حامل، أما الحلم فإنها رأت الدماء تتدفق عن أسوار دمشق والأسواق مزدحمة بالقتلى، فأفاقت من نومها مرتعبة وقصت عليّ الحلم وهي ترتعد، وتوسلت إليّ أن أقبل الصلح مع هؤلاء العرب حجباً للدماء، ولقد ساءني اقتراحها لأنني راغب في الحرب إلى آخر نسمة من الحياة، ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الأمر والنهي، فضلاً عن منزلتها عندي وهي حامل. وأذكر أنك أخبرتني بأن أبا عبيدة قائد فرقة باب الجابية يؤثر السلم. فهل تظن أنه يحفظ عهده إذا تم الصلح؟».

فاستبشر حماد بذلك وانفرجت كربته وقال: «لا ريب عندي في حفظه العهد إذا عاهد».

قال: «أنذهب إليه وتستطلع رأيه في ذلك سرّاً وتعود بالخبر؟».

قال: «أفعل ذلك مأموراً طائعاً، فأذن بمن يرشدني إلى الطريق ويخرج بي من الباب وأنا أسير إلى الرجل وأخاطبه».

قال: «قد أذن لك في ذلك، ولكنني أشرت في أمر الصلح شرطاً لا بد منه».

قال: «وما هو؟».

قال: «أريد من هؤلاء العرب إذا دخلوا المدينة أن يحفظوا الأرواح ويحجبوا الدماء وأن يتركوا لنا كنائسنا ولا ينقصوا علينا منها كنيسة».

فقال حماد: «لا أظنهم يخالفوننا في ذلك، وعلى كل فإني أسير إليهم الآن وأعود إليك بالجواب». وكان حماد يكلم توما وهو يعجب لتنازله إلى هذا الحل. على أن خيال هند ما زال نصب عينيه فخطر له أن يغتنم تلك الفرصة للاستعانة به على تسهيل زواجه بها وقال في نفسه: «لا أخالني أرى رجلاً أقدر على مساعدتي من صهر الامبراطور، وهو الآن في حاجة إليّ فإذا استعنته ووعدني فقله نافذ على جيلة وغيره».

فتوسم توما في حماد توقفاً وتردداً فقال هل: «ما بالك تتردد لعلك خفت الذهاب إلى العرب؟». قال: «لا يا مولاي فإني أقتحم المخاطر في سبيل تنفيذ أمرك، ولكن لي مأرباً يهمني ليس هذا محل الكلام عليه على أنني لا أرى بداً من استعانتك فيه وهو من أسهل الأمور عليك، فاجعل مساعدتي في إتمامه مكافأة لي إذا فزت في عقد الصلح على ما تريدون».

فقال توما: «وماذا عسى أن يكون طلبك؟».

قال: «أخاف إذا ذكرته أن تضحك مني وتظنني مشتغلاً بعبث

الغلمان، ولكن الأمر يا مولاي قد أفلقني ولا أرى بداً من استعانتك فيه فاعذرنى».

قال: «قل ما هو؟».

قال: «أتعرفون الأمير جيلة الغساني؟».

قال: «أليس هو ملك الغساسنة حليفنا؟».

قال: «بلى يا مولاي هو بعينه».

قال: «وما خبره؟».

قال حماد: «إني خطبت ابنته هنداً، ولها ابن عم يُقال له ثعلبة يسعى في الحصول عليها وقد رضيه لها أبوها ولكن الفتاة لا تريده. ونظراً لما أعهدته من نفوذكم على جيلة أرجو أن توعزوا إليه أن يعطيني الفتاة».

فتبسم توما وقد تذكر إبان شبابه وزمن عشقه فعذر حماد وطيب خاطره وقال له: «هذا أمر سهل ولك علينا قضاؤه». فانبسطت نفس حماد ومالَ إلى مشاهدة هند وتبشيرها بذلك الوعد، وهَمَّ باستئذان توما أن يمر بكنيسة مريم أثناء ذهابه فإذا هو قد ابتدره قائلاً: «أرجو أن تسرع في مهمتك فتسير حالاً إلى أبي عبيدة، فإذا عقد الصلح وهدأت الأحوال زففنا إليك هنداً رضي والدها أم لم يرض».

فشكر له حماد شكراً جزيلاً، وقد صمم على أن يحتال للمرور خلسة بديار الحببية. ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيته فأتيا فقال لهما: «أعدّا مركبة من مركبات القصر، واحملا فيها هذا الشاب العراقي إلى باب الجابية حالاً، وافتحا له الباب، وليركب جواده هناك وأما أنتما فانتظرا رجوعه فمتى عاد فارجعا به إلى هنا».

فقالا: «سمعاً وطاعة». وخرجوا جميعاً وحماد آسف لمسيره في

المركبة إذ لا يتأتى له الوقوف عند الكنيسة.

وبعد برهة أعدت المركبة فركبوها، فجرت مسرعة وقد تعاضمت قرقتها على بلاط الشوارع ولا سيما الشارع المستقيم، حتى إذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب حماد وشاعت عيناه وهو يلتفت نحو النوافذ والشرفات لعله يرى هنداً أو أحداً من أهلها فخاب رجأؤه، وتجاوزت المركبة الكنيسة وهو يصيح بسمعه مخافة أن يناديه أحد وتحول قرقة المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث أن وصل إلى باب الجابية فوقفت المركبة، وكان جواده هناك فركبه وخرج والعلم معه حتى أتى معسكر أبي عبيدة فلم يستغشه أحد من العرب، فسار تَوَّأً إلى خيمة عبد الله وهي في الطريق فرآه جالساً حزيناً لانشغال باله، فحالما وقع نظره عليه نهض مسرعاً وضمه إلى صدره، وسأله عن سبب غيابه فقصَّ عليه الخبر فحمد الله على سلامته. ثم سأله حماد هل سمع شيئاً عن سلمان فقال: «لا. لم أسمع عنه شيئاً، ولكنني أرسلت دليلنا إلى بصرى لعله يراه هناك فيخبره بمقرنا ولم يعد الدليل بعد». فانشغل بال حماد ولبثا برهة يتحدثان في أمر جيلة وجنده فقال عبد الله: «أظننا إذا تم الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة للعثور على سلمان، فهيا بنا الآن إلى أبي عبيدة». ثم نهضا معاً حتى أتيا فسطاطه، فرحَّب بهما. وقصَّ حماد ما اشترطه توما من أمر الكنائس والأموال فقال أبو عبيدة: «لقد قبلنا ذلك، فليرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط».

فودعهم حماد وعاد إلى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل إلى القصر فرأى أهله في هرج ووضجة فسأل عن السبب فقبل له إن امرأة البطريق توما جاءها المخاض والبطريق عندها ينتظر ساعة الولادة. فقال: «ابعثوا إليه مَنْ ينبئه برجوعي». فأنبأوه فخرج إليه

وأمارات البغته ظاهرة على وجهه فقال: «ما خبرك؟». فقال: «إن الأمير أبا عبيدة قبِلَ الصلح فأرسل مَنْ تعتمده لعقده». فأمر مائة من كبار القصر أن يخرجوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لهم: «إني مشتغل بما تقاسيه ابنة الامبراطور من آلام المخاض وعسى أن يأتي الفرج قريباً».

— ٢٧ —

صلح بيت المقدس

كان الليل قد أسدل نقابة فباتوا تلك الليلة ثم أصبحوا وقد تهيأ مائة منهم بالألبسة الرسمية وحملوا الأعلام والصلبان حتى أتوا باب الجابية، وكان حماد أكثر الناس رغبة في الصلح أملاً في قرب الوصول إلى هند.

فلما وصلوا إلى الباب كان بعض العرب هناك وعليهم أبو هريرة قد قاموا ينتظرون وفد الروم، فأنبأهم حماد بما أتوا من أجله، ففتحوا الأبواب ودخل الوفد بأعلامهم وصلبانهم وقد تكسرت أشعة الشمس على خوذهم وقلائسهم وأرديتهم المختلفة الألوان وصلبانهم المرصعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الأبصار. ومشى أبو هريرة ورجاله في مقدمتهم حتى أتوا معسكر أبي عبيدة، فلما أشرفوا على المضارب، أوعز إليهم أبو هريرة أن ينزعوا الصلبان فنزعوها حتى وصلوا إلى فسطاط أبي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة، وعقد مجلساً أمضوا فيه الشروط وفي جملتها أن تُترك الكنائس على حالها. وكان في دمشق كنائس عدة منها: كنيسة مريم، وكنيسة يوحنا المعمدان المتقدم ذكرهما، وكنيسة سوق الليل، وكنيسة انذار. فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان، ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهوداً، فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبته ليدخلوا المدينة معاً فقام أبو عبيدة ومعه ٣٥

من أعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد فلما بلغوا المدينة وقف أبو عبيدة وقد تذكر أمراً، وذلك أنه لسلامة نيته رضي بالصلح وقبِلَ دخول المدينة مع عدوه ولم يخامر ريب من غدر أو نحوه، ولكنه لما بلغ الأبواب ورأى الأسوار وفوقها الجند بالأسلحة تذكر أن عليه أن يحذر ويتحوط، فقال لمن معه من الروم: «إننا نطلب منكم الرهائن قبل الدخول فيبقى منكم أناس رهناً عندنا حتى إذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر». فتركوا بعضهم وسار الباقون حتى دخلوا الأبواب وأقبلوا على الشارع المستقيم وقد تراحم فيه الناس وفي مقدمتهم القساوسة والرهبان، فلما دخل أبو عبيدة استقبلوه بالأناشيد واعتذروا عن تخلف البطريق توما لانشغاله بأهل بيته، ثم مشوا بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الأناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخانه حتى حجب عنهم أواخر الشارع، فساروا يهتفون شكراً لله على حجب الدماء، والأعلام تخفق فوق رؤوسهم وبينها أعلام المسلمين والروم معاً.

وكان الدمشقيون يطلّون من النوافذ ومن فوق الأسطح والشرفات رجالاً ونساء وأولاداً، وكلهم فرحون بنجاة أنفسهم وأموالهم لأن أهل البلد أكثر الناس نفوراً من الحرب لأنها عائدة بالخراب في أي حال.

وأما حماد فكان مشغولاً عن تلك الضوضاء يعلل نفسه بقرب اللقاء وعبد الله إلى جانبه، وكان الموكب سائراً ببطء فنفذ صبر حماد وهو يتشوف من خلال الأعلام والصلبان إلى كنيسة مريم عن بعد وقد عزم على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلصة ليرى هنداً ويشرها بانفراج الأزمة.

وفيما هو في ذلك تراءى له في آخر الشارع جموع قادمون نحو

الموكب فراراً من أناس يطاردونهم، فأمعن نظره فرأى مع المطاردين أعلاماً إسلامية ورجالاً من المسلمين في أيديهم السيوف والرماح وقد أمعنوا في الناس نهباً ورأى في مقدمة الأعلام علماً أسود عُرف أنه راية العقاب لخالد بن الوليد. ثم ما لبث أن رأى الفارين يتقدمون حتى التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد فلما رآه أبو عبيدة عجب لأمره وناداه قائلاً: «كف يا أبا سلمان قد فتح الله على يديّ المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال».

فصاح فيه خالد: «وما الصلح لا أصلح الله بالهم؟ وأين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت أولادهم؟».

فقال أبو عبيدة: «اعلم يا خالد أني ما دخلتها إلا بالصلح». فقال خالد: «كلا... كلا... أنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم؟».

فقال أبو عبيدة: «اتق الله يا خالد، والله قد صالحت القوم ونفذ السهم وكتبت لهم الكتاب».

فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس إليهما وأصحاب خالد لا يزالون يقتلون وينهبون، وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي وهم لا يعلمون بصلح أبي عبيدة ولكنهم اغتموا فرصة اشتغال توما ورجاله بالقصر والولادة.

فقال أبو عبيدة: «واثكلاه حقرت والله ونقض عهدي». وجعل يقسم على المسلمين ألا يمدوا أيديهم لشيء في الطريق الذي جاء منه حتى يرى ما يتفق هو وخالد عليه، فسكتوا عن النهب واجتمع رجال المسلمين هناك وتفاوضوا في الأمر فتم الرأي على قبول الصلح على أن يخرج توما وهرييس (وهو وال على نصف الشام

قبل توما) وبينما هم في الجدل جاء توما وهريس وذكر أبا عبيدة بالعهد وقالوا: «إذا أبيتم صلحنا فإننا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن وأهلنا وأموالنا»، وبعد جدال طويل قبل خالد ذلك.

فأخذ توما يتأهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع ما دار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتبك في أمره وعلم أنه لن يرجو منه نفعاً ولكنه عزم على دخول الكنيسة ومقابلة هند فاستأذن عبد الله فقال: «هلم ندخل معاً».

وتركا الناس في تراحهم وعرجا نحو الكنيسة فإذا هي مقفلة، فالتمسا مفتاحها فظن البواب أنهما يريدان بها أذى فذكرهما بالعهد فقالا: «إننا لا نريد أمراً غير الزيارة ونحن مسيحيون مثلكم». ففتح لهما الباب، فسأل حماد عن قيم الكنيسة فتقدم إليه قسيس شيخ كان مختبئاً في الهيكل وهو يخاف الفتك، فلما رأى الرجلين يرسمان علامة الصليب اطمأن باله فسألهما عن مرادهما فتقدم إليه حماد وقبل يده وقال: «هل يقيم بهذه الكنيسة أحد من الغرباء». قال القسيس: «لم تجر العادة أن يقيم الناس بالكنائس».

قال: «إنما أسأل هل يقيم أحد ببعض الغرف التابعة للكنيسة؟».

قال: «لا يا سيدي ولكن أهل ملك غسان وكلهم من النساء كن مقيمات عندنا ومعهم الخدم، وقد خرجوا جميعاً منذ بضعة أسابيع».

فاضطرب قلب حماد وقال وقد ظهرت البغته على وجهه: «وإلى أين خرجوا؟».

قال: «لا أدري، ولكن رجالاً جاؤوا من قِبل الأمير جبلة أقاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعاً». فوقف حماد هنيهة صامتاً

وقد نسي موقفه وغلب عليه اليأس وجعل يفكر فيماذا عسى أن يكون سبب رجوعهم. فأعاد السؤال وأوضحه فلم يفهم شيئاً آخر. فقال: «وهل تذكر أنهم خرجوا من هذا المكان قبل حصار المدينة أو بعده».

قال: «أظنهم خرجوا قبل الحصار».

فبغت حماد وقد سقط في يده، ونظر إلى عبد الله كأنه يستطلع رأيَه فقال عبد الله: «أظن الملك جيلة أنفذ في طلبهم لما سمع بقرب الحصار فساروا إليه».

فتعاطم اليأس على حماد، وفكر في الأمر يسيراً، فلاح له أن هنداً لا تخرج على هذه الصورة ما لم تترك له خبراً أو إشارة، ولا سيما بعد أن كتبت إليه تستعجل قدومه إليها فقال للقسيس: «ألا ترشدنا إلى المنزل الذي كان يقيم به أهل جيلة؟».

قال القسيس: «سمعاً وطاعة». وخرج بهما من بعض أبواب الكنيسة إلى زقاق ضيق مرصوف بحجارة عظيمة، شأن أزقة دمشق على اختلاف عرضها. واستطرقوا من الزقاق إلى منزل لا يظهر من بابهِ وسوره أنه يليق بسكنى الملوك، على أنهم ما لبثوا أن دخلوا داره حتى تبينت لهم منزلتها من الاتقان والزخرفة، ولكنهم لم يسمعوا غير خرير الماء في بركة تدلت فوقها أغصان الصفصاف وفاحت رائحة الأزهار لما أحيطت به جوانب المكان من أغراس الرياحين. فوقف حماد وهو يتوقع أن يرى أحداً أو يسمع صوتاً فلم يؤانس غير السكوت، فمشى إلى باب رآه في صدر الدار وفتحه وصعد سلماً هناك ومعه عبد الله فأنتهيا إلى رواق مشيا فيه، وأطل حماد من نافذة مفتوحة تشرف على غرفة مقفلة الأبواب فتطاول بعنقه لعله يستطلع ما فيها فرأى شبح امرأة منزوية في بعض جوانبها، فناداها فصاحت

وصوتها يرتجف قائلة: «ليس في هذا المكان أحد من الرجال فإذا كنتم تريدون النهب فأشفقوا على النساء».

فاختلج قلب حماد لما سمع صوتها وخيل إليه أنه سمعه من قبل فقال لها: «لا تخافي يا خالة فما نحن من الأعداء ولا نريد بك شراً، وإنما نحن نسأل عن أهل ملك غسان».

فلما سمعت المرأة صوت حماد دنت من النافذة وتفرست فيه، فعرف أنها خادمة هند التي حملت إليه الكتاب في دير بحيراء، وأما هي فحالما عرفته قالت: «لعلك سيدي حماد، لقد كدت ألقى حتفي في انتظارك».

فقال: «افتحي الباب ولا تخافي وأخبريني خبرك».

ففتحت الباب وهمت بيده فقبلتها وقالت والبغلة لا تزال ظاهرة على وجهها وقد امتقع لونها: «لقد خرج أهل الملك من دمشق منذ أسابيع وتركوني هنا في انتظار قدومك لأطلعك على خبرهم، فطال غيابك حتى يئست من لقاءك، ثم حوصرت المدينة ووقع ما وقع فيها من القتل والنهب. ولما سمعت وقع أقدامكم الآن حسبتكم من العرب الفاتحين فخفت واختبأت في هذه الغرفة فنشكر الله على ما حصل».

فقال حماد: «أخبريني يا خالة أين سيدتك هند؟».

قالت: «خرجت من دمشق مع والدتها وسائر الخدم بأمر أبيها قبل الحصار».

قال: «وأين هي الآن؟».

قالت: «أظنها في بيت المقدس، لأن سيدي الملك بعد أن أنفذ إليها أن تتأهب للاقتران بالأمير ثعلبة، عاد فكتب إلى سيدي سعدى

أن تأتي سريعاً إلى بيت المقدس لأنها أبعد عن الخطر من دمشق. والظاهر أنه سمع بعزم العرب على حصارها، فشق ذلك على سيدتي وخافت أن تأتي أنت ولا تعلم بمصيرها فاستبقتني هنا لأقص عليك الخبر».

فنظر حماد إلى عبد الله وقال: «ما الرأي أيها الأمير؟».

فقال: «لا حيلة لنا في الواقع يا مولاي، فإن مقامنا بدمشق لا يجدينا نفعاً، وأرى أن نغتنم أول فرصة للخروج إلى بيت المقدس». فالتفت حماد إلى المرأة وقال لها: «وأنت ماذا تفعلين؟».

قالت: «إذا بقيت حية سأذهب إلى بيت المقدس».

قال: «إن الحرب قد انقضت وتم الصلح فلا بأس عليك، ولكنني لا أظنك تستطيعين الذهاب وحدك».

قالت: «إنما أستطيع ذلك لأنني امرأة، فهؤلاء العرب شديدي المحافظة على الأعراض، فإذا لقيني أحد منهم كان لي عوناً في إيصالني إلى حيث أريد».

فقال: «أوصيك إذا أتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك أن تقرئها مني السلام وتخبرها أنني قادم إليها على عجل إن شاء الله».

قال ذلك وتحول مسرعاً وعبد الله معه ثم قال: «علينا بالإسراع إلى بيت المقدس».

فقال عبد الله: «علينا قبل الذهاب أن نحمل أمتعتنا فإنها في معسكر أبي عبيدة».

قال: «لا بد لنا من الانتظار ريثما تسكن الأحوال فنودع أبا عبيدة ونشكره على حسن وفادته ونصرف، ولعله يرسل معنا من

يدفع عنا خطر الطريق».

فخرجوا من المنزل فلقيا القسيس فودعاه، وخرجوا إلى الشارع وقد هدأت الأحوال فساروا تَوّاً إلى قصر الحاكم، فرأيا المسلمين قد دخلوه ووضعوا أيديهم على ما فيه وأهل توما يحملون الأحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال فأسفا لما انتهت إليه حال هؤلاء وتذكر حماد أنفة توما يوم لقيّه في ذلك القصر فاعتبر وتأمل. وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في هرج بين مهاجر ومستسلم، ولم يستطيعا مقابلة أبي عبيدة.

وفي اليوم التالي دخلا عليه فإذا هو قد ازداد رفعة بعز النصر، وكان جالسا يُملي على كاتبه رسالة إلى الإمام عمر بخبر الفتح، فتنحيا حتى انتهى من إملائها. ثم قابلاه فرحب بهما وبش لهما وخاطب حمادا قائلاً: «إنك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء لأنك كنت الواسطة في حجب الدماء».

فخجل حماد لذلك الإطراء وقال: «إني لم أفعل شيئاً أستوجب عليه ثناء، وهذا الصلح إنما كان لرغبة الأمير في السلام». ثم هَمَّ حماد بأن يذكر له عزمه على الخروج إلى بيت المقدس ولكنه لم ير سبيلاً إلى ذلك فصمت، وأدرك عبد الله ذلك فخاطب أبا عبيدة قائلاً: «لقد أتينا يا مولاي نهنتك بالفتح الذي تم على يدك ونستأذنك في الانصراف».

فقال أبو عبيدة: «وإلى أين تنصرفون؟».

قال: «إن لنا في بيت المقدس أهلاً نريد النزوح إليهم». ففكر أبو عبيدة قليلاً ثم قال: «لم يأت زمن الانصراف بعد، فالبشوا في ضيافتنا أياماً نحسن وفادتكم بعدما عانيتم معنا في زمن

الحرب ثم نبعث معكم برجال منا حتى تبلغوا مأمكم».

فلم يتجرأ عبد الله على مراجعة أبي عبيدة، ولبت صامتاً على نية العود إلى الاستئذان في فرصة أخرى، ولكنه استأذنه في الخروج إلى المعسكر ليستولي على الأمتعة.

فقال أبو عبيدة: «إن أمتعتكم وخيولكم في مأمن مع أمتعتنا في المعسكر، ونحن خارجون إليها لأننا لا نحب الإقامة بالقصور خوفاً من الانغماس في الترف».

وفي صباح اليوم التالي، خرج الجميع إلى المعسكر، فاقسموا الغنائم ونزل كل في خيمته. وكان عبد الله يتوقع عود الدليل من مهمته التي سار فيها إلى بصرى فلما أبطأت عودته علم أنه رغب في الذهاب فراراً من غائلة الحصار فلبث هو وحماد في قلق على سلمان وهند، وحاولا مخاطبة أبي عبيدة مرة ثانية في المسير إلى بيت المقدس فلم يملكا فرصة لانشغاله في تسير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد.

ومضت أيام وهما على ذلك حتى أصبحا ذات يوم وهما على مثل الجمر في انتظار الخروج إلى بيت المقدس يتوقعان حيلة يخرجان بها، فرأيا بعض الجند في هرج ومسارة فخرجا فإذا هما بهجان قد دخل المعسكر وعليه غبار الأسفار، فعرفا أنه رسول من الإمام عمر إلى أبي عبيدة، ثم رأياه ترجل ودخل فسطاطه فمكثا ينتظران ما جاء به.

وبعد هنيهة خرج الرسول، وجاء بعض القائمين في خدمة أبي عبيدة والتسموا من عبد الله وحماد الذهاب إلى فسطاط الأمير حالاً. فأوجسا خيفة لئلا يكون في تلك الدعوة ما يدعو إلى تأجيل سفرهما. فلما دخلا رأيا أبا عبيدة في صدر الفسطاط وإلى جانبه خالد بن

الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما من الأمراء فحياهم فأمر لهما بالجلوس. ثم قال لهما: «لقد أنبأني أخي خالد بأنكما من أهل العراق، ولم أكن أجهل ذلك ولكنني علمت منه أنكما من الأمراء هناك، فلكما معرفة بدخائل تلك البلاد. وقد شاهدنا من إخلاصكما في خدمتنا ما دعانا إلى تكليفكما أمراً تستوجبان عليه الأجر والثواب».

فازداد عبد الله خوفاً من تلك الدعوة ولكنه تظاهر بالارتياح وقال: «إننا في خدمة الأمير وطوع إرادته».

فقال: «لقد جاءنا رسول أمير المؤمنين الآن بدعوة إلى نصره إخواننا في العراق وأن ننفذ جندنا ممن خبروا تلك الأرض. فأريد أن تسيرا مع تلك النجدة وفي ذهابكما خير لكما وخدمة لجند الجهاد».

فقال عبد الله: «إن أمر مولاي الأمير مطاع، ولكنني خرجت من العراق منذ أعوام ولا أدري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فأخشى ألا يكون في ذهابي فائدة لكم. وزد على ذلك أننا منشغلو البال على بعض أهلنا في بيت المقدس».

وكان خالد مصغياً لما يبدو من عبد الله وكان يتوقع ذلك الجواب منه فقال له: «لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صلح الحيرة أنك صاحب عقار وكلمة نافذة، وقد حمينا لك مالك وأهلك في ذلك الصلح، فكيف تعتذر عن الذهاب؟». قال خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه، فخاف عبد الله عاقبة اعتذاره فابتدره قائلاً: «إني لا أعتذر عن الذهاب، فإن ذلك فرض عليّ، ولكنني أود أن أتفقد الذين في بيت المقدس أيضاً».

فقال أبو عبيدة: «فليذهب ابنك حماد إلى بيت المقدس ونحن نرسل معه من يوصله إليها، وسر أنت إلى العراق. وكُن واثقاً أننا

نحافظ على أهلك وولدك محافظتنا على أهلنا لأنك في ذمتنا. واعلم أن سفرك إلى العراق لا يطول لأن الفتح قريب إن شاء الله».

فأذعن عبد الله لعلمه أن تردده ربما هاج غضب خالد لما يعلم من شدته. أما حماد فشق عليه فراق عبد الله ولكنه تأسى بقرب مشاهدة هند ثم قال عبد الله: «وهل يأمر مولاي بتسيير ولدي هذا قبل خروجي؟».

قال: «نعم سنسيره في الغد، وأما أنت فلا بد من بقائك بضعة أيام ريثما يتأهب الجند للذهاب».

ثم خرج عبد الله وحماد إلى الخيمة لا يلويان على شيء، وباتا تلك الليلة لا حديث لهما إلا حديث ذلك الفراق. وفكرا طويلاً في الفرار ولكنهما خافا العاقبة لو قبض عليهما. ولو كان حديثهما مع أبي عبيدة لهان التخلص لما يعلمانه من سهولة أخلاقه، أما خالد فإنه سريع الانتقام.

وفي الغد ركب حماد وودع عبد الله وتواعدا على اللقاء في بيت المقدس، وإذا اضطرب حماد للخروج قبل مجيء عبد الله فليترك له خبراً في كنيسة القيامة هناك. ثم سار حماد إلى أبي عبيدة فودعه فقال أبو عبيدة وهو يبتسم: «سر في حراسة المولى، ونرجو أن نلقاك قريباً في بيت المقدس وقد نحتاج إلى خدمتك هناك مثل حاجتنا إليها في دمشق». فأدرك حماد أنه يشير إلى قرب ذهابهم لحصارها فتجاهل ولم يجب، فأمر أبو عبيدة بعض الرجال أن يسيروا معه لحمايته أثناء الطريق، ومضى حماد وعينا عبد الله تراعيانه حتى توارى. فلما ابتعد عن دمشق تذكر هنداً وحالها وخيل له أنها تزوجت بثعلبة فارتعدت فرائصه ولكنه قال في نفسه: «إنها لو كانت تزوجته لما أنفذت في طلبي إلى دمشق». ثم فكر في طول غيابه فخيل له أنها يئست من

قدومه فاضطرت إلى مجارة أبيها ورضيت بثعلبة فقضى معظم الطريق في هذه الهواجس.

وصل حماد بيت المقدس فنزل بدير بالقرب من كنيسة القيامة حتى إذا استراح قليلاً خرج للبحث عن هند في دير القيامة نفسه فأخذ يفتش ويستطلع لعله يتنسم خبراً فلم يرَ أحداً يعرف جبلة وأهله، ولم يكن للقوم من حديث إلا عن الحرب وعواقبها، وكلهم خائفون مما سمعوه عن سقوط دمشق. فقال في نفسه: «لأذهبن إلى قيّم الدير لعل لديه نبأ». وكان ذلك القيّم يونانياً فمضى إليه حماد وسأله فقال الرجل: «إن أهل جبلة نزلوا هنا أياماً ولكنهم سافروا منذ أسبوع».

فأجفل حماد وقال: «هل سافروا جميعاً نساء ورجالاً؟».

قال: «لقد كانت النساء فقط عندنا ولكن رجالهم أتوا منذ أسبوع وأقاموا هنا ساعات ثم أقبلوا إلى حيث لا يعلم أحد».

فقال حماد: «ألم يتركوا شيئاً من أمتعتهم هنا؟». قال: «تركوا ما لا قيمة له من ثقل الأحمال هبة للدير، ولم يأخذوا إلا ما خف حمله وغلا ثمنه».

فبهت حماد لذلك الخبر وسأل نفسه: «هل ثعلبة معهم؟». ثم لم يرَ بداً من إعادة السؤال فالتفت إلى القيّم وقال له: «أرجو أن تعبرني سمعك ولا يثقل عليك سؤالي لأن هؤلاء القوم يهمني أمرهم، وقد كنت في دمشق أقاسي عذاب الحصار فلما تم صلحها أتيت لأفتش عنهم، فهل عرفت أشخاصهم جيداً؟».

فاهتم القيّم لحديث حماد عن حصار دمشق، وكان شديد الرغبة في سماعه فقال له: «وهل عاينت الحصار بنفسك ورأيت جند العرب رأي العين؟».

قال: «نعم رأيتهم واختلطت بهم وسمعت أحاديثهم».

قال: «ألا قصصت عليّ حديث الحصار؟».

فقصّ عليه حماد الخبر مختصراً استجلاً بآ لرضاه. وما انتهى من الحديث حتى امتنع لون القيم وقال: «وما ظنك بهم؟ هل يأتون إلينا؟».

فقال حماد: «إذا جد الامبراطور في الاستعداد والتحصن فلا خوف من هؤلاء العرب، على أنهم أشداء صبورون على القتال. فأخبرني الآن عما تعرفه من أمر أهل الملك جبلة؟».

قال: «أما وقد أفصحت لي عن رأيك بعد أن خبرت الأمور، فأخبرك يا ولدي بأن سقوط دمشق أوقع الرعب في قلوب رجالنا فأصبح كلّ منهم خائفاً لا يأمن على نفسه ولا على أهله، وكذلك جبلة إنه أسكن أهله في هذا الدير وفي عزمه أن يعقد لابنته الوحيدة القران على ابن عمها. فهل بينك وبينهم قرابة؟».

قال: «ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الملك جبلة حديثاً». قال ذلك وهو ينتظر بقية الخبر ليرى ما تم في أمر الاقتران.

فقال الراهب: «ولكنني لاحظت من الفتاة نفوراً شديداً من ابن عمها هذا، وكان أبوها قد كلفني إقناعها».

فثارت الغيرة في قلب حماد وأصبح كله آذاناً لسمع نهاية الحديث وقال: «وهل اقتنعت؟».

قال: «كلا يا ولدي، لأنها شديدة النفور من ابن عمها ذاك، وكانت تعتذر والدموع ملء عينيها، ووالدتها لا تلومها».

ولم يتم الراهب كلامه حتى تناثر الدمع من عيني حماد فتشاغل بإصلاح كوفيته إخفاء لعواطفه وقال: «لقد أهمني أمر هذه الفتاة،

ومن الظلم أن يجبروها على الاقتران برجل لا تريده».

قال الراهب: «صدقت يا ولدي، ولذلك فإن العناية الصمدانية حلت هذا المشكل على أهون سبيل».

فقال حماد: «وكيف كان ذلك؟».

قال الراهب: «إن ابن عمها المشار إليه قُتل في بعض المواقع الأخيرة».

فبغت حماد وقال: «هل تيقنت ذلك يا سيدي؟ لعل الذي قتل غيره؟».

قال: «بل تحققت أنه هو لأنني سمعتهم يتحدثون بحكايته وكأنهم يهتئون هنداً بذلك؟».

فقال حماد: «ألا تذكر اسمه؟». قال: «اسمه ثعلبة».

فاستبشر حماد بتخلصه من ذلك المزاحم، ولكنه ما زال في قلق لجهله مقر هند وأبيها فقال: «وماذا فعلوا بعد ذلك؟».

قال الراهب: «بقي أهل جيلة عندنا بعد ذلك أياماً حتى ذاع نبأ سقوط دمشق ووقع الرعب في قلوب الناس، فجاء جيلة ومعه بعض رجاله وحملوا ما خف حمله وغلا ثمنه وخرجوا هاربين لا أدري أين ذهبوا».

فوقف حماد صامتاً وقد تحير في أمره لا يدري ماذا يعمل، وشعرَ بافتقاره إلى عبد الله وسلمان وهو بعيد عنهما، فأظلمت الدنيا في عينيه وضاق صدره فنهض للحال وودع الراهب وانصرف إلى حجرته وهو غارق في لجج الهواجس، يفكر تارة في هند وطوراً في سلمان وآونة في عبد الله. حتى عظم عليه الأمر وخيل له أن المسالك سدّت دونه، فضلاً عما يعترض سبيله من أحوال الحرب ومهاجرة

أهل الشام على أثر سقوط دمشق زرافات ووحداناً إلى مصر أو بلاد الروم أو غيرهما.

ولما وصل إلى الدير، وأخذ طريقه إلى غرفته فيه رأى عند بابها رجلاً كان جالساً ثم همّ مسرعاً لملاقاته، فما وقع نظره عليه حتى علم أنه سلمان فناده باسمه، فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقائه، فقال حماد: «أهلاً بك أيها الصديق، لقد أطلت الغياب علينا فأدقتنا من الوحشة ما لم يبق لنا صبر عليه».

فخجل سلمان لذلك الإطراء وقال: «لقد غمرتني أيها الملك بفضلك فدعوتني صديقاً لك وما أنا إلا من بعض خدمك».

فلما سمع حماد لفظ الملك، تمثلت له حالته وتذكر حكاية النذر وما تلاها من شواغل الغرام والانتقام ثم اليأس حتى كأن الأيام قد كتبت عليه الشقاء وضياح كل آماله بفرار جبلة وأهله إلى حيث لا يدري أحد. ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يتخللها بعض النور مما يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورته، فزاد استئناساً به، ولما رآه ينكر عليه ذلك الإطراء مال إليه وصافحه وقال له: «إنك صديق وأعز من الصديق وما نحن في معرض الأنساب وإنما يفضل أحدنا الآخر بما طبع عليه من مكارم الأخلاق والشهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلك ما يعز مثاله».

فأطرق سلمان خجلاً، ومشيا حتى دخلا الحجرة وكل منهما يتوقع سماع حديث الآخر، فلما استتب بهما المقام قال حماد: «أين كان مقامك كل هذه المدة. وكيف جئت إلى هنا؟».

قال سلمان: «إن لقاءنا يا سيدي لم يكن على سبيل المصادفة، ولكنني قطعت القفار وأطلت البحث حتى علمت بمقرك وجئت على ما ترى، وقبل سرد حديثي الطويل أبشرك بموت ثعلبة».

فتنهده حماد وقال: «لقد عرفت ذلك يا سلمان، ولكنه نبأ جاء متأخراً بعد أن كادت تنقطع الآمال».

فقال سلمان: «وكيف ذلك؟».

قال: «لأنني سمعت بمقتل ثعلبة وفرار جبلة في وقت واحد في هذا اليوم».

قال سلمان: «وأى فرار؟».

قال: «لقد تحققت فرار جبلة من بيت المقدس بأهله إلى حيث لا يعلم أحد». وقصّ عليه ما سمعه من قيم الدير، حتى أتى على آخر الحديث، فامتقع لون سلمان وظهرت عليه مظاهر الأسف والفشل، ولبث صامتاً كأنه أصيب بصدمة وكاد الدمع يتناثر من عينيه ثم تنهد وقال: «ألم تعلم أين سافر جبلة يا مولاي؟».

قال: «كلا ولولا ذلك لهان الأمر».

قال سلمان: «لا تيأس يا مولاي، إني غير تارك وسيلة دون أن أستخدمها في سبيل البحث عنه، ويكفيانا الآن أنا تخلصنا من ثعلبة».

فقال حماد: «وكيف علمت بمقتله، ومن هداك إلى مكاني؟».

قال: «ستعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تغيب عنك».

قال: «اقصص علينا خبرك».

قال: «تركتم في بصرى وجئت اليرموك فشهدت حربها، وكان الأمير جبلة في جملة المحاربين، فلما عقد لواء النصر للمسلمين وكنت قد علمت أن هنداً في دمشق هممت بالمسير إليكم، ثم حدثني نفسي أن أستطلع مقاصد جبلة، وكان قد فرّ إلى حمص برجاله وفيهم ثعلبة، فما التقيت بهم حتى أمروا بالمسير لملاقاة المسلمين في أجنادين، فسرت إليها وشهدت موقعة هائلة وقعت بين الروم

والعرب هناك تشيب لهولها الولدان. وفي تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفرّ الغساسنة. وكنت قد سمعت بحصار دمشق فرأيت أن أسير إليكم بالخبر ومضيت إلى بصرى فلم أجد أحداً منكم، فظننت الراهب الشيخ ينبئني بخبركم فسرت إليه فإذا هو قد مات فأسفت لوفاته ومكثت حيناً في بصرى أبحث عنكم وأسأل كل من عرفته دون جدوى. وخطر ببالي ذهابكم إلى دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما علمت من حصارها، ثم ما لبثت أن سمعت بسقوطها فهممت بالمسير إليها لعلّي أرى أحداً أستطلع منه خبركم، وفيما أنا أهم بذلك رأيت جنداً من المسلمين قادماً من بصرى، بقيادة مالك بن الحارث بن هشام، وقد وجهه أبو عبيدة أميراً على حوران بعد سقوط دمشق. وكان الحارث قد جاء مع أبي عبيدة أميراً على بني مخزوم لحصار دمشق فقتل في بعض الوقائع، فلما سقطت دمشق عين ابنه مالك أميراً على حوران ليجند الجند الذي يقدم من الحجاز مدداً لأبي عبيدة في حروبه بالشام.

«فلما وصل هذا الجند إلى بصرى تمكنت من الاجتماع بالأمير مالك، وعلمت منه ما كان من نزولكم على أبي عبيدة في الجابية والمهمة التي أنفذك بها إلى حاكم دمشق، إلى أن أنبأني بخروجك إلى بيت المقدس وخروج الأمير عبد الله إلى العراق، فهرولت حتى أتيت هذه المدينة وما زلت أبحث عن مقرك حتى علمت اليوم أنك مقيم بهذا الدير وأنك خرجت منذ الصباح فأقمت هنا في انتظارك حتى أتيت فأحمد الله على سلامتك وأرجو أن نلتقي بسيدي عبد الله قريباً».

فقال حماد: «لقد نفذ الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ما تعلم. وأراني قد مللت هذه الحياة المحفوفة بالمكاره

المزوجة بالمشاق، ويخيل لي أن الله لم يكتب لي الحصول على هند». قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه. فثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يتقدغيرة ونظر إلى حماد وقال: «دع اليأس يا مولاي واتكل على الله، وإذا كانت لك على أبي عبيدة دالة فلنذهب إليه نستطلع منه خبراً».

فقال حماد: «إن لي عليه دالة عظمي، ولقد أصبح بعد ما تم على يدي من صلح الشام كثير الوثوق بي حتى أشار يوم قدومي إلى بيت المقدس إليّ أنه ربما يحتاج إليّ فيها. فلا أظني إذا استعنته في البحث عن جبلة إلا فاعلاً ما أريد».

قال سلمان: «وأين هو الآن؟».

قال: «تركته في دمشق يبعث البعوث لفتح ما بقي من بلاد الشام».

قال: «إذا أذنت أن نذهب إليه غداً فعلنا». قال: «حسناً».

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجهه: «أتقدم إليك يا مولاي في أمر أرجو أن تطيعني فيه». قال: «وما هو؟».

قال: «أرجو إذا نحن ظفرنا بجبلة هذه المرة ورأينا منه تردداً أو سمعنا منه وعوداً ألا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عبثاً».

قال حماد: «وما معنى ذلك؟».

قال: «معنى ذلك يا سيدي أن تأخذ هنداً من بين يديه سواء أكان ذلك برضاه أم لا».

فقال حماد: «سنرى».

وقضيا بقية اليوم في الأحاديث المتنوعة، وباتا على أن يركبا إلى دمشق في الصباح.

ولما أصبحا أخذَا يستعدان للسفر، وكان اليوم من أيام الآحاد فقال حماد: «هلم بنا ندخل كنيسة القيامة نتبرك بسماع الصلاة قبل ذهابنا». وخرجا حتى أتيا الكنيسة فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريك لإقامة الصلاة فوقفا بينهم. فلم يسمعا من أحاديثهم إلا ما يتوقعونه من قدوم العرب لفتح بيت المقدس. ثم ماج الناس وتزاحوا يسابق بعضهم بعضاً فعلموا أن البطريك قادم، وبعد هنيهة جاء في موكبه يتوكأ على عكازه، ويحف به الأساقفة والقسيسون، وفتح الناس طريقاً في وسطهم مرّ بها البطريك وهم يتبركون بلمس رداءه، حتى دخل الكنيسة فتبعوه حتى وقف عند الهيكل فبدل ثيابه بما يلبسه البطارقة أثناء الصلاة، وعلى رأسه تاج مرصع بالحجارة الكريمة، وعلى كتفه قباء مزركش بالذهب والفضة، وفي عنقه صليب يتدلى على صدره بسلسلة من الذهب، وقد أوقدت الشموع وأحرق البخور وعلت أصوات المرنمين والمصلين. ثم وقف البطريك على عرشه وهو كرسي من العاج مزين بالفسيفساء الجميلة، والتفت إلى الجماهير فعلموا أنه يهم بالكلام فأصغوا إليه فقال بعد البركة:

«اعلموا معاشر أهل النصرانية أن رجال الحرب الحجازيين الذين سمعتم بقدومهم إلى هذه البلاد واستيلائهم على بصرى ودمشق، قد استفحل أمرهم حتى فتحو حلب وحمص وبلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية وغيرها. وقد علمت هذا الصباح أنهم قادمون إلى هذه المدينة المقدسة بجند كبير. ولعلكم سمعتم بخروج مولانا الامبراطور هرقل من بلاد الشام إلى القسطنطينية لأحوال اقتضت ذلك، وقد فوّض إلينا التصرف في أمر هذه الحرب والتي هي أحسن، ففأوضنا حاكم هذه المدينة ورأينا من الحكمة ألا ندع لأولئك

العرب سبيلاً لتخريب شيء من أبنيتها المقدسة فإن فيها كنوز النصرانية، بل ندافعهم بقدر الإمكان فإذا رأينا خطراً في مقاومتهم عقدنا معهم صلحاً نحفظ به الأرواح والأموال ونستبقي كرامتنا، لا كما فعل أهل دمشق. فما علينا إلا أن نصلي إلى الله أن يؤيدنا بالنصر في الدفاع، وهذه حصوننا متينة وعندنا العدة والرجال فانبذوا الشقاق وأطيعوا أولي الأمر منكم واعلموا أن الله لم يمكن هؤلاء العرب من بلادنا إلا لانغماسنا في شهوات دنيانا والانشغال عن طاعة الله بالشقاق والإنقسام، فلتجتمع قلوبكم ولدافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء».

فلما انتهى البطيريك من خطابه ضج الناس وهُم بين مصوب ومخطيء. أما حماد فلما انتهت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان: «لم تعد بنا حاجة إلى سفرنا إلى دمشق، فإننا لا نلبث أن نرى أبا عبيدة هنا، ويلوح لي أنني سأخدمه في هذه المدينة خدمة أعظم شأناً من خدمتي في دمشق لأن أهلها على ما يظهر أقرب إلى الصلح من الدمشقيين». ثم سارا إلى مرتفع من المدينة يطل على ضواحيها. وقضيا بقية اليوم يتشوفان لعلهما يريان جنود العرب قادمين.

وفي صباح اليوم التالي رأيا الغبار يتصاعد في الأفق وظهرت من تحته أعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقاب، فعلم حماد أنهم رجال خالد بن الوليد. وفي اليوم التالي جاءت فرقة أخرى نزلت في جانب آخر من المدينة، وهكذا كانت تأتي في كل يوم فرقة بأعلامها وخيامها وتنزل في ناحية المدينة حتى صارت عدة الفرق سبعة، كل واحدة منها خمسة آلاف. وجملة الجند ٣٥ ألفاً عليهم سبعة قواد عرف حماد بعد ذلك أنهم: خالد بن الوليد، وشرحيل، والمرقال، ويزيد، والمسيب، وقيس المزادي، وعروة بن مهلهل. فلما تحقق حماد

وسلمان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلاً يبحثن عن أبي عبيدة لعله جاء معهم فلم يريا رأيته هناك ولكن حماداً كان يظن ألا بد من حضوره فتح المدينة.

وقضياً أياماً يترددان بين بيت المقدس والدير يستطلعان مقاصد الروم، فرأيا الخوف مستولياً على الخاصة أما العامة فكانوا لا يزالون مصرين على الدفاع يرمون المسلمين بالنشاب عن الأسوار، والمسلمون يردون عليهم بمثلها. ومضت أيام والحرب سجال بين الفريقين حتى ملّ حماد الانتظار وصمم على الخروج إلى الشام لملاقاة أبي عبيدة وسؤاله عن جبلة فقال له سلمان: «إن الطريق لا يخلو من الخطر يا مولاي، وأخشى إذا خرجنا من المدينة أن يستغشنا أهلها فيصيبنا سوء، فليكن خروجنا بحيلة».

وبقيا بضعة أيام وهما في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان على ما وراء الأسوار من السهول والمسالك، فرأيا يوماً جيشاً جديداً قادماً من جهة دمشق عرفا أنه أبو عبيدة، فاستبشر حماد وقال: قد آن الوقت يا سلمان لخروجنا، فما الرأي؟».

قال: «الرأي أن نعرض حاكم المدينة على مفاوضة العرب في شأن الصلح فلعله يأذن في خروجنا لذلك».

فقال حماد: «ومن يوصلنا إليه ونحن لا نعرفه ولا هو يعرفنا ولا يثق بنا؟».

قال سلمان: «دع ذلك إليّ فإنني أدبره بإذن الله».

خرج سلمان من الدير وقد ارتدى أحسن لباس عنده وسار يلتمس الحاكم فعلم أنه عند البطريك في الكنيسة، فسار إليه ورأى الخدم والحاشية وقوفاً أمام غرفة الاستقبال لا يأذنون لأحد في الدخول، فتقدم إلى كبيرهم وقال له: «إني آت في مهمة ذات بال إلى

حضرة الحاكم، فاستأذنه في دخولي عليه». فأذن له، وأدخل الغرفة فوجد فيها البطريك والحاكم وعلى وجهيهما دلائل البغته وكأنهما كانا في جدال، فسجد أمام البطريك وقبّل يديه، ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدّباً، فأذن له في الجلوس فجلس وسأله الحاكم وهو مقطب الوجه: «ما هي المهمة التي جئت فيها؟».

قال: «إن غرضي يا مولاي سلامة هذه المدينة من الأعداء، وصيانة قبر السيد المسيح من الإهانة والاحتقار».

قال: «ومن أنت؟».

قال: «إني تابع لأمر من أمراء العراق كان ممن شهدوا فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطه لأهرقت الدماء وخربت تلك المدينة، وله بأمراء جند المسلمين معرفة».

فقال الحاكم: «أتريد أن نلتمس الصلح من عند أنفسنا ونحن لم نبد دفاعاً بعد؟».

فقال سلمان: «لا يا سيدي إنما أنا أعرض عليكم الأمر عرضاً ولا غرض لي فيه سوى حجب الدماء».

فقال البطريك: «بورك فيك يا بني، ولكننا لا نرضى بما رضي به أهل دمشق فإن في بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما تسليمها بالأمر السهل».

فقال سلمان: «إذا أمر مولاي بسماع رأيي، فما أظنه إلا راضياً به». قال: «قل».

قال: «أرى إذا خابركم هؤلاء العرب في أمر الصلح ألا ترضوا بعقده على يد أحد منهم إجلالاً لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظاً لمنزلتكم، بل تطلبون أن يتم ذلك على يد أمير المسلمين الأكبر

وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامه في يثرب بالحجاز، فاطلبوا أن يكون الصلح على يده، فإذ رضوا بذلك وأتى الخليفة بنفسه إلى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الشام قبلها». ففكر البطريق قليلاً ثم قال: «أين هو مولاك؟».

قال: «هو في منزله هنا، فإذا أمرتم باستقدامه فعلت».

فأمره باستقدامه، فذهب سلمان وقد سرّ بنجاح مهمته حتى أتى حماداً - وكان في انتظاره - فلما قص عليه ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الأمراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريق والحاكم، فلما رأياه استأنسا بطلعته وما يتجلى في وجهه من المهابة والجلال، فأذنا له في الجلوس ثم قال له البطريق: «هل تعرف قائد جند هؤلاء العرب؟».

قال: «نعم أعرفه جيداً».

قال: «هل أنباك تابعك بما استقدمناك في شأنه؟».

قال: «نعم وهو الأمر الذي أراه أنا أيضاً. وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرهما، ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا أقول أن الروم يعجزون عن مثله ولكنهم قد يقلقون راحة الناس فتقف حركات الأعمال بلا فائدة، ولا سيما بعد أن رسخت أقدامهم في كثير من البلدان، وزد على ذلك أن الوسيلة التي اخترتموها لإتمام الصلح فيها ما يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها إلى الأبد، إذ لا يخفى عليكم أن أمير المسلمين المقيم يثرب رجل عظيم جداً قد أقر بعظمته القريب والبعيد، وهو عندهم في أرفع منزلة بعد نبيهم لأنه خليفته والقائم بأمره، ولم يسبق أنه قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدومه بنفسه على ما ذكرت امتياز خاص، ونظراً لما لي من الدالة على الأمير أبي عبيدة كبير أمراء جند المسلمين، فسأحب إليه أن يجيب طلبكم

وما أظنه إلا فاعلاً».

فالتفت البطريق إلى الحاكم كأنه يستشيريه فقال الحاكم: «لا بأس من ذلك، غير أنني لا أَرْضَى أن يفهم هؤلاء أننا خائفون أو أننا نصطليح لعجزنا عن القتال».

فابتدره حماد قائلاً: «لا تخف يا مولاي فإني إذا خابرتهم سأجعل ذلك من عند نفسي على أسلوب ليس عليكم منه بأس، غير أنني ألتمس أن يصحبني مَنْ يخرجني من الأسوار لئلا يستغشني أحد من رجالكم».

فقال الحاكم: «لك علينا ذلك، ونحن نطلب أن يبقى تابعك هذا هنا ريثما تعود».

قال: «لا بأس بذلك». وخرج حماد فركب جواده ومعه بعض أهل القصر حتى أوصلوه إلى باب المدينة فخرج إلى معسكر أبي عبيدة، فلما رآه أبو عبيدة استقبله باسمًا وقال له: «لعلك جئت في مهمة أخرى؟».

قال: «إني لا آلو جهداً يا مولاي في كل ما يؤول إلى حجب الدماء».

فقال أبو عبيدة: «هل جنح أهل بيت المقدس إلى السلم؟».

قال: «نعم يا سيدي، أظنهم يريدون الصلح، ولكنني فهمت أنهم رفعة لمقام هذه المدينة المقدسة يريدون أن يكون صلحها على يد خليفتك الإمام عمر بن الخطاب. ألا ترى أنه يقدم إليها بنفسه وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس؟».

قال: «أظنه لا يرفض ذلك. وماذا بعد قبوله؟».

قال: «إذا أكدت لي قبوله جعلت المخابرة في ذلك رأساً بينكم

وبين حاكم المدينة أو بطيريكها على مشهد من الناس، وإني إنما جئت توطئة للأمر».

فأثنى أبو عبيدة عليه وقال له: «لقد سعيت سعياً حسناً، وإذا تم الصلح وقدم أمير المؤمنين إلى هنا سأقدمك إليه وأذكر له شهامتك».

قال: «إن ذلك شرف كبير أكون سعيداً إذا حصلت عليه، وأتقدم إلى مولاي الأمير بسؤال أرجو ألا يثقل عليه».

قال: «ما هو؟».

قال: «أتعرف جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم؟».

قال: «نعم أعرفه».

قال: «إن لي معه أمراً يهمني، وكنت أحسبه في بيت المقدس فلم أجده ولا أحداً من أهله وقيل لي إنهم كانوا هناك وخرجوا خروج الفارين لا يعلم أحد بمقرهم، فهل يعلم مولاي شيئاً عن هؤلاء الغساسنة؟».

قال أبو عبيدة: «الذي أعرفه أن هذا الأمير خرج من بلاد الشام جملة هو وأهله، وقد بعثت العيون عليه فإذا عرفت مقره أنبأتك به، أو ربما سمعت بقتله بسيفنا إلا إذا سلم صاغراً».

قال: «وكيف تقتلوناه وهو إنما يحارب بسيف مولاه الامبراطور، ولعله إذا خير لا يختار إلا التسليم».

قال: «إذا سلم فهو في ذمتنا له ما لنا وعليه ما علينا، وإلا فإن السيف بيننا وبينه، وأخشى مع ذلك أن يكون قد قتل في بعض الأماكن ولم يعلم به أحد».

فاضطرب قلب حماد وخاف أن يفتك الحجازيون بجبلة وأهله

إذا التقوا بهم . فوقع في حيرة ونظر إلى أبي عبيدة وهو يهم أن يخاطبه في الأمر ويوقفه الحذر . فلحظ أبو عبيدة ذلك فيه فقال : « ما لي أراك تحاذر أن تخاطبني ، هل ساءك أن يُقتل جبلة؟ » . قال : « نعم يا سيدي » .

قال : « وهل بينكما قرابة؟ » . قال وقد تلجلج في الجواب : « نعم بيننا شبه قرابة » .

قال : « وأي قرابة بينكما وأنت من لحم وهو من غسان؟ لعل بينكما مصاهرة؟ » .

فقال وهو مطرق : « نعم يا مولاي؟ » . ثم رفع نظره إليه وقال : « هل يأذن لي الأمير في رجاء؟ » .

قال : « قل ما بدا لك » . قال : « إن أمر جبلة يهمني كثيراً وحياته افتديتها بحياتي . وقد آتست فيك روح الانعطاف ، ولهذا أثبتك أمراً يشغلني ، عسى أن أجد لديك باباً للفرج » .

قال : « قل ما هو؟ » . قال : « أعترف لمولاي الأمير أيده الله بأني خطبت ابنة جبلة ، وقد قضيت أعواماً في انتظار عقد القران والحرب تحول بيني وبين ذلك ، وكان آخر عهدي بجبلة وأهله في بيت المقدس فلما جئتها رأيتهم قد رحلوا إلى مكان لا يعلمه أحد ، فجئت أستفهم عن مكانهم » . قال ذلك وقد ظهرت على وجهه علامات الاهتمام يمازجها الحياء .

فقال أبو عبيدة وهو ينظر إلى وجهه ويراعي حركاته : « كيف هان على ملك غسان أن يزوجك ابنته وأنت غريب ولست من سلالة الملوك » .

فتغير حال حماد وعلا وجهه الاحمرار لما تذكر من حقيقة نسبه

ولكنه تجاهل وقال: «لقد عانينا في سبيل ذلك مشقة ولعله السبب في تأخير الاقتران إلى اليوم».

فقال أبو عبيدة: «طب نفساً يا حماد، واعلم أنني نصيرك في الحصول على مرامك، ولا يحق لجلبة أن يفاخر بك بأمر النسب وأنت شهم همام قد رفعتك همتك إلى أعلى من مقام الملوك. وسأحل جلبة على إجابة طلبك متى علمنا بمكانه».

فأثنى حماد على أريحيته وهَمَّ بوداعه على أن يعود إلى حاكم بيت المقدس بنتيجة الرسالة. فقال أبو عبيدة: تمهل ريثما أشاور الأمراء في الأمر».

وأمر فجاء خالد وسائر الأمراء، فخرج حماد وعقد أبو عبيدة مجلساً شاور فيه أصحابه فلما انفضَّ المجلس دعا أبو عبيدة حماداً إلى خيمته، فلما دخل عليه وجده عابساً فقال له: «ما بال مولاي مقطب الوجه؟».

فقال: «ليس بي من بأس، ولكنني لقيت من الأمراء رغبة في إجراء الصلح على يدنا استعجالاً للفتح. لأن استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمناً طويلاً وقد يمتنع عن المجيء لما يحول بينه وبين ذلك من المشاغل الكثيرة».

فأدرك حماد أن خالد بن الوليد صاحب هذا الرأي، فقال: «أظن الأمير خالد أكثر الأمراء ميلاً إلى هذا؟».

فلم يجب أبو عبيدة في بادئ الرأي، فصمت حماد ولبث ينتظر الجواب فقال أبو عبيدة: «عد إلى حاكم ايلياء واذكر له أننا قبلنا الصلح على يد إمامنا الخليفة أمير المؤمنين وإذا جاءه أحد من الأمراء بغير ذلك فهم مخيرون في القبول أو غيره».

فنهض حماد فودعه وخرج يريد بيت المقدس، فلقيه سلمان فأخبره الخبر فسُرَّ لنجاح مهمته وقال له: «هلم بنا إلى الحاكم». فلما أقبلًا عليه استطلعهما الخبر فقَصَّ حماد ما دار بينه وبين أبي عبيدة، فقال الحاكم: «لا نصالح أحداً غير كبير العرب».

فقال البطريق وكان حاضراً: «وكيف نميز بين الإمام وأحد الأمراء لو جاءنا باسمه».

فقال سلمان: «إني عالم بصفة إمامهم وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة ويوم شهدت فتح مكة وكان لا يزال أميراً كسائر الأمراء».

وفي اليوم التالي صعد البطريق والحاكم إلى أسوار المدينة ومعهما حماد وسلمان متكرين، فلبثوا ينتظرون ما يكون من أمر العرب. فجاء رسول على جواد خاطبهم من أسفل السور يطلب إليهم التسليم فقال البطريق: «إننا نقبل الصلح إذا كان على يد أعظم أمرائكم».

فمضى الرسول وبعد هنيهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه وحاله أنه من الأمراء فقال الرسول: «هذا هو كبير أمرائنا فصالحوه».

فنظر حماد فإذا هو أبو عبيدة نفسه، فعلم أن رأي أمرائه غلب على رأيه فجاء يطلب الصلح بنفسه، فلما رآه البطريق استطلع رأي حماد عن الرجل فقال: «هذا هو أبو عبيدة كبير أمراء جند العرب في الشام».

فقال: «أليس هو ملكهم الكبير؟». قال: «لا».

فنظر البطريق إلى أبي عبيدة وقال: «إننا لا نصالح أحداً غير

خليفتمكم المقيم بالمدينة فاستقدموه واحجبوا الدماء».

فعاد أبو عبيدة، وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمثل ذلك فأبوا مصالحته وأصروا على أن يأتيهم عمر بنفسه. وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الأمطار والعواصف فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق، لأن أهل بيت المقدس مقيمون بالبيوت والعرب في الخيام. على أنهم صبروا على مناجزتهم أربعة أشهر بين حرب ونضال ومخاطرة، والروم مصررون على أن يكون الصلح على يد الإمام عمر، فلم ير أبو عبيدة بداً من استقدامه فكتب إليه بذلك.

أما حماد فكان يتردد إلى معسكر أبي عبيدة يستطلع ما جد في أمر جبلة ويستحث أبا عبيدة على استقدام عمر.

وأما سلمان فإنه لم يطق صبراً بعد طول الانتظار، فخرج بنفسه يستخير الناس ممن ظن أنهم يعلمون شيئاً عن جبلة وأهله، فلم يسمع إلا أخباراً متضاربة، فمن قائل: أنهم فروا إلى العراق أو مصر أو غيرهما، ومن قائل: أنهم لا يزالون مختبئين في بعض بلاد الشام. ولكن الأكثرين كانوا يرون أنهم فروا إلى العراق، فعاد إلى حماد بتلك الأخبار المتضاربة فلم تغنه شيئاً، فاشتد به اليأس وضاق دونه السبل ولم يكن يرى تعزية إلا بقاء أبي عبيدة.

وفيما هو عنده ذات يوم وسلمان ينتظر خارجاً دخل عليه رجل منبسط الوجه كأنه جاء ببشارة فقال أبو عبيدة: «ما وراءك؟». قال: «إن بالبواب رسولاً من أمير المؤمنين جاء يخبرنا بقدومه». قال: «فليدخل». فدخل وأثار السفر بادية على وجهه وعلى ثيابه، فقال له أبو عبيدة: «أين تركت أمير المؤمنين؟».

قال: «تركته راكباً من دمشق».

فقال أبو عبيدة: «ما باله أبطأ علينا؟»

قال: «إنما أبطأ لما اعترضه في طريقه من المسلمين يستفتونه ويتقاضون إليه وهو لا يرى إلا سماع أقوالهم والعدل بينهم».

قال: «هكذا يكون الأمراء بورك بطن حملك يا عمر». ثم بعث إلى خالد وسائر الأمراء فجأؤوه، فأنبأهم بقدوم عمر وقال: «فلنذهب للقاءه». والتفت إلى حماد وهمس في أذنه قائلاً: «هلم بنا نسمع من أهل المدينة خبراً عن صاحبك جبلة».

فركب الأمراء وركب حماد ومعه سلمان وقد شغله ركوبه هذا عن اهتمامه بـجبلة وخبره وكان الأمراء بلباس الديباج والحرير وقد امتطوا خيولاً فوقها سرج من الفضة مما غنموه من دمشق الشام وغيرها، إلا أبا عبيدة فقد كان على قلوصله (ناقته) وفوقه عباءة قطنانية وخطام الناقة من الشعر. وساروا وقد تركوا الجند في مكانهم حول أسوار بيت المقدس. وكان حماد مشتاقاً لمشاهدة عمر بعد أن تولى أمر المسلمين وهو يتوقع أن يراه في موكب حافل كما تعود أن يرى أو يسمع عن ملوك الروم والفرس مما يبهر النظر ويستوقف البصر. فكان كلما مشوا قليلاً تشوف عن بعد لعله يرى الغبار أو غيره مما يتقدم المواكب فلم ير شيئاً.

— ٢٨ —

عمر بن الخطاب

رأى حماد هجناً قادمة فقال في نفسه: «هذه طليعة الموكب قد جاءت ببشارة». فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجيناً حمراء يقودها أحد الأعراب، وعليها غرارتان وقرية ماء وجفنة صغيرة للزاد، وقد ركبها رجل ذو وجه أبيض تشوبه حمرة، حسن الخدين والأنف، خفيف العارضين ضخم الكراديس، على رأسه عمامة وعلى كتفيه

عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد وبعضها من الصوف وفي يده درة هي سوط عريض من الجلد.

فتحير حماد في أمر هذا القادم والتفت إلى سلمان، فابتدره قائلاً: «هذا هو الإمام عمر يا مولاي». ثم ما لبث أن رأى أبا عبيدة ترجل عن ناقته وأسرع نحوه، فترجل عمر أيضاً وتعانقا، فتحقق حماد أنه الإمام عمر، وعجب لزهده. ثم ما لبث أن سمعه ينتهر بعض الأمراء فتقدم لسمع كلامه فإذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحريز قائلاً لهم: «ما بالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة؟ ما هذه الملابس؟ إنها ألبسة أهل الترف وأنتم في سبيل الجهاد!». قال ذلك وحثا عليهم التراب. فقال أبو عبيدة: «إنهم يا أمير المؤمنين إنما اتخذوه كساء خارجياً وتحتة السلاح».

ثم نادى أبو عبيدة حماداً فأقبل فقدمه إلى عمر وقال له: «إنه شاب من أمراء العراق كان لنا نصيراً في حصار الشام وواسطة في صلحها».

فرحب به عمر والتفت إلى أبي عبيدة وقال: «لقد أذكرتني بجبلبة بن الأيهم الغساني، ألم يصل إليك كتابي بشأنه؟». قال: «كلا يا مولاي وما خبره؟».

قال: «له خبر طويل سأقصه عليك فيما بعد، هلم بنا الآن إلى بيت المقدس».

وركبوا جميعاً، وقد خفق قلب حماد لسماعه اسم جبلبة، وتاق لمعرفة أمره، ولكنه لم يجرؤ على التماس ذلك فأجله إلى فرصة أخرى. وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على بيت المقدس وحولها معسكر العرب تلوح الأعلام فوقه من بعيد، ولما اقتربوا من الخيام

سمعوا ضجيج الناس ورأوا جماعات منهم مهرولين للملاقاة عمر، فرحب عمر بهم وأثنى على غيرتهم وحسن جهادهم وكثرة ما فتح من المدن على أيديهم. حتى إذا وصلوا إلى معسكر أبي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر نصبوه له هناك، ونزل الأمراء معه وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدته وسماع كلامه. أما هو فجلس على التراب وجلس الجميع معه وحماد يعجب لزهده وتواضعه.

وبعد قليل نهض عمر فألقى عليهم خطاباً، ثم جلس الجميع يتحدثون بأمر الفتح وما لقوه من الجهد وما كان من فوزهم وكلهم فرحون.

وكان حماد ينتظر أن يجري حديث جبلة لعل عمر يقصّ خبره فاشتغلوا عن ذلك بأحاديث الفتح ثم نودي للصلاة. فخرج حماد وقد ملّ الانتظار، وخلا إلى سلمان وقال له: «هل ترى أن نسأله عن جبلة؟».

قال: «لا حاجة بنا إلى ذلك، ويكفي أن نسأل أبا عبيدة».

قال: «حسناً». وسارا إلى أبي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع نظره على حماد قال له: «غداً نسمع حديث أمير المؤمنين عن جبلة وأهل بيته، أما الآن فأطلب إليك أن تسير إلى حاكم هذه المدينة فتنبئه بقدوم أمير المؤمنين، ليخرج للصلح، ومتى عدت من هذه المهمة قدمتك للخليفة».

فخرج حماد وسلمان فأنبأ الحاكم والبطيريك بقدوم عمر، فخرج البطيريك على الأسوار وطلب أن يرى عمر رأي العين.

فعاد حماد بالخبر فركب عمر ناقته ومركعته وتقدم إلى الأسوار وأبو عبيدة إلى جانبه. وكان حماد قد عاد إلى البطيريك وأشار إلى الخليفة. فاستغرب البطيريك بساطة لباسه وشدة زهده بينما انغمس

الروم في الترف والرخاء، ثم التفت إلى أعيان المدينة وكانوا وقوفاً معه على الأسوار وقال: «يا أهل بيت المقدس، هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا على يده، فأخرجوا إليه واطلبوا صلحه واعقدوا معه الأمان والذمة». ففتحوا الأبواب وكانوا قد ضاقوا ذرعاً بطول الحصار، وخرجوا أفواجاً وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والأطفال وهم يصيحون ويستغيثون، فلما رآهم عمر على هذه الحالة سجد شكراً لله على قتب ناقته ثم أناخها وقال للناس: «عودوا إلى منازلكم ولكم الذمة والعهد». فعادوا ولم يغلقوا الأبواب، وعاد عمر إلى معسكره.

وفي صباح اليوم التالي دخل عمر المدينة والناس يرحبون به وقد رفعوا أصواتهم بالترنيم والترتيل، وفيهم القسس في أيديهم المباخر، حتى أتى قصر الحاكم قرب كنيسة القيامة، واجتمع بالحاكم والبطريرك وكبار أهل الدولة وعقدوا صلحاً على أداء الجزية، وأوصى بها الإمام عمر خيراً، وهدأت الأحوال وسكنت القلوب إلا قلب حماد فإنه ما زال يتقلب على جمر الانتظار.

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة أيام لم يخل يوم منها من الوفود القادمة من أنحاء سوريا، وفيها عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين جاؤوا لرؤية الخليفة. وفي اليوم الخامس من دخوله وهو الجمعة خط عمر محراباً في المدينة، وفي موضعه بنى جامعاً بعد ذلك. ففي ذلك اليوم سار حماد إلى أبي عبيدة وشكا إليه قلقه ورغبته في سماع حكاية جيلة من الإمام عمر، فاستمعه إلى المساء وقال له: «إن أمير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع سائر الأمراء في فسطاطه، وسنقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر».

وفي العصر خرج حماد وسلمان إلى معسكر أبي عبيدة، وبقي

حتى فرغ المسلمون من صلاة العشاء، ثم سارا إلى خيمة الإمام عمر، وجلسا في بعض جوانبها، وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلاً، جلسوا جميعاً على الثرى تمثلاً بإمامهم، وبعد أن قرأ القراء بعض السور، التمس أبو عبيدة من الإمام عمر أن يقص حكاية جبلة بن الأيهم ملك غسان، فقال الإمام عمر: «ماذا تعلمون عنه أنتم؟».

قال أبو عبيدة: «أنه فرّ بأهل منزله إلى مكان لا نعلمه».

فتبسم عمر وقال: «إنه لم يفر ولكنه جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الإسلام فقبلت منه ذلك، فاعتنق الإسلام وأقام بيننا في أهل منزله معزراً مكرماً، وأذنا له أن يبقى على ما اعتاده من فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل من الذهب في أعناقها، وإذا ركب وركبت حاشيته عقدوا أذنان الخيل فسارت تحط بهم حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة إلا خرجت لمشاهدتهم ولكننا ما برحنا نرى فيه روح الاستبداد والظلم مما يأنفه عدل الإسلام. لأن هؤلاء المتنصرة عاشروا الروم واعتنقوا ديانتهم وتحلقوا بأخلاقهم، ولا يخفى عليكم ما في دولة هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيأكل القوي منهم الضعيف بغير وجه الحق. فأراد جبلة أن يسير على ذلك فأوقفناه عند حده ولا سيما بعد حادثة جرت له مع رجل من فزارة، وذلك أننا خرجنا مرة للحج، وفيما نحن نطوف بالبيت ومعنا جبلة وجمع غفير من المسلمين وفي جملتهم رجل من فزارة، وطىء الفزاري إزار جبلة فانحل الأزار، فغضب جبلة ورفع يده وضرب بها الفزاري فهشم أنفه، فجاءني الرجل يشكو ما ألم به، فبعثت إلى جبلة وقلت له: (ما هذا؟). قال: (هشمت أنفه لأنه تعمد حل إزاري ولولا حرمة الكعبة

لضربت بين عينيه بالسيف). فعلمت أنه يريد الاستبداد فقلت له: (يا جبلة إنك أخطأت، وقد أقررت بما ارتكبته فعليك أن ترضي الرجل، أو يفعل بك مثل فعلك به). فعظم عليه ذلك واستغربه وقال: (كيف ذاك وهو سوقة وأنا ملك؟). فقلت له: (إن الاسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا التقي والعافية). فقال وقد خاب ظنه: (كنت ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أمتع مني في الجاهلية). فقلت: (دع عنك هذا فإنك إن لم ترض الرجل أفدته منك). فقال: (إذن أنتصر). فقلت له: (إذا تنصرت ضربت عنقك فذلك جزاء من يرتد عن الاسلام). فسكت قليلاً ثم قال: (إني ناظر في ذلك ليلتي هذه). قلت: (أنظر ما شئت). ثم انصرف ولم أعد أراه ولا أدري مقره، وقد كتبت إليك في شأنه لتبحث عنه فهل علمت عنه شيئاً؟».

فقال أبو عبيدة: «قضينا أشهراً نبحت عنه فلم نقف له على خير».

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص ببصره يتناول بعنقه وقلبه يخفق في انتظار آخر الحكاية، فلما أتى عمر على آخر كلامه انقبضت نفس حماد وعظم عليه الأمر وهم بمخاطبة عمر يستطلعه رأيه في مصير جبلة وأهله فأقعدته هيئة المجلس ومقام الخليفة، وما صدق أن ارفض الجمع حتى خلا إلى سلمان ووفقا بالقرب من معسكر أبي عبيدة فقال حماد: «ما رأيك يا سلمان؟».

قال: «لقد هان الأمر يا مولاي، والرأي عندي أن نبحت عن جبلة في الطريق بين المدينة والشام إذ لا أظنه وقد فرّ من الحجاز إلا قادماً إلى أطراف الشام أو البلقاء أو مكان آخر لم يفتحه المسلمون، أو لعله يختبئ في بعض الأديرة، ولا بد له في كل حال من المرور بدير

بحيراء ولو متنكراً، فلنبحث عنه بين أهل الدير، وإذا أشكل الأمر قصدنا ناسك حوران فإن له معرفة وكرامة».

فتأفف حماد وتذمر ولكنه فكر في الأمر فرأى كلام سلمان معقولاً، فظل صامتاً برهة وسلمان ينظر إليه ويتأمل حاله فرآه غارقاً في بحار الهواجس وقد تولاه الانقباض وغلب عليه اليأس فقال له: «ما بال مولاي لم يعتد بكلامي؟ لعلني مخطيء فيما أقول؟».

قال: «نعم الرأي رأيك، ولكنني أفكر في هند وكيف طال الأمد دون أن أتلقى عنها خبراً مع علمها بذهابي إلى بيت المقدس بعد فتح الشام».

قال: «لا تلمها يا سيدي، ألا تعلم أنها فتاة لا تستطيع المجاهرة بسرّها، فضلاً عما كانوا فيه أثناء فرارهم من الخوف والاهتمام وأقاموا بالمدينة غرباء ثم عادوا فارين كما رأيت».

فقال حماد: «أراني مقيد الفكر مغلول اليدين والأمير عبد الله صار بعيداً عنا ولا نعلم خبره ولا ما جرى له في العراق».

قال سلمان: «أما الأمير عبد الله فأنت تعلم أنه من الحكمة والتعقل بحيث لا نخشى عليه بأساً ولا يلبث أن يعود إلينا وقد نال حظوة في عيون المسلمين ولكن...». وصمت.

فقال حماد: «ما بالك صمت قل ما في نفسك؟».

قال سلمان: «ماذا أقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الأيدي؟».

قال: «ماذا تعني؟». قال: «أعني يا مولاي أننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن أمر إنما أتينا هذه البلاد من أجله، ولولاه لكان مقامنا بالعراق معاً للانتقام من دولة الفرس».

فانتبه حماد إلى حكاية النذر وحقيقة نسبه وما له من الثأر على
الفرس فقال: «لقد صدقت يا سلمان إننا تقاعدنا عن ثأرنا وشغلنا
بمهام أنفسنا عن وصية أبي، ووالله لو أتي فرغت من مشاغلي المتواترة
وخلوت إلى نفسي يوماً واحداً لما بقيت في هذه الديار، بل كنت أول
شاخص إلى العراق أشهد فتح المدائن عاصمة تلك الدولة الظالمة،
وإني لو اتق بقرب سقوطها لما نعلمه من بطش العرب وفساد نيات
الفرس وانقسام حكامهم بعضهم على بعض».

فقال سلمان: «إذن نسير إلى العراق».

قال حماد بصوت مختنق: «وهند؟». ونظر إلى سلمان نظرة كان
لها وقع السهام على قلبه فنظر إليه وتبسم ثم همّ به وضمه إلى صدره
وقال له: «إن هنداً في المقام الأول يا مولاي».

فتنهّد حماد وقال: «لا بل الانتقام للملك النعمان قبل كل
شيء، هكذا أوصانا بصوته المنبعث من ظلمات القبر ولكن...».

قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه.

فابتدره سلمان قائلاً: «إن كلا الأمرين مستدرك، فلنبحث أولاً
عن مقر هند فإذا التقينا بها وكان السفر إلى العراق مستعجلاً وكان
أجل الفرس قريباً أجّلنا الاقتران إلى ما بعد سقوط دولة الفرس، وإلا
فإنك تتزوج ثم نسير. فقم بنا إلى بيت المقدس وغداً نستطلع أخبار
العراق ثم نسير للبحث عن جيلة وأهله في أطراف الشام وحوران
ويفعل الله ما يشاء».

فقال حماد: «حسناً، ولكن ذهابنا إلى بيت المقدس في هذا الليل
لا يخلو من المشقة والخطر، وقد دعانا أبو عبيدة للمبيت عنده، فلنبت
الليلة وغداً لناظره قريب».

وتحولوا إلى الفسطاط، فلما دنوا منه سمعا أصواتاً عرفاً بأنها

أصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلّون، فتنحيا برهة حتى فرغ القوم من الصلاة، ثم دخلا على أبي عبيدة فقال لهما: «أين ذهبتما وأنا أبحث عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفة؟».

فقال حماد: «إن حديث أمير المؤمنين عن جبلة لم يزدني إلا حيرة، فلا أدري أين هو الآن؟».

فقال أبو عبيدة: «سنبحث عنه في سواحل الشام لعله يقيم بمكان هناك، وإذا كان قد خرج منها إلى بلاد الروم أو مصر أو غيرها عرفنا خبره».

فقال سلمان: «لقد رأينا أن نبحث عنه في أطراف الشام وحواران لعلنا نسمع عنه شيئاً في بعض الأديار». قال أبو عبيدة: «نعم الرأي هذا، وسنبحث نحن أيضاً عنه».

فقال حماد: «وماذا تعلمون من أخبار العراق وفارس؟ فإن أبي لم يكتب إليّ شيئاً منذ سفره».

فقال أبو عبيدة: «إن ما أتانا به مولانا أمير المؤمنين يسر كل مسلم، فإن النصر معقود لواءه لجنود المسلمين حيثما ولوا وجوههم، وقد كان الإمام عمر على موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في القادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد بخبرها وقد أبطأ عليه، فأوعز إلى نائبه في المدينة إذا جاء بريد العراق أن ينفذه إليه في بيت المقدس حالاً فنحن ننتظر ورود البريد. وكلنا على يقين من نصرة رجالنا مهما تكن كثرة جنود الفرس وأفيالهم ودوابهم، وما هم بأشد وطأة من الروم، بل نحن أشد وطأة على الفرس منا على الروم لأن هؤلاء أهل كتاب قد أوصينا بهم خيراً وأما الفرس فإنهم مجوس يعبدون النار، فضلاً عن اختلال أحوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك منهم، فقد توالى على إيوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بينهم

بعض النساء، وملكهم الآن يزددجرد بن شهریار بن كسرى أنوشروان، وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة، فهل يعقل أن جنده يغلب جند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وعلى كل حال موعدنا بأخبار النصر قريب إن شاء الله.

ثم أمر بعض رجاله فأعدوا خيمة للضيفين، فباتا ليلتهما، ثم أصبحا وقد أذن المؤذنون لصلاة الفجر وصلى الإمام بالمسلمين، فمشيا خارج المعسكر يتحدثان فوق نظرها على هجين قادمة من عرض الأفق في سرعة البرق فقال سلمان: «هذا صاحب البريد على ما أظن». ووفقا ينظران ما يكون من أمره فإذا به دار حتى بلغ معسكر أبي عبيدة وترجل عند فسطاطه، فأسرعا إلى الفسطاط فرأيا أبا عبيدة خارجاً من خيمته ومعه الهجان وهو لا يزال بغبار السفر وهجينه وراءه، حتى أتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعاً وحماد وسلمان معهم، فرحب عمر بهم وخاطب صاحب البريد قائلاً: «ما وراءك يا عبد الله؟». فقال: «ما ورائي إلا الخير». ومدّ يده فأخرج من بين أثوابه صندوقاً فتحه وأخرج ملفاً من جلد ناوله إلى الإمام عمر ففضه ودفعه إلى بعض خاصته وقال: «اتله علينا ما كان من أمر المسلمين في العراق».

— ٢٩ —

وقعة القادسية

أنصت حماد وسلمان لسماع ما في الكتاب، فإذا فيه: «إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك أمير جند العراق. أما بعد فإنني أكتب إليك تفصيل وقعة القادسية التي فاز فيها المسلمون على أهل فارس وإليك هي: جئنا يا أمير المؤمنين بجنود المسلمين فيمن تعلم مع من انضم إليهم من جند الشام وجملتهم جميعاً خمسة وثلاثون

ألفاً، ونزلنا في القادسية بين العقيق والخندق حيال القنطرة. والقادسية يا أمير المؤمنين واقعة على رأس بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بين البحيرة والفرات، فأقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم أخرى حتى ملوا فكتبوا إلى ملكهم يزدجرد وشكوا ما يقاسونه وإننا خربنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والأطعمة. فبعث يزدجرد إلى رستم كبير قواده وألح عليه أن يقدم بنفسه لقتالنا، فجاء وعسكر في ساباط. وقد كتبت إليك بذلك في حينه فكتبت إلينا ألا يكرهنا هذا. فاستعنا الله وأرسلنا نفرأ من المسلمين إلى يزدجرد في المدائن يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو السيف فاستقدم رستم إليه واستشاره، فهدد هذا رسلنا وتوعدهم، ثم وعدهم بقوت ومال وكساء، فأجابوه بكلام شديد فأخرجهم من المدائن مهانين، فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ما حولنا من البلاد والقرى نسوق أغنامها وأبقارها وأسماكها وإبلها. فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مائة ألف وعشرون ألفاً: منهم أربعون ألفاً يقودهم رجل اسمه الجالينوس، والباقون يقودهم رستم. فجاؤونا ومعهم الفيلة والخيول، وكانوا لا يمرون ببلدة إلا أسأؤوا أهلها وأكثروا من الفساد فيها، فنقم الناس عليهم، وقد علمنا من بعض أسراهم أنهم قضوا في انتقالهم من المدائن إلى القادسية أربعة أشهر فلما بلغوا القادسية عسكروا حيالها ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عندهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الأبيض وغيره. وقد نظم رستم جيشه فجعل من الأفيال ثمانية عشر في الوسط وخمسة عشر في كل من الجناحين. ثم انفرد هو في مكان مرتفع يشرف منه على جندنا وبعث إلينا أن نوافيه برجل منا يكلمه، فأرسلت إليه رسولا وجده جالسا على سرير من الذهب وبين يديه البسط والتمارق والوسائد المنسوجة بالذهب، فدخل عليه بعباءته ودرعه وسيفه ولم يبهره ما رآه

هناك من بهارج الدنيا، بل قاد جواده فوق البسط وشق وسادتين ربطه بهما، وسألوه أن يضع سلاحه فأبى، ثم سأله ترجمان رستم وهو رجل من أهل الحيرة اسمه عبود عما جاء من أجله. فأجابه بالدعوة التي تعلمونها، فعظم ذلك عليهم وقالوا: (كيف تطلبون قتالنا أو الجزية وقد كنتم في معيشة ضنك إذا قحطت أرضكم استعطيتمونا فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير، ولا نظنكم جئتم إلينا إلا من الجهد، فأنا أمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، ولكل منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا). وبعد جدال طويل غضب رستم وأقسم ليقضين علينا أجمعين قبل أن يطلع النهار. فقال له الرسول: (مَنْ يُقْتَل منا يدخل الجنة).

«وأرسلت إليه رسلاً آخرين يدعونه إلى ما هو خير لنا وله فأجابهم بمثل جوابه الأول. وفي اليوم التالي جلس رستم على الهيئة التي ذكرتها، واتخذ في إيصال خبر الحرب إلى ملكه يزدجرد طريقة أعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي إن شاء الله، وذلك أنه جعل بينه وبين يزدجرد رجالاً على كل منهم رئيس، أولهم عنده، وآخرهم على باب إيوان يزدجرد في المدائن. فكلما فعل رستم شيئاً قال الذي عنده للذي يليه. كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت. وكنت يا أمير المؤمنين مصاباً بدمامل وعرق النساء فلا أستطيع الجلوس إلا مكباً على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر أشرف على الناس وأرى قتالهم ولكن الله أعاننا بمتة وكرمه، فلما رأينا الفرس يتهيأون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا أربعاً فزحف الجند وتلاحم الجيشان. ووالله يا أمير المؤمنين لقد كنت أرى جند فارس كالسيل وفيهم الأفيال كالأمواج المتلاطمة

وهي تثور فتلقف الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بخفافها، فهالني أمرها فقلت: (يا قوم أما من حيلة لها؟). فرماها بعض المسلمين بالنبل فقتل ركاها وتقدم آخرون فأزاحوا عنها توايبتها فاضطربت حركاتها وفسد نظامها، فجاء المساء وقد قتل من الفرس جند كثير وفي اليوم التالي جاءتنا نجدة أهل الشام التي أرسلها أبو عبيدة فهاجمنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنه نجا. وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهداً وواصلنا العمل في الليل، وكانت ليلة سمينها ليلة الهرير لأن رجالنا لم يكونوا يتكلمون فلم يكن يسمع إلا هريهم فقلنا الجند إلى مكان يأخذ العدو من خلفهم وهم لا يعلمون.

«ولما أصبحنا هاجمنا أعداء الله من كل جانب، ففشلوا واختل نظامهم. ووصل بعض رجالنا إلى سرير رستم وقد أطارت الريح المظلة عنه فاستظل بظل بغل، فقتلوه وقتلوا الجالينوس، فانهزم الفرس شر هزيمة، وتعقبهم رجالنا وغنمنا أسلابهم وانتصرنا نصراً مبيناً ونحن سائرون الآن لفتح المدائن بعون الله تعالى».

فما فرغ القارئ من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير والشكر لله على ذلك الفتح. أما حماد فإنه صبر رغم قلقه حتى تفرق الناس فخرج ومعه سلمان، وقال هذا: «يظهر أن أجل الفرس قريب، وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبت أيديهم من قتل الأبرياء».

فقال حماد: «ولكننا لم نعلم شيئاً عن الأمير عبد الله ولا عن جيلة، ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئاً عنهما؟».

قال: «ربما كان على علم بأمرهما فهلم بنا نستطلعه». وسارا يبحثان عنه فإذا هو خرج إلى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء

وتناول الطعام .

فقال سلمان : «أظن صاحب البريد يحتاج إلى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنه على أن نعود إليه في صباح الغد» .

مضى حماد وسلمان إلى خيمة يستريحان فيها ريثما يتمكنان من مقابلة ساعي البريد واستطلاع خبر جيلة وعبد الله . وفيما هما سائران إلى الخيمة رأيا عجوزاً حذاء عليها سمات الفقر وغبار الأسفار قادمة نحوهما تتوكأ على عكاز ، وقد لقت رأسها بخمار . فظناهما من المتسولات فلم يعبأ بها وظلا في طريقهما حتى دخلا خيمة ليس فيها أحد ، وما لبثا أن جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شقت حجاب الخيمة بعصاها ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان : «ماذا تريدين؟» .

فلم تجبه وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فإذا هي خادمة هند التي لقيها في دمشق ، فخفق قلبه لرؤيتها وشعر بانعطاف نحوها وقد تنسم منها رائحة حبيته فبغت وصاح بها : «ما خبرك وأين هند؟» .

قالت : «تمهل ريثما أستريح فأخبرك الخبر ، وقد جبت البلاد وأنا في هذا الزي أبحث عنك فلم أقف لك على أثر ، وقضيت حول هذه المدينة أياماً لا يخبرني أحد عن مقامك ولا أنا أستطيع المجاهرة باسمك لأن حالنا تدعو إلى الاستتار» . قالت ذلك وهي تبحث عن وسادة تجلس عليها وتنظر إلى الخارج مخافة أن يسمعها أحد ثم جلست وعينا حماد تراعيانها وقد نفذ صبره في استطلاع حال هند فقال لها : «أخبريني عن هند قبل كل شيء هل هي في خير؟» .

قالت : «كن مطمئناً إنها في خير وسلامة لا ترجو إلا لقاءك» . فقال : «أين هي؟» . قالت : «لا أدري أين هي الآن ، ولكنني

أعرف الخطة التي ستسير عليها، فإذا قصصت عليك الحديث من أوله سهل عليك فهم الحقيقة».

قال: «قولي باختصار». ولبت صامتاً مصغياً لما تقوله.

فقالت: «تركنتي في دمشق بجوار كنيسة مريم، فاكتريت بغلة ركبتها حتى أتيت بيت المقدس. وكانت سيدتي هند ووالدتها وسائر أهل القصر مقيمين بدير هذه المدينة، فأنبأتهم بسقوط دمشق فخافوا، ولكنني طمأنت هنداً وأملتها بقرب مجيئك فهان عليها كل عسير ولبثنا ننتظر ذلك اليوم. ولكن سيدي الملك جلة بعث إلينا في اليوم التالي للرحلة سراً، ثم جاء هو وأمر أن نسير على عجل بما خف حمله وغلا ثمنه ولم يجسر أحد من أهله أن يسأله عن جهة المسير، ولولا ذلك لبقيت أنا هناك لأخبرك بمكانهم، فخرجنا وقد أسرت مولاتي هند إلي أنها حالما تعرف المكان الذي سنقيم به تبعث بخبره إليك».

«فسرنا أياماً وليالي ولم نحط رحالنا إلا في المدينة مقام خليفة المسلمين الذين سمعتم الكتاب يتلى بين يديه الآن، وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آنسنا إكراماً وحسن وفادة، وبلغني أن سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الفاتحين. فلما ظننا المقام استقر بنا هناك، رأيت سيدتي أن تبعث إليك بذلك. وقد فاتني أن أخبرك بوفاة ثعلبة أو لعلك سمعت به قبلاً».

قال حماد: «سمعنا بوفاته رحمه الله».

قالت: «ولم نكد نتوسم الراحة حتى جاءنا سيدي الملك والبعثة ظاهرة في وجهه كما فعل يوم خروجنا من هنا، وأمر بالرحيل في الليل، فخفنا خوفاً شديداً، ولكن بعض جيراننا اليهود من أهل المدينة كانوا لنا عوناً في مسيرنا إلى ما وراء أسوارها. وفي اليوم التالي تحققنا أننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هند ارتياحاً إلى هذه

الوجهة على رجاء أن تقرب منك، فقضينا في طريقنا هذه زمناً ونحن نسير ليلاً متكررين ونختبئ نهاراً ولا نقيم إلا في الأديار لأنها خير مبيت أمين أو مقام لأهل النصرانية، وكنا نمكث في بعضها أياماً وأسابيع». قالت ذلك وخفضت صوتها لئلا يسمعها أحد وجعلت تتطلع من باب الخمية خوفاً ممن يتجسس أو يسمع. فقال لها سلمان: «تكلمي لا تجزعي إذ ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءاً ولكن أخفضي صوتك».

قالت: «وآخر مكان أقمنا به هو دير بحيراء، ولا تسل عن حالنا لما أطللنا قبل ذلك على صرح الغدير وبستانه وميدانه، وقد استولى أولئك الحجازيون على المغارس والأبنية التي بناها الملوك الغساسنة منذ أجيال، ورأيت في وجه سيدي الملك علامات الغضب والفشل حتى كادت الدموع تتناثر من عينيه لولا عزة النفس. أما سعدى وهند فقد بكتا، وأظن هنداً إنما بكت لتذكرها أمراً وقع لها في ذلك الصرح. والخلاصة أننا لم نصل إلى دير بحيراء حتى أخذ اليأس من سيدي الملك كل مأخذ لما ذاقه من ذل التنكر في بلاد كانت طوع إشارته لا يمر بها إلا محفوفاً بالجنود والأعوان فتنصب له الأعلام ويحتفل أهلها بقدومه». قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها فتأثر سلمان وحماد بكلامها وعظم عليهما ما آلت إليه الغساسنة، وتصور حماد أن حال ملوك الحيرة ستؤول إلى مثل ذلك فشكر الله في سره لأن سقوطهم سيكون على يد غيره.

وأتمت المرأة حديثها فقالت: «ففي ذات ليلة دعا مولاي الملك سيدي سعدى وهنداً وخلا إليهما في حديث طويل، وفي الصباح التالي دعنتي هند وأسرت إلي أن أبحث عنك في بيت المقدس فما حولها حتى أقف على مكانك وأطمئنك عنها وأخبرك أنهم ساروا إلى

العراق وسيقيمون بدير هند بعيدين عن الشام والبلقاء، لأنهم لا يستطيعون صبراً على ما كان في أيديهم من الملك وقد صار في أيدي الغالين».

فلما سمع حماد اسم دير هند أجفل وقال: «أي دير تعنين؟».

قالت: «دير هند في ضواحي الحيرة».

فنظر إلى سلمان وقال: «أعهد دير هند في الحيرة وليس خارجها فما هذا الدير؟».

فقال سلمان: «إن في الحيرة ديرين يُنسبان إلى هند أحدهما وهو الأصغر في الحيرة والآخر في ظاهرها، أما الأول فقد سُمي باسم أختك هند، بَنَتْه لما قبض كسرى على المرحوم الملك النعمان في أوائل حكمه وحبسه قبل أن تولد أنت بأعوام، فنذرت شقيقتك هند إن رده الله إلى ملكه أن تبني ديراً وتسكنه حتى تموت فلما أطلق سبيله مكثت في ذلك الدير».

وأما الدير الأكبر وهو ما يسمونه بدير هند الكبرى فقد بَنَتْه هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي بظاهر الحيرة وهي من كندة وليست من لحم، والدير كبير أذكر أني زرته غير مرة وكان رهبانه يترددون على منزل الأمير عبد الله للمداولة في شؤون تتعلق بأملك له هناك، ويؤم هذا الدير أناس من جهات العراق وغيره يقيمون به أياماً وفيه ما يحتاجون إليه من الزاد ونحوه».

فنظر حماد إلى المرأة وقال: «هل تظنين هنداً في ذلك الدير الآن؟».

قالت: «لعلها لا تزال هناك لأنها أوصتني بما تقدم منذ بضعة

أسابيع قضيتها في البحث عنك. ولكن مولاتي سعدى أسرت إليّ بعد خروجي من بين يدي هند أن مولاي الملك جيلة إنما يريد الشخصوص إلى القسطنطينية ليقيم بقرب امبراطوره هرقل معزراً مكرماً، وإنه سيجعل طريقه في الفرات ومنه براً في البلاد التي لم يصل سيف المسلمين إليها. أما سواحل الشام فإنها في أيديهم فلا يخلو المرور بها من الخطر. وذكرت لي أنها أقنعت به بأن يقيم بدير هند حيناً ليرى ما يكون من حال جند العراق. فإذا طال غيابي عنهم فأظنهم يقصدون القسطنطينية، وذاك آخر مكان يقصدونه فافعل ما يبدو لك».

فلما سمع حماد ختام الحديث انقبضت نفسه مخافة أن يقصد العراق فيذهب سعيه عبثاً، وأدرك سلمان فيه ذلك فقال له: «ألا ترى يا مولاي أننا بمسيرنا إلى العراق نرمي حجراً فنصيب صيدين، ألم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الأمير عبد الله في العراق فمسيرنا إلى هناك يجمعنا به ويهند إن شاء الله».

فقال حماد: «ألم تسمع ما تلي علينا اليوم من خبر وقعة القادسية وهي بالقرب من الحيرة؟».

قال سلمان: «إن الحيرة يا مولاي دخلت في صلح مع المسلمين منذ أعوام وكنت شاهداً صلحها بنفسي، وزد على ذلك ما نعلمه من صيانة الأديار عند المسلمين».

فالتفت إلى الخادم: «وهل تعرف الطريق إلى الحيرة؟». قال: «نعم».

قالت: «لا أظنني أستطيع المسير معكما لما أنتما فيه من الاستعجال، ولكنني أتبعكما في طريق آخر أو أبقى بدير بحيراء أنتظر خبراً من عندكم».

— ٣٠ —

في دير هند الكبرى

كان دير هند الكبرى الذي أنشأته هند بنت الحارث الكندية بناءً واسعاً شيد بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعد على بحيرة كانت هناك، وفي الحديقة أنواع الرياحين والأزهار، وحولها كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة.

وكان فيه منازل للأضياف ينزل فيها الغرباء من المارة يقيمون أياماً ثم ينصرفون. ورئيس الدير راهب شيخ سرياني أصله من ساباط. وقد جاء جند المسلمين العراق وجرى لهم كثير من الوقائع والدير في مأمن لم يُصب بسوء وأهله آمنون.

وقد نُقش على باب الدير بالسريانية «بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده، في مُلك مَلِك الأملاك خسروا أنوشروان، في زمان مار أفرام، فالإله الذي بنت هند له هذا الدير يغفر خطيئتها، ويترحم عليها وعلى والدها، ويقبل بقومها إلى أمانة الحق، ويكون الله معها ومع والدها الدهر الداهر».

ففي ذات ليلة بعد انقضاء وقعة القادسية وسكون الناس إلى الراحة، سمع أهل الدير قرع الأجراس، وهي أجراس تعلق ببنيان بعض الأديار حتى إذا مرَّ غريب دقها فيفتحون له فيبيت هناك يتناول الطعام أو نحوه. فلما سمعها خدام الدير هرول بعضهم إلى الباب وكان ثقبلاً مصفحاً بالحديد وفيه المسامير الضخمة، فأطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركباً على أفراس ومعهم الخدم والأمتعة، فنزل إلى الباب ففتحه ورحب بالقادمين، وأسرع إلى قيّم الدير يخبره بقدوم ركب كبير، فدخلوا وفيهم المشاة والفرسان فلما وصلوا إلى ساحة

الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض المشاة فأمسكوا بأزمة الخيل ووقفوا جانباً لا يفوّه أحد منهم بكلمة . فلما ترجلوا جميعاً تقدم واحد منهم وهو لا يزال ملثماً حتى دنا من قيّم الدير فهمس في أذنه هذا وسار الكل وراءه إلى غرفة باتوا بها ليلتهم وأهل الدير يتساءلون عمن عسى أن يكون هؤلاء الناس المتنكرون، ولكنهم عرفوا من قيافتهم وسروج أفراسهم أنهم من أهل الشام، وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم أنهم بعض كبار الغساسنة، وكان هذا هو الواقع، فهؤلاء اللاجئون إلى الدير مستترين فيه، لم يكونوا غير جبلة وأهليه .

أما حماد وسلمان فلما عزما على العراق سارا لوداع أبي عبيدة فإذا هو يتأهب لوداع الإمام عمر وقد هَمَّ بالرجوع إلى المدينة، فوقفا ريثما ودعه فامتطى عمر وركب معه بعض الأمراء وودع الناس وتحول نحو المدينة، وسلمان وحماد ينظران إليه ويُعجبان بما أوتي من رفعة المنزلة مع رغبته في الزهد والاقتصار على بسائط الأشياء .

ولما توارى الإمام عاد الأمراء إلى معسكرهم وفي مقدمتهم أبو عبيدة فانتظر حماد وسلمان ريثما خلا إلى نفسه فسارا إليه واستأذناه في الانصراف، فقال: «إلى أين؟» .

فقال حماد: «إننا سائرون إلى العراق عسى أن نلتقي بأبي فقد طالت غيبته» .

قال: «ثقوا بسلامته وصحته فإنه مقيم على الرحب والسعة، وهل سمعتم خبراً عن جبلة؟» .

قال: «لم نسمع خبراً بعد ولعلنا نعرف عنه شيئاً» .

قال ذلك لما يعلم من أن أبا عبيدة إذا علم بمكانه بعث من يقبض عليه عملاً بإرادة الإمام عمر .

فقال أبو عبيدة: «أظنكما تعثران عليه في العراق، فقد سمعت من بعض الناس أنه سار إلى هناك وربما أقام بدير هند الكبرى خارج الحيرة».

فلما سمع حماد ذلك أجفل ولكنه تجلد وتجاهل وقال: «سنبحث عنه جهد الاستطاعة، وهل تظن عليه بأساً إذا عرف مكانه».

قال: «إن أمير المؤمنين كتب إلى عماله في الشام وفلسطين والعراق كافة أن يقبضوا على الرجل حيثما وجدوه لأنه أسلم ثم ارتدّ وخرج من المدينة فارّاً».

فارتاح حماد لأنه لم يبح بمكان جيلة، ولكنه خاف عليه من الرقباء ومال إلى العجلة في المسير إلى العراق، فاستأذن أبا عبيدة وودعه هو وسلمان ثم سارا إلى خالد وغيره من الأمراء فودّعهما وخرجا يتأهبان للرحيل.

وبعد بضعة أيام حمل حماد وسلمان ما استطاعا حمله من المتاع وخرجا من بيت المقدس، وفي أثناء الطريق قال حماد: «لا نظننا إذ أتينا العراق عائدين إلى هذه البلاد فلنأخذ أمتعتنا التي تركناها في بصرى ولا سيما الدرع فإنها كنز ثمين عندي وقد أحتاج إليها في دفاع أو هجوم. فمرا ببصرى فنزلا البيت وحملا منه ما طاب لهما مر خفيف الحمل وغالي الثمن، وخرجا إلى دير بحيراء ودخلا الصومع وقبلأ أيقوناتهما، فتذكر حماد أياماً مرت به هناك فهاجت أشجانه وتاقت نفسه إلى العراق لملاقاة حبيبته قبل أن يصيبها سوء، ولقيا في دير بحيراء خادمة هند فسألاها عن حالها فذكرت أنها ستسير في أثرهم مع قافلة من قوافل العراق».

أما هما فاصطحبا خادماً أو دليلاً يسوس الخيل ويدلّهما على

الطريق، وسارا وهما تارة يمران بغياض وطوراً برمال وآونة بجبال وأودية وتارة بصخور وعرة. وكانت أكثر البقاع مشقة عليهما صحراء الشام وفيها بقايا مدينة تدمر العظمى. وبعد بضعة عشر يوماً أطلا على وادي الفرات من أكمة مرتفعة، فإذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات، وفيها القنوات والبحيرات بينها المغارس والبساتين والمزارع. وكان وصولهم إلى هناك قبل الغروب فوقفا والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك التل. أما حماد فوقف على متن جواده والتفت إلى تلك السهول الخصبة وما يتخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد وشجر النخل كأنه جند واقف للإلقاء التحية، فتذكر ملك أبيه النعمان وقال في نفسه: «هذه هي البلاد التي كان يحكمها أبي». وممرت بذاكرته خيالات جمّة أكثرها مخيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فتزيل المخاوف، على أنه ما لبث أن تصورها في حال الضيق فعاد إلى قلقه.

أما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة وإعداد معدات الراحة، فلما فرغ من ذلك جاء إلى سيده وطلب إليه أن يترجّل فساق الخادم الفرس ووقف حماد وسلمان ينظران معاً إلى وادي الفرات. فقال حماد: «وأين موقع الحيرة يا سلمان؟».

قال: «إن الحيرة أول مدينة تستقبلك قبل وصولك إلى الفرات وأظننا نشرف عليها غداً وبينها وبين القادسية بضعة عشر يوماً. ثم جلسا للعشاء وانصرفا بعده للرقاد لأن التعب أخذ منهما مأخذاً عظيماً. وفي الصباح التالي بكّرا وركبا وحماد لا يصدق أنه يُشرف على الحيرة ويرى دير هند ولو عن بُعد. وبعد ظهيرة ذلك اليوم أشرفا على بحيرة كبيرة ظنها حماد حين رآها لأول وهلة بحراً فقال: «ما هذا يا سلمان؟». قال: «هذه بحيرة النجف يا مولاي،

وعلى ضفافها جرت وقعة القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر أبي عبيدة. ووراء هذه البحيرة شمالاً مدينة الحيرة مقام المناذرة أجدادك، ووراء الحيرة شرقاً نهر الفرات. وأما دير هند فهو خارج الحيرة وربما أطللنا عليه بعد قليل. ولا يُخفى عليك أن معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في ضواحي الحيرة هي من أملاك الأمير عبد الله، ولا ندري ماذا جرى فيها بعد وقعة القادسية، وإذا كان مولاي الأمير ممن شهدوا الوقعة فأظنه تدبر في حفظها وحمايتها».

فقال حماد: «ألا ترى إذا أطللنا على الحيرة الآن أن نبني ليلتنا في الدير».

قال: «لا أظننا نستطيع والمسافة بعيدة ولا ندري بما هنالك من العقبات فقد بنيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسير إلى الدير». قال: «حسناً».

وفي الغروب ظهرت لهما الحيرة بأبنيتها ولكن الظلام غشيها قبل أن يتبيناهما فباتا تلك الليلة وأصبحا وحماد لم ينم إلا قليلاً لشدة قلقه وتشوقه فكان كلما تصور ملاقة هند اختلج قلبه، فوصلا إلى ضواحي الحيرة عند الظهيرة وأطلا على دير هند، فلما رآه حماد تذكر أنه يعرفه من قبل ولكنه لم يدخله، فمشيا بين الكروم ومغارس الفاكهة والزيتون وسلمان يدله على ما يملكه الأمير عبد الله منها، وحماد يزيد استئناساً ولكنه ما زال مشغولاً بهند. ثم وصلوا إلى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة وحولها الأشجار يانعة يمر بها النسيم اللطيف فتسمع لأوراقها حفيفاً يطرب السمع بما يمازجه من خرير الماء الجاري فوق الحصباء، فاقترح سلمان على حماد أن يستريحا هناك ويتناولوا الغداء ويدخلا الدير في الأصيل.

فقال حماد: «لا صبر لي على ذلك، كيف نكون بقرب الدير ولا

نسرع إليه؟».

قال سلمان: «أرى والأمر لمولاي أن تستريح أنت هنا والخادم يدبر لك الطعام، وأذهب أنا إلى الدير أبحث عن هند وأعود إليك بالخبر».

قال: «لا أراني قادراً على ذلك، ولا بد لي من المسير معك، فلنترك أحمالنا تحت هذه الشجرة ونذهب إلى الدير».

قال: «افعل ما بدا لك». فشربا وغسلا أيديهما ووجهيهما من الغبار وهما بالمسير.

سار حماد وسلمان بين الأشجار، والشمس فوق الرؤوس فلم يغنهما ظل الأغصان إلا قليلاً، حتى انتهيا إلى باب الدير وحماد قد نفذ صبره. وكان سلمان عارفاً الجرس المعلق هناك فجذب الحبل ودق الجرس فدق قلب حماد معه، ثم وقفا برهة لم يفتح لهما أحد، فأعاد سلمان الدق، وبعد قليل أطل من فوق الباب راهب وقال مستفهماً: «مَن أنتم؟». قال سلمان: «زوار للدير».

قال: «من أين أنتم قادمون؟». قال: «من جهات الشام». فقال الراهب بلهجة النفور: «لا محل للزيارة عندنا». وتحول إلى داخل الدير فناداه سلمان فلم يجب فكلمه بلسان أهل الحيرة فعاد الراهب وقد تذكر أنه يعرف ذلك الصوت فأطل ثانية من أعلى الباب وقال: «مَن أنتم؟».

قال سلمان: «لسنا من أهل الشام وإنما نحن عراقيون مثلكم افتحوا لنا». فتفرس الراهب في وجه سلمان برهة ثم جذب سلسلة مشدودة بالنافذة ففتح الباب، فدخل حماد وسلمان وفرساهما وراءهما، فأخذ الراهب يرحب بهما وينظر إلى سلمان لعله يعرفه».

فقال له سلمان: «أتعرف هذا الشاب يا حضرة الأب؟». وأشار إلى حماد.

فالتفت إليه وقال: «أليس هو الأمير حماد ابن الأمير عبد الله؟».

قال: «بلى فهل رأيت الأمير عبد الله؟».

قال: «رأيت مراراً وهو الآن مع جند المسلمين في خير، ولولاه لأصابنا ضنك وربما قتلنا فقد كان لنا عوناً بورك فيه ومرحباً بابنه».

وما زالوا سائرين حتى أتوا دار الضيافة وحماد ينظر يمنة ويسرة وقد شاعت عيناه لعله يرى شيئاً يتنسم منه رائحة هند فلم يرَ إلا رهباناً وفعلة، فدخلوا دار الضيافة وتناول بعض الخدم الفرسين فساقوهما إلى الاسطبل وبعثوا من يدعو الخادم ليأتي بالأحمال.

أما حماد فتعاضم قلقه ولم يعد يستطيع صبراً، فأدرك سلمان فيه ذلك فابتدر الراهب بالاستفهام عما منعه من فتح الباب لهما أول الأمر، وماذا يخافونه من أهل الشام، فقال الراهب: «نلتمس من الأمير حماد عذراً، فقد وقعنا منذ أيام في ورطة بسبب أضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام».

فقال سلمان: «ومنهم أولئك الأضياف؟».

قال: «جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهراً ونحن نحسبهم من أعيان الشام ثم عرفنا أنهم جبلة بن الأيهم وامراته وابنته وبعض خدمه».

فلما سمع حماد ذكر جبلة وأهله خفق قلبه وخاف أن يسمع خبراً يسوؤه، وقد عودته حوادث الأيام أن يتشاءم فأصاخ بسمعه ليرى ما تم لهم واكتفى بإصغائه حثاً للراهب على إتمام حديثه. وكان

بعض الرهبان قد جاؤوا بالمواعين فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم يلتفت أحد منهما إليها وظلا مصغيين، فقال الراهب: «أقام الملك جبلة بيننا أياماً على الرحب والسعة ونحن لا نحسبه إلا من بعض أمراء الشام، على أننا كنا نعجب لاحتجابه في الدير واحتباسه عن العيون في حين تدل هيئة خيوله ومعداته على أنه محب للصيد والفروسية. ولكن الأمر انكشف لنا بغتة فجاءنا جماعة من جند المسلمين عصر أحد الأيام وفيهم الفرسان والمشاة، وقرعوا الباب ففتحنا لهم غير هائبين لما نعلمه من العهود التي قطعوها للمحافظة على الأديار والكنائس. فخرج الرئيس لاستقبالهم فقالوا: (لا خوف عليكم ولكن عندكم عدوٌّ فرّ منا في حرب الشام، وكان قد أسلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليه وسوقه إلى الأمير سعد بن مالك).

»فسأله الرئيس عن ذلك العدو فقال: (إنه جبلة بن الأيهم ملك غسان). وكان جبلة قد رأى الرجال وعلم أنهم قادمون للقبض عليه، ولو كان وحده لتمكن من الفرار ولكنه لم يجد إليه سبيلاً. فقبضوا عليه وساقوه معهم ولم يمهلهو ريثما يلتفت وراءه».

فقطع سلمان الحديث قائلاً: «هل أخذوه وحده».

قال: «ساقوا معه امرأته والخدم».

فقال حماد: «وماذا جرى لابنته؟». قال ذلك وهو مضطرب

الحواس.

فقال الراهب: «أما ابنته هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة دير هند الصغرى في الحيرة على أن تقضي نهارها هناك وتعود في المساء. فلما جاءت في المساء أخبرناها بما كان فأجفلت ولطمت خديها وندبت أباهاً ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أخرى حتى قاربت الشمس الزوال ونحن نخفف عنها، ثم سألتنا

عما قاله أبوها قبل ذهابه، فأجبنا بأنه لم يجد وقتاً ليقول شيئاً، فأسرعت إلى جواد لها كان باقياً هنا فركبته وتزملت بعباءة من الحرير المزركش وانطلقت في الجهة التي ساروا فيها، ثم لم نعد نعلم عنها شيئاً».

وما أتم الراهب كلامه حتى انقبضت نفس حماد واتقدت الغيرة في قلبه وتولاه اليأس، فلبث صامتاً كأنه أصيب بصدمة ثم التفت إلى سلمان فإذا هو صامت لا يفكر.

ثم قال سلمان: «وهل سمعتم عنهم شيئاً بعد ذلك؟». قال: «سمعنا أخباراً متضاربة فمن قائل: (إن سعداً أمير جند المسلمين قتلهم). ومن قائل بأنهم قتلوا قبل وصولهم إليه، وقائل بأنهم لا يزالون أحياء».

فازداد اضطراب قلب حماد وهمّ بالنهوض فأقعه سلمان وقال للراهب متجاهلاً: «وماذا سمعتم عن ابنته المسكينة؟».

قال: «لم نسمع شيئاً عنها منذ خروجها ولعلها اقتصت آثارهم إلى معسكر المسلمين».

فلم يعد يستطيع صبراً فنهض إلى جواده وتبعه سلمان. وكان خادم حماد قد وصل إلى الدير بما معه من الأمتعة، فأودعها إحدى الغرف ولحق بهما.

فقال سلمان: «أرى أن نقصد معسكر المسلمين وندخل على سعد بن مالك أميرهم فنسأله عن مولاي الأمير عبد الله، وهو عنده من كبار المشيرين كما تعلم، فإذا لقيناه أعاننا في البحث عن جيلة وأهله، وإذا كان جيلة لا يزال حياً وسطنا الأمير عبد الله في العفو عنه».

فقال: «نعم الرأي رأيك، ولكن أين نجد هنداً؟».

قال: «لعلها معهم، وهب أن أباهما قتل فهي لا تُقتل لأن المسلمين لا يؤذون النساء، فعسى أن نجدها عندهم، وأن يكون سيدي الأمير عبد الله قد رآها أو عرف مقرها».

ثم تجلدا ودخلا على رئيس الدير وكان قد عرف قدومهما، فرحب بهما وقبّل حماداً وأمر لهما بمائدة، فقالا: «لا نستطيع طعاماً لأننا خارجان للبحث عن الأمير عبد الله في معسكر المسلمين، فأين معسكرهم؟».

قال: «إن المسلمين معسكرون الآن تجاه المدائن في بهر شير، وأظنكم تعرفونها وهي القسم الغربي من المدائن. فقد نزلها المسلمون وحاصروها ورموها بالنبال والمجانيق حتى فُتحت، فاحتلوها وهم عاملون على فتح القسم الآخر من المدائن».

فقال سلمان: «إني أعرف بهر شير جيداً وهي قريبة».

— ٣١ —

فتح المدائن

ودّع حماد وسلمان رئيس الدير، ونزلا إلى الغرفة التي وضعت بها الأمتعة، فلبس حماد درعه ورداء النعمان وجعل خاتمه بين أثوابه، وكان سلمان ينظر إليه فسأله عن سبب لبسه ذلك الرداء فتنهد وقال: «ألسنا ذاهبين إلى المدينة التي قُتل فيها أبي النعمان؟ ولقد آن الوقت الذي يجب علي أن أنتقم فيه لأبي، وهؤلاء جنود المسلمين على أبواب المدائن، فسأقاتل حتى أدخل الإيوان بنفسي فأقتل كسرى بيدي فإذا قُتلت قبل ذلك فما أنا خير من هند ولا عيش لي بعدها».

ولبث سلمان صامتاً لا يدري ما يقول. ثم قال: «ألا ترى يا مولاي أن نتنكر بزي المسلمين لثلاثي يستغشنا أحد وسط المعركة

فيحسبنا من الفرس أو من عرب الحيرة أحلافهم».

قال: «لقد رأيت حسناً». وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الأثواب لما كان يحتاج إليه من التنكر، فأخرج ثوبين لبسهما واعتم كل منهما بعمامة أهل الحجاز.

ثم ركبا وأطلقا الأعنة للجوادين وأفكارهما سابحة فيما سمعاه وهما لا يتكلمان. فأمسى عليهما المساء وراء الحيرة فباتا في دير هناك، وأصبحا راكبين فمرا بجيف بعضها رمم خيول وجمال وبعضها جثث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الضخمة التي لم تقدر على قضمها النسور. فتذكروا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس. ثم قطعوا الفرات على جسر من السفن. وفي اليوم التالي أشرفا على المدائن وقصورها، ثم همزا الجوادين حتى وصلا بهر شير فإذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر، فسألوا عن سعد بن مالك ف قيل لهما: «إنه يخوض النهر بجيشه لفتح المدائن والمسلمون يقتفون أثره». فبحثا عن الأمير عبد الله فلم يبنتهما بخبره أحد، فصعدا إلى أكمة أشرفا منها على المدائن والنهر، فرأيا المسلمين يقطعونه على جيادهم والرماح مشرعة في أيديهم، وبعضهم قد بلغوا الضفة الأخرى يحملون الأعلام. ونظرا إلى المدائن فإذا ببعض حاميتها قد خرجوا من الأسوار بأفيالهم وأفراسهم وأعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين، وقد علا الضجيج حتى صمّت المسامع، وتساعد الغبار حتى حجب السماء. فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملوك في عروقه وثار الحمية في رأسه، ونظر سلمان إليه فرآه قد احمرت عيناه وهو يتفرس في ساحة القتال كأنه يهم بالوثوب إليها فقال له: «ما بال مولاي مشغولاً؟».

فنظر حماد إليه وقال: «أراني يا سلمان راغباً في نزول هذه

الساحة فقد حلت ساعة الانتقام لأبي».

وما أتم حماد كلامه حتى ارتعشت أنامله وثار عواطفه ولم يتمالك عن همز جواده نحو النهر حتى بلغه فخاضه وسلمان في أثره على جواده حتى أتيا الضفة الأخرى فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا المدائن في أثرهم وأوغلوا فيها وحماد في جملتهم، حتى أتوا إيوان كسرى فدخلوا حديقته وخيولهم تدوس الأزهار والرياحين، ورماحهم تخترق أغصان الليمون والأزدرخت، فلما وصلوا إلى باب الإيوان كان حماد أول داخل وقد اعتزم أن يقتل كسرى بيده. والإيوان قاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون، مبنية بالآجر والجص، وسقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش، وفي صدر الإيوان عرش يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام، وإلى جانبي العرش مجالس الأعوان والوزراء من المرازبة والكهنة، وجدران الإيوان وسقفه مزينة بالرسوم وبينها رسوم لكسرى أنوشروان وغيره من الأكاسرة العظام، وأبيات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكلداني، وفي سقف الإيوان رسوم الأفلاك والأجرام.

فلما رأى حماد نفسه وسط الإيوان ووقع نظره على ذلك العرش أسرع نحوه وهو يحسب كسرى جالسا عليه فإذا هو خال وليس في المكان أحد من الفرس لفرارهم جميعاً إلى حلوان. ولم تمض لحظات حتى امتلأ الإيوان بالمسلمين وقد أخذوا في تكسير التماثيل وتمزيق الصور، وكان الفرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خفّ حمله وغلا ثمنه وبقي بعد ذلك مما لا تقدر قيمته من الذهب والحجارة الكريمة والثياب المزركشة والأسلحة المذهبة.

فلما تحقق حماد سقوط المدائن، أخذ يبحث عن الأمير عبد الله

فلم يره بين المهاجرين، فانشغل باله وكان سلمان أكثر قلقاً على عبد الله، فقال حماد: «لا تبعد أنت عن هذا الإيوان فإني ذاهب إلى سعد بن مالك أمير هذا الجند لعلني أسمع منه خبراً عن مولاي الأمير».

قال: «حسناً». وبقي حماد بين الجند حتى عاد سلمان فقال له حماد، «ما وراءك؟». قال: «لقيت بعض حاشية سعد بن مالك وسألتهم عن الأمير عبد الله فقالوا إنه كان معهم ولكنه خرج من المعسكر أول من أمس ولم يعد».

فقال: «هل سألتهم عن جيلة؟».

قال: «سألتهم فقالوا إن سعداً أمر بقتله منذ قبض عليه».

فقال: «هل كانت هند معه عند قتله وماذا جرى لها؟».

قال: «علمت أنها لم تكن معه، وإن جيلة سيق أسيراً ومعه امرأته فقط، وعلى كل حال لا نظننا نبتين الحقيقة إلا من سيدي الأمير عبد الله».

وتركا المدينة والمسلمون يحسبونهما من جملة جندهم لما تنكرا به من الزي الحجازي، حتى إذا صارا خارج المدائن قال حماد: «أخاف أن يكون الأمير عبد الله قد لقي حتفه أيضاً».

قال: «لا أظن ذلك، لأنه لم يكن في المعركة. وقد علمنا أنه كان في المعسكر قبل الهجوم فلعله التجأ إلى مزرعة له على بضعة أميال منا فلنذهب إليها لعلنا نقف على خبره من بعض الفلاحين هناك».

قال حماد: «سر أنت في هذه المهمة ودعني أعد إلى الحيرة لأجدد البحث عن هند، فلعل أحداً من أهل الدير ينبئني بخبرها».

ولنضرب موعداً نلتقي فيه في موضع نعينه».

قال: «حسناً، أرى أن نلتقي في دير هند الصغرى في الحيرة بعد ثلاثة أيام فمن استطاع خبراً قصّه على الآخر». وافترقا.

أطلق حماد لجواده العنان حتى عاد إلى النهر فخاضه وسار قاصداً دير هند الكبرى، وبات ليلته في الطريق، ثم نزل بالدير في أصل اليوم التالي، وقد فتحوه له وهم يحسبونه مسلماً لتنكره بلباس الحجازيين ولبثوا ينتظرون ما يبغيه فلم يكلمهم وقصد غرفة الرئيس، فاستقبله هذا أحسن استقبال وبالغ في إكرامه.

وأطلعته حماد على حقيقة أمره، وقصّ عليه خبر المدائن وفتحها فشكر الله وقال: «لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منذ أشهر لأنه سبحانه وتعالى لا يبقّي على عبدة النار فإن هؤلاء الفاتحين - وإن لم يكونوا نصارى - يعبدون الله ويوحدونه ويؤمنون بالأنبياء والرسل ويذكرون عيسى ومريم بالخير، ففي انتصارهم نصرة للدين القويم».

ولم يكن هذا الحديث ليهم حماداً ولكنه صبر حتى فرغ الرئيس من كلامه فقال له: «هل سمعتم شيئاً عن جبلة بعد ذهابي؟».

قال: «لم نسمع عنه شيئاً، ولكننا سمعنا خبراً عن ابنته».

قال: «وماذا سمعتم عنها؟».

قال: «إن بعض رهباننا يقصدون سوق الحيرة مرتين في الأسبوع ليستبدلوا بما يفضل عندنا من غلات أرضنا ما نحتاج إليه من الأنسجة أو الآنية ونحوها، فاتفق للذين ذهبوا إلى هناك على أثر خروج جبلة وأهله أنهم رأوا هنداً في بعض طرق الحيرة، على أنهم اختلفوا في أمرها».

فلما سمع حماد ذلك تحيّر في أمره، ومال للمسير إلى الحيرة

ليتفقد هند بنفسه ، فتظاهر بالاكتماء بما سمعه وهَمَّ بالنهوض ، فدعاه رئيس الدير للمبيت عندهم فاعتذر بما يدعوه إلى سرعة المسير ، وودعه وخرج قاصداً الحيرة والشمس قد مالت إلى المغيب .

ولم يكد يتوارى عن الدير حتى أشرف على الحيرة ورأى غديرها المتصل بالبحيرة ، وقد غابت الشمس وأخذت الكواكب في الظهور ، فأظلمت الدنيا في عينيه والتفت فإذا هو على ميل وبعض الميل من المدينة ، ثم اشتد الظلام ولم يعد يرى الطريق ، حتى تبين له نور بعيد مزدوج عرف من خفقاته أنه وقود عند الشاطئ انعكس نوره في الماء فظهر مزدوجاً فقصده ، وقبل أن يصل إليه سمع صوتاً يناديه بلغة أهل العراق : «مَنْ أَنْتَ؟» .

فقال : «غريب لا أعرف الطريق ، وَمَنْ أَنْتَ؟» .

فقال : «يا أهلاً بالضيف يا أهلاً بالفارس» .

ثم رأى حماد الرجل قادماً وبيده خشبة مشتعلة يستضيء بها فتفرس فيه فإذا هو شيخ طاعن في السن قد استرسلت لحيته وشاب شعره ولكنه لا يزال في نشاط الشباب ، وعليه عباءة خرقة ، وبيده عصا كبيرة ، فعرف حماد أنه راع ، على أنه ما لبث أن سمع معاء الماعز فتحقق ظنه ولكنه لم ير هناك بناء ولا خيمة فترجل وسلم والراعي يتفرس فيه وينظر تارة إلى وجهه وطوراً إلى لباسه ، وكأنه يُعجب من لباسه الحجازي وكلامه العراقي . ثم أخذ الراعي جواد حماد فقاده بعناية ، ومشى حماد في أثره وهما لا يسمعان صوتاً غير معاء الماعز ونقيق الضفادع ، حتى انتهيا إلى كوخ صغير مبني من سعف النخل ، ربض عند بابه كلب كبير الجثة ، وقد ظل رابضاً هادئاً كأنه أدرك أن النازل ضيف لا خوف منه على القطيع .

وجاء الراعي بفرو من جلد الماعز جلس عليه حماد ، ثم ذهب

بالجواد إلى عمود وراء الكوخ فشدّه إليه، وأخذ في نزع السرج. وفيما هو يفعل ذلك سمعه حماد يتمتم ويقول أقوالاً لم يفهمها، فناداه فلم يجبه، فأعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بيده فنظر حماد إليه فإذا هو يتسم فبانت لثته ولم يبق فيها إلا سن بارزة إلى الأعلى.

فقال له حماد: «ما يضحكك يا أخا لحم؟».

قال: «أضحكني ما رأيته في عدة هذا الجواد مما يشبه عدة جواد تعودت أن أراه كل ليلة من ليالي الأسبوع الماضي يركبه فارس قد أعجبني فيه ما أعجبني فيك».

قال: «من هو ذلك الفارس؟ وما الذي أعجبك فينا؟».

قال: «لقد أعجبني فيكما التندر فإن ذاك كان يأتيني في كل صباح ملثماً وعليه عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليه رداء الرجال. وأنت جئتني بلباس الحجاز وكلام العراق فلا أدري هل تغيرت الأرض واختلط الناس أم ماذا حدث؟».

فتذكر حماد هنداً وما سمعه وما تزلّمها بالعباءة بعد خروجها من الدير، فاستأنس بحديث الرجل وهَمَّ باستيضاحه الأمر فإذا هو قد تركه وتحول نحو الحظيرة ذاكراً أنه سيعود على عجل، فلبث حماد كأنه على الجمر حتى عاد الراعي وفي يده قطعة من الخشب قد أكمَدَ لونها من توالي السنين على استخدامها بلا غسيل وفيها لبن جلبه من ماعزه وقدمه له ليشرب.

فاعتذر حماد بأنه لا يحتاج إلى طعام. فقال الشيخ: «لقد نزلت ضعيفاً فما عليك إلا أن تتناول الطعام وإذا كنت ملأً الجوف فتمهل ريثما آتيك ببعض الخمر». قال ذلك وتحول نحو الكوخ وعاد بقصعة فيها خمر فقدمها لحماد وهو يقول: «إليك هذه الخمر، فإنها من غلة كرمننا هذا العام». فتناول حماد القصعة لا رغبة في الشرب ولكنه

خاف إذا اعتذر أن يأتيه الشيخ بشيء آخر.

ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب يلعب ناصيته بين أصابعه وهو ينظر إلى حماد. فابتدرة حماد قائلاً: «ذكرت لي الفارس المتنكر ولم تتم حديثك».

قال: «هذا هو كل حديثي عنه فإنه أتاني منذ بضعة عشر يوماً فأوقف جواده عند هذا الكوخ وطلب مني الذهاب إلى دير هند لأستفهم له عن أناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير أم لا. وكنت إذا نظرت إليه رأيته فارساً ملثماً، فإذا تكلم خلته امرأة. فسألته أن يحسر اللثام عن وجهه فأبى ودفع إلي ديناراً، فأطعت أمره ووعدته بالجواب في المساء فعاد في المساء وهو يظنني ذهبت لإنفاذ مهمته ولم يدر أني لا أستطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من أعهد في أمرها إليه. فلما سألني أجبته بأني سألت أهل الدير فقالوا إنه لم يأتهم أحد. وما زال يكرر زيارته ويدفع الدنانير وأنا أجيبه جواباً متشابهاً حتى جاء منذ بضعة أيام واستحلفني بدر الماشية والسيدة مريم أن آتيه بالخبر اليقين، فسرت إلى الدير فعلمت أنه لم يأتهم أحد، وأنهم لا يقبلون أحداً من أهل الشام. فلما أخبرت الفارس بذلك غضب وتمتم، ثم تحوّل عني ولم أعد أراه منذ ذلك اليوم، فندمت لإخلاص الخدمة وإنفاذ المهمة بالصدق. فلما رأيته وأنست المشابهة بينكما ضحكت وعولت على ألا أصدق في خدمتك».

فلما سمع حماد ذلك تحقق أن السائل هند بعينها فقال للشيخ: «ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس؟».

فلما أبطأ الشيخ في الجواب، مدّ حماد يديه وأخرج دينارين دفعهما إليه فتناولهما الشيخ وهو يتفرس فيهما ويضحك ثم قال: «أما إذا شئت أن أصدقك الخبر فاعلم أن الفارس سار محاذياً هذا

الشاطيء».

وأخذ الشيخ بعدما آنس من بذل حماد يبالح في إكرامه، ويقدم له الخمر واللبن، فلما رآه لا يشرب شيئاً وقد مضى بعض الليل دعاه للرقاد في الكوخ فقال حماد: «لا أحتاج إلى رقاد».

فقال: «إذا كنت تحتقر كوخي وقد تعودت النوم على الأسرة، فأني معد لك فراش من الحرير. ودخل الكوخ ثم عاد وفي يده ملاءة فرشها له، فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عنده ففترس فيها فإذا هي عباءة مزركشة فأجفل لرؤيتها ومدّ يده فتناولها ونظر إليها في ضوء القمر فإذا عباءة هند، وكان كثيراً ما يراها عليها إذا ركبت فصاح في الرجل: «من أين لك هذه العباءة؟». فضحك الراعي ضحكة يمازجها خوف، ثم أشار إلى كلبه وقال: «إنها من صيد هذا الكلب».

قال: «وكيف كان ذلك؟».

قال: «افتقدته ذات صباح فلم أجده، وكان قد تعود الغياب في بعض الأيام، ثم ما لبث أن عاد وفي فمه هذا الرداء يجره وراءه». تحقّق حماد أن العباءة التي جاء بها كلب الراعي هي عباءة هند، فخاف أن يكون هناك سبب محزن فخفق قلبه وتشاءم وحدثته نفسه بأن يتبع الشاطيء لعله يقف على أثر آخر، ثم تردد مخافة أن يضل عن الطريق والوقت ليل، فحاول الانتظار إلى الصباح ولكنه نظر إلى السماء وتأمل مواضع الأبراج فعلم أنه في نصف الليل فاستبعد الأجل. وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فأثار البحيرة وشاطئها وأبنية الحيرة. وفي أول تلك الأبنية قصر الخورنق الشهير فعول على مغافلة الراعي والمسير على الشاطيء، فتظاهر بالضجر والقلق وقال له: «أراني لا أستطيع رقاداً الآن فاحتفظ بالجواد ريثما أتمشى على هذا

لشاطيء برهة لعل النعاس يأتيني وأعطني العباءة ألتحفها فتقيني من البرد».

وتناول حماد العباءة وتزمل بها، ثم تقلد سيفه وسار الهوينى محاذياً الشاطيء وقد سكن الهواء وأوت الطيور إلى أوكارها. وبعد أن قطع مسافة وقف والتفت وراءه فإذا بالحظيرة قد توارت عنه فنظر إلى ما حوله فعلم أنه على مقربة من الحيرة وبينه وبينها المغارس والكروم، وأمامه البحيرة وقد هدأ ماؤها ونور القمر ينعكس عن سطحها فيتلاًل كالزجاج، والطبيعة هادئة ساكنة لا يتخلل سكونها إلا نقيق الضفادع. فجلس على صخر هناك وأطلق لتصوراته العنان.

ثم أوغل في البكاء وهو يقلب العباءة بين يديه ويقبلها ويشم رائحتها حتى تعب وخارت عزيمته فاتكأ على الصخر فعقرته الدرع فتوسد الثرى وألقى رأسه على حجر، فغلب عليه التعب والنعاس. استيقظ حماد مذعوراً كأنه سمع صوتاً يناديه، فنظر إلى ما حوله فلم يرَ أحداً، فعلم أنها أحلام اقتضتها هواجسه وشكوكه.

وكان البرد قد قرصه والتعب نهكه على أثر ما قاساه من الركوب نهاره كله مع ما ألم به من التهيج والكدر في ذلك الليل فالتف بالعباءة جيداً، ونهض ومشى على الشاطيء وهو يحاذر أن تسمع خطواته. ثم رأى النجوم تتوارى رويداً رويداً حتى لم يبق منها إلا القليل وقد تضاءل ضوءها، ولم تمض ساعة حتى سمع دقات الأجراس من كنائس الحيرة وأديرتها فأخذ يتفرس في الشاطيء لعله يقف على أثر آخر من آثار هند، ثم خاف أن ينزل أحد من أهل الحيرة ليغتسل أو يستقي فيراه في تلك الحال فهَمَّ بالرجوع. وفيما هو يتحول سمع وقع حوافر فأجفل والتفت فرأى فارساً خارجاً من سور

الحيرة كأنه يطلب البحيرة، وما وقع نظره على الجواد حتى خفق قلبه لأنه جواد هند، لكنه لم يرَ فوقه سرجاً وقد ركبهُ غلام يشبه أن يكون خادماً، فوقف حتى دنا الجواد منه فتأمله فإذا هو جواد هند بعينه، فبغت واستبشر وصاح في الغلام فوقف فقال له: «إليّ يا غلام؟». فحالما رأى الغلام العمامة الحجازية خاف وأسرع نحوه. فقال له: «لمن هذا الجواد؟».

قال: «هو لسيدي الذي أعمل عنده».

قال: «ومتى اقتناه؟». قال: «أول من أمس».

قال: «وممن اشتراه؟». قال: «من بعض الرهبان في سوق الأربعاء».

فقال: «وأنى للرهبان مثل هذا الجواد وهو من خيول الشام؟». فقال: «لقد تعودنا مشاهدة مثل هذه الخيول يا سيدي منذ قامت الحرب فكل قتيل لم يكن له وارث توهب أمتعته وأسلابه للأديرة لتنفقها في سبيل البر».

فلما سمع حماد ذلك أيقن بموت هند غرقاً في تلك البحيرة، وتحول عن الغلام خشية أن يرى بكاءه وأطلق لدموعه العنان.

ثم سكت ونظر إلى الشمس فإذا هي لم تطل بعد فقال: «هل أنتظر شروقك لعلك تأتيني ببشارة أم أنت لا تحملين إلا البلاء والشقاء؟. دعيني أتوسد الماء قبل أن أرى وجهك». ونظر إلى الماء أمامه فإذا هو رقيق لا يغرقه فتحول إلى صخر رآه ناتئاً فوق الماء على مقربة منه وقال: «الأولى بي أن ألقى نفسي من فوق ذلك الصخر». ثم مشى نحوه.

— ٣٢ —

لقاء الحسين

وصل حماد إلى الصخر النائي فوق الماء فصعده إلى قمته. وفيما هو يتحفظ لإلقاء نفسه حانت منه التفاتة فرأى أشباحاً قادمة هي أشباح نسوة إحداهن تحمل جرة والأخرى سلة وأخرى تسوق بعيراً. وكلهن في زي واحد فاستغرب البستهن المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤوسهن أغطية سوداء، لا تكون إلا في الأديار. فخيّل له أنهن راهبات خرجن للاستقاء وقطف الثمار والبقول من مزارع الدير، فحسدهن على سذاجتهن وخلو قلوبهن من لواعج الحب. ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطيء ثم ما لبثت أن دنت منه حتى كرت راجعة كأن أحداً يطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات هند وإن كانت أضعف منها كثيراً، فعلق ذهنه بتلك الفتاة وودّ لو أنه يراها لحظة أخرى فطل يتبعها بنظره حتى رآها وقفت إلى رجل يحتطب فخاطبته وأشارت إلى حماد، فاشتغل بال حماد ومال إلى معرفة سر ذلك الخطاب، ثم رآهما آتين معاً فلبث ينتظر وصولهما فتقدم الرجل أولاً وحياء متلطفاً في السلام عليه وحماد ينظر إلى الفتاة وهي منصرفة نحو الشاطيء لتملأ جرتها فقال الرجل لحماد: «هل تأذن لي في سؤال؟». قال: «قل».

قال: «من أين اشتريت هذه العباءة لأنها مسروقة من صاحبها، فإذا أخبرتنا عن باعك إياها طالبناه بها».

قال: «ومن هو صاحبها؟».

قال: «الفتاة التي رأيتموها الآن، فإنها حالما رأتك عادت إلي بالخبر، وكنا قد قضينا ثلاثة أيام نبحث عنها».

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسه في منام، فمسح عينيه

والتفت إلى ما حوله واستشهد وجدانه، فتحقق أنه في يقظة، فنظر إلى حاملة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت إلى زميلاتها، فجعل يتأمل خطواتها فإذا هي خطوات هند ولكن الجسم نحيل. فقال للرجل: «ما بال صاحبة العباءة لا تطالب بها بنفسها؟».

قال: «لأن صاحبتها من راهبات دير هند الصغرى، ولا يؤذن لهن في مخاطبة الرجال. وأما أنا فمن خدمة الدير».

فقال حماد وقلبه يكاد يطير من الفرح وهو يمسك نفسه ويتجلد: «وهل صاحبة هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة؟».

قال: «لا، فقد دخلت الدير منذ قليل، وستمضي بضعة أشهر تحت الاختبار، ولذلك وهبت الدير كل ما كان معها من الثياب والحلي والدواب». فأيقن حماد أنها هند، ولولا عمامته ولباسه الحجازي لعرفته لأول نظرة. فلما أيقن أنها هي بنفسها ارتعدت فرائضه وحدثته نفسه بأن يسرع إلى هند، ولكنه خشي عليها من البغته مع ما آتسه من ضعفها فصبر. ولكنه خاف أن تكون قد نذرت العفة فلا يبقى إليها من سبيل فقال للرجل: «وهل نذرت العفة؟».

قال: «لا تنذرها قبل أن تقضي فترة الاختبار».

فطمأن باله وقال للرجل: «اذهب إلى صاحبة العباءة وقل لها أني لا أعطي العباءة إلا تسليماً ليدها».

قال: «قلت لك يا مولاي إنها لا تستطيع ذلك».

قال: «إليك هذا البرد». وخلع برد النعمان عنه من تحت العباءة وقال له: «ادفعه إليها بدلاً من عباؤها».

فتناول البرد وتأملته فإذا هو أثمن من العباءة كثيراً، فأسرع به حتى أتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعه إليها وقال: «لم

يعطني العباءة ولكنه دفع إليّ هذا البرد». فلما رآته صاحت للحال: «حماد.. حماد!». وتركت الجرة وأسرعت نحوه. وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها فلما رآها نهضت وأسرعت نحوه لم يبق عنده ريب في شأنها، فأسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأسه. فلما التقيا وقعت هند وقد أغمي عليها، فأنهضها وأسرع خادم الدير بالماء ورشها به فأفاقت وعادت تقول: «حماد.. حماد.. حماد» وهو يقول: «هند.. هند.. حبييتي.. أنت حية وأنا أحسبك غريقة في هذا الماء ولو تأخر قدومك لحظة أخرى لذهب حماد طعاماً للأسماك؟».

قالت: «وقاك الله يا حبيبي». ثم غلب عليها الحياء فغطت رأسها بالنقاب الأسود وجلست متأدبة وقد امتقع لونها وتولاها الهزال فقال لها: «أين أبوك يا هند؟». قالت: «أما سمعتم خبره، إنهم قتلوه وأظنهم قتلوا أمي، ولم يبق لي في الدنيا مطمع بعد ذهابكم. ولا أنكر عليك أني هممت بالانتحار غير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لأنني لم أياس من لقاءك بعد. فلم أجد وسيلة غير التهرب في دير أعرف رئيسه وبعض راهباته، فطلبت ذلك فقبلوني مبتدئة تحت الاختبار، فوهبتهم جوادي وكل مالي ولم أحفظ شيئاً غير الأساور عربون المحبة بيننا فإنها نجاة بين أثوابي. وكنت قد أضعت عباوتي هذه في أثناء رجوعي للمرة الأخيرة من عند الراعي لفرت قلقي وهواجسي، على أثر ما أنبأني به، فلما علمت بفقدائها في اليوم التالي وهو اليوم الذي طلبت فيه الرهينة، أخبرتهم بأنني فقدتها فإذا عثروا بها كانت حلالاً للدير. وهذا هو اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تجارب كثيرة فحملت الأحمال واشتغلت بالأشغال الشاقة فزادني ذلك ضعفاً على ضعف».

وكان الخادم واقفاً وقد دُهل لما رآه، ثم أشار إلى هند أن عملها

هذا مخالف لشروط الرهينة فقالت: «دعنا نذهب إلى الرئيسة». فنهضت ونهض حماد ومشيا لمقابلة الرئيسة. وفيما هما في الطريق سألتها عن سبب تنكره وما مرّ به فحكى لها حكايته بالاختصار حتى أتى إلى حديث المدائن والبحث عن أبيها فتنهدت هند وقالت: «آه يا حماد، إني لسعيدة بلكيائك ولكن حظي غير تام لما قاسيته من فقد أبي وأمي».

فقال لها: «إننا لم نتحقق مقتلهما، وقد كلفت سلمان بالبحث عنهما، وموعدا في دير هند هذا في الغد، وهو اليوم الثالث من افتراقنا. وقد فزت بحبيبتي فعسى أن يفوز بمن يبحث عنهم والأمير عبد الله معهم».

وكانا ماشيين في وسط المدينة لا يهتمهما استغراب الناس لمسيرهما معاً، بل كانا في شغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق، فلما وصلا إلى الدير أسرع الخادم إلى الرئيسة فأنبأها بما شاهده من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المبتدئة مما يخالف العهود المعطاة من المسلمين. فأطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هنداً وحامداً قادمين، وكان حماد قد نزع عمامته فعرفت من ملامح وجهه أنه عراقي فأرادت استطلاع السر فدخلت بهما إلى غرفة منفردة، فهم حماد فقبل يد الرئيسة فعرفت أنه مسيحي، فسألته عن أمره. فقال: «إن هذه الفتاة خطيبتني منذ أعوام، وقضت حروب الشام بافتراقنا فلم يعلم أحدنا بمكان الآخر حتى أذن الله باجتماعنا على يدك».

أما هند فتذكرت أول معرفتها حماداً وتذكرت أبويها ويأسها من حياتهما فترقرقت الدموع في عينيها، فلحظت الرئيسة فيها ذلك فقالت لها: «ما بالك تبكين يا ابنتي؟». وكان حماد قد أدرك سبب بكائها فقال: «إنها تبكي لضياح بعض أقاربها في أثناء حرب الشام».

فجعلت تخفف عنها وتعزيها، وتذكر حماد الأمير عبد الله وسلمان فصبر ليرى ما يأتي به الغد وقال للرئيسة: «هل ترين ما يمنع خروج هند من سلك الرهينة؟».

قالت: «لا أرى مانعاً لأنها لم تنذر العفة بعد».

قال: «فلتبق إذن يوماً آخر في ضيافتك لأنني على موعد مع خادمي هنا غداً، وقد ذهب للبحث عن بعض أهلنا، فاحتفظي بها ريثما أعود فإني ذاهب إلى راعٍ في ضاحية الحيرة تركت جوادي عنده أمس».

ثم نهض فلبس العمامة لئلا ينكره الراعي وترك العبادة عند هند وهَمَّ بالخروج فأمسكته قائلة: «لا تذهب فإني لست تاركتك لحظة بعد هذا اللقاء فقد كفاني ما قاسيته فلا يفرق بيني وبينك إلا الموت».

قال: «والجواد؟».

قالت: «دعنا منه، أو أرسل من يأتي به. فما أنا راضية بذهابك ولا نخرج من هذا الدير إلا معاً إما إلى القتل وإما إلى الحياة».

فَعَذَرَهَا والتفت إلى الرئيسة طالباً إليها أن تنفذ رسولاً من قِبَلِهَا لإحضار الجواد، فأرسلت رسولاً يعرفه الراعي ويثق به، وأعطاه حماد دينارين ليعطيتهما للراعي.

ثم قالت الرئيسة لحماد: «لا يخفى عليك يا سيدي أننا في دير راهبات، لا يؤذن للرجال في دخوله إلا إذا نزلوا في دار الأضياف وأما اجتماعهم بالراهبات فمحظور، فهل تفضل فتنزل في دار الأضياف ريثما يأتي الغد؟».

قال: «أفعل ما تأمرين». وودع هند ونزل يصحبه الخادم إلى دار الأضياف، فمر بمربط الخيول فرأى أفراساً شاهد بينهما جواداً

يشبه جواد سلمان، ولما وصل إلى الدار فوجيء بوجود سلمان فتعانقا وقال سلمان: «هل ظفر سيدي بهند؟».

قال: «نعم ولكنها راهبة في هذا الدير».

قال: «وهل نذرت العفة؟». فضحك حماد وقال: «لا... وأنت هل ظفرت بالأمير عبد الله؟».

قال: «ظفرت به وبجيلة وامراته!». قال: «أين هم؟».

قال: «سيصلون إلينا الليلة أو غداً، وسيأتون متنكرين لأنهم كانوا مختبئين عند سيدي الأمير عبد الله، ولولاه لكان حموك في عالم الأموات. ولكن الأمير عبد الله حالما علم بالقبض عليه استرضى الذين أمسكوه وأظهر للناس أنه قتل وخبأه في منزله بالمرعة ريثما يتمكن من العثور على هند أو الاجتماع بك، فلما وصلت إليهم وأنبأتهم بخبرك أنفذي لأطمئنك وأساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون هم إلينا».

فانشرح صدر حماد أيما انشراح وحمد الله على انقضاء الأزمة بالتي هي أحسن، ولم يملك صبراً عن تبشير هند ببقاء أبيها حياً.

وهَمَّ بالرجوع إلى الدير فرأى هنداً واقفة في الشرفة تطل على دار الضيافة لأنها لم يعد يرتاح بالها على حماد إلا إذا كان أمامها، فلما رآته عائداً وعليه أمارات الدهشة أوامت إليه فنظر إليها وضحك، فضحكت هي وقد أشرق وجهها ونسيت كل متاعبها وقالت: «ما وراءك؟».

قال همساً: «إن أباك وأمك قادمان إلينا غداً».

فأبرقت أسرتها وأسرعت لملاقاته عند الباب ولم تعباً بقوانين الدير. فلما لقيته مدت يدها إليه وصافحته وضغط كل منهما يد

الآخر. ولا تسل عن حديث القلوب وجواذب العيون.

ثم قالت هند: «هل أنت متحقق صحة هذا الخبر؟».

قال: «لقد جاء به سلمان. وهم قادمون ومعهم الأمير عبد الله متنكرين فاحذري أن يلحظ أحد ما نحن فيه لئلا نقع في شر أعمالنا فتكون البلية الثانية شرّاً من الأولى».

قالت: «لا تخف». وتحولت عائدة إلى الدير، وتحول هو عائداً إلى دار الضيوف.

في صباح اليوم التالي، استحسن حماد الخروج لملاقة القادمين في الطريق، فخرج وسلمان معه على الخيول وهند لا تعلم، وقطعا مسافة حتى وصلا إلى عين ماء لا بد للقادم من المدائن إلى الحيرة من الوقوف عندها، فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رأيا هند وخادمتها قادمتين مسرعتين على الأقدام، وهند في ثوبها الأسود الجديد، فبهتا وصاح بها حماد: «ما الذي أتى بك يا هند؟». قالت: «سامحك الله ألم أقل لك إني لم أعد أستطيع البعاد عنك لحظة مخافة أن نعود إلى ما كنا عليه من الفراق».

فشكرها وجلسوا، ولم يستتب بهم الجلوس حتى رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات، فتقدم سلمان لتحقيق القادمين، فعاد ضاحكاً مستبشراً، فنهضوا جميعاً وتهيأوا لاستقبال القادمين، ولكن سلمان مضى فأخبر الركب بأن حماداً وهنداً ينتظرانهم عند العين. فترجلوا جميعاً وهمّ جبلة مسرعاً إلى حماد فضمه إلى صدره وجعل يقبّله والدموع تتساقط من عينيه، وأسرعت سعدى إلى هند وجعلت تقبّله وتبكي، ثم قبل جبلة هنداً وقبلت سعدى حماداً، أما عبد الله فظل واقفاً يتأمل في ذلك المنظر المؤثر. فلما انتهت سعدى من تقبيل حما تقدم وضمه إلى صدره وجعل يقبّله، ثم تقدم عبد الله إلى هند فقبّله

والجميع يبكون بكاء الفرح، وسلمان ينظر إليهم وقلبه يكاد يطير فرحاً.

ثم نهض جبلة والدموع لا تزال في عينيه وقال: «أما أنا فلا أقدر أن أصف خجلي من ولدي حماد لما سببته له من الشقاء وما بذله هو والأمير عبد الله من الجهد في سبيل إنقاذنا».

فنظر سلمان إلى جبلة وقال: «ألا تزال سيدتي هند تمتنع على سيدي حماد، ومن يا ترى أفضل لديك: حماد؟ أم ثعلبة؟».

فضحكوا جميعاً، ثم نهض عبد الله وقال: «اعلموا أيها السادة أننا في خطر عظيم الآن، ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لأننا أعداء الفرس بالطبع وأعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة أميرهم، فلا شك في أنهم سيبحثون عنا ويبدلون كل سعي في القبض علينا».

فقال سلمان: «لقد نطقت بالصواب، وأزيد على ذلك أننا لا نبرح الحيرة قبل أن نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما تشاؤون، ولو غضب حماد وهندا!».

فضحك الجميع، ثم قال جبلة: «هذا هو الرأي الصواب، وإذا استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية مقر الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك، إذ لم يبقَ لنا مقام في الشام ولا العراق».

قالوا: «حسناً». ونهضوا إلى كنيسة بقرب الدير عقدوا فيها قران حماد وهندا.

ولا يحتاج القارئ إلى وصف قيمة تلك الساعة السعيدة، فإنها أسعد ساعات العمر، وبعد الإكليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو القسطنطينية فوصلوا إليها بعد بضعة عشر يوماً وأقاموا بها حتى قضى الله بما شاء.